مذكرات

إيزابيل الليندي

حصيلة الأيام

ترجمة : صالح علماني

حصيلة الأيام

رواية المدى

Author : Isabel Allende	اسم المؤلف : إيزابيل الليندي
Title : La suma de los días	عنوان الكتاب : حصيلة الأيام
Translator : Saleh Almani	ترجمة : صالح علماني
Al- Mada : P.C.	الناشر : المدى
First Edition : 2008	الطبعة الأولى : ٢٠٠٨

Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

إيزابيل الليندي

حصيلة الأيام

رواية

ترجمة صالح علماني

ربة إلهام الفجر متقلبة الأطوار

لا تفتقر حياتي إلى الدراما، لدي فائض من مواد السيرك للكتابة عنها، لكن السابع من كانون الثاني وصل على أي حال. لم أستطع النوم في الليلة الفائتة، فقد ضربتنا العاصفة، كانت الريح تزمجر بين أشجار السنديان وتصفع نوافذ البيت، في ذروة فيضان الأسابيع الأخيرة الطوفاني. بعض أحياء الكونتية غرقت في الماء، ولم يتمكن رجال المطافئ من تلبية كل النداءات في تلك الكارثة العظيمة، فخرج الجيران إلى الشارع، غاطسين حتى خصورهم في الماء، كي ينقذوا ما يستطيعون إنقاذه من السيل الجارف. كان الأثاث يُبحر في الشوارع الرئيسية، وبعض عُوذ التبرك المبهورة تنتظر أصحابها فوق سطوح السيارات الغارقة، بينما الصحفيون يلتقطون من طائرات الهيلوكبتر مشاهد من هذا الشتاء الكاليفورني الذي يشبه إعصاراً في لويزيانا. لم يكن التجوال ممكناً في بعض الأحياء لعدة أيام، وعندما انقطع المطر أخيراً، وعُرف حجم الخراب، جاؤوا بفرق عمال مهاجرين لاتينيين، انهمكوا بمهمة نزح الماء بمضخات وإخراج الأنقاض بالأيدي. أما بيتنا، المعلق على رابية، فيتلقى مواجهة صفع الرياح التي تحني أشجار النخيل، وتجتث من الجذور أحياناً أشد الأشجار غطرسة، تلك التي لا تطأطئ رأسها؛ ولكنه بمنجى من الفيضانات. في بعض الأحيان، في ذروة العاصفة، ترتفع موجات نزقة لتغمر طريق الدخول الوحيد. عندئذ، بينما نحن عالقون في البيت، نتأمل من أعلى المشهد غير المألوف للخليج الهائج.

يروقني اعتكاف الشتاء الاضطراري. إنني أعيش في كونتية مارين، إلى الشمال من سان فرانسيسكو، على بعد عشرين دقيقة

من جسر الغولدن غيت، وسط هضاب مذهبة في الصيف، وذات لون زمردي في الشتاء، على الضفة الغربية للخليج الفسيح. ويمكننا في يوم صاف أن نرى من بعيد جسرين آخرين، والبروفيل الغائم لمينائي أوكلاند وسان فرانسيسكو، وسفن الشحن الثقيلة، ومئات الزوارق الشراعية، وطيور النورس، كأنها مناديل بيضاء. في شهر أيار يظهر بعض الشجعان المتعلقين بطائرات شراعية متعددة الألوان تنزلق بسرعة كبيرة فوق الماء، معكرة هدوء المسنين الأسيويين الذين يمضون ساعات الأصيل في صيد السمك على الصخور. لا يظهر للرائي من المحيط الهادي الممر الضيق إلى الخليج الذي تُشرق عليه الشمس مغطى بالضباب، وكان بحارة الأزمنة القديمة يمرون بالمكان عرضاً دون أن يتصوروا البهاء المختفي على مسافة قريبة باتجاه الداخل. هذا المدخل يُتوّجه الآن جسر الغولدن غيت الرشيق، بأبراجه الحمراء الشامخة. الماء، السماء، الهضاب، والغابة؛ هذا هو منظري الطبيعي.

لم تكن عاصفة نهاية العالم ولا زخات البَّرَد على قرميد السقف هي التي أرّقت نومي ليلاً، بل جزع أن صباح يوم الثامن من كانون الثاني سينبلج. فأنا منذ نحو خمس وعشرين سنة أبدأ الكتابة في مثل هذا التاريخ، وهو أمر له علاقة بالتطيّر أكثر مما هو انضباط: أخشى إذا ما بدأت الكتابة في يوم آخر أن يكون الكتاب إخفاقاً، وإذا ما تركت ثامناً من كانون الثاني يمر دون أن أكتب، لا أستطيع عمل ذلك طيلة ما تبقى من السنة. يأتي كانون الثاني بعد شهور لم أكتب فيها، عشتها منقلبة إلى الخارج، في زحام العالم وصخبه، في السفر، وتنشيط مبيعات كتب، وتقديم محاضرات، محاطة بالناس، ومتحدثة كثيراً. ضجيج ومزيد من الضجيج. أخشى ما أخشاه أن أصاب بالصمم، وألا أتمكن من سماع الصمت. فأنا مقضي عليّ دون الصمت. نهضتُ عدة مرات للتجوال في غرف المنزل بذرائع مختلفة، متدثرة بسترة ويللي

الكشمير القديمة التي استخدمتُها طويلاً حتى صارت جلدي الثاني، ومع فناجين متتالية من الشكولاته الساخنة في يدي، وأنا أقلّب في رأسي وأعيد تقليب ما سأكتبه بعد بضع ساعات، إلى أن يضطرني البرد للعودة إلى الفراش، حيث يرقد ويللي، فليكن مباركاً، وهو يشخر. ألتصق بظهره العاري، أخبئ قدميّ المثلجتين بين ساقيه الطويلتين والقويتين، مستنشقة رائحته المفاجئة كرجل شاب، لم يتبدل مع مرور السنين. إنه لا يستيقظ أبداً عندما ألتصق به، وإنما عندما أبتعد؛ فهو معتاد على جسدي، على أرقي، وعلى كوابيسي. ومهما تجولت في أنحاء البيت في الليل، فإن أوليفيا أيضاً لا تستيقظ، وهي تنام على مقعد عند طرف السرير. لا شيء يعكر نوم هذه الكلبة البلهاء، لا القوارض التي تخرج أحياناً من جحورها، ولا رائحة الثعالب وهي تمارس الحب، ولا الأرواح التي تهمس في الظلمة. وإذا ما هاجمنا معتوه مسلح بفأس، ستكون آخر من يعلم. عندما جاءت كانت بهيمة بائسة التقطتها الجمعية الإنسانية من مزبلة وهي مصابة بكسور في إحدى قوائمها وعدد من أضلاعها. وظلت مختبئة لشهور ترتجف بين أحذيتي في الخزانة، ولكنها شفيت شيئاً فشيئاً من سوء المعاملة السابقة وخرجت بأذنين متهدلتين وذيل متذلل. عندئذ أدركنا أنها لا تنفع في الحراسة: فنومها ثقيل جداً.

خفّ غضب العاصفة أخيراً، ومع أول أنوار الصباح من النافذة استحممت تحت الدوش، وارتديت ملابسي، بينما كان ويللي الملتف بعباءته كشيخ متأخر في السهر، يمضي نحو المطبخ. وصلتني رائحة البن المطحون للتو كمداعبة: علاج بالروائح. هذه العادات الروتينية اليومية تجمع بيننا أكثر من تهيجات العاطفة، وتكون هذه الرقصة المتعقلة هي أكثر ما نفتقده عندما يكون أحدنا بعيداً عن الآخر. يحتاج كل واحد منها إلى الإحساس بالآخر في هذا الحيز غير الملموس الذي هو لنا وحدنا. فجر بارد، قهوة مع خبز

محمص، وقت للكتابة، كلبة تحرك ذيلها، وحبيبي. لا يمكن للحياة أن تكون أفضل من ذلك. عانقني ويللي بعد ذلك معانقة وداع، لأني ذاهبة في رحلة طويلة. «حظاً طيباً»، همس لي، مثلما يفعل كل سنة في مثل هذا اليوم، ومضيت بمعطف ومظلة، نزلت ست درجات، مررت بمحاذاة المسبح، اجتزت سبعة عشر متراً من الحديقة، ووصلت إلى الكوخ المنعزل حيث أكتب، غرفتي الصغيرة. وها أنذا هنا الآن.

ما إن أشعلت شمعة، لأنها تضيء لي دوماً في الكتابة، حتى اتصلت بي كارمن بالثيّس، وكيلتي الأدبية من سانتا فيه دي سيغارّا، قرية الماعز المجنونة، القريبة من برشلونة، حيث ولدت. وهناك تنوي قضاء سنوات نضجها بهدوء. ولكنها، بما لديها من فائض الطاقة، آخذة بشراء القرية بيتاً فبيتاً.

- اقرئي لي الجملة الأولى - قالت لي هذه الأم الحنون.

أوضحت لها مرة أخرى فرق الساعات التسع في التوقيت بين كاليفورنيا وإسبانيا. فليس لدي شيء من الجملة الأولى بعد.

- اكتبي مذكراتك يا إيزابيل.

- لقد كتبتها، ألا تتذكرين؟

- تلك كانت منذ ثلاث عشرة سنة.

- أسرتي لا تحب أن ترى نفسها معروضة أمام الملأ، يا كارمن.

- لا تهتمي بشيء. أرسلي لي رسالة من مئتين أو ثلاثمئة صفحة وأنا سأتولى ما سوى ذلك. وإذا كان لا بد من الاختيار بين كتابة قصة أو إغضاب الأقارب، فإن أي كاتب محترف سيختار الخيار الأول.

- أأنت متأكدة؟

- متأكدة تماماً.

القسم الأول

المياه القاتمة

إنه الأسبوع الثاني من شهر كانون الأول 1992، ما إن توقف المطر حتى خرجنا في الأسرة لننثر رمادك، يا باولا، تنفيذاً للتعليمات التي تركتِها في رسالةٍ كتبتِها قبل وقت طويل من مرضك. ما إن أخبرناهما بما حدث، حتى جاء زوجك، إرنستو، من نيوجرسي، وأبوك من تشيلي. وتمكنا من وداعك. كنتِ مسجاة وملفوفة بملاءة بيضاء، قبل نقلك لحرق جثمانك. بعد ذلك اجتمعنا في كنسية لنسمع قداساً ونبكي معاً. كان على أبيك أن يرجع إلى تشيلي، لكنه انتظر توقف المطر، وبعد يومين من ذلك، عندما أطل أخيراً شعاع شمس خجول، خرجنا نحن جميع أفراد الأسرة، في ثلاث سيارات، إلى غابة. مضى أبوكِ في المقدمة، يقودنا. إنه لا يعرف هذه المنطقة، لكنه جال فيها في الأيام السابقة بحثاً عن المكان الملائم أكثر من سواه، المكان الذي كنتِ ستفضلينه. هناك أماكن كثيرة يمكن أن يقع عليها الاختيار، فالطبيعة هنا خصبة، إنما بسبب واحدة من تلك المصادفات، وهي عادية ومعهودة في ما يتعلق بكِ، يا بنتي، قادنا مباشرة إلى الغابة التي كثيراً ما كنتُ أذهب للمشي فيها كي أهدّئ من غضبي وألمي أثناء مرضكِ، الغابة نفسها التي أخذني إليها ويللي في نزهة بعد تعارفنا، الغابة نفسها حيث اعتدتِ أنت وإرنستو أن تتمشيا وأحدكما يمسك بيد الآخر، عندما كنتما تأتيان لزيارتي في كاليفورنيا. دخل أبوك إلى الحديقة، اجتاز مقطعاً من الطريق، أوقف السيارة وأشار لنا أن نتبعه. أخذنا إلى المكان نفسه الذي كنتُ قد اخترته، لأني ذهبت إلى هناك مرات كثيرة لأتضرع من أجلك: إنه جدول محاط بأشجار سيكويّا سامقة تشكل قممها قبة كاتدرائية خضراء. كان هناك

ضباب خفيف يغبش هيئة الواقع. النور ينفذ ضعيفاً من خلال الأشجار، لكن الأوراق تلمع مبللة بالشتاء. ومن الأرض تنبعث من الدُّبال وأزهار الخيمية رائحةٌ زخمة. توقفنا حول غدير صغير، تكوّنه صخور وجذوع متساقطة. كان إرنستو جدياً، نحيلاً، ولكن بلا دموع، لأنه أراقها كلها، يحمل الإناء الخزفي الذي يضم رمادكِ. وكنتُ قد احتفظت بقليل منه في علبة خزفية لأستبقيها دائماً على مذبحي الخاص. وكان أخوك، نيكو، يحمل ابنه أليخاندرو بين ذراعيه، وزوجة أخيك، سيليا، تحمل آندريا التي مازالت رضيعة، ملفوفة بشالات ومتعلقة بثدي أمها. وكنتُ أحمل باقة أزهار، ألقيتُ بها إلى الماء واحدة فواحدة. وبعد ذلك، أخرج كل منا، بمن في ذلك أليخاندرو، وهو في الثالثة من عمره، حفنة رماد من الإناء وتركناها تسقط في الماء. طفا بعضها قليلاً بين الأزهار، لكن معظمها ذهب إلى القاع، مثل رمل ناعم أبيض.

- ما هذا؟ - سأل أليخاندرو.

- إنها عمتك باولا. - قالت له أمي باكية.

- لا تشبهها - علّق وقد اختلط عليه الأمر.

❖ ❖ ❖

سأبدأ بإخباركِ بما حدث لنا منذ 1993، عندما غادرتِنا، وسأقتصر على أخبار الأسرة، لأن هذا هو ما يهمك. عليّ أن أستبعد اثنين من أبناء ويللي: ليندساي الذي أكاد لا أعرفه، ولم نتجاوز قط ما هو أكثر من تبادل تحيات المجاملة الأولية. وسكوت، لأنه لا يريد أن يظهر في هذه الصفحات. أنت كنت تحبين كثيراً هذا الصبي المتوحد والنحيل، ذا النظارة السميكة والشعر المشعث. إنه الآن رجل في الثامنة والعشرين، يشبه ويللي، ويدعى هارلي. لقد سمى نفسه سكوت حين كان في الخامسة، لأن هذا الاسم يروقه، وقد استخدمه لزمن طويل، لكنه استعاد اسمه عند بلوغه سن المراهقة.

أول شخص يرد إلى ذهني وقلبي هي جنيفر، ابنة ويللي الوحيدة، والتي كانت قد هربت في بداية هذه السنة، للمرة الثالثة، من مستشفى انتهت إليها عظامها بعد حالة التهاب أخرى من إصابات كثيرة تعرضت لها في حياتها القصيرة. لم تتظاهر الشرطة بأنها تبحث عنها، ولم تُجدِ اتصالات ويللي بالقانون نفعاً في هذه المرة. الطبيب - وهو فيلبيني طويل القامة ورصين - الذي أنقذها بقوة الدأب عند وصولها إلى المستشفى غائبة عن الوعي من الحمى، وكان يعرفها لأنه عالجها في مرتين سابقتين، أوضح لويللي أن عليه العثور على ابنته سريعاً وإلا فإنها ستموت. وقال له إنه سيكون بالإمكان إنقاذها بجرعات مضادات حيوية مكثفة خلال عدة أسابيع، ولكن يجب تجنب أي انتكاسة، لأنها ستكون قاتلة. كنا في قاعة جدرانها صفراء، فيها كراسٍ بلاستيكية، وملصقات توضيحية للإرضاع واختبارات الإيدز، تغص بمرضى ينتظرون دورهم في الإسعافات المستعجلة. خلع الطبيب نظارته ذات العدستين المدورتين والإطار المعدني، ومسحها بمنديل ورقي وردّ على أسئلتنا برصانة. لم يكن يشعر بالتعاطف مع ويللي ولا معي، ربما لظنه أنني أم جنيفر. لقد كنا مذنبين في نظره، لأننا أهملناها من قبل؛ والآن، بعد فوات الأوان، نهرع إليه نادمين. تجنب تقديم تفاصيل إلينا، لأنها معلومات سرية، غير أن ويللي تمكن من معرفة أن قلب ابنته يوشك أن ينفجر، فضلاً عن عظامها المتحولة إلى شظايا، وإصابتها بالتهابات متعددة. كانت جنيفر منهمكة منذ تسع سنوات في مصارعة ثور الموت.

كنا قد زرناها في المستشفى خلال الأسابيع السابقة، وكانت مقيدة من معصميها كي لا تنتزع الأنابيب في هذيانات الحمى. كانت مدمنة على كل أنواع المخدرات المعروفة تقريباً، ابتداء من التبغ وحتى الهيروين. لا أدري كيف تحمل جسدها كل ذلك التعسف. ولأنهم لم يتمكنوا من العثور على وريد سليم يحقنون من

خلاله الأدوية، فقد اختاروا أن يضعوا لها أنبوباً في أحد شرايين صدرها. وبعد أسبوع أخرجوا جنيفر من قاعة العناية المشددة ونقلوها إلى غرفة فيها ثلاثة أسرّة، تتقاسمها مع مريضتين أخريين، حيث لم تعد مقيدة، ولم يعودوا يحرسونها كما في السابق. بدأتُ بزيارتها يومياً، وكنت أحمل إليها ما تطلبه من عطور، وقمصان نوم، واسطوانات موسيقى؛ ولكن كل شيء كان يختفي. أعتقد أن رفاقها كانوا يأتون في أوقات غير متوقعة لتموينها بالمخدرات، وأنها تدفع لهم هداياي مقابل ذلك، لافتقارها إلى النقود. وكجزء من العلاج، كانوا يعطونها ميتادون لمساعدتها على تحمل انقطاعها عن المخدرات، لكنها كانت تحقن المخدرات في أنبوب السيروم فوق ذلك، كلما هرّب لها ممونوها شيئاً منها. وقد كان عليّ أن أحممها في بعض الأحيان. كان كاحلاها متورمين، وكذلك قدماها، وجسدها مغطى بكدمات، وآثار إبر ملوثة، وقروح، وكانت هناك ندبة قرصان في ظهرها «إنها طعنة سكين»، كان هذا هو تفسيرها المقتضب.

كانت ابنة ويلي صبية شقراء، لها عينان واسعتان زرقاوان، مثل عيني أبيها، ولكن لم تنجُ إلا صور قليلة من الماضي، وليس هناك من يتذكر كيف كانت أفضل تلميذة في الصف، مطيعة ومرتبة. كانت تبدو سرمدية. تعرفت عليها في العام 1988، بعد قليل من استقراري في كاليفورنيا لأعيش مع ويلي. وكانت آنذاك لا تزال جميلة، على الرغم من نظرتها المتهربة وتلك الغمامة المخاتلة التي تلفها مثل هالة قاتمة. ولأني كنت متحمسة لحبي الذي دشنته حديثاً مع ويلي، لم أفاجأ حين أخذني في يوم أحد شتائي إلى سجن يقع إلى الشرق من خليج سان فرانسيسكو. انتظرنا طويلاً في فناء موحش ونحن نقف في الدور مع زائرين آخرين، معظمهم من الزنوج واللاتينيين، إلى أن فتحوا بوابات القضبان الحديدية وسمحوا لنا بالدخول إلى بناء كئيب. فصلوا الرجال القليلين عن النساء

الكثيرات والأطفال. لا أدري كيف كانت تجربة ويللي هناك، أما أنا فتولت مفتشة ترتدي زي الشرطة حجز حقيبتي اليدوية، ودفعتني وراء ستارة ودست يدها في أماكن لم يجرؤ أحد على بلوغها من قبل، وقد فعلت ذلك كله بخشونة أكبر مما هو ضروري، ربما لأن لهجتي تجعلني مشبوهة. ولحسن الحظ أن فلاحة سلفادورية، زائرة مثلي، حذرتني ونحن نقف في الدور بألا أثير أية ضجة، لأن وضعي سيصبح أسوأ. وأخيراً التقينا أنا وويللي في مقطورة مكيّفة لزيارة السجينات، هي حيز طويل وضيق، مقسوم بشبكة أقفاص دجاج؛ ووراء الشبك كانت جنيفر. لقد مضى عليها حوالي شهرين في السجن. كانت نظيفة، حسنة التغذية، تبدو أشبه بتلميذة في يوم أحد، على خلاف مظهر السجينات الأخريات الفظ. استقبلت أباها بحزن لا يطاق. وقد تأكدتُ في السنوات التالية من أنها تبكي دوماً كلما وجدت نفسها مع ويللي، ولست أدري إذا ما كان السبب هو الشعور بالخجل أم الضغينة. قدمني ويللي إليها باقتضاب على أنني «صديقة»، مع أننا كنا نعيش معاً منذ بعض الوقت، وظل واقفاً قبالة شبكة قفص الدجاج، متقاطع الذراعين وبصره مصوب إلى الأرض. كنت أراقبهما من مسافة قريبة، وأسمع نتفاً من الحوار وسط تمتمات وأصوات أخرى.

- لماذا هذه المرة؟

- أنتَ تعرف، فلماذا تسألني؟ أخرجني من هنا يا بابا.

- لا أستطيع.

- ألستَ محامياً؟

- لقد حذرتكِ في المرة الأخيرة من أنني لن أعود لمساعدتك. وإذا كنتِ قد اخترت هذه الحياة، فعليك تَحَمّل النتائج.

مسحت دموعها بكمها، لكن الدموع واصلت الانزلاق على خديها بينما هي تسأل عن أخويها وعن أمها. وسرعان ما كان الوداع، وغادرت تحرسها المرأة ذات الزي الشرطي التي فتشت

حقيبتي. كانت لا تزال لديها في ذلك الحين جذوة من البراءة، ولكنها بعد ست سنوات من ذلك، حين هربت من الرعاية الطبية التي قدمها إليها الطبيب الفيليبيني في المستشفى، لم يكن قد تبقى أي شيء من الصبية التي عرفتها في السجن. ففي السابعة والعشرين من عمرها كانت تبدو مثل امرأة في الستين.

حين خرجنا كان المطر يهطل، وقد ركضت أنا وويللي، مبللين، على امتداد الكوادرتين الفاصلتين عن الموقف الذي تركنا فيه السيارة. سألته عن سبب معاملته ابنته بذلك الجفاء، ولماذا لا يضعها في برنامج إعادة تأهيل، بدلاً من تركها وراء القضبان.

ـ إنها أكثر أماناً هنا ـ أجابني.

ـ ألا يمكنك عمل أي شيء؟ لا بد أن يكون ثمة وسيلة!

ـ لا فائدة، فهي لم تشأ قبول المساعدة قط، وأنا لا أستطيع إجبارها، إنها راشدة.

ـ لو أنها ابنتي لقلبتُ السماء والأرض من أجل إنقاذها.

ـ إنها ليست ابنتك ـ قال لي بنوع من الندم الأصم.

في تلك الفترة كان يحوم حول جنيفر شاب مسيحي، واحد من أولئك الكحوليين المستَردين إلى رسالة يسوع، ممن يضعون في الدين الحماسة نفسها التي كانوا يكرسونها من قبل لقارورة الشراب. رأيناه في بعض المناسبات في السجن، في أيام الزيارة، يحمل كتابه المقدس في يده على الدوام، ويبدي تلك الابتسامة الطوباوية التي يبديها المختارون من الرب. كان يحيينا بالشفقة المتحفظة التي توجه لمن يعيشون في غياهب الخطأ، مما كان يستثير حفيظة ويللي، ولكنه يحقق المفعول المنشود معي: يُشعرني بالعار. ولا يحتاج إلا إلى القليل كي أشعر بأنني مذنبة. كان يأخذني جانباً كي يكلمني، وبينما هو يردد مقاطع من العهد الجديد ـ «وقال يسوع لمن أرادوا رجم المرأة الزانية: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بأول حجر» ـ كنت أتأمل بانبهار أسنانه

المنخورة وأحاول حماية نفسي من رذاذ لعابة. لا أعرف كم كان عمره. فعندما يكون صامتاً يبدو فتياً جداً، بسبب مظهره كجُدجُد وبشرته النمشاء، لكن هذا الانطباع يتلاشى فور بدئه الوعظ بصوته الزاعق وإيماءاته المفخمة. أراد في البدء أن يجتذب جنيفر إلى صفوف الأبرار عن طريق منطق ديانته، وكانت لديها مناعة ضدها. فاختار بعد ذلك استمالتها بهدايا متواضعة أعطت نتائج أفضل. فمقابل حفنة من السجائر، يمكن لها أن تستغرق هنيهة في قراءات تبشيرية. وعندما أخلي سبيل جنيفر، كان ينتظرها عند الباب، مرتدياً قميصاً نظيفاً ومضمخاً بالعطر. وقد اعتاد الاتصال بنا هاتفياً في ساعات متأخرة ليقدم لنا أخباراً عن محميته وينذر ويللي طالباً منه التوبة عن خطاياه وتقبل الرب في قلبه، لأنه سيتمكن عندئذ من تلقي تعميد المختارين والانضمام مع ابنته إلى كنف الحب الإلهي. لم يكن يعرف مع من يتعامل: فويللي ابن واعظ غريب الأطوار، تربى في خيمة، حيث كان أبوه، مع أفعى ثخينة ووديعة ملتفة على خصره، يفرض على المؤمنين ديانته المخترعة؛ ولهذا فإن أي شيء تنبعث منه رائحة الوعظ يدفعه إلى الهرب سريعاً. كان المبشر مهووساً بجنيفر، مبهوراً بها مثل انبهار عثّة أمام مصباح. وكان يصارع بين الحماسة الصوفية والميل الجسدي، بين إنقاذ روح تلك المجدلية، أو الاستمتاع بجسدها، وهو جسد خرب بعض الشيء، لكنه لا يزال مثيراً، مثلما اعترف لنا ببراءة، لم نستطع معها أن نسخر منه. «لن أسقط في هذيان الفجور، بل سأتزوجها»، أكد لنا بتلك الألفاظ الغريبة التي يستخدمها، وقدم لنا على الفور خطبة مطولة عن العفة في الزواج، أخجلتنا وخلفتنا مرتبكين. «هذا الشخص أحمق أو مخنث»، كان هذا هو تعليق ويللي، ولكنه أصر بالرغم من ذلك على فكرة الزواج، لأنه يمكن لذلك التعيس ذي النوايا الطيبة أن ينقذ ابنته. ومع ذلك، عندما عرض العاشق الأمر على جنيفر، وهو يجثو بإحدى ركبتيه على الأرض، ردت عليه

بقهقهة مدوية. لقد قُتل ذلك الواعظ ضرباً بوحشية في أحد بارات الميناء، حيث ذهب في إحدى الليالي لينشر رسالة يسوع المسالمة بين بحارة وحمالين في حالة مزاجية غير مناسبة للمسيحية. ولم نعد منذ ذلك الحين نستيقظ في منتصف الليل على خطاباته عن مجيء المسيح المخَلّص.

لقد أمضت جنيفر طفولتها منزوية في الأركان، بينما كان أخوها ليندساي، وهو يكبرها بسنتين، يستحوذ على اهتمام الكبار غير القادرين على التحكم به. كانت طفلة حسنة السلوك، غامضة، ذات حس بالسخرية معقد جداً بالنسبة لسنها. وكانت تضحك من نفسها بقهقهة صافية ومعدية. ولم يكن هناك من يرتاب في أنها تهرب من النافذة ليلاً، إلى أن جرى اعتقالها في أحد أشد أحياء سان فرانسيسكو قذارة، تخشى الشرطة نفسها المغامرة بدخوله ليلاً، وعلى بعد أميال كثيرة من بيتها. كان عمرها خمس عشرة سنة. وكان أبواها مطلقين منذ عدة سنوات، وكل منهما يعيش مشغولاً بأموره، وربما لم يقدرا خطورة المشكلة. وقد تكلف ويللي مشقة في التعرف على الصبية المكيجة بلطخات فرشاة، وغير القادرة على الوقوف أو النطق بكلمة، والتي كانت تقبع مرتجفة في إحدى زنازين مفوضية الشرطة. بعد ساعات من ذلك، حين صارت بمنجى في فراشها، واستعادة بعض وعيها، عاهدت جنيفر أباها أن تصحح الخطأ، وألا تعود أبداً إلى اقتراف مثل تلك الحماقة. صدقها الأب. فجميع الشباب يتعثرون ويسقطون؛ وهو نفسه كان قد وقع في مشاكل مع القانون في صباه. حدث ذلك في لوس أنجلوس، عندما كان في الثالثة عشرة، وتمثلت مشاكله في سرقة المثلجات وتدخين الماريجوانا مع صبية الحي المكسيكيين. وفي الرابعة عشرة أدرك أنه سيظل معوجاً ما لم يقوّم نفسه بنفسه، لأنه ليس لديه من هو قادر على مساعدته، وعندئذ ابتعد عن زمر الفتيان وقرر إنهاء المدرسة، والعمل ودفع نفقات الجامعة والتحول إلى محام.

بعد هربها من المستشفى ومن رعاية الطبيب الفيليبيني، ظلت جنيفر على قيد الحياة لأنها كانت قوية البنية، على الرغم من هشاشتها الظاهرية، ولم نعرف عنها أي شيء لبعض الوقت. وذات يوم شتائي سمعنا إشاعة غامضة عن أنها حبلى، ولكننا استبعدنا الأمر باعتباره مستحيلاً؛ فهي نفسها كانت قد قالت لنا إنه لا يمكنها إنجاب أبناء، لأنها أسرفت في امتهان جسدها. بعد ثلاثة شهور من ذلك حضرت إلى مكتب ويللي لتطلب منه نقوداً، وهو ما لم تفعله إلا نادراً. فقد كانت تفضل تسوية أمورها بنفسها، لأنها لا تكون مضطرة بذلك إلى تقديم تفسيرات. كانت عيناها يائستين تبحثان عن شيء لا تتمكن من العثور عليه، وكانت يداها ترتجفان، لكن صوتها بدا ثابتاً.

- إنني حبلى - أخبرت أباها.

- غير ممكن! - صاح ويللي.

- هذا ما كنت أظنه، ولكن انظر... - وفتحت القميص الرجالي الذي كان يصل حتى ركبتيها، وأرته انتفاخاً بحجم ثمرة بومالي - ستكون أنثى، وستولد في الصيف. سأسميها سابرينا. لقد أحببت دوماً هذا الاسم.

كل حياة هي رواية متسلسلة

أمضيتُ عام 1993 كله تقريباً معتكفة أكتب إليكِ، يا باولا، وسط الدموع والذكريات، لكنني لم أستطع تجنب جولة طويلة في عدة مدن أمريكية لتنشيط مبيعات ***الخطة اللانهائية***، هذه الرواية المستوحاة من حياة ويللي، وكانت قد نُشرت للتو بالإنكليزية. لكنني كنت قد كتبتها قبل سنتين من ذلك، وكانت موجودة بعدة لغات أوروبية. عنوانها سرقتُه من والد ويللي،

إذ كانت ديانته الانتجاعية تدعى «الخطة اللانهائية». وقد أرسل ويللي نسخاً من كتابي إلى جميع أصدقائه، وأقدّر أنه اشترى الطبعة الأولى كلها. كان مزهواً إلى حدّ اضطررت معه إلى تذكيره بأن الرواية ليست سيرة حياته، وإنما هي تخييل. فردّ عليّ: «حياتي رواية». كل حياة يمكن أن تروى كرواية، وكل شخص منا هو بطل أسطورته الخاصة. في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذه الصفحات، تراودني الشكوك. هل جرت الأحداث مثلما أتذكرها ومثلما أرويها؟ فعلى الرغم من المراسلات الأساسية مع أمي، والتي نحفظ فيها، يوماً فيوماً، رواية صادقة إلى هذا الحد أو ذاك للأحداث التافهة والمهمة على السواء، فإن هذه الصفحات تظل ذاتية. لقد قال لي ويللي إن الكتاب خريطة مطابقة لمسار حياته، وأضاف أنه يشعر بالأسف لأن الممثل بول نيومان صار عجوزاً بعض الشيء ولا يمكنه أداء دور البطولة إذا ما جرى تحويل الرواية إلى فيلم. وقد لفت نظري بتواضعه المعهود: «لابد أنكِ لاحظت أن بول نيومان يشبهني». لم ألحظ ذلك، ولكنني لم أعرف ويللي في شبابه، عندما كان هو وبول نيومان متشابهين تماماً بكل تأكيد.

جرى نشر الكتاب بالإنكليزية في وقت سيئ بالنسبة إليّ. لم أكن أرغب في رؤية أحد. وكانت جولة تنشيط الكتاب تُثقل عليّ. لقد كنتُ مريضة بالحزن، يتسلط عليّ هاجسُ ما كان بإمكاني فعله ولم أفعله لإنقاذكِ. وكيف لم أنتبه إلى إهمال وتهاون الأطباء في ذلك المستشفى بمدريد؟ لماذا لم أُخرجكِ من هناك وأجيء بك فوراً إلى كاليفورنيا؟ لماذا، ولماذا... كنت أحبس نفسي في الحجرة التي أمضيتِ فيها أيامكِ الأخيرة، ولكنني لم أكن أجد، حتى في ذلك المكان المقدس، شيئاً من الطمأنينة. كان لا بد من مرور سنوات طويلة قبل أن تتحولي إلى صديقة عذبة ودائمة. في تلك الأثناء كنت أشعر بغيابكِ مثل ألم حاد، مثل حربة في الصدر، تجعلني أنهار جاثية على ركبتي أحياناً.

وكنتُ قلقة كذلك على أخيكِ نيكو، إذ علمنا للتو أنه مصاب أيضاً بالبورفيريا. «باولا لم تمت بالبورفيريا وإنما بسبب إهمال طبي»، هذا ما يقوله أخوكِ بإلحاح، كي يهدئ من روعي، لكنه كان قلقاً، ليس على نفسه بالذات بقدر ما هو قلق على ابنيه، وابنه الثالث القادم في الطريق. إذ يمكن للأطفال أن يكونوا قد تلقوا هذا الإرث المشؤوم؛ سنعرف ذلك عند بلوغهم السن المناسبة للفحوص. بعد ثلاثة شهور من موتكِ، أخبرتنا سيليا أنها تنتظر مولوداً آخر، وهو ما كنت قد توقعته مسبقاً، بسبب الزرقة التي تحيط بعينيها كمن يسيرون نياماً، ولأني حلمت بذلك، مثلما كنت قد حلمت بأليخاندرو وآندريا قبل أن يتحركا في بطن أمهما. ثلاثة أبناء في خمس سنوات هو أمر ينم عن عدم تبصر؛ فنيكو وسيليا بلا عمل مضمون، وصلاحية تأشيرتيهما كطالبين على وشك النفاد، ولكننا احتفلنا مع ذلك بالخبر. «لا تقلقوا، فكل طفل يأتي وخبزه تحت إبطه»، كان هذا هو تعليق أمي عندما علمت بالأمر. وهكذا كان. ففي ذلك الأسبوع بالذات بدأنا إجراءات تأشيرة الإقامة لنيكو وسيليا. وكنتُ قد حصلت على مواطنية الولايات المتحدة، بعد خمس سنوات من الانتظار، وصار بإمكاني كفالتهما.

لقد تعرفت على ويللي في العام 1987، قبل شهور من تعرفكِ على إرنستو. وهناك من قال لكِ في ذلك الحين إنني هجرتُ أباك بسببه، لكنني أقسم لك إن الأمر لم يكن كذلك. لقد عشنا أنا وأبوك معاً تسعاً وعشرين سنة، تعارفنا عندما كنتُ في الخامسة عشرة، وكان هو على وشك إكمال العشرين من عمره. وعندما قررنا الطلاق، لم يكن يدور في خلدي بأي حال أنني سألتقي بويللي بعد ثلاثة شهور. لقد جمعنا الأدب. كان ويللي قد قرأ روايتي الثانية وراوده فضول التعرف إليّ عندما مررتُ مثل نيزك عبر شمالي كاليفورنيا. وقد خاب أمله بي، لأني لست بأي حال من نمط النساء

اللواتي يفضلهن، لكنه وارى ذلك جيداً، وهو يؤكد اليوم أنه أحس على الفور «بتواصل روحي». لست أدري ما الذي يعنيه هذا. أما من جانبي، فكان عليّ أن أتصرف بسرعة، لأني كنت أقفز من مدينة إلى أخرى في رحلة مجنونة. اتصلتُ بكِ لأطلب نصيحتك، وقلتِ لي وأنت تضحكين مقهقهة، لماذا أسألكِ إذا كنتُ قد اتخذت القرار بإلقاء رأسي في المغامرة. أخبرتُ نيكو بالأمر، فهتف مرعوباً «وأنتِ في هذه السن، يا أماه!». كنت في الخامسة والأربعين، وهي سن بدت له أنها عتبة القبر. وقد نبهني ذلك إلى أنه عليّ عدم إضاعة الوقت، وأنه لا بد لي من الدخول مباشرة في صلب الموضوع. وقد أطاح تعجلي بحذر ويللي. لن أكرر هنا ما تعرفينه وما رويتُه مرات ومرات؛ فحسب رأي ويللي، لديّ خمسون رواية عن كيف بدأ حبنا، وجميعها صحيحة. وللإيجاز، أذكركِ بأنني بعد أيام قليلة من ذلك تخليت عن حياتي السابقة وهبطت دون دعوة في بيت ذلك الرجل الذي استثار شغفي. وقد قال نيكو إنني «تخليت عن ابنيّ»، ولكنكِ كنتِ تدرسين في فيرجينيا، وكان هو في الحادية والعشرين من عمره، وصار ولداً كبيراً لا يحتاج إلى أن تدلله أمه. وما إن استعاد ويللي الوعي من المفاجأة الرهيبة برؤيتي عند باب بيته، حاملة حقيبة سفر، حتى بدأنا حياة مشتركة بحماسة، على الرغم من الفروقات الثقافية التي تفصل بيننا، ومن مشاكل أبنائه التي لم يستطع هو ولا أنا تصريفها. بدا لي أن حياة ويللي وأسرته أشبه بمسرحية رديئة لا شيء فيها يعمل. كم من المرات اتصلتُ بكِ طالبة النصح؟ أظن أنني كنت أفعل ذلك يومياً. وكنتِ تردين عليّ دوماً بالجواب نفسه: «ما هو أسخى ما يمكنك فعله في هذه الحالة يا أماه؟». تزوجنا أنا وويللي بعد ثمانية شهور. ولم يكن ذلك بمبادرة منه، وإنما مني أنا. حين أدركت أن عاطفة الوهلة الأولى آخذة بالتحول إلى حب وأنه من المحتمل أن أظل في كاليفورنيا، قررت إحضار ابنيّ. كان لا بد لي من أن أكون مواطنة في الولايات

المتحدة إذا ما رغبت في جمع شملي معكِ ومع أخيكِ، وهكذا لم يبق لي مفر من ابتلاع كبريائي وطرح فكرة الزواج على ويللي. لم يكن ردّ فعله سعادة متفجرة، مثلما كنت أتوقع، وإنما ذعر، لأن عدة غراميات فاشلة أطفأت جذوات الرومانسية في قلبه، لكنني استطعت في نهاية الأمر أن ألوي ذراعه. حسن، فالأمر لم يكن صعباً في الواقع: منحته فرصة حتى الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي كي يقرر، وبدأتُ بترتيب حقيبتي. وقبل خمس عشرة دقيقة من انتهاء المهلة، وافق ويللي على قبول يدي، وإن لم يستوعب قط إصراري على العيش بالقرب من نيكو ومنكِ، لأن الشبان في الولايات المتحدة يهجرون آباءهم عند انتهائهم من المدرسة، ولا يرجعون إلا في زيارات في عيد الميلاد وعيد الشكر. والأمريكيون تصدمهم العادة التشيلية في العيش ضمن العائلة إلى الأبد.

- لا تجبرني على الاختيار بين أبنائي وبينك! - حذرته في تلك المناسبة.

- لم يخطر لي شيء من هذا. ولكن، هل أنت متأكدة من أنهم يرغبون في العيش على مقربة منك؟ - سألني.

- للأم الحق على الدوام في استدعاء أبنائها.

عقد قراننا سيد حصل على إجازته بالمراسلة، وبدفع خمسة وعشرين دولاراً، لأن ويللي، بالرغم من كونه محامياً، لم يتوصل إلى جعل صديق قاضٍ يزوجنا. أثار هذا الأمر شكوكي. كان ذلك اليوم هو الأشد حراً في كونتية مارين. وقد أقيم الحفل في مطعم إيطالي بلا تكييف، حيث ذابت كعكة الزفاف تماماً، وأغمي على الآنسة التي كانت تعزف القيثارة. والمدعوون الذين كانوا يقطرون عرقاً، راحوا يخلعون ملابسهم. وانتهى الرجال إلى البقاء دون قمصان ولا أحذية، والنساء بلا جوارب ولا ملابس داخلية. لم أكن أعرف أحداً منهم - باستثنائكِ أنت وأخيك وأمي وناشري الأمريكي، وقد جئتم من بعيد لمرافقتي. لقد خامرتني الشكوك

على الدوام بأن ذلك الزواج لم يكن شرعياً تماماً، وآمل أن نجد الحماسة يوماً كي نعقد قراننا كما يجب.

❖ ❖ ❖

لا أريد أن أعطيكِ انطباعاً بأنني تزوجت من أجل المصلحة وحدها، إذ أنني شعرت تجاه ويللي بالشبق البطولي الذي يتسبب عادة في ضياع نساء سلالتنا، مثلما جرى لكِ مع إرنستو. ولكننا كنا عند تعارفنا في سن لا ضرورة فيها لأن نتزوج، اللهم إلا من أجل مسألة تصاريح الإقامة. ولو كانت الظروف مختلفة لعشنا في علاقة مساكنة دون زواج، وهو ما كان يفضله ويللي دون شك، ولكنني لم أكن أفكر في التخلي عن أسرتي، مهما كان شبه ذلك العريس الكاره للزواج ببول نيومان. فقد خرجتُ معكِ ومع نيكو من تشيلي خلال الدكتاتورية العسكرية في عقد السبعينيات، والتجأت معكما في فنزويلا حتى نهاية الثمانينيات، ومعكما كنت أفكر في التحوّل إلى مهاجرة في الولايات المتحدة في التسعينيات. لم يراودني أي شك في أنكِ وأخاك ستكونان معي في كاليفورنيا أفضل حالاً بكثير من التشتت في العالم، لكنني لم أحسب حساب تأخر الإجراءات القانونية. انقضت خمس سنوات، كانت كأنها خمسة قرون. وفي أثناء ذلك تزوجتما، نيكو تزوج بسيليا في فنزويلا وأنت تزوجت إرنستو في إسبانيا، لكنني لم أر في ذلك عائقاً جدياً. وبعد بعض الوقت تمكنتُ من إحضار نيكو وأسرته للإقامة على مسافة كوادرتين من بيتنا، ولو لم يضربكِ مخلب الموت مبكراً، لكنت تعيشين إلى جانبي أيضاً.

سافرتُ في رحلة اجتزت خلالها الولايات المتحدة في اتجاهات متعددة لتنشيط مبيعات روايتي، وتقديم محاضرات كنت قد أجّلتها في السنة السابقة، عندما لم يكن باستطاعتي الابتعاد عنكِ. أكنتِ تشعرين بوجودي يا بنتي؟ لقد سألتُ نفسي هذا السؤال مرات ومرات. ما الذي كنت تحلمين به في ليل العام 1992 المديد؟

لقد كنت تحلمين، أنا متأكدة من ذلك، لأن عينيك كانتا تتحركان تحت الجفون، وكنت تستيقظين في بعض الأحيان مذعورة. لا بد أنك كنت في غيبوبة الكوما كمن هي عالقة في ضباب كابوس زخم. كان الأطباء يقولون إنك لا تشعرين بشيء، ولكنني أجد صعوبة في تصديق ذلك.

كنتُ أحمل في رحلتي كيس أقراص للنوم، وأخرى للآلام المتخيلة، وأقراصاً لتجفيف الدموع، وأخرى من أجل الخوف من الوحدة. لم يستطع ويللي مرافقتي لأن عليه إنجاز أعماله. لم يكن يغلق مكتب المحاماة حتى في أيام الآحاد، وهناك على الدوام محكمة إعجازية في الانتظار، ومئة قضية على منضدة مكتبه. وكان منهمكاً في تلك الأيام بمأساة مهاجر مكسيكي مات إثر سقوطه من الطابق الخامس في مبنى قيد الإنشاء في سان فرانسيسكو. كان اسمه خوفيتو باتشيكو، وعمره تسع وعشرون سنة، وهو شخص لا وجود له رسمياً. وقد غسلت شركة البناء يديها من القضية، لأن الرجل غير مثبت بين فرق عمالها. ولم يكن للمقاول الفرعي تأمين، ولم يعترف كذلك بباتشيكو. لقد جنده للعمل قبل أيام، وحمله في شاحنة مع عشرين مهاجراً آخر غير شرعي مثله، واقتاده إلى موقع العمل. كان خوفيتو باتشيكو فلاحاً لم يصعد في حياته إلى سقالة، ولكنه قوي المنكبين، ولديه رغبة كبيرة في العمل. ولم يخبره أحد بأن عليه وضع حزام أمان. «سأجر إلى المحكمة نصف العالم إذا اقتضى الأمر، ولكنني سأحصل على تعويض لهذه الأسرة البائسة!»، سمعتُ ويللي يقول ذلك ألف مرة. ويبدو أن القضية لم تكن سهلة. كانت في مكتبه صورة ضوئية نصف باهتة لأسرة باتشيكو: أب، وأم، وجدة، وثلاثة أطفال صغار، وطفل رضيع بين ذراعي الأم. يرتدون ثياب الذهاب إلى الكنيسة، ويقفون تحت الشمس في ساحة معفرة في المكسيك. والوحيد الذي ينتعل حذاء هو خوفيتو باتشيكو، هندي داكن

البشرة يبتسم ابتسامة متكبرة، ويحمل في يده قبعة القش البائسة.

خرجت في جولتي تلك مرتدية السواد من رأسي حتى قدمي بذريعة أنه لون أنيق، لأني لم أشأ أن أتقبل، حتى بيني وبين نفسي، بأني في حداد. «إنك تبدين مثل أرملة تشيلية»، قال لي ويللي، وأهدى إليّ لفاع إطفائي أحمر. لا أتذكر إلى أي مدن ذهبت، ولا أي أناس قابلت، ولا ماذا فعلت، وهي أمور ليست مهمة أيضاً. ولكنني أتذكر فقط أنني التقيت بإرنستو في نيويورك. وقد تأثر زوجك كثيراً عندما أخبرته بأنني أكتب مذكرات عنكِ. بكينا معاً وانهمرت خلاصة أحزاننا في عاصفة بَرَد. «سقوط البَرَد عادي في الشتاء»، قال لي نيكو عندما أخبرته عن ذلك في الهاتف. أمضيتُ عدة أسابيع بعيدة عن أسرتي في حالة أشبه بالمنومة مغناطيسياً. وفي الليل كنت أستلقي على أسرّة مجهولة، مشوشة بالمنومات، وفي الصباح أزيح الكوابيس عن كاهلي بقهوة ثقيلة. كنت أتكلم في الهاتف مع الأسرة في كاليفورنيا، وأرسل إلى أمي رسائل بالفاكس، راح مرور الزمن يمحوها لأنها تُطبع بحبر يتأثر بالضوء. أحداث كثيرة من تلك المرحلة ضاعت؛ وأنا واثقة من أن هذا أفضل. كنتُ أحصي الساعات المتبقية لعودتي إلى البيت، والتواري عن الجميع؛ تراودني الرغبة في النوم مع ويللي، واللعب مع أحفادي، وشغل نفسي بصنع عقود في ورشة صديقتي تابرا.

علمت أن سيليا تخسر من وزنها في الحمل بدل أن تكسب وزناً، وأن حفيدي أليخاندرو صار يذهب بحقيبة ظهر إلى حضانة أطفال، وأن آندريا تحتاج لعملية جراحية في عينيها. لقد كانت حفيدتي هذه ضئيلة، لها لمة شعر ذهبية على رأسها، وحولاء تماماً، عينها اليسرى تتحرك شاردة وحدها. كانت هادئة وصامتة، تبدو على الدوام كما لو أنها تخطط لشيء، وتمص إصبعها وهي تتشبث بحفاض قطني ـ «جدتها» ـ لا تفلته أبداً. لم يكن الأطفال يروقون لك يا باولا. عندما جئتِ في إحدى المرات في زيارة، وكان عليك أن

تبدلي حفاض أليخاندرو، اعترفتِ لي بأنك كلما قضيت وقتاً أطول مع ابن أخيك، تشعرين برغبة أقل في أن تكوني أماً. أما آندريا فلم تعرفيها، ولكنها في ليلة موتك كانت تنام، مع أخيها، بجانب سريرك.

روح قديمة تأتي في زيارة

في أيار اتصل بي ويللي وأنا في نيويورك ليخبرني بأن جنيفر قد أنجبت طفلة، متحدية بذلك نبوءات العلم وقانون الاحتمالات. وكان أن عجّلت جرعة مضاعفة من المخدرات بالولادة، وولدت سابرينا قبل موعدها بشهرين. استدعى أحدهم سيارة إسعاف حملتها إلى أقرب مركز إسعاف سريع، فكان مستشفى كاثوليكياً خاصاً حيث لم يروا من قبل مثل تلك الحالة من التسمم. وبفضل هذا المستشفى نجت سابرينا، لأنها لو ولدت في المستشفى العام في حي أوكلاند البائس حيث تعيش جنيفر، لكانت واحدة أخرى من آلاف حديثي الولادة الذين يولدون كي يموتوا، محكومين بالمخدرات وهم في بطون أمهاتهم. وما كان هناك من سيهتم بها، ولكان شخصها الضئيل قد ضاع في ثغرات نظام الطبابة الاجتماعي المثقل. لكنها وقعت في المقابل بين يدي الطبيب المناوب الماهرتين، والذي تمكن من قطع الطريق عليها فور لفظها إلى الدنيا وتحول إلى أول مفتون بعيني الصغيرة الناعستين. «لدى هذه الطفلة احتمالات ضئيلة بالبقاء على قيد الحياة»، كان هذا هو رأيه عندما فحصها. ولكنه ظل عالقاً في نظرتها القاتمة، ولم يذهب إلى بيته عند انتهاء مناوبته بعد ظهر ذلك اليوم. وفي أثناء ذلك كانت قد حضرت طبيبة أطفال، وظل الاثنان لشطر من الليل يراقبان الحاضنة ويقدران كيف يمكنهما تخليص الوليدة من

السموم دون أن يسببا لها أذى أكبر مما هي فيه، وكيف يغذيانها، لأنها غير قادرة على الابتلاع. أما الأم فلم يهتم بأمرها أحد، إذ كانت قد غادرت المستشفى فور تمكنها من النهوض عن النقالة.

ألمٌ أصم كان يشق حوض جنيفر، ولم تتذكر جيداً ما الذي حدث، باستثناء صوت صفارة سيارة الإسعاف المقلق، وممر طويل فيه أنوار بيضاء، وبعض الوجوه التي تصرخ بها آمرة. تظن أنها أنجبت طفلة، ولكنها لم تستطع البقاء للتأكد من ذلك. كانوا قد تركوها تستريح في غرفة، ولكنها أحست بعد قليل بتناذر الامتناع وبدأت ترتجف من الغثيان وقد غمرها العرق وتكهربت أعصابها. ارتدت ثيابها كيفما استطاعت وهربت من أحد أبواب الخدمة. بعد يومين من ذلك، وكانت قد استردت شيئاً من عافيتها بعد الولادة، وهدأت بالمخدرات، فكرت في المخلوقة التي تركتها وراءها ورجعت للبحث عنها، ولكن الطفلة لم تعد لها. فقد كانت خدمات القاصرين قد تدخلت ووضعت على ذراع الطفلة جهاز أمان، يُفَعِّل تشغيل صفارة إنذار إذا ما حاول أحد إخراجها من القاعة.

قطعتُ جولتي في نيويورك ورجعت في أول طائرة متاحة إلى كاليفورنيا. أخذني ويللي من المطار مباشرة إلى المستشفى، وفي الطريق شرح لي أن حفيدته ضعيفة ومعتلة جداً. وأن جنيفر الضائعة في مطهرها وغير القادرة على العناية بنفسها، لن تستطيع تحمل مسؤولية ابنتها. وأنها تعيش مع شخص له ضعف عمرها، ويكسب حياته من تجارات مشبوهة، وكان سجيناً أكثر من مرة. «من المؤكد أنه يستغل جنيفر ويوفر لها المخدرات»، كان هذا هو أول ما خطر لي. أما ويللي، وهو أكثر نبلاً مني بكثير، فكان شاكراً له أنه يوفر لها سقفاً على الأقل.

ركضنا في ممرات المستشفى حتى قاعة حديثي الولادة في أحد الأركان. حملتُ سابرينا بين ذراعي أول مرة في يوم دافئ من

شهر أيار، وكانت ملفوفة في بطانية من القطن، مثل صرة. فتحت الحزمة طية بعد طية ووجدت الطفلة في قاعها، مثل حلزون ملتف على نفسه، وبحفاض كبير جداً يغطيها من كاحليها حتى عنقها، وطاقية صوفية على رأسها. كانت تبرز من الحفاض قدمان مجعدتان، وذراعان مثل عودين رفيعين، ورأس تام ذو تقاطيع دقيقة، وعينان واسعتان، لوزيتان وسوداوان، تنظران إليّ بتصميم محارب. لم تكن تزن شيئاً، وكانت بشرتها جافة وتفوح منها رائحة الأدوية، وبدت طرية، كأنها زبد خالص. «لقد ولدت بعينين مفتوحتين»، قالت الممرضة. ظللتُ أنا وسابرينا ننظر كل منا إلى الأخرى لأكثر من دقيقتين، نتبادل التعارف. يقال إن الأطفال في هذه السن يكونون شبه عميان، ولكن كان لنظرتها التعبير الزخم نفسه الذي يميزها اليوم. مددت إصبعاً لأداعب خدها فتشبثت قبضتها الصغيرة بي بقوة. لاحظت أنها ترتجف فدثرتها بالبطانية، وشددتها إلى صدري.

ـ ما هي علاقتك بالطفلة؟ ـ سألتني امرأة شابة عرّفت عن نفسها قبل ذلك بأنها طبيبة الأطفال.

ـ هو جدها ـ أجبتها وأنا أشير إلى زوجي الذي كان بالقرب من الباب، غير قادر على الكلام بسبب الخجل أو التأثر الشديد.

ـ كشفت الفحوص عن وجود عدة مواد سامة في جسم الطفلة. وهي خديجة أيضاً؛ أُقدّر أن نموها لا يتجاوز السبعة شهور، وتزن كيلوغراماً ونصف، وجهازها الهضمي غير مكتمل التكوين.

ـ ألا يتوجب أن تكون في حاضنة؟ ـ ألمح ويللي.

ـ لقد أخرجناها اليوم من الحاضنة لأن تنفسها طبيعي. ولكن، علينا ألا نخدع أنفسنا. أخشى أن التشخيص غير مطمئن...

ـ ستعيش! ـ قاطعتها الممرضة بتفخيم، وهي زنجية مهيبة يغطي رأسها برج من الجدائل الصغيرة، وانتزعت مني الطفلة التي اختفت بين ذراعيها الثخينين.

ـ أرجوكِ يا أوديليا! ـ هتفت طبيبة الأطفال، مستغربة ذلك التصرف الخشن غير المهني.

ـ لا بأس يا دكتورة، إننا نتفهم الوضع ـ قلتُ وأنا أطلق زفرة تعب.

❖ ❖ ❖

لم يُتح لي الوقت لاستبدال الثوب الذي استخدمته خلال أسبوع من الرحلة. كنت قد جلت على خمس عشرة مدينة خلال واحد وعشرين يوماً، حاملة حقيبة يد تحتوي الضروريات التي لا غنى عنها، وهي من خلال خبرتي أشياء قليلة جداً. كنت أركب الطائرة في أول ساعات الصباح، وأصل إلى المدينة الوجهة، حيث ينتظرني مرافق ـ تكون في معظم الأحيان سيدة لا تقل إنهاكاً عني ـ كي يأخذني إلى المواعيد المرتبة مع الصحافة. آكل سندوتشاً عند الظهر، ثم أُجري مقابلتين أخريين، وأذهب بعد ذلك إلى الفندق لأستحم قبل حفل تقديم الكتاب ليلاً، حيث أواجه الجمهور بقدمين متورمتين وابتسامة إجبارية، كي أقرأ بضع صفحات من روايتي بالإنكليزية. كنت أحمل معي صورة لكِ في إطار لترافقني في الفنادق. أريد أن أتذكركِ كما أنت في هذه الصورة، بابتسامتك الرائعة، وشعرك الطويل وبلوزتك الخضراء، ولكنني حين أفكر فيكِ تداهمني صور أخرى: جسدكِ المتيبس، عيناك الخاويتان، صمتك المطبق. في ماراتونات رحلات الترويج تلك القادرة على طحن عظام أقوى الاقوياء، كنت أتحلل من جسدي كما في رحلة بين الكواكب، وأنجز مراحل الجولة بثِقل صخرة على صدري، واثقة من أن مرافقاتي سيقتدنني من يدي خلال النهار، وسيحرسنني أثناء القراءة الليلية، ويوصلنني إلى المطار عند فجر اليوم التالي. خلال ساعات الرحلة الطويلة من نيويورك إلى سان فرانسيسكو توافر لي الوقت للتفكير في سابرينا، لكنني لم أتصور قط الطريقة التي ستبدل بها هذه الحفيدة حيوات عدة أشخاص.

- إنها روح قديمة جداً - قالت الممرضة أوديليا، بعد أن انصرفت طبيبة الأطفال - لقد رأيت الكثير من حديثي الولادة خلال الاثنتين وعشرين سنة من عملي هنا، ولكن لا أحد منهم مثل سابرينا. إنها تلاحظ كل شي. حتى إنني أظل معها بعد انتهاء مناوبتي، بل جئتُ يوم الأحد لرؤيتها، لأني لا أستطيع انتزاعها من رأسي.

- وهل ترين أنه يمكن لها أن تموت؟ - قاطعتها مختنقة.

- هذا ما يقوله الأطباء. وقد سمعتِ ما قالته طبيبة الأطفال. أما أنا فأعرف أنها ستعيش. لقد أتت لتبقى، لديها كارما طيبة.

كارما. مرة أخرى كارما. كم من المرات سمعتُ هذه الكلمة في كاليفورنيا؟ تفلقني فكرة الكارما. الإيمان بالقدر محدود جداً، ولكن الكارما أسوأ بكثير، لأنها ترجع إلى ألف حياة سابقة، ويكون على المرء أن يحمل أحياناً وزر إساءات الأسلاف. القدر يمكن أن يتغير، أما تطهير الكارما فيتطلب حياة كاملة، وربما لا تكون كافية. ولكن الوقت لم يكن مناسباً للتفلسف مع أوديليا. كنت أشعر بحنان غير متناهٍ نحو الطفلة وبامتنان عميق لهذه الممرضة التي أحبتها. ألصقت وجهي بالحفاض سعيدة لأن سابرينا موجودة في الدنيا.

خرجت أنا وويلي من القاعة، نستند أحدنا إلى الآخر. اجتزنا ممرات متماثلة بحثاً عن المخرج، إلى أن وجدنا مصعداً. مرآة في داخله أعادت لنا صورتينا. بدا لي أنه قد هَرِم قرناً. فكتفاه المتكبرتان في السابق، تنحنيان الآن مهزومتين. لاحظت التجعدات حول عينيه، وخط الذقن أقل جرأة مما مضى، والشعر القليل المتبقي له صار أبيض تماماً. الأيام تمضي سريعاً جداً. لم أكن قد أمعنت النظر إلى تبدلات جسده، ولم أكن أراه مثلما هو، وإنما مثلما أتذكره. فهو لا يزال في نظري الرجل الذي أحببته من النظرة الأولى قبل ست سنوات: رشيق، رياضي، ببدلة قاتمة ضيقة عليه بعض الشيء، كما لو أن منكبيه يتحديان خياطة أجزائها.

أعجبتني ضحكته العفوية، وسلوكه الواثق، ويديه الأنيقتين. كان يبتلع الهواء كله، ويحتل المكان كله. وكان يبدو واضحاً أنه عاش وعانى، لكنه يبدو عصياً على التأثر. وأنا؟ ماذا رأى فيَّ عندما تعارفنا؟ كم من التبدلات طرأت عليَّ خلال هذه السنوات الست، وخاصة في الشهور الأخيرة؟ وأنا أيضاً كنت أنظر إلى نفسي بمنظار العادة المشفق، دون أن أدقق في التردي الجسدي الذي لا مفر منه: الثديان أكثر تهدلاً، الخصر أكثر اتساعاً، العينان أكثر حزناً. مرآة المصعد كشفت لي الإنهاك الذي نعاني منه كلانا، وهو أعمق من إنهاك رحلتي أو إنهاك عمله. البوذيون يقولون إن الحياة نهر، وإننا نبحر على طوف باتجاه الهدف النهائي. للنهر تياره، سرعته، صخوره الناتئة، دواماته، وعوائق أخرى لا نستطيع التحكم بها، ولكن لدينا مجداف لتوجيه الطوف في الماء. وعلى مهارتنا تعتمد نوعية الرحلة، لكننا غير قادرين على تغيير المسار، لأن النهر يصب دون مناص في الموت. في بعض الأحيان لا يجد المرء مفراً من الاستسلام للتيار، ولكن ليست هذه هي حالتي. تنفستُ بعمق، تمطيت في قامتي الضئيلة، وربت على ظهر زوجي.

ـ انصب قامتك يا ويللي. علينا أن نجذف.

نظر إليّ بملامح مرتبكة كما هي عادته عندما يظن أن إنكليزيتي تخونني.

عش لسابرينا

لم يراودني أي شك في أننا، أنا وويللي، سنتولى مسؤولية سابرينا: إذا كان الأبوان غير قادرين، فإنها مسؤولية الجدين، هذا قانون طبيعي. ومع ذلك، سرعان ما اكتشفت أن الأمر لن يكون بهذه السهولة، فليست المسألة مجرد الذهاب بسلة لأخذ الطفلة من

المستشفى عندما تستعيد عافيتها بعد شهر أو شهرين. لا بد من إجراءات ومعاملات لذلك. كان القاضي قد قرر عدم تسليمها إلى جنيفر، ولكن هناك رفيقها في الوسط. ولم أكن أصدق أنه الأب، لأنه لا وجود لملامح أفريقية في الطفلة، على الرغم من أنهم أكدوا لي أنها من سلالة مختلطة، وأنها ستأخذ باكتساب السمرة مع مرور الأسابيع. طلب ويللي إجراء فحص للدم، ومع أن الرجل رفض ذلك، إلا أن جنيفر أكدت أنه هو الأب، وهذا كاف أمام القانون. ومن تشيلي، أعربت أمي عن رأيها بأنه سيكون من الجنون تبني الطفلة، لأنني أنا وويلي مستنزفان وغير قادرين على القيام بمهمة بمثل ذلك الحجم: ويللي لديه ما يكفي من المشاكل مع أبنائه ومكتبه؛ وأنا أكتب وأسافر دون توقف.

ـ هذه الطفلة بحاجة إلى عناية متواصلة في النهار والليل، فكيف ستفعلين ذلك؟ ـ سألتني أمي.

ـ مثلما اعتنيت بباولا ـ أجبتها.

جاء نيكو وسيليا للتحدث معنا. أخوكِ ممشوق القامة مثل شجرة بتولا ولا يزال له مع ذلك وجه صبي، جاء وهو يحمل طفلاً على كل ذراع من ذراعيه. وكان ظاهراً حَبَل سيليا ذو الستة شهور. إنها متعبة، وبشرتها ضاربة إلى الخضرة. وقد فوجئتُ مجدداً برؤية ابني، فهو لم يرث شيئاً مني: يتجاوزني في طول القامة بمقدار رأس ونصف، متزن، مرهف العادات والمشاعر، عقلاني، مع ميل خفيف إلى السخرية. يتمتع بذكاء حاد، ليس فقط في الرياضيات والعلوم التي هي شغفه، وإنما كذلك في أي نشاط بشري. إنه يفاجئني في كل لحظة بمقدار معارفه وآرائه. تخطر له حلول لكل أنواع المشاكل، ابتداء من برنامج كمبيوتر معقد وحتى آلية لا تقل تعقيداً لتعليق دراجة في السقف دون جهد. يستطيع إصلاح أي شيء من أدوات الاستخدامات العملية، ويفعل ذلك بدقة تجعله أفضل مما كان عليه في الأصل. لم أره قط يفقد التحكم بنفسه. وهناك

ثلاث قواعد يطبقها في علاقاته الإنسانية: ليس الموضوع شخصياً، كل شخص مسؤول عن مشاعره، والحياة غير عادلة. أين تعلم هذا؟ من المافيا الإيطالية على ما أعتقد. دون كورليوني. لقد حاولتُ دون جدوى السير على طريقه في الحكمة. فكل شيء بالنسبة إليّ شخصي، وأشعر أنني مسؤولة عن مشاعر الآخرين، حتى في حالة الأشخاص الذين أكاد لا أعرفهم، وقد عشتُ أكثر من ستين سنة محبطة لأنني لم أستطع تقبل كون الحياة عادلة.

لم يُتح لكِ إلا القليل من الوقت للتعرف على زوجة أخيك، ويخامرني الشك في أنك تستلطفينها كثيراً لأنكِ كنت شديدة الصرامة. أنا نفسي كنت أخشاكِ بعض الشيء، يا بنتي، ويمكنني الآن أن أخبرك بذلك. فقد كان من عادة أحكامك أن تكون مقتضبة وغير قابلة للدحض. أضف إلى ذلك أن سيليا كانت تفتعل الخلاف متعمدة، كما لو أنها تسعى إلى ترك الجميع متصلبي الأرجل. دعيني أذكرك بحديث جرى على المائدة:

ـ أرى أنه عليهم إرسال المخنثين جميعهم إلى جزيرة وإجبارهم على البقاء هناك. فهم السبب في وجود الإيدز ـ قالت سيليا.

ـ كيف يمكنك قول هذا الكلام؟ ـ صرختِ أنت مذعورة.

ـ ولماذا علينا نحن أن ندفع ثمن مشاكل أولئك الناس؟

ـ أي جزيرة؟ ـ سأل ويللي لمجرد الإزعاج.

ـ لا أدري، جزر فارليون، مثلاً.

ـ جزر فارليون صغيرة جداً.

ـ أية جزيرة أخرى! جزيرة للمثليين حيث يمكنهم التلقي في مؤخراتهم إلى أن يموتوا!

ـ وماذا سيأكلون؟

ـ فليزرعوا خضرواتهم ويربوا دجاجهم! أو فلنستخدم أموالاً من الضرائب لإقامة جسر جوي.

ـ لقد تحسنت إنكليزيتك كثيراً يا سيليا. باستطاعتك الآن

صياغة عدم تسامحك بدقة ـ علق زوجي بابتسامة عريضة.

ـ شكراً يا ويللي ـ أجابته هي.

وعلى هذا النحو تواصل حديث ما بعد الطعام إلى أن غادرتِ أنت غاضبة. صحيح، لقد كانت سيليا تعبر عن نفسها أحياناً بطريقة جريئة بعض الشيء، على الأقل بالنسبة لكاليفورنيا، ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أنها أمضت عدة سنوات في مدرسة دينية لجمعية أوبوس ديه وأنها آتية من فنزويلا، حيث لا أحد يتورع عن قول كل ما يخطر بباله. سيليا ذكية ومتناقضة، لديها طاقة رهيبة وحس سخرية غير وقور، عند ترجمته إلى إنكليزيتها في تلك الفترة، كان يتسبب عادة بأضرار. لقد كانت تعمل مساعدة لي، وقد خرج أكثر من صحفي أو زائر غافل من مكتبي مرتبكاً من مزاح تلك الكنة. أريد أن أخبرك بما قد لا تعرفينه، يا بنتي: لقد تولت هيَ نفسها العناية بكِ في ساعاتكِ الأخيرة، وساعدتني في تهيئة جسدك في طقوس الموت الحميمة، وظلت تنتظر بجانبكِ يوماً وليلة، إلى أن وصل إرنستو وبقية الأسرة الذين جاؤوا من بعيد. لقد رغبنا أن تستقبليهم في سريرك، في بيتنا، من أجل الوداع الأخير.

ولكن فلنرجع إلى سابرينا. نيكو وسيليا انضما إلينا في الصالة. ظلت هي صامتة في تلك المرة، وعيناها مصوبتان إلى جوربيها الصوفيين وصندل الرهبان الدومينكانيين، بينما تولى أخوكِ الكلام. بدأ بما كانت أمي قد قالته، بأنني أنا وويللي لم نعد في السن التي تسمح لنا بتربية طفلة رضيعة، وأنه عندما تصير سابرينا في الخامسة عشرة، سأكون في السادسة والستين، ويكون ويللي في الواحدة والسبعين.

ـ ويللي ليس نابغة في تربية الأبناء، وأنت يا أماه تحاولين استبدال باولا بطفلة عليلة. هل ستتمكنين من تحمل حداد آخر إذا لم تعش سابرينا؟ لا أتصور ذلك. أما نحن، فما زلنا شباباً ويمكننا

العناية بها. لقد تحدثنا في الأمر، ونحن مستعدان لتبني سابرينا ـ انتهى ابني إلى القول.

أصابنا أنا وويللي البكم لأكثر من دقيقة.

ـ قريباً سيكون لكما ابن ثالث... ـ تمكنتُ من القول أخيراً.

ـ وما الذي سيؤثره خطٌ آخر على جلد النمر؟ ـ غمغمت سيليا.

ـ شكراً، شكراً جزيلاً. لكن هذا سيكون جنوناً. لديكما أسرتكما ويجب عليكما تأمين حياتكم في هذه البلاد، وهذا ليس بالأمر السهل. لا يمكنكما شغل نفسيكما بسابرينا. إنها مسؤوليتنا نحن.

وفي أثناء ذلك كانت الأيام تمضي، وآليات القانون الثقيلة تواصل مسارها القاسي من وراء ظهرنا. الزائرة الاجتماعية التي تولت القضية، وتدعى ريبيكا، كانت امرأة شابة المظهر ولكنها واسعة الخبرة. ولا يمكن أن تُحسد على عملها الذي تمارسه، فقد كان عليها الاهتمام بأطفال تعرضوا لسوء المعاملة والإهمال، يتنقلون من مؤسسة إلى أخرى، يتبناهم البعض ثم يعيدونهم بعد ذلك؛ أطفال مرعوبون أو مفعمون بالكراهية؛ أطفال جانحون أو مصدومون نفسياً، لن يكون بمقدورهم، إلى الأبد، أن يعيشوا حياة طبيعية إلى هذا الحد أو ذاك. وكانت ريبيكا تناضل ضد البيروقراطية، وإهمال المؤسسات، ونقص الموارد، وخبث الآخرين الذي لا علاج له. وكانت تناضل، قبل ذلك كله، ضد الزمن. الساعات لا تكفيها لدراسة الحالات، وزيارة الأطفال، وإنقاذهم من الخطر بأسرع ما يمكن، وتامين إقامتهم في ملجأ مؤقت، وحمايتهم، وتتبع أخبارهم. وكان الأولاد أنفسهم يمرون بمكتبها مرة بعد أخرى، بمشاكل آخذة بالتفاقم إلى الأسوأ مع مرور السنوات. دون أي حل للمشاكل، وإنما تأجيلها فقط. بعد أن قرأت التقرير الذي على منضدتها، قررت ريبيكا أنه عند خروج سابرينا من المستشفى ستذهب إلى منزل حكومي متخصص بالأطفال ذوي

الأوضاع الصحية الحرجة. ملأت الوثائق اللازمة التي راحت تنتقل من مكتب إلى آخر حتى وصلت إلى القاضي المكلف بالقضية، ومهرها بتوقيعه. كان مصير سابرينا قد تقرر. عندما علمتُ بالأمر ذهبت طيراناً إلى مكتب ويللي، انتزعته من اجتماع وانهلت عليه بوابل من الإسبانية كاد يسحقه، مطالبة إياه بأن يذهب فوراً للتحدث إلى ذلك القاضي، ولتكن هناك محاكمة إذا تطلب الأمر، لأنهم إذا ما وضعوا سابرينا في نُزل للأطفال الرضع فإنها ستموت بكل تأكيد. انطلق ويللي في الأمر، وذهبتُ إلى البيت لانتظر النتائج وأنا أرتجف.

في تلك الليلة، رجع زوجي وعلى كاهله عشر سنوات إضافية. لم أره قط مهزوماً بتلك الحالة، ولا حتى عندما كان عليه أن ينقذ جنيفر من موتيل كانت تحتضر فيه، ويغطيها بسترته ويحملها إلى ذلك المستشفى حيث استقبلها الدكتور الفيليبيني. قال لي إنه تحدث إلى القاضي، وإلى الزائرة الاجتماعية، وإلى الأطباء، وحتى مع طبيب نفساني، وجميعهم كانوا متفقين على أن صحة الطفلة ضعيفة جداً. «لا يمكننا تحمل مسؤوليتها يا إيزابيل. ليست لدينا الطاقة للعناية بها، ولا القوة لتحمل موتها. أنا غير قادر على ذلك»، أنهى كلامه ورأسه بين يديه.

ذات القلب الغجري

حدثت بين ويللي وبيني واحدة من تلك المشاجرات التاريخية في حياة زوجين، والجديرة بأن تسمى ـ مثل «حرب أراوكو»، كما كنا نسمي في الأسرة شجاراً أبقى أبوينا تحت السلاح طوال أربعة شهور ـ، أما الآن، وقد مرت سنوات طويلة، وصار بإمكاني النظر إلى الوراء، فإنني أعطي الحق لويللي. ولو كانت الصفحات تتسع لرويت مبارزات ملحمية أخرى تواجهنا فيها، لكنني لا أظن أن أياً

منها كان بمثل عنف المواجهة من أجل سابرينا، لأنه كان تصادم شخصيتين وثقافتين. لم أشأ سماع مسوغاته، انغلقتُ على غضب أصم ضد النظام القانوني، والقاضي، والزائرة الاجتماعية، والأمريكيين عموماً وويللي خاصة. هربنا كلانا من البيت: ظل هو يعمل في المكتب حتى ساعة متأخرة من الليل، وأخذت أنا حقيبة وذهبت إلى حيث تسكن تابرا التي استقبلتني دون تأثر.

لقد تعارفنا منذ عدة سنوات، وكانت تابرا هي أول صديقة لي بعد مجيئي إلى كاليفورنيا. ففي أحد الأيام ذهبت هي لصباغة شعرها باللون الباذنجاني، مثلما كانت تصبغه في ذلك الحين، وقالت لها عاملة التجميل إن زبونة جديدة جاءت قبل أسبوع ورغبت في اللون نفسه، وهما الحالتان الوحيدتان في مسيرتها المهنية الطويلة. وأضافت أن الزبونة هي تشيلية تؤلف كتباً، وأخبرتها باسمي. كانت تابرا قد قرأت ***بيت الأرواح***، فطلبت منها أن تخبرها عندما أحضر إلى الصالون في المرة القادمة، لأنها ترغب في التعرف إليّ. وقد حدث ذلك بعد وقت قصير. فقد مللتُ اللون قبل ما هو متوقع، لأني بدوت مثل مهرج مبلل. وجاءت تابرا ومعها كتابي كي أوقعه لها، وفوجئت بأنني أضع قرطين من صنعها. لقد كان مقدراً لنا التلاقي، كما قالت الحلاقة.

هذه المرأة ذات التنانير الغجرية الواسعة، والذراعين اللتين تغطيهما أساور فضية من المعصمين حتى المرفقين، والشعر ذي اللون المستحيل، أفادتني كموديل في رسم شخصية تامار في ***الخطة اللانهائية***. لقد صغت شخصية تامار من كارمن، صديقة طفولة لويللي، ومن تابرا التي سطوت على شخصيتها وجزء من سيرة حياتها. ولأن تابرا ورثت عن أبيها استقامة أخلاقية لا تشوبها شائبة، فإنها لا تترك الفرصة تمر دون أن توضح أنها لم تضاجع ويللي قط، وهو تعليق يبدو غير ضروري على الإطلاق لمن لم يقرؤوا روايتي. كان بيتها، بأرضيته الخشبية وسقفه المرتفع ونوافذه الواسعة،

متحفاً لأشياء استثنائية من مختلف أركان الكوكب، وكل شيء منها له قصته: ثمرات قرع مجوفة تُستخدم غمداً للعضو الذكري مجلوبة من غينيا الجديدة، أقنعة كثيفة الشعر من أندونيسيا، منحوتات ضوار من أفريقيا، رسوم حُلميّة من شغل سكان أستراليا الأصليين... العقار الذي تتقاسمه مع غزلان، وراكوانات، وثعالب، وتشكيلة كاملة من طيور كاليفورنيا، يتألف من ثلاثين هكتاراً من الطبيعة البرية. صمت، رطوبة، فردوس امتلكته بالجهد والموهبة وحدهما.

ترعرعت تابرا في أحضان المسيحية المتعصبة في جنوب البلاد. كنيسة يسوع هي الكنيسة الوحيدة الحقيقية. فالميثوديون يفعلون ما يحلو لهم، والمعمادیون ملعونون لأن لديهم بيانو في الكنيسة، والكاثوليك لا يؤخذون في الحسبان - فالمكسيكيون وحدهم هم الكاثوليك، وليس من المؤكد أن لهم روحاً - والطوائف الأخرى لا تستحق الذكر لأن طقوسها شيطانية، مثلما هو معروف جيداً. وكان الحظر يشمل الكحول والرقص والموسيقى، والسباحة مع كائنات من الجنس الآخر، وكذلك التبغ والقهوة على ما أظن، ولكنني لست متأكدة من هذا. أنهت تابرا دراستها في مدرسة آبيلين المسيحية، حيث كان أبوها يُدَرِّس، أستاذ عذب ومنفتح الذهن، مغرم بالأدب اليهودي والأفروأمريكي، يبحر كيفما استطاع ضد رقابة سلطات المدرسة. كان يعرف مدى تمرد ابنته، ولكنه لم يكن يتوقع أن تهرب وهي في السابعة عشرة من عمرها مع خطيب سري. طالب من ساموا، ذو البشرة القاتمة الوحيد، بشعر أسود وعينين سوداوين في مؤسسة البيض التعليمية تلك. في ذلك الحين كان الشاب الذي من ساموا لا يزال نحيلاً وجميلاً، في عيني تابرا على الأقل، ولا مجال للشك في ذكائه، لأنه الوحيد من سكان تلك الجزيرة الذي تلقى منحة دراسية حتى ذلك الحين.

هرب الشابان في الليل إلى مدينة أخرى، حيث رفض قاضي

صلح تزويجهما، لأن زواج البيض من الزنوج لم يكن شرعياً، لكن تابرا أقنعته بأن أهالي جزر بولينيزيا ليسوا زنوجاً، إضافة إلى أنها حامل. فوافق القاضي مكرهاً. لم يكن قد سمع من قبل باسم جزيرة ساموا، وبدا له أن المخلوق التعس ذا الدماء المختلطة الذي تحمله في بطنها سبب وجيه لتشريع ذلك الزواج الخاطئ. «إنني أرثي لحال أبويك، أيتها الشابة»، قال لها أخيراً بدل أن يمنحها المباركة. وفي تلك الليلة بالذات، انتزع العريس الجديد حزامه وجلد به تابرا حتى أدماها، لأنها ضاجعت رجلاً قبل الزواج. والواقع الذي لا جدال فيه في أن ذلك الرجل لم يكن إلا هو نفسه لم يخفف بأي حال من وضعها كعاهرة. وكانت تلك هي الحلقة الأولى من حلقات ضرب واغتصاب التي لا حصر لها، يتوجب عليها، برأي موجهي كنيسة يسوع، أن تتحملها، لأن الرب لا يبيح الطلاق، وهذا عقابها لأنها تزوجت شخصاً من عرق آخر، وهو فساد أخلاقي يحظره الكتاب المقدس.

انجبا ابناً جميلاً اسمه تونغي، وهو يعني بلغة ساموا «بكاء»، وأخذ الأب أسرته الصغيرة والمرعوبة إلى مسقط رأسه. تلك الجزيرة المدارية، حيث توجد للأمريكيين قاعدة عسكرية ومفرزة مبشرين احتضنت تابرا. كانت البيضاء الوحيدة في قبيلة زوجها، وقد منحها ذلك نوعاً من الامتياز، لكنه لم يَحُل دون ضربه اليومي لها. كانت حلقة أقرباء تابرا مؤلفة من حوالي عشرين مارداً سميناً وقاتم البشرة، يُبدون أسفهم لمظهرها سيئ التغذية والشاحب. وكان معظمهم، لاسيما حماتها، يعاملونها بكثير من التودد ويحتفظون لها بأفضل غنائم العشاء الجماعي: رؤوس سمك مع عيونها، بيض مقلي مع أجنة فراخ فيه، وحلوى بودين لذيذة تُحضّر بمضغ نوع من الثمر وبصق العجينة في إناء خشبي، وتركه يتخمر في الشمس. كانت النسوة في بعض الأحيان يتمكّن من حمل تونغي الصغير والركض به لتخبئته من غضب الأب، ولكنهن لا يستطعن الدفاع عن أمه.

لم تعتد تابرا على الخوف قط. ولم تكن ثمة قواعد في عذابها، فلا شيء مما تفعله أو تمتنع عن فعله يجنبها الضرب. وأخيراً، بعد نوبة جلد هوميرية بالحزام، ذهب زوجها لقضاء بضعة أيام في السجن، وهي اللحظة التي استغلها المبشرون لمساعدة تابرا في الهرب مع ابنها والعودة إلى تكساس. الكنيسة نبذتها، ولم تستطع الحصول على عمل محترم، والشخص الوحيد الذي ساعدها هو أبوها. وأخيراً حلّ الطلاق الأمور، ولم تعد إلى رؤية جلادها طوال خمس عشرة سنة. وكانت في أثناء ذلك، بعد سنوات طويلة من العلاج، قد تخلصت من الخوف. والرجل الذي رجع إلى الولايات المتحدة، وتحول إلى واعظ أنجليكاني، وإلى سوط حقيقي للخاطئين وغير المؤمنين، لم يتجرأ على إزعاجها قط.

❖ ❖ ❖

في عقد الستينيات، لم تستطع تابرا تحمل عار حرب فيتنام وغادرت مع ابنها إلى بلدان مختلفة، حيث كانت تكسب عيشها بتعليم الإنكليزية. في برشلونة درست تصميم المجوهرات، وكانت تخرج في الأمسيات لتتمشى في شارع رمبلاس وتراقب النَّوَر الذين أوحوا لها بأسلوبها الغجري. وفي المكسيك عملت في ورشة صياغة، وصارت بعد قليل من ذلك تصمم وتصنع مجوهراتها الخاصة. هذه المهنة، وليس أي شيء آخر، ستكون مهنتها طوال ما تبقى من حياتها. بعد هزيمة الأمريكيين في فيتنام رجعت إلى بلادها، وفاجأتها حقبة الهيبين في شوارع بيركلي المزركشة، حيث كانت تبيع الأقراط والعقود والأساور الفضية، جنباً إلى جنب مع فنانين فقراء آخرين. كانت تنام في تلك الفترة في سيارتها المخلعة، وتستخدم حمامات الجامعة، لكن موهبتها ميّزتها عن الحرفيين الآخرين، وسرعان ما استطاعت ترك الشارع، واستأجرت مشغلاً وتعاقدت مع أول مساعديها. وبعد بضع سنوات، عندما تعرفتُ عليها، كانت لديها مؤسسة نموذجية قائمة في مغارة علي

بابا حقيقية، مترعة بأحجار كريمة وأشياء فنية. وأكثر من مئة شخص يعملون معها، جميعهم تقريباً من المهاجرين الآسيويين. بعضهم كان قد عانى ما لا يمكن تصوره، مثلما يظهر بجلاء من آثار قروحهم الرهيبة أو نظراتهم المتهرية. يبدون أناساً عذبين. أصابهما، في مناسبتين مختلفتين، جنون الغيرة، فاشتريا مسدساً رشاشاً، مستغلين السهولة التي توفرها هذه البلاد في اقتناء ترسانة أسلحة، وقتلا أقرباء زوجتيهما كلهم. ثم فجروا دماغيهما بعد ذلك. وكانت تابرا تحضر جنازات موظفيها الجماعية تلك، ويكون عليها بعد ذلك أن «تطهر» الورشة بإقامة الطقوس الضرورية كي لا تضايق الأشباحُ الدامية مخيلةَ الأحياء المتبقين.

وجه تشي غيفارا، بلطفه الذي لا يُقاوم وقبعته السوداء فوق جبهته، يبتسم في ملصقات على جدران الورشة. وفي رحلة قامت بها تابرا إلى كوبا مع ابنها تونغي، ذهبت برفقة الزعيم السابق للفهود السود إلى تمثال تشي في مدينة سانتا كلارا؛ وكانت تحمل رماد صديقٍ أحبته طوال عشرين سنة دون أن تعترف لأحد بذلك، وعندما وصلت إلى القمة نثرت الرماد في الريح. وهكذا حققت حلمها بالذهاب إلى ذلك البلد الأسطوري. وأيديولوجية صديقتي أكثر يسارية من أيديولوجية فيدل كاسترو نفسه.

ـ أنت مازلتِ عالقة في أفكار الستينيات ـ قلت لها في إحدى المناسبات.

ـ بكل فخر ـ ردّت عليّ.

غراميات صديقتي الجميلة أصيلة جداً مثل ملابس العرافة التي ترتديها، وشعرها المشتعل، ومواقفها السياسية. سنوات العلاج النفسي علمتها تجنب الرجال الذين يمكن لهم أن يتحولوا إلى عنيفين، مثل زوجها الذي من ساموا. لقد أقسمت ألا تسمح لأحد بأن يضربها بعد، ولكنها تُستثار بالقيام ببهلوانيات على حافة الهاوية. لا يجتذبها إلا الذكور الخطرون بصورة غامضة، ولا يروقها

رجال عرقها الأبيض. وابنها تونغي الذي صار رجلاً وسيماً جداً، لا يريد أن يعرف شيئاً عن ترهات أمه العاطفية. لقد توصلت تابرا في بعض السنوات إلى عقد مئة وخمسين موعداً على غير هدى، من خلال إعلانات شخصية في الصحف، ولكن قله منها تجاوزت تناول أول فنجان قهوة. بعد ذلك دخلت زمن الحداثة، وهي الآن مسجلة في عدد من وكالات الانترنت باختصاصات متنوعة: «ديمقراطيون عازبون»، فهم يشتركون على الأقل في كراهيتهم للرئيس بوش؛ و«أصدقاء»، للاتينيين فقط، وهم يروقون لتابرا، وإن كان معظمهم بحاجة إلى فيزا ومحاولة تحويلها إلى الكاثوليكية؛ و«عازبون خضر»، يحبون أمنا الأرض ولا يهتمون بالثروات المادية، وهم بالتالي لا يشتغلون. وتأتيها طلبات من حمير يافعين يأملون بأن تعيلهم سيدة ناضجة. والصور التي يرسلونها بليغة جداً: بشرة سمراء ومزيتة، صدر عار وأول سنتمترات من فتحة البنطال مفتوحة كاشفة زغب العانة. ولهجة الحوارات عبر الإيميل هي على النحو التالي تقريباً:

تابرا: أنا لا أخرج عادة مع رجال أصغر من أحفادي.
الفتى: لدي من العمر ما يكفي للمضاجعة.
تابرا: وهل تتجرأ على التحدث على هذا النحو مع جدتك؟

وإذا ما ظهر أحدهم في سن مناسبة لها، يتبين لها أنه ديمقراطي يعيش مع أمه ويخبئ مدخراته على شكل سبائك فضية تحت الفراش. لستُ أبالغ: سبائك من الفضة، مثل قراصنة الكاريبي. والمثير للفضول أن هذا الديمقراطي لا يتورع منذ الموعد الأول ـ والأخير ـ عن البوح بمعلومات شديدة الخصوصية مثل المكان الذي يخبئ فيه رأس ماله.

ـ ألا يخيفك الخروج مع غرباء، يا تابرا؟ قد يخرج لك في أحد الأيام مجرم أو منحرف ـ قلت لها ذات مرة عندما قدمت لي شخصاً

لـه ملامـح مـن يـستحق الـشنق، جاذبيتـه الوحيـدة تتمثـل فـي قبعـة قومندان كوبي.

ـ يبدو أنني مازلت بحاجة إلى سنوات أخرى من العلاج النفسي ـ أقرت صديقتي في تلك المناسبة.

ومنذ وقت قريب اتفقت مع نقاش كي يدهن لها جدران البيت. وكان له شعر أسود طويل، مثلما يروقها، ولهذا دعته إلى أن ينقع نفسه معها في الجاكوزي. كانت فكرة سيئة، لأن النقاش بدأ التعامل معها كزوج. تطلب منه أن يدهن الباب، فيرد عليها «حاضر يا حبيبتي» بانزعاج عميق. وفي أحد الأيام نفد ما لديه من المادة المذيبة للدهان، وأعلن أنه بحاجة إلى ساعة للتأمل وإلى لفافة ماريجوانا كي يضع نفسه على اتصال مع فضائه الداخلي. كان كيل تابرا قد طفح آنذاك من الشعر الأسود الطويل، فردت عليه بأن لديه ساعة واحدة كي ينهي طلاء الفضاء الداخلي من البيت والانصراف. وكان قد انصرف من هناك عندما ذهبتُ إليها حاملة حقيبتي.

في الليلة الأولى تعشينا شوربة سمك، وهو الطبق الوحيد الذي تعرف صديقتي إعداده، فضلاً عن الشوفان مع الحليب وقطع من الموز، وحشرنا نفسينا في جاكوزيها، وهو دنٌ من خشب زلق، مختف تحت الأشجار، يعبق برائحة مقززة لأن ثعلباً عاثر الحظ سقط فيه وطُهي على نار هادئة طيلة أسبوع قبل أن تكتشف وجوده. وهناك أفرغتُ إحباطي مثل كيس أحجار.

ـ أتريدين رأيي؟ ـ قالت لي تابرا ـ سابرينا لن تكون سلوى لك، فالحداد يتطلب وقتاً. إنك مكتئبة، وليس لديك ما تقدمينه للطفلة.

ـ يمكنني أن أقدم لها أكثر مما ستحصل عليه في مؤسسة للأطفال المرضى.

ـ سيكون عليك عمل كل شيء بمفردك، لأن ويللي لن يرافقك في هذا الأمر. لا أعرف كيف ستهتمين بابنك وأحفادك، وتواصلين الكتابة، وتربين فوق ذلك طفلة تحتاج إلى أُمَّين اثنتين.

حلقة الساحرات القديرة

طلع صباح مشرقاً. فالربيع صار صيفاً في غابة تابرا، ولكنني لم أرغب في الخروج معها للمشي، مثلما نفعل دوماً في نهاية الأسبوع. وقد اتصلتُ بالمقابل هاتفياً بالنساء الخمس اللواتي يشكلن معي حلقة **أخوات الفوضى الدائمة**. قبل انضمامي إلى الجماعة، كن يجتمعن منذ سنوات ليتقاسمن حيواتهن، وللتأمل والصلاة من أجل أناس مرضى أو في مآزق حرجة. والآن بعد أن صرت واحدة منهن، صرنا نتبادل كذلك المكياج، ونشرب الشمبانيا، ونُتخم بطوننا بالشكولاته. ونذهب أحياناً إلى الأوبرا، لأن الاقتصار على الممارسة الروحانية وحدها تخمد همتي قليلاً. لقد تعرفت عليهن منذ سنة، في اليوم الذي أكد فيه الأطباء في كاليفورنيا تشخيص حالتكِ بأنها بلا أمل، يا باولا، وهو التشخيص نفسه الذي قُدم لي في إسبانيا. لم يكن هناك ما يمكن عمله، قالوا لي إنك لن تشفي أبداً. مضيت منتحبة في السيارة، ولا أعرف كيف انتهى بي المطاف في بوك باسيج، مكتبتي المفضلة، حيث أُجري مقابلات صحفية كثيرة، حتى إنهم وضعوا لي هناك صندوق بريد خاص. وهناك اقتربت مني سيدة يابانية، ذات ابتسامة حانية وقصيرة القامة مثلي، ودعتني لتناول فنجان شاي. كان اسمها جين شينودا بولين، طبيبة نفسانية ومؤلفة عدة كتب. تعرفتُ فوراً على اسمها لأني كنت قد قرأت للتو كتابها حول الربات اللواتي يسكنّ في كل امرأة، وكيف تؤثر هذه الأنماط النموذجية في الشخصية. وهكذا اكتشفت أن هناك خليطاً من الإلهات المتناقضات يسكنّ فيّ من الأفضل عدم استكشافهن. ودون أن أكون قد رأيتها من قبل، رويت لها ما يجري لي. «سنصلي من أجل ابنتك ومن أجلك»، قالت لي. وبعد شهر من ذلك دعتني إلى «حلقة الصلاة» التي تنتمي إليها، وهكذا كان أن أولئك الصديقات رافقنني أثناء احتضاركِ

وموتك، ومازلن يرافقنني حتى الآن. إنها بالنسبة إلي أخوية ممهورة بخاتم السماء. على جميع النساء في هذا العالم أن تكون لهن حلقات مثل هذه. كل واحدة منا شاهدة على حياة الأخريات، يصون بعضنا أسرار بعض، ويساعد بعضناً البعض في الشدائد، ونتبادل التجارب، ونظل على اتصال شبه يومي عبر البريد الإلكتروني. فمهما كنت أسافر بعيداً، أظل على اتصال دائم بالأرض الصلبة: بصديقاتي في الفوضى. إنهن مرحات، حكيمات، وفضوليات. والفضول مخيف أحياناً، كما في حالة جين نفسها التي شعرت، في أحد الطقوس الروحانية، بدافع لم تستطع كبحه. فخلعت حذاءها ومشت على فحم متأجج. سارت مرتين فوق النار وخرجت سليمة. وقد قالت إن ذلك كان كما لو أنها تمشي على كرات من البلاستيك، وكانت تشعر بطقطقة الجمار، وبالنسيج الخشن للفحم تحت قدميها.

خلال الليلة الطويلة في بيت تابرا، وسط حفيف الأشجار ونعيق البوم، خطر لي أنه يمكن لأخوات الفوضى أن يساعدنني. اجتمعنا لتناول الفطور في مطعم ممتلئ برياضيي نهاية الأسبوع، بعضهم بأحذية الجري وآخرون متنكرون بملابس مخنثين كي يركبوا الدراجات. جلسنا حول منضدة مستديرة، باحترام دائم لفكرة الحلقة. كنا ست ساحرات خمسينيات: مسيحيتان، وبوذية حقيقية، ويهوديتان في الأصل ولكنهما نصف بوذيتين باختيارهما، وأنا التي لم أحسم أمري بعد، تجمعنا الفلسفة نفسها التي يمكن اختصارها في جملتين: «عدم التسبب بأي أذى على الإطلاق، ومد يد المساعدة عندما يكون ذلك ممكناً». وبين رشفات القهوة، أخبرتهن بما جرى في أسرتي، وانتهيتُ بعبارة تابرا التي ظلت ترن في مسمعي: «سابرينا تحتاج إلى أُمَّين». «أُمَّين؟ ـ كررت بولين، إحدى اليهوديتين ـ البوذيتين، والمحامية في المهنة ـ أنا أعرف أُمَّين!» وكانت تعني فو وغريس، وهما امرأتان تعيشان معاً كثنائي منذ ثماني سنوات.

توجهت بولين إلى الهاتف وأجرت مكالمة؛ لم تكن الهواتف النقالة قد وجدت بعد في تلك الفترة. وفي الجانب الآخر من الخط، سمعت غريس وصفاً لحالة سابرينا. وقالت: «سأتحدث في الأمر مع فو، وأتصل بك خلال عشر دقائق». ففكرتُ: «عشر دقائق... لا بد أن تكون في رأسها علة أو يكون لها قلب باتساع البحر كي تحسم مثل هذا الأمر خلال عشر دقائق». ولكن هاتف المطعم رنَّ قبل المهلة المحددة، وأخبرتنا فو بأنهما تريدان التعرف إلى الطفلة.

ذهبتُ بحثاً عنهما بمحاذاة التلال باتجاه البحر عبر طريق طويل متعرج قادني إلى مزرعة شاعرية، متوارية بين أشجار صنوبر وأوكاليبتوس، حيث تنتصب عدة أبنية من الخشب على الطراز الياباني: مركز بوذية الزّن. تبين لي أن فو طويلة القامة، ذات وجه لا يُنسى بتقاطيعه القوية، وحاجب مرتفع يعطيها تعبير استفهام، وكانت ترتدي ملابس غير متناسقة داكنة اللون، ورأسها حليق مثل مجند. إنها راهبة بوذية، ومديرة المركز. تعيش في بيت صغير كأنه بيت دمى مع رفيقتها غريس، وهذه طبيبة لها وجه صبية مشاكسة، ولطف لا يُقاوم. وفي السيارة أخبرتهما بالعذاب الذي كانت عليه حياة جنيفر، والأذى الذي لحق بالطفلة، وتوقعات الاختصاصيين المتشائمة. لم يبدُ عليهما أنهما تأثرتا. أخذنا في طريقنا أم جنيفر، زوجة ويللي الأولى، والتي كانت قد تعرفت على فو وغريس في المركز البوذي، وتوجهنا نحن الأربع إلى المستشفى.

وفي قاعة حديثي الولادة، وجدنا أوديليا، الممرضة نفسها ذات الألف جديلة رفيعة، وسابرينا بين ذراعيها. وكانت قد ألمحت إليّ في زيارة سابقة أنها ترغب في تبنيها. مدت غريس يديها، وقدمت المرأة إليها الطفلة التي بدا أنها قد فقدت بعض وزنها في هذه الأيام، وكانت ترتجف أكثر من السابق، ولكنها كانت متيقظة. نظرت العينان المصريتان مطولاً إلى غريس ثم توجهتا بعد ذلك إلى فو. لست أدري ما الذي قالته لهما بتلك النظرة الأولى، لكن ما قالته

كان حاسماً. فدون أن تتشاورا، وبصوت واحد، قررت المرأتان معاً أن سابرينا هي ابنتهما التي رغبتا كلتاهما فيها طول حياتيهما.

❖ ❖ ❖

منذ سنوات أُشكّل جزءاً من حلقة **أخوات الفوضى الدائمة**، وخلال هذا الزمن شهدتُ عدة أعاجيب حققنها، ولكن أياً من تلك الأعاجيب لم يكن طويل الأجل مثل أعجوبة سابرينا. فهن لم يتمكنَّ من الحصول لها على أمّين اثنتين وحسب، وإنما استطعن حلّ تشابك خيوط البيروقراطية العويصة كي تتمكن فو وغريس من الاحتفاظ بالطفلة. كان القاضي في تلك الأثناء قد وقّع الوثائق المتعلقة بالقضية، وكانت ريبيكا، الزائرة الاجتماعية، قد اعتبرت القضية منتهية. وعندما ذهبنا لنخبرها بأن ثمة حلّ آخر، قالت لنا إنه لا تصريح لدى فو وغريس، وإنه عليهما أخذ دروس وإتباع تدريب خاص كي تتمكنا من أن تكونا أُمين قادرتين على التبني: أضف إلى ذلك أنهما ليسا زوجين وفق الصيغة المتعارف عليها، وتعيشان في كونتية أخرى، و«الحالة» لا يمكن نقلها. وأضافت أنه على الرغم من أن جنيفر كانت قد فقدت الحق في حضانة ابنتها، إلا أن رأيها يؤخذ كذلك في الاعتبار. ثم قالت: «آسفة، ليس لدي وقت للاهتمام بموضوع انتهينا من حله». وتواصلت قائمة العقبات والموانع، ولكنني لا أتذكر كل التفاصيل، إنما أتذكر فقط أنه في نهاية المقابلة، وعندما كنا ننسحب، أمسكت بولين ذراع ريبيكا بقوة.

- إن لديك عبئاً ثقيلاً، وأجرك قليل جداً، وتشعرين أن عملك بلا جدوى، لأنك في السنوات التي أمضيتها في هذه الوظيفة، لم تستطيعي إنقاذ الأطفال البائسين الذين مروا من هذا المكتب - قالت لها سابرة أغوار روحها، ثم أضافت: - ولكن، صدقيني يا ريبيكا، أنت قادرة على مساعدة سابرينا. وربما تكون فرصتك الوحيدة لتحقيق معجزة.

في اليوم التالي رتبت ريبيكا الأمر لتقلب البيروقراطية رأساً

على عَقب، فاستعادت الوثائق، وعدّلت ما يتوجب تعديله، وأقنعت القاضي بأن يوقع من جديد، ونقلت الملفات إلى الكونتية الأخرى، وثبتت فو وغريس كـأمّين متبنيتين في أقل من رمشة عين. المرأة نفسها التي بدت في اليوم السابق ساخطة من إلحاحنا، تحولت إلى إعصار حيوية مشرق كنس كل العقبات، وبجرة قلم سحري حسمت مصير سابرينا.

ـ لقد قلت لك من قبل إن هذه الطفلة روح قديمة وقوية. إنها تصيب الناس بمس وتغيرهم. لديها قوة ذهنية كبيرة، وتعرف ما الذي تريده ـ علقت أوديليا بعد حوالي أسبوعين من ذلك، وهي تسلم سابرينا إلى أمّيها الجديدتين.

وهكذا، بطريقة غير متوقعة، حُلّ النزاع العظيم بيني وبين ويللي. تبادلنا الصفح، سواء عن اتهاماتي الدراماتيكية له أم عن صمته الماكر، واستطعنا أن نتعانق ونبكي من السعادة لأن تلك الحفيدة وجدت عشها. وفي أثناء ذلك، أخذت فو وغريس تلك الفأرة الصغيرة ذات العينين الحكيمتين، وأطلقت حلقة صديقاتي آلية أفضل نواياهن الحميدة القوية من أجل مساعدتها على الحياة. كانت هناك على كل مذبح بيتي صورة للطفلة، ولم يكن يمضي يوم واحد دون أن يَسمُو أحد بأفكاره من أجلها. وقد انتقلت إحدى أخوات الفوضى للعيش في مدينة أخرى، عندئذ دعونا غريس لتحل محلها في الجماعة، بعد أن تأكدنا أن لديها ما يكفي من حس السخرية. وفي مركز بوذية الزّن، كان هناك خمسون شخصاً على الأقل يتضرعون من أجل سابرينا في جلسات تأملهم، ويتناوبون هز مهدها، بينما الأُمَّان تناضلان ضد مشاكلها الصحية غير المتناهية، والتي تظهر في كل لحظة. ففي الشهور الأولى كانتا بحاجة إلى خمس ساعات من أجل إعطائها أونصتين من الحليب بقطارة. وقد تعلمت فو التكهن بكل أزمة قبل حدوثها، وكان لدى غريس، باعتبارها طبيبة، الوسائل اللازمة أكثر من أي شخص آخر.

ـ هاتان المرأتان مثليتان؟ ـ سألتني كنتي التي كانت قد نبهتني عدة مرات إلى أنها لا تستطيع أن تلتقي تحت سقف واحد مع شخص لا يصل كماله الجنسي إلى مواصفاتها.

ـ أجل، يا سيليا.

ـ ولكن إحداهما راهبة!

ـ إنها بوذية. وهذه الديانة ليس فيها نذر عزوبية.

لم تضف سيليا المزيد، لكنها كانت مبهورة بفو وغريس اللتين توصلت إلى التعرف عليهما بعمق، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تطرح على بساط البحث أفكارها السابقة. كانت قد تخلت عن الدين منذ زمن ولم تعد لديها مخاوف من مراجل الشيطان، ولكن الشذوذ الجنسي كان التابو القوي لديها. وأخيراً اتصلت بهما، وطلبت منهما الصفح عن إهاناتها السابقة، وصارت تذهب لزيارتهما مع طفليها وجيتارها كي تعلمهما مبادئ مهنة الأمومة وتبهجهما بأغنيات فنزويلية. ولأن الأمّين الجديدتين تهتمان بالحفاظ على البيئة، فقد حاولتا تربية سابرينا باستعمال حفاضات قماشية، لكنهما اضطرتا قبل انقضاء أسبوع واحد إلى قبول حفاضات الاستخدام مرة واحدة التي أهدتها إليهما سيليا. لا بد أن يكون المرء معتوهاً كي يعود إلى الطريقة القديمة بغسل الحفاضات يدوياً. ففي مركز بوذية الزّن لا وجود لآلة غسّالة، وكل شيء عضوي وصعب. صرن صديقات، وبدأت سيليا تبدي اهتماماً بالبوذية، مما أثار ذعري، لأن من عادتها التحول المفاجئ من حدّ أقصى إلى آخر.

ـ إنها ديانة بديعة يا إيزابيل. الشيء الغريب الوحيد عند البوذيين هو أنهم لا يأكلون إلا الخضروات، مثل البغال.

ـ لا أريد أن أراكِ حليقة الرأس ومستغرقة في التأمل في وضعية اللوتس قبل أن تنتهي من تربية أطفالك ـ حذرتها.

أيام نور وحداد

وضعت سيليا وليدتها نيكول في شهر أيلول بالهدوء نفسه الذي وضعت فيه آندريا قبل ستة عشر شهراً. تحملت مخاضاً استمر عشر ساعات دون أن تطلق أنّة واحدة، مستندة إلى نيكو، بينما أنا أراقبهما مفكرة في أن ابني لم يعد الصبي الغر الذي مازلتُ أعامله كما لو أنه لي، بل هو رجل يتولى بهدوءٍ مسؤولية امرأة وثلاثة أبناء. وكانت سيليا صامتة وشاحبة، تتمشى بين كل طلقة وأخرى، معانية أمام نظراتنا العاجزة. وعندما أحست أن النهاية قد أزفت، استلقت على السرير مرتجفة يغطيها العرق، وقالت شيئاً لن أنساه إلى الأبد: «لست مستعدة لمبادلة هذه اللحظة بأي شيء». أمسك بها نيكو بقوة عندما بدأ رأس الطفلة بالظهور، وتبعه كتفاها ثم بقية الجسد. حطت حفيدتي بين يدي، مبللة، زلقة، دامية، وعدت أشعر بالتجلي الإلهي نفسه الذي شعرت به يوم مولد آندريا، وفي الليلة التي لا تُنسى حين ذهبتِ أنت إلى الأبد. الولادة والموت يتشابهان كثيراً، يا بنتي، إنهما لحظتان مقدستان وغامضتان. أعطتني القابلة المقص كي أقص حبل الخلاصة الثخين، ووضع نيكو الطفلة على صدر أمها. كانت سمينة من إسمنت مسلح، أمسكت حلمة الثدي بشراهة، بينما راحت سيليا تكلمها بتلك اللغة الوحيدة التي تستخدمها عادة الأمهات المذهولات بالجهد والحب المفاجئ مع حديثي الولادة. جميعنا كنا قد انتظرنا هذه الطفلة مثل هدية؛ ستحمل إلينا نفحة افتداء وسعادة، لحظة سلام صافٍ.

شرعت نيكول بالصراخ فور شعورها بأنها لم تعد داخل أمها، ولم تصمت طيلة ستة شهور. كان صراخها يقشر طلاء الجدران ويحطم أعصاب الجيران. الجدة هيلدا، جدتكِ المستعارة التي رافقتني لأكثر من ثلاثين سنة، وليخيا، السيدة النيكاراغوية التي تولت العناية بك، وكنت قد تعاقدت معها كي تساعدنا، كانتا

تهدهدان نيكول في الليل والنهار، وهي الطريقة الوحيدة كي تصمت لدقائق. كانت ليخيا قد تركت خمسة أبناء في بلدها وجاءت للعمل في الولايات المتحدة كي تتمكن من إعالتهم عن بعد. وكانت قد انقضت عدة سنوات دون أن تراهم، ولا أمل لديها بأن تلتقي بهم في مستقبل قريب. طيلة شهور وشهور كانت المرأتان الطيبتان تجلسان مع الصغيرة على كرسي هزاز في مكتبي، بينما أنا وسيليا نقوم بعملنا. كنت أخشى أن تؤدي كثرة الهز إلى تفكك دماغ حفيدتي وتحولها إلى بلهاء. وقد هدأت نيكول فور البدء بإعطائها حليب البودرة والحساء، وأظن أن الجوع كان سبب يأسها ذاك. وفي أثناء ذلك، كانت آندريا ترتب ألعابها بعصبية وتحدث نفسها. وعندما تمل، تأخذ «التوتو» المتسخة، وتعلن أنها ذاهبة إلى فنزويلا، وتتكور على نفسها في خزانة صغيرة وتغلق عليها الباب. فكان علينا أن نُحدث ثقباً في قطعة الأثاث تلك كي يدخل شعاع ضوء وبعض الهواء، لأنه كان يمكن لحفيدتي أن تقضي نصف النهار محبوسة دون أن تنبس ببنت شفة في مكان بحجم قفص دجاجة. وبعد أن أُجريت لها عملية جراحية لتقويم انحراف البصر، كان عليها أن تستخدم نظارة وعصابة سوداء تُنقل كل أسبوع من عين إلى أخرى. ولكي لا تنزع النظارة، ابتكر نيكو وسيلة معيقة من ست شرائط مطاطية ودبابيس بكلة تتقاطع على رأسها. فكانت تتقبل ذلك الوضع معظم الوقت، لكنها تصاب أحياناً بنوبة غضب، فتشد أحزمة المطاط حتى تتمكن من إنزالها إلى مستوى الحفاض. وبالمناسبة، كان لدينا خلال فترة قصيرة ثلاثة أطفال بالحفاضات، وهذا يعني الكثير من الحفاضات. فكنا نشتريها بالجملة، وكانت الطريقة المثلى هي استبدال حفاضات الأطفال الثلاثة في مواعيد موحدة، سواء أكانت بحاجة إلى التبديل أم لا. فكانت سيليا أو نيكو يضعان الحفاضات الثلاث المفتوحة متجاورة على الأرض، ثم يضعان الصغار فوقها، وينظفن لهم مؤخراتهم

بالجملة، كما في خط تجميع صناعي. وكانا قادرين على عمل ذلك بيد واحدة بينما هما يتكلمان بالهاتف في اليد الأخرى. أما أنا فكنت أفتقر إلى مثل هذه المهارة، وكنت أتلوث ببراز الصغار حتى أذني. وكانا يطعمانهم ويحممانهم بأسلوب الجملة نفسه: يدخل نيكو معهم تحت الدوش، يفركهم بالصابون، ويغسل شعورهم، ويشطفهم بالماء، ثم يفلتهم واحداً فواحداً كي تتلقاهم سيليا في الخارج بالمنشفة.

ـ أنتَ أم جيدة يا نيكو ـ قلت له ذات يوم بإعجاب.

ـ لا يا أماه، أنا أب جيد ـ أجابني.

ولكنني لم أرَ من قبل قط أباً مثله، وحتى الآن لا أستطيع أن أفسر كيف تعلم المهنة.

كنت أضع اللمسات الأخيرة على كتابي *باولا*، وقد تطلبت مني الصفحات الأخيرة الكثير من الجهد. فالكتاب ينتهي بموتكِ، ولا يمكن أن تكون له نهاية أخرى؛ ولكنني لم أتمكن من تذكر تلك الليلة الطويلة جيداً، إذ كان يلفها الضباب. كنت أعتقد أن غرفتكِ امتلأت بالناس، وبدا لي أنني أرى إرنستو ببدلته الأيكيدو البيضاء، وأبويَّ، وجدتكِ غراني التي أحبتك كثيراً، وماتت في تشيلي منذ سنوات طويلة، وآخرين لا يمكن لهم أن يكونوا موجودين هناك.

ـ إنك متعبة جداً، يا أماه، ولا يمكنك تذكر التفاصيل؛ وأنا نفسي لا أستطيع التذكر ـ قال لي نيكو معتذراً.

ـ وما أهمية التفاصيل؟ اكتبي بقلبك. أنتِ رأيت ما لم نستطع نحن رؤيته. ربما كان صحيحاً أن الحجرة قد امتلأت بالأرواح ـ أضاف ويللي.

أفتحُ الإناء الخزفي الذي سلّمونا فيه رمادكِ، والذي أحتفظ به دوماً على منضدة الكتابة، المنضدة نفسها التي كانت جدتي توجه فيها جلساتها الروحانية. أُخرج أحياناً منها رسالتين وبعض صوركِ

السابقة لنكبتك، ولكنني لا ألمس صوراً أخرى تظهرين فيها هامدة، مقيدة إلى الكرسي ذي العجلات. هذه الصور لم أعد إلى لمسها، يا باولا. وحتى هذا اليوم، بعد مرور سنوات طويلة، لا أستطيع رؤيتكِ في تلك الحال. قرأت رسائلك، وخاصة تلك الوصية الروحية، والترتيبات التي تطلبينها في حال موتك، والتي كتبتِها في شهر عسلك. كان عمرك آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة فقط. لماذا كنت تفكرين في الموت؟ لقد كتبتُ تلك المذكرات بكثير، بكثير جداً من الدموع.

- ماذا أصابك؟ - تسألني آندريا بنصف لسانها، حزينة، وهي تنظر إليّ بعين السيكلوب الوحيدة.

- لا شيء، إنني أشتاق إلى باولا فقط.

- ولماذا تبكي نيكول؟ - تلح بالسؤال.

- لأنها حمارة جداً - هذا هو أفضل جواب خطر لي.

ومثلما حدث من قبل مع أليخاندرو، فقد غرستُ في رأس آندريا فكرة أن الشوق إلى باولا هو السبب الوحيد المقبول للبكاء. وبما أنها كانت بعين واحدة، فإن عالمها كان بلا عمق، كل شيء يبدو لها مسطحاً، وكانت تسقط سقطات جانبية شبه قاتلة. فتنهض عن الأرض وهي تنزف دماً من أنفها، وبنظارة معوجة، وتوضح وسط بكائها بأنها تشتاق إلى باولا.

❖ ❖ ❖

عند انتهاء الكتاب، أدركتُ أنني قطعت طريقاً من العذاب ووصلت أخيراً نقية وعارية. في تلك الصفحات كانت حياتكِ المشرقة ومسيرة أسرتنا. لقد انقشع تشوش تلك السنة من العذاب الرهيب: كان واضحاً لدي أن خسارتي ليست استثناء، وإنما هي حال ملايين من الأمهات، أقدم ألم مشترك للبشرية. أرسلت المخطوطة إلى من يرد ذكرهم فيها، إذ بدا لي أنه يتوجب عليّ منحهم فرصة مراجعة ما كتبته عنهم. لم يكونوا كثيرين، لأنني

استبعدت من الكتاب عدداً من الأشخاص الذين كانوا قريبين منكِ، ولكنهم ليسوا أساسيين في القصة. وبعد قراءتها، ردّ الجميع فوراً بتأثر وحماسة، باستثناء صديقي الأفضل في فنزويلا، إلديمارو، الذي كان يحبكِ كثيراً وفكر في أنه لن يروقك رؤية نفسك معروضة بهذه الطريقة. وأنا أيضاً راودتني الشكوك في هذا الشأن، لأن الكتابة كفعل تطهر، من أجل تكريم الابنة المفقودة، هو شيء، وشيء آخر هو تشاطر الحداد مع الجمهور. «يمكن لهم أن يتهموك بالاستعراضية، أو باستخدام هذه المأساة لكسب المال، فأنت تعرفين سوء ظنون الناس»، هكذا حذرتني أمي بقلق، وإن كانت مقتنعة بأن الكتاب يجب أن ينشر. ولكي أتجنب أية شبهات من هذا النوع، قررت عدم لمس بيزو واحد من المداخيل، إذا وُجدت: وسوف أجد وجهة إيثارية لتقديمها، وجهة ترضين عنها.

كان إرنستو يعيش في نيوجرسي، حيث يعمل في الشركة متعددة الجنسيات نفسها التي وظفته في إسبانيا. وعندما جئنا بكِ إلى بيتي، طلب نقله ليكون قريباً منك، إلا أنه لم تكن هناك وظيفة شاغرة في كاليفورنيا، وكان عليه أن يقبل ما عرضوه عليه في نيوجرسي. فالمسافة على أي حال أقصر من مدريد. وعندما تلقى مسودة الكتاب الأولى، اتصل بي باكياً. كانت قد انقضت سنة على ترمله، لكنه كان لا يزال غير قادر على ذكر اسمك دون أن يختنق صوته. شجعني بالحجة المشفقة بأنه يروقكِ أن تُنشر هذه المذكرات، لأنها قد تواسي أشخاصاً آخرين في خسارتهم وأحزانهم، ولكنه أضاف أنه يكاد لا يتعرف عليك في هذه الصفحات. فالقصة مروية من وجهة نظري المغمومة. وأنا، كأم، كنت أجهل بعض مظاهر شخصيتكِ وحياتك. أين هي باولا، العاشقة النزقة واللعوب، والزوجة الحمقاء والآمرة، والصديقة غير المشروطة، والناقدة اللاذعة؟ وقال لي: «سأفعل شيئاً إذا ما علمت به باولا ستقتلني»، وبعد ثلاثة أيام حمل إليّ البريد علبة كبيرة تحتوي

مراسلات الحب المشبوب التي تبادلتماها طيلة أكثر من سنة قبل زواجكما. كانت هدية استثنائية، أتاحت لي التعرف عليكِ بصورة أفضل. وبإذن من إرنستو استطعتُ أن أضم إلى الكتاب بعض الجمل الحرفية التي كتبتِها أنت في تلك الرسائل.

بينما كنتُ أهذب النسخة الأخيرة، تولت سيليا مسؤولية المكتب بالكامل، بأزرار بلوزتها نصف المفتوحة، لتكون جاهزة لإرضاع نيكول في أي لحظة. لا أدري كيف كانت تعمل وهي تركض مع ثلاثة أبناء. لقد كانت خائرة القوى ومثقلة بحزن عميق. فقد كانت جدتها قد ماتت في فنزويلا، ولم تستطع الذهاب لوداعها لأن تأشيرتها لا تتيح لها الخروج من الولايات المتحدة والعودة إليها. وقد كانت الجدة فظة في تعاملها مع الجميع باستثنائها هي، لأنها من تولت تربيتها. فعندما كانت طفلة عمرها شهور قليلة، سافر أبواها ثلاث سنوات إلى الولايات المتحدة ليدرسا من أجل نيل الدكتوراه في الجيولوجيا. وعندما رجعا، كانت سيليا تكاد لا تعرف هذين الشخصين اللذين عليها فجأة أن تدعوهما «ماما» و«بابا»؛ لأن نجم قطب طفولتها كانت جدتها، لا تشعر بالأمان إلا معها. بعد ذلك صار لها أخ وأخت. وظلت سيليا مرتبطة بجدتها التي كانت تعيش في ملحق مشيد إلى جوار منزل أبويها الرئيسي. ولا بد أن طفولتها لم تكن سهلة ضمن أسرة وفي مدرسة تلتزمان الصرامة الكاثوليكية القصوى، نظراً لطبعها المتمرد والمتحدي، ولكنها انصاعت إلى حدّ دخولها في مراهقتها سكناً تابعاً لجمعية الأبوس ديه الدينية، حيث كان فعل التوبة يتضمن جلد النفس وارتداء مسوح خشنة فيها مسامير معدنية. وتؤكد سيليا أنها لم تصل إلى تلك الحدود؛ ولكن كان عليها أن تتقبل قواعد أخرى لقهر الجسد: طاعة عمياء، وتجنب الاتصال مع الجنس الآخر، والصيام، والنوم على لوح خشبي، وقضاء ساعات جاثية، وممارسات تعذيب أخرى للنفس، وهي ممارسات أكثر تواتراً وصرامة للنساء، لأنهن

يجسدن، منذ أزمنة حواء، الخطيئة والغواية.

وبين آلاف الشبان المتوافرين في الجامعة، وقعت سيليا في حب نيكو الذي كان النقيض التام لمن يرغب فيه أبواها صهراً لهما. فهو تشيلي، ومهاجر، ولا أدريّ. لقد درس نيكو في مدرسة للجيزويت، ولكنه في اليوم التالي لمناولته الأولى، أعلن أنه لن يعود إلى وضع قدميه في كنيسة. التقيتُ بالمدير لأوضح له أنني مضطرة إلى إخراج الصبي من المدرسة، فانفجر الكاهن في الضحك. «لا حاجة إلى ذلك يا سيدي. لن نجبره هنا على الذهاب إلى الصلاة. إنما يمكن للصغير أن يبدل رأيه في ما بعد، ألا ترين ذلك؟». وكان عليّ أن أقرَّ بأنني لا أعتقد ذلك، لأني أعرف ابني جيداً. فهو ليس من النوع الذي يتخذ قرارات متسرعة. وقد أنهى نيكو دراسته في مدرسة سان إغناثيو، وحافظ على كلمته بعدم الدخول إلى كنيسة، مع بعض الاستثناءات القليلة، عند زواجه الديني من سيليا، ودخوله بعض الكاتدرائيات التي زارها كسائح.

لم تستطع سيليا مرافقة جدتها في لحظاتها الأخيرة، ولا بكاء موتها، لأنكِ لم تتركي في الواقع مجالاً لأي حداد آخر، يا باولا. أنا ونيكو لم ننتبه إلى حجم حزنها لأننا لم نكن نعرف تفاصيل طفولتها من جهة، ولأنها وارت تأثرها، من جهة أخرى، بتصنعها الصلابة. لقد دَفنت الذكرى كي تبكي في ما بعد، بينما كانت تواصل إنجاز ألف من مهمات الأمومة، والزوجة، والعمل، وتعلم الإنكليزية، والبقاء على قيد الحياة في الأرض التي اختارتها. وخلال السنوات القليلة التي عشناها معاً، تعلمتُ أن أحبها، على الرغم من الاختلافات بيننا، وبعد غيابكِ تشبثتُ بها كابنة أخرى. كان مظهرها يقلقني، فلونها شاحب، وتبدو فاقدة الشهية؛ ومازالت تتتابها نوبات الغثيان، كما في أسوأ شهور الحمل. وطبيبة الأسرة التي تولت رعايتكِ، وإن كنتِ لا تعلمين ذلك، قالت إن سيليا مستنزفة القوى، لأنها أنجبت ثلاثة أبناء متتالين، غير أنه لا وجود

لسبب بدني لنوبات التقيؤ، ولا بد أنها ردّ فعل انفعالي، ربما تخشى أن يتكرر ظهور البورفيريا في أحد أبنائها. وقالت لي محذرة: «إذا ما استمرت على هذه الحال سيكون لا بد من إدخالها مستشفى». وقد واصلت سيليا التقيؤ، إنما بصمت وخفية.

كنة مميزة

اسمحي لي أن أرجع خمس سنوات إلى الوراء كي أذكرك كيف ظهرت زوجة أخيك في حياتنا. في العام 1988 كنت أعيش مع ويللي في كاليفورنيا، وكنتِ أنت تدرسين في فيرجينيا، وكان نيكو وحده في كاراكاس، ينهي سنته الأخيرة في الجامعة. وقد أخبرني أخوكِ هاتفياً أنه مغرم بزميلة في الدراسة، ويرغب في زيارتنا معها، لأن علاقتهما جدّية. فسألته دون لف ولا دوران إن كان عليّ أن أهيئ غرفة واحدة أو غرفتين، وأوضح لي، بتلك اللهجة الساخرة بعض الشيء التي تعرفينها جيداً، إن النوم في حجرة واحدة مع الخطيب، من وجهة نظر **الأبوس ديه**، خطيئة لا تُغتفر. فأبوا الفتاة ساخطان من خطيئة سفرهما معاً دون أن يكونا متزوجين، بالرغم من أنها في الخامسة والعشرين من عمرها، والأسوأ من ذلك أنها ذاهبة إلى بيت تشيليةٍ مطلقة، ملحدة، شيوعية، ومؤلفة كتب تحظرها الكنيسة: هذه أنا. «هذا ما كان ينقصنا...»، فكرت. وبالتالي لا بد من غرفتين. كان اثنان من أبناء ويللي يعيشان معنا آنذاك. وقد قررت أمي المجيء من تشيلي في الموعد نفسه بالضبط، وهكذا ارتجلتُ لنيكو فراش مجند يوضع في المطبخ. ذهبتُ أنا وأمي لانتظارهما في المطار ورأينا ظهور أخيكِ، بهيئته المعهودة كمراهق أخرق، ترافقه شخصية تتقدم بخطوات ثابتة واسعة، تحمل على ظهرها حزمة تبدو سلاحاً من

بعيد، وتبين عن قرب أنها علبة جيتار. وأعتقد أن سيليا، من أجل إزعاج أمها التي كانت ملكة جمال في إحدى المسابقات الكاريبية، تمشي مثل جون واين، وتلبس بنطالاً مشوهاً زيتوني اللون، وحذاء تسلق جبال، وقبعة بيسبول متهدلة فوق عينيها. وكان لا بد من النظر إليها مرتين لاكتشاف كم هي جميلة. تقاطيع ناعمة، عينان معبرتان، يدان مرهفتان، وركان عريضان، واندفاع يصعب تجاهله. الشابة التي تعلق بها ابني تجيء متحدية، كأنها تقول: «إذا أعجبتكم، سيكون جيداً؛ وإذا لم أعجبكم، فلتتخوزقوا». بدا لي نيكو مختلفاً إلى حدّ ارتبتُ معه أنها حبلى، ولهذا يتعجلان التخطيط للزواج، ولكن الأمر لم يكن مثلما ظننت. ربما كانت بحاجة إلى الهرب بسرعة من وسطها الذي تشعر كما لو أنه قميص حجز، وقد تشبثت بنيكو بيأس غريق.

عند الوصول إلى البيت أعلن أخوكِ أن فرشة المطبخ ليست ضرورية، لأن الأمور اختلفت بينهما. عندئذ وضعتهما في الغرفة نفسها. أمسكتني أمي من ذراعي واقتادتني إلى الحمام.

ـ إذا كان ابنك قد اختار هذه الفتاة، فلا بد أنه وجد فيها شيئاً ما. وعليك أن تحبيها وتطبقي فمك.

ـ ولكنها تدخن غليوناً، يا أماه!

ـ سيكون أسوأ لو أنها تدخن أفيوناً.

وقد تبين لي أنه من السهل عليّ حُبّ سيليا، بالرغم من الصدمة التي تسببها لي صراحتها الجريئة وأساليبها الفجة ـ فنحن التشيليون نقول الأشياء مداورة ونمضي كمن يمشي على بيض ـ وكانت خلال أقل من نصف ساعة قد طرحت علينا قناعاتها حول الأعراق الدنيا، واليساريين، والملحدين، والفنانين، والشاذين جنسياً، وبأنهم جميعهم فاسدون ومنحطون. وطلبت مني أن أنبهها إذا ما حدث وجاء زائر من هذه الأصناف، لأنها تفضل ألا تكون موجودة. ولكنها في تلك الليلة بالذات أضحكتنا بتلك النكات عالية النبرة التي لم

نسمعها منذ أزمنة التحلل في فنزويلا حيث لا وجود، لحسن الحظ، لمفهوم «صحيح سياسياً» ويمكن لأي شخص أن يسخر مما يشاء. ثم أخرجت بعد ذلك جيتارها من علبته وغنت لنا، بصوت مؤثر، أفضل ما في قائمتها من أغنيات. لقد استحوذت علينا.

❖ ❖ ❖

بعد قليل من ذلك تزوجت سيليا ونيكو في كاراكاس، في حفلة كبرياء متصنع، انتهيتِ أنت خلالها إلى الشعور بالغثيان في الحمام، وأظن أن السبب هو الغيرة فقط، لأنكِ فقدت استحواذك الحصري على أخيكِ. وانسحبت أسرتي باكراً لأننا لا نستطيع الانسجام مع ذلك الوسط. كنا نكاد لا نعرف أحداً، وكان نيكو قد نبهنا إلى أن أقرباء العروس لا يستلطفوننا: فنحن لاجئون سياسيون، هربنا من دكتاتورية بينوشيت، ولا بد بالتالي أن نكون شيوعيين، نفتقر إلى الكثير من الأموال أو إلى المكانة الاجتماعية، ولا ننتمي إلى الأبوس ديه، بل إننا لسنا كاثوليكيين ممارسين. استقر الزوجان الجديدان في البيت الذي كنت قد اشتريته حين كنت أعيش في كاراكاس، وكان كبيراً جداً بالنسبة إليهما، وولد أليخاندرو، أبن أخيك الأول، بعد سنة من ذلك. خرجتُ مندفعة من سان فرانسيسكو، سافرت لساعات وأنا أحصي الدقائق، واختلج من الترقب، واستطعتُ احتضانه وهو حديث الولادة، تنبعث منه رائحة حليب الأم وبودرة التالك، بينما كنت أتفحص بطرف عيني كنتي وابني بإعجاب متعاظم. كانا أشبه بصبيين يلعبان لعبة الدمى. فأخوكِ الذي كان إلى ما قبل وقت قصير فتى غير واعٍ يعرّض نفسه للخطر بتسلق قمم جبال أو السباحة مع أسماك القرش في عمق البحر، صار الآن يبدل حفاضات، ويحضّر زجاجات الرضاعة، ويطهو خبزاً محمصاً للفطور، جنباً إلى جنب مع زوجته.

القلق الوحيد في حياة هذين الزوجين هو أن الأوغاد قد علّموا البيت. فقد دخلوا للسرقة مرات عديدة، فأخذوا ثلاث سيارات من

الكراج، ولم تعد أجهزة الإنذار تفيد في شيء، ولا القضبان الحديدية على النوافذ، ولا الشحنات الكهربائية في البوابة الحديدية القادرة على شيّ قط غافل إذا ما لمسها بشاربه. وكلما كانا يرجعان إلى البيت، تظل سيليا في السيارة والطفل بين ذراعيها والمحرك يشتغل، بينما ينزل نيكو، وفي يده مسدس، كما في الأفلام، كي يجوب البيت من أعلى إلى أسفل، ويتأكد من عدم وجود شرير مختبئ في أي مكان. كانا يعيشان مرعوبين، وهو أمر ملائم بالنسبة إليّ، لأني لم أتكبد أي مشقة في إقناعهما بالانتقال إلى كاليفورنيا، حيث سيكونان آمنين ويتلقيان مساعدة. هيأنا لهما أنا وويللي شقة فاتنة، هي ملحق على سطح برج فوق رابية، له إطلالة بانورامية على خليج سان فرانسيسكو، طابق ثالث دون مصعد، ولكنهما كانا قويين وسيطيران على الأدراج مع حوائج الطفل، وأكياس المشتريات والقمامة. انتظرتهما بتلهف عروس، متأهبة لاستخلاص رحيق وضعي كجدة. وقد ضبطتُ نفسي عدة مرات في الغرفة المحجوزة لأليخاندرو، بعد أن أدير نوابض الألعاب المتحركة المعلقة بالسقف، وعلب الموسيقى، كي أغني همساً أغنيات المهد التي تعلمتها عندما كنت أنت وأخوك صغيرين. بدا الانتظار أبدياً، ولكن كل فترات الانتظار تنقضي، وقد وصلوا أخيراً.

بدأت صداقتي مع سيليا تتعثر، لأن الحماة والكنة تتحدران من أيديولوجيتين متعارضتين. ولكننا كنا نفكر في الاستمتاع في الاختلافات، وقد تولت الحياة إزالة سوء النية ببضع ضربات على الرأس. وسرعان ما تجاهلنا أي بذرة للخلاف، وركزنا على صرامة تربية الطفل - واثنين آخرين بعد ذلك - وتكيّفنا مع لغة أخرى ومع شرطنا كمهاجرين في الولايات المتحدة. ومع أننا لم نكن نعرف آنذاك، إلا أن تجربة رهيبة كانت تنتظرنا بعد سنة من ذلك: العناية بكِ يا باولا. لم يبق متسع من الوقت للحماقات. وقد تخلصت كنتي

بسرعة من الخيوط الواهية التي تشدها إلى التعصب الديني وبدأت ترتاب بالتعليمات التي تلقنتها بمطرقة خشبية في صباها. فما إن أدركت أنها ليست بيضاء في الولايات المتحدة، حتى تخلصت من العنصرية، وكنست صداقتها مع تابرا أحكامها المسبقة ضد الفنانين واليساريين. أما بالنسبة للشاذين الجنسيين، فكانت تفضل عدم التكلم في الموضوع. ولم تكن قد تعرفت بعد على أُمّيّ سابرينا.

سجل نيكو وسيليا في دورة مكثفة لتعلم الإنكليزية، وخصني حسن طالعي برعاية حفيدي. فكنت أكتب بينما أليخاندرو يحبو على الأرض، محتجزاً وراء شبكة قضبان حديدية مخصصة للكلاب المسعورة كنا نضعها على الباب. فإذا ما تعب، يضع المصاصة في فمه، ويجر وسادته لينام عند قدميّ. وفي موعد الطعام يشد تنورتي عدة مرات ليخرجني من حالة الاستغراق في الكتابة التي تنتابني عادة، وأمد له وأنا ساهية زجاجة الرضاعة، فيشربها صامتاً. في إحدى المرات سحب مقبس جهاز الكمبيوتر وفقدتُ ثمان وأربعين صفحة من الرواية، ولكنني بدل أن أشنقه، مثلما كنت سأفعل مع أي إنسان فان آخر، أكلته بالقبلات. لقد كانت صفحات سيئة.

كانت سعادتي شبه كاملة، لا ينقصها سواكِ، إذ كنتِ في العام 1991 قد تزوجت للتو من إرنستو، وتعيشين معه في إسبانيا؛ ولكنكما كنتما تفكران في الاستقرار في كاليفورنيا، حيث نكون كلنا معاً. في السادس من كانون الأول من تلك السنة نفسها، دخلتِ المستشفى مصابة بنزلة برد مهملة وألم في المعدة. ولم تعرفي ما الذي حدث بعد ذلك، يا بنتي. فبعد ساعات من ذلك كنتِ في وحدة العناية المكثفة، في حالة كوما، وكان لا بد من انقضاء خمسة شهور أبدية أخرى قبل أن يسلموني جسدك في حالة نباتية، مع أضرار دماغية قاسية. كنتِ تتنفسين، وهذا هو مظهر

الحياة الوحيد لديك. لقد كنتِ مشلولة، وكانت عيناك بئرين أسودين لا تعكسان أي ضوء. وفي الشهور التالية تغيرتِ إلى حدّ لم يعد بالإمكان معه التعرف إليك. ومع إرنستو الذي كان يرفض تقبل أنه صار أرمل في الواقع، جئنا بك إلى بيتي، في كاليفورنيا، في رحلة رهيبة طرنا خلالها فوق الأطلسي وشمالي أميركا. وكان عليه أن يتركك معي بعد ذلك ويرجع إلى عمله. لم أتصور قط أن حلم إحضارك إلى جانبي سيتحقق بهذه الطريقة شديدة المأساوية. في تلك الأيام كانت سيليا على وشك أن تضع ابنتها آندريا. أتذكر ردّ فعل كنتي عندما أنزلوك من سيارة الإسعاف على نقالة: تشبثت بأليخاندرو، وتراجعت مرتعشة، بعينين زائغتين، بينما كان نيكو يتقدم خطوة إلى الأمام، شاحباً، وينحني ليقبّلك ويبللك بدموعه. لقد انتهى هذا العالم بالنسبة إليكِ في السادس من كانون الأول 1992، بعد سنة بالضبط من دخولك المستشفى في مدريد. وبعد أيام من ذلك، عندما نثرنا رمادك في غابة أشجار السيكويا تلك، أطلعني نيكو وسيليا على أنهما يفكران في إنجاب ابن آخر، وبعد عشرة شهور من ذلك ولدت نيكول.

شاي أخضر للحزن

كان ويللي يلاحظ، بيأس، أن جنيفر آخذة بالانتحار شيئاً فشيئاً. إحدى المنجمات قالت له إن ابنته «في بيت الموت». وحسب قول فو، هناك أرواح تحاول دون وعي بلوغ النشوة الإلهية عن طريق المخدرات العاجل، وربما كانت جنيفر بحاجة إلى الهروب من فظاظة واقع هذا العالم. وكان ويللي يظن أنه نقلَ جينة خبيثة إلى أبنائه. كان جده الثالث قد وصل إلى أستراليا مقيد القدمين بأصفاد وسلاسل، وجسده مغطى بالبثور والقمل، وكان واحداً من

مئة وستين ألف عاثر حظ أرسلهم الإنكليز معاقبين إلى تلك الأراضي. أصغر الجانحين سناً، محكوم عليه بسبب سرقته خبزاً، كان عمره تسع سنوات. وأكبرهم سناً امرأة هرمة في الثانية والثمانين، متهمة بسرقة كيلو ونصف كيلو غرام من الجبن، وقد شنقت نفسها بعد أيام من نزولها في أستراليا. ومن يدري بأي تهمة حُكم على سلف ويللي ذاك، لكنهم لم يشنقوه لأنه شاحذ سكاكين. فإتقان مهنة أو معرفتك القراءة في ذلك العصر، تفيد في أنهم يرسلونك إلى أستراليا بدل أن يعلقوك في المشنقة. وكان الرجل أحد الأقوياء الذين ظلوا أحياء بفضل قدرتهم على تحمل العذاب والكحول، وهي لياقة ورثتها عنه سلالته كلها. لا يُعرف الكثير عن جد ويللي، أما أبوه فمات بتشمع الكبد. وقد أمضى ويللي عقوداً من حياته دون أن يتذوق قطرة من الكحول، لأنه يسبب له تحسساً، ولكنه إذا ما بدأ الشرب، يأخذ بزيادة الكمية شيئاً فشيئاً. لم أره مخموراً قط، لأنه قبل أن يبلغ هذه الحالة يختنق، كما لو أنه ابتلع كرة من الشَّعر، وتطرحه آلام الرأس أرضاً، ولكننا كلينا نعرف أنه لولا هذه الحساسية المباركة لكان انتهى مثل أبيه. والآن فقط، بعد أن تجاوز السبعين، يمكنه الاقتصار على تناول كأس من النبيذ الأبيض والاكتفاء بها. يقال إنه لا يمكن استبعاد عامل الوراثة، ويبدو أن أبناءه ـ ثلاثتهم يتعاطون المخدرات ـ يؤكدون ذلك. ليسوا من أم واحدة، ولكن هناك في أسرتيّ زوجتيه الأولى والثانية حالات إدمان أيضاً، تتحدر من الأجداد. والوحيد الذي لم يسبب قط مشاكل لويللي هو جيسون، ابن زوجته الثانية من رجل آخر، وويللي يحبه كما لو أنه ابنه. «جيسون ليس من دمي، ولهذا هو شخص طبيعي»، يقول عادة بنبرة من يثبت واقعة طبيعية مثل المدّ البحري أو هجرة البط البري.

عندما تعرفتُ عليه، كان جيسون فتى في الثامنة عشرة لديه موهبة كبيرة في الكتابة، ولكن دون انضباط، ولكنني كنت

واثقة من أنه سيكتسبه عاجلاً أو آجلاً؛ وهذا ستتكفل به صرامة الحياة. كان يخطط لأن يكون كاتباً في أحد الأيام، ولكنه بانتظار ذلك يكتفي بتأمل سرّته. اعتاد أن يكتب سطرين أو ثلاثة سطور ويأتي راكضاً ليسألني إذا ما كانت تتمتع بالقوة الكافية لكتابة قصة قصيرة، ولكنه لا يتجاوز إلى ما هو أبعد من ذلك. وأنا نفسي أخرجته دفشاً من البيت كي يذهب للدراسة في كوليج في جنوب كاليفورنيا، حيث تخرج بدرجة الشرف. وعندما رجع للعيش معنا، أحضر معه خطيبته سالي. كان أبوه الحقيقي عنيف الطباع، من عادته الانفجار في نوبات غضب غير محسوبة النتائج. وعندما كان جيسون في الأسابيع الأولى من حياته، تعرض لحادث لم تتضح حقيقته قط: قال أبوه إنه وقع من المهد، ولكن الأم والأطباء يرتابون في أنه ضربه على رأسه وأحدث تقعراً في جمجمته. كان لا بد من إجراء جراحة له، وقد نجا الطفل بأعجوبة، بعد أن أمضى وقتاً طويلاً في المستشفى، وانتهى أبواه في أثناء ذلك إلى الطلاق. ومن المستشفى نُقل ليوضع تحت مسؤولية الدولة لبعض الوقت. بعد ذلك أخذته أمه ليعيش مع بعض أخواله، وقد كان جيسون قديساً حقيقياً، وأخيراً جاءت به إلى كاليفورنيا. وفي الثالثة من عمره انتهى المطاف بالصبي عند أبيه، لأنهم ـ كما يبدو ـ في العمارة التي تعيش فيها أمه لا يقبلون وجود أطفال. أي نوع من العمارات تلك؟ وعندما تزوجت الأم من ويللي، استعادت ابنها. وبعد ذلك، عندما تطلقا، حمل الصبي صرته وذهب دون تردد مع ويللي. وفي أثناء ذلك، كان أبوه العضوي يظهر بين حين وآخر، ويعود إلى إساءة معاملته في بعض الأحيان، إلى أن صار الفتى في سن وحالة جسدية تتيحان له الدفاع عن نفسه. وفي ليلة كحول وتعنيف في بيت أبيه في الجبال، حيث ذهب في إجازة لبضعة أيام، وجه إليه الرجل لكمة، وجيسون الذي كان قد عاهد نفسه بألا يسمح باستعباده ثانية، رد بالخوف والغضب المتراكمين طوال سنوات، وهشم وجهه

بالضرب. وبيأس، قاد سيارته عدة ساعات في ليلة عاصفة ووصل إلى البيت مريضاً بالشعور بالذنب، وبقميص ملوث بالدم. هنأه ويللي، وقال له: لقد حان الوقت لتوضيح الأمور. أقر ذلك الحدث المخجل علاقة احترام بين الأب والابن، ولم يعد العنف يتكرر.

❖ ❖ ❖

هذه السنة من الحداد، والعمل الكثير، والمصاعب المادية، والمشاكل مع أبناء زوجي، راحت تزعزع أساس علاقتي بويللي. كان هناك الكثير من الفوضى في حياتنا. ولم أكن قادرة على التكيّف مع الولايات المتحدة. وكنت أشعر بأن قلبي آخذ بالبرودة، وأنه ليس هناك ما يستحق مواصلة التجذيف ضد التيار، فبقاؤنا طافيين يتطلب جهداً هائلاً. كنت أفكر في الذهاب، في أخذ نيكو وأسرته إلى تشيلي، حيث عادت الديمقراطية أخيراً، بعد ست عشرة سنة من دكتاتورية العسكرية، وحيث يعيش أبواي. «الطلاق، هذا ما يتوجب علي عمله»، كنت أتمتم في داخلي. ولكن، لا بد أنني قلته بصوت عالٍ أكثر من مرة، لأن أذن ويللي انتصبت عند سماع كلمة طلاق. كان قد مرّ بتلك التجربة مرتين من قبل، وكان مصمماً على تجنب مرة ثالثة؛ عندئذ ضغط عليّ كي نستشير طبيباً نفسياً. كنت قد سخرتُ دون رحمة من معالج تابرا النفساني، وهو كحولي مشعث الشعر ينصحها بالمسلمات نفسها التي يمكنني تقديمها إليها مجاناً. فقد كان العلاج النفسي، في رأيي، واحدة من نزوات الأمريكيين، وهم أناس مدللون وغير متسامحين مع صعوبات الحياة العادية. لقد رسّخ جدي في ذهني منذ الطفولة المفهوم الرواقي بأن الحياة قاسية، وأنه لا سبيل حيال المشاكل سوى الضغط على الأسنان والمواصلة قدماً. السعادة أمر مستهجن، والمرء يأتي إلى الدنيا كي يعاني ويتعلم. ولحسن الحظ أن مذهب اللذة الفنزويلي خفف قليلاً من مفاهيم جدي القروسطية تلك، ومنحني الإذن في أن أعيش جيداً دون

إحساس بالذنب. في تشيلي، في سنوات شبابي، لم يكن هناك من يذهب إلى العلاج النفسي، باستثناء المجانين الذين يستحقون التقييد والسياح الأرجنتينيين، ولهذا عارضت بشدة اقتراح ويللي، ولكنه ألح كثيراً مما جعلني أرافقه أخيراً. وبعبارة أفضل، كان هو من حملني من أحد جناحي.

وجدت أن للطبيب النفسي مظهر راهب، كان حليق الرأس، يشرب شاياً أخضر، ويظل معظم وقت الجلسة مغمض العينين. في كونتية مارين يرى المرء في كل الأوقات رجالاً على درجات، أو يهرولون ببناطيل قصيرة، أو يرتشفون فناجين الكابوتشينو على مناضد مقاهي الأرصفة. «ألا يعمل هؤلاء الناس؟»، سألتُ ويللي في إحدى المرات. «إنهم جميعهم أطباء نفسانيين»، أجابني. ربما لهذا السبب شعرت بارتياب عظيم حيال الأصلع، ولكنه سرعان ما تكشف عن عالم حكيم. كان مكتبه حجرة عارية مطلية بلون البازيلاء، ومزين بستارة قماشية ـ أظن أنها تسمى مندالة ـ معلقة على الجدار. جلسنا متقاطعي الأرجل على حشايا موضوعة على الأرض، بينما كان الراهب يرتشف، مثل عصفور، شايه الياباني. بدأنا الكلام، وسرعان ما انفلت سيل جارف. كنتُ أنا وويلي نتنازع الكلمة لنروي له ما جرى لكِ، وحياة الرعب التي تعيشها جنيفر، وهشاشة بنية سابرينا، وألف مشكلة أخرى، ورغبتي في إلقاء كل ذلك إلى الجحيم والاختفاء. استمع الرجل إلينا دون مقاطعة، وعندما لم يبق سوى دقائق قليلة لانتهاء الجلسة، رفع جفنيه ونظر إلينا بملامح رثاء بريئة. «يا للحزن الذي في حياتيكما!»، تمتم. حزن؟ لم يخطر هذا الأمر لأي منا. تلاشى غضبنا في هنيهة وأحسسنا حتى العظم بحزن فسيح باتساع المحيط الهادي، لم نكن نرغب في الاعتراف به لمجرد الكبرياء. أمسك ويللي يدي، وجذبني نحو حشيته وتعانقنا. وأحسسنا للمرة الأولى بأن قلبينا موجوعان جداً. وكانت تلك بداية المصالحة.

ـ سأنصحكما بعدم ذكر كلمة طلاق خلال أسبوع.
أتستطيعان عمل ذلك؟ ـ سألنا المعالج.
ـ أجل ـ أجبنا بصوت واحد.
ـ وهل تستطيعان عمل ذلك لأسبوعين؟
ـ ولثلاثة إذا شئت ـ قلت.

كان هذا هو الاتفاق. أمضينا ثلاثة أسابيع مركزين على حلّ أمور الحياة اليومية المستعجلة، دون أن نلفظ الكلمة المذكورة أعلاه. كنا نعيش في أزمة، ولكن المهلة انقضت ومضى شهر، ثم شهر آخر، والحقيقة أننا لم نعد إلى الكلام عن الطلاق أبداً. عدنا إلى تفعيل تلك الرقصة الليلية التي بدت لنا طبيعية منذ البدء: النوم متعانقين ومتلاصقين، إذا انقلب أحدنا يسوي الآخر وضعه وفقاً لذلك، وإذا ابتعد أحدنا يستيقظ الآخر. ومن فنجان شاي أخضر إلى آخر، قادنا المعالج من يدينا عبر وعورة تلك السنوات. ونصحني بأن «أظل في خندقي» وألا أتدخل في شؤون أبناء زوجي الذين هم، في الواقع، السبب الرئيسي في مشاجراتنا. هل أهدى ويللي سيارة جديدة إلى ابنه الذي طُرد للتو من المدرسة ويمضي هائماً في سُحب عقارات الهلوسة والماريجوانا؟ هذه ليست مشكلتي. وهل صدم السيارة بعد أسبوع بشجرة وحطمها؟ عليَّ أن أظل في الخندق. هل اشترى له ويللي سيارة أخرى وخرّبها أيضاً؟ على أن أعض لساني. عندئذ يكافئه أبوه بشاحنة مغلقة، ويوضح لي أنها سيارة أكثر أماناً وقوة. «صحيح، فهكذا عندما يصدم شخصاً لن يتركه جريحاً على الأقل، بل سيقتله بصدمة واحدة»، أردّ بنبرة جليدية. أحبس نفسي في الحمام، آخذ دوشاً بارداً، وأردد قائمة كلماتي البذيئة كلها، وأذهب على الفور لقضاء ساعات في صنع عقود في ورشة تابرا.

لقد كان العلاج النفسي مفيداً جداً. وبفضله وفضل الكتابة استطعت تجاوز عدة محن، وإن لم أخرج منها جميعها بنجاح،

وأنقذت حبي لويللي. وقد تواصلت الميلودراما العائلية، لحسن الحظ، وإلا عن أية شياطين كنتُ سأكتب؟

طفلة وثلاث أمهات

كانوا يسمحون لجنيفر برؤية ابنتها مرة كل أسبوعين، في زياراتٍ تخضع للمراقبة، وفي كل واحدة من تلك المناسبات كنت أتأكد من التردي المتزايد لحالة ابنة ويللي. كان مظهرها أسوأ في كل مرة، مثلما كنت أوضح لأمي ولصديقتي بيا في الرسائل. وفي تشيلي، تبرعت كلتاهما لدار أيتام الأب هورادو، القديس التشيلي الوحيد الذي يوقره حتى الشيوعيون لأنه صاحب معجزات، كي يتضرع من أجل أن تبدل جنيفر مسارها وتنقذ حياتها. والواقع أنه لم يكن إلا بإمكان تدخل إلهي أن يساعدها. وهنا يجب عليّ أن أتوقف قليلاً لأُطلعكِ على آخر أخبار بيا، تلك المرأة التي هي مثل أخت تشيلية لي، والتي لم يضعف وفاؤها قط، حتى عندما باعد المنفى بيننا. إنها تتحدر من وسط كاثوليكي شديد التدين والمحافظة، حتى إنها احتفلت بفتح الشمبانيا عند قيام الانقلاب العسكري عام 1973، ولكنني أعرف أنها في مناسبتين اثنتين على الأقل، خبأت في بيتها بعض ضحايا الدكتاتورية. نادراً ما نقرب الموضوع السياسي. وعندما خرجتُ مع أسرتي الصغيرة إلى فنزويلا، ظللنا نتبادل الرسائل دون انقطاع، ونحن الآن نتبادل الزيارات في تشيلي وكاليفورنيا، حيث اعتادت المجيء في إجازاتها؛ هكذا حافظنا على صداقة صارت بصفاء الألماس. تحب كل منا الأخرى دون شروط، وعندما نكون معاً نرسم لوحات مشتركة ونضحك كفتيات صغيرات. أتتذكرين كيف اعتدنا أنا وهي على المزاح بأننا سنتحول ذات يوم إلى أرملتين سعيدتين ونعيش

معاً في علية بيت، نتبادل النمائم ونشتغل أعمالاً حرفية فنية؟ حسن يا باولا، لم نعد نتحدث في هذا الأمر، لأن زوجها خيراردو، أشد الرجال طيبة في العالم، مات ذات صباح مثل أي صباح آخر، عندما كان يتفقد العمل في إحدى حظائر مواشيه في الريف. أطلق زفرة، وأحنى رأسه، وذهب إلى العالم الآخر دون أن يتمكن من الوداع. لم تجد بيا العزاء بالرغم من أنها محاطة بقبيلتها: أربعة أبناء، وخمسة أحفاد، ونحو خمسين شخصاً من الأقارب والأصدقاء الذين هم على اتصال مباشر معها، مثلما هي العادة في تشيلي. إنها منكبة على الإحسان دون تمييز، والعناية بأسرتها، وبألوانها المائية ورياشها التي تشغل بها وقت فراغها. وفي لحظات الحزن، عندما لا تتمكن من كبح دموعها على خيراردو، تنزوي وحدها لتطرز وتصنع عجائب على قطع من القماش، بما في ذلك إيقونات تطريز ناتئ ومحجر تبدو كأنها قد أُنقذت من القسطنطينية القديمة. بيا هذه التي أحبتكِ كثيراً، بنت صومعة في حديقتها وزرعت شجيرة ورد لذكراكِ. وهناك، بالقرب من هذه الشجيرة الكريمة، تتبادل الحديث مع خيراردو ومعك، وتصلي بكثرة من أجل أبناء ويللي وحفيدته.

كانت ريبيكا، الزائرة الاجتماعية، هي من تنظم خطة العمل للقاءات سابرينا مع أمها. لم يكن ذلك سهلاً، لاسيما وأن القاضي قد أمر بتجنب اصطدام جنيفر ورفيقها مع الأُمّين المتبنيتين، أو أن يعرفا أين تسكنان. فكنت ألتقي مع فو وغريس في مرآب مركز تجاري، وتسلمانني هناك الصغيرة، مع حفاضاتها، وألعابها، وزجاجات رضاعتها، وبقية الحمولة الفخمة التي يحتاجها الأطفال الرضع. فأنطلق بها، بعد وضعها في أحد السلال القشية الخاصة بأحفادي في السيارة، إلى مبنى البلدية، حيث ألتقي بريبيكا وشرطية مختلفة في كل مرة، وجميعهن يبدو عليهن الضجر المهني. وبينما المرأة ذات الزي الشرطي تحرس الباب، أنتظر أنا وريبيكا

فـي القاعة، مفتونتين بالطفلة التي صارت جميلة وشديدة اليقظة، لا يفلت منها أي تفصيل. كانت بشرتها بلون الكراميلا، مع تجعيدات حَمَل حديث الولادة على رأسها، وعيني حورية مذهلتين. فـي بعض الأحيان تأتي جنيفر إلى الموعد، وفـي أحيان أخرى لا تحضر. وعندما تظهـر، متحولـة إلى حزمـة أعـصاب، وبـسلوك متهـرب مثـل ثعلـب مطارد، لا تبقى أكثر من خمس أو عشر دقائق. تحمل ابنتها بين ذراعيها، وعند إحساسها بأنها خفيفة جداً، أو سماعها تبكـي، تشعر بالارتباك. «إنني بحاجة إلى سيجارة»، تقول؛ وتخرج مسرعة ولا ترجع فـي أغلب المرات. ترافقني ريبيكا والمرأة الشرطية حتى السيارة، وأقودها أنا عائدة إلى المرآب حيث تنتظرني الأمَّان جزعتين. لا بد أن تلك الزيارات المتعجلة كانت عذاباً، لأنها فقدت ابنتها ولم تكن تجد العزاء في معرفة أنها بين أيدٍ أمينة.

استمرت هذه المواعيد الإستراتيجية حوالي خمسة شهور، حين حطت جنيفر من جديد فـي المستشفى مصابة بالتهاب فـي القلب وآخر فـي الساقين. لم تُبدِ ما يشير إلى القلق، وقالت إن مثل هذا حدث لها من قبل، وليس ثمة خطر، لكن الأطباء عاملوها بقدر أقل من الخفة. وقررت فو وغريس أنهما قد ضجرتا من التخفـي، وأن لجنيفر الحق فـي معرفة من يتولى مسؤولية ابنتها. رافقتهما إلى المستشفى، متجاوزين البروتوكول القانوني. «إذا ما علمت الزائرة الاجتماعية، ستجدون أنفسكم فـي مشكلة»، أبدى ويللي رأيه، وهو يفكر كمحام ودون أن يتعرف جيداً على ريبيكا بعد.

كانت ابنة ويللي في مظهر يرثى له، يمكن عدّ أضراسها من خلال جلد خديها الشفاف، وكان شعرها أشبه بلمة دمية، ويداها زرقاوان وأظفارها سوداء. وكانت أمها هناك أيضاً، ممتقعة لرؤيتها في تلك الحال. أظن أنها كانت قد تقبلت واقع أن جنيفر لن تعيش طويلاً، غير أنها تأمل على الأقل أن تلتقي معها قبل النهاية. وفكرت في أنه ستتمكن من التحدث معها في المستشفى ومصالحتها، بعد

سنوات طويلة من التجريح المتبادل؛ ولكن ابنتها ستهرب أيضاً في هذه المرة، قبل أن تعطي الأدوية مفعولها. لقد قرّبت المصاعب بين زوجة ويللي الأولى وبيني: هي عانت كثيراً مع ابنيها، وكلاهما مدمن على المخدرات؛ وأنا فقدتكِ يا باولا. لقد جرى طلاقها من ويللي منذ أكثر من عشرين سنة، وكلاهما عاد للزواج ثانية، مما دفعني إلى الاعتقاد أنه لم تعد هناك أحقاد معلقة بينهما. ولكنها كانت موجودة، ومجيء سابرينا إلى حياتيهما أعاد تلك الأحقاد. الانجذاب الذي وحدهما في شبابهما تحول إلى خيبة أمل متبادلة بعد قليل من زواجهما، وانتهى بعد عشر سنوات من ذلك إلى هاوية وعرة. لم يكن هناك أي شيء مشترك بينهما باستثناء الابنين. خلال فترة زواجهما، كرس هو نفسه بالكامل لمهنته، مصمماً على النجاح وجمع المال، بينما شعرت هي أنها مهملة، وكانت تصاب بنوبات انهيار عصبي عميقة. أضف إلى ذلك أنه قُدر لهما أن يعيشا في عقد الستينيات المضطرب، عندما تحللت العادات كثيراً في هذا الجانب من العالم: شاعت موضة الحب الحر، وكان يجري تبادل الأزواج كطريقة في التسلية، وكان الحضور في الحفلات يستحمون عراة معاً في الجاكوزي المنزلي، وكان الجميع يشربون المارتيني ويدخنون الماريجوانا، بينما الأطفال يمضون طليقين في كل الأنحاء. تلك التجارب خلّفت تناثراً من الزيجات المنفرطة، مثلما هو متوقع، ولكن ويللي يؤكد أنه لم يكن هذا هو سبب القطيعة. «لقد كنا كالزيت والماء، لا توافق بيننا، ولم يكن بإمكان ذلك الزواج أن يستمر». في بداية علاقتي بويللي، سألته إن كان سيتخلل علاقتنا ما يسمى «الحب المفتوح» - وهي تسمية ملطفة للخيانة الزوجية - أم أنها ستكون علاقة أحادية. كنت أريد معرفة ذلك لأنه لا وقت ولا ميل للتجسس على عشيق متقلب الأهواء. وقد أجابني دون تردد: «زواج أحادي، فقد جربت الصيغة الأخرى، وهي كارثة». فقلت له: «حسن. لكني إذا ما ضبطك في مغامرة، سأقتلك أنت

وأبناءك وكلبك، هل تفهمني». «أفهمك تماماً». لقد احترمتُ الاتفاق من جانبي باحتشام أكبر مما يمكن توقعه من شخص له مثل طبعي؛ وأفترض أنه فعل الشيء نفسه، ولكني لست مستعدة لأن أضع يديّ في النار لأشهد على أحد.

أخذت جنيفر ابنتها وضمتها إلى صدرها الناحل، بينما هي تشكر غريس وفو مرة بعد أخرى. وكانتا تضفيان فوق ذلك لمسة مرح وطمأنينة وجمال على كل ما تلمسانه. خففتا احتراسهما ـ وهو ما لم يفعله أحد حتى ذلك الحين مع جنيفر ـ وأبدتا استعدادهما لتقبلها بكل ما لديهما من رحمة، وهو كثير جداً. وهكذا حوّلتا تلك المأساة الخسيسة إلى تجربة روحية. داعبت غريس جنيفر، وسوّت لها شعرها، وقبّلت جبهتها، وأكدت لها أنه يمكنها أن ترى سابرينا كل يوم، وأنها هي نفسها ستُحضرها إذا رغبت في ذلك، ويمكن لها عند خروجها من المستشفى أن تزورها في المزرعة البوذية. وأخبرتها بمدى ذكاء الطفلة، وحيويتها، وكيف بدأت تبتلع الحليب دون صعوبة، ولم تتذكر شيئاً عن مشاكلها الصحية الجدية.

ـ ألا تظنين أنه يجب إطلاع جنيفر على الحقيقة، يا غريس؟ ـ سألتها عندما خرجنا.

ـ أية حقيقة؟

ـ إذا ما تواصل ضعف سابرينا على هذا النحو. فإن كرات دمها البيضاء...

ـ لن تموت. ويمكنني أن أقسم لك على ذلك ـ قاطعتني بأشد قدر من القناعة المطمئنة.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأينا فيها جنيفر.

في الخامس والعشرين من أيار 1994 احتفلنا بعيد ميلاد سابرينا الأول في مركز بوذية الزّن، بمشاركة حوالي خمسين شخصاً حفاة، بثياب فضفاضة كملابس حجاج القرون الوسطى،

بعضهم حليقي الرؤوس، بتلك الملامح الهادئة التي تميز النباتيين. سيليا، ونيكو، وأطفالهما، وجيسون مع خطيبته سالي وبقية الأسرة كانوا هناك. وكنتُ المرأة الوحيد المكيجة، وكان الرجل الوحيد الذي يحمل آلة تصوير هو ويللي. وفي منتصف القاعة كان يلهو عدد من الأطفال بصخب بالونات حول قالب حلوى عضوية من الجزر. وكانت سابرينا، بزي عفريت صغير، مع صف من النجوم المعدنية الملتصقة بجبهتها، متوجة ملكة أثيوبيا من قبل أليخاندرو، وببالون أصفر مربوط بخيط حول خصرها كي يراها الجميع من بعيد ولا يدوسونها، تنتقل من يد إلى يد، ومن قبلة إلى قبلة. بالمقارنة مع حفيدتي نيكول الممتلئة مثل دب كوالا، بدت سابرينا دمية طرية، ولكنها كانت قد تجاوزت خلال تلك السنة كل تنبؤات الأطباء المشؤومة: صارت تجلس، وتحاول أن تحبو، وتميز جميع المقيمين في مركز بوذية الزّن. وقدم المدعوون أنفسهم واحداً فواحداً: «أنا كاتي، أتولى رعاية سابرينا يومي الثلاثاء والخميس»؛ «اسمي مارك، وأنا معالجها الفيزيائي»؛ «أنا مايكل، راهب زن منذ ثلاثين سنة، وسابرينا هي معلمتي»...

معجزات صغيرة يومية

في السادس من كانون الأول حلّت الذكرى الأولى لموتكِ. كنت أريد تذكركِ جميلة، بسيطة، سعيدة، مرتدية فستان عروس، أو قافزة فوق برك الماء تحت المطر في طليطلة، وحاملة مظلة سوداء؛ ولكن في الليل، في كوابيسي، تداهمني أشد الصور مأساوية: سريرك في المستشفى، شخير آلة التنفس، الكرسي ذو العجلات، المنديل الذي كنا نغطي به شق الرغامى، يداكِ المجعدتان. رجوتُ مرات كثيرة أن أموت بدلاً عنك؛ وفي ما

بعد، عندما لم تعد هذه المقايضة ممكنة، رجوت أن أموت بحيث تقتضي العدالة أن أمرض مرضاً جدياً؛ ولكن الموت أمر بالغ الصعوبة، مثلما تعرفين ومثلما كانت تقول جدتي وهي على وشك أن تكمل قرناً في الحياة. إنني ما زلتُ حية بعد سنة من موتك، بفضل محبة أسرتي، والإبر السحرية والأعشاب الصينية التي يمدني بها الحكيم الياباني ميكي شيما الذي كان إلى جانبك وإلى جانبي في الشهور التي كنتِ تودعين فيها شيئاً فشيئاً. لا أدري أي مفعول كان لأدويته فيكِ، غير أن حضوره الهادئ ورسالته الروحية كانا يسنداني أسبوعاً فأسبوعاً في تلك الفترة. «لا تقولي إنك تريدين الموت، لأنك تقتلينني حزناً»، أنبتني أمي عندما ألمحتُ إليها بذلك في إحدى الرسائل. لم تكن هي مسوغ حياتي الوحيد. فلدي ويللي، ونيكو، وسيليا وهؤلاء الأحفاد الثلاثة الذين اعتادوا إيقاظي بأيديهم الصغيرة المتسخة وقبلاتهم المترعة بالريالة، وحفاضاتهم الثلاثة، وروائحتهم العابقة بالعرق والمصاصة. في السرير نفسه، معاً ومتعانقين، كنا نرى في الليل أفلام فيديو مرعبة عن ديناصورات تلتهم الممثلين. فكان أليخاندرو، وهو في الرابعة من عمره، يمسك يدي ويطلب مني ألا أخاف، وأن ذلك كذب، وأن تلك المسوخ ستتقيأ في ما بعد الأشخاص كاملين لأنها لم تمضغهم.

في صباح هذه الذكرى ذهبتُ مع أليخاندرو إلى الغابة التي صرنا جميعنا نسميها الآن «غابة باولا». وفي هذا كثير من الزهو، يا بنتي، لأن المتنزه حكومي. كان المطر يهطل، والبرد شديد، غصنا في الوحل، وكان الهواء يعبق برائحة الصنوبر، ومن بين قمم الأشجار يتسرب ضوء شتائي كئيب. كان حفيدي يركض أمامي وساقاه تتباعدان إلى الجانبين ويحرك ذراعيه مثل فرخ بط. اقترينا من الجدول، وكان صاخباً في الشتاء، حيث نثرنا رمادك. تعرّف على المكان فوراً، وقال:

- باولا كانت مريضة أمس - فالماضي كله في نظره: أمس.

ـ أجل، وماتت.
ـ من قتلها؟
ـ ليس مثل التلفزيون، يا أليخاندرو. في بعض الأحيان يمرض الناس ويموتون، هكذا وحسب.
ـ وإلى أين يذهب الميتون؟
ـ لا أعرف بالضبط.
ـ هي ذهبت إلى هنا ـ قال مشيراً إلى الجدول.
ـ رمادها ذهب إلى الماء، ولكن روحها تعيش في هذه الغابة. ألا ترى ذلك جميلاً؟
ـ لا، كان الأفضل أن تعيش معنا.

ظللنا بعض الوقت نتذكركِ في ذلك المعبد الأخضر، حيث يمكننا الشعور بكِ، محسوسة وحاضرة، مثل النسمة الباردة والمطر.

في المساء اجتمعت الأسرة ـ بمن في ذلك إرنستو الذي جاء من نيوجرسي ـ مع عدد من الأصدقاء في بيتنا. جلسنا في الصالة واحتفلنا بالهبات التي قدمتِها لنا في حياتك ومازلتِ تقدمينها: ميلاد الحفيدتين سابرينا ونيكول، وانضمام الأمّين فو وغريس إلى القبيلة، وكذلك سالي. وكانت تتصدر المذبح الذي ارتجلناه بصورك وذكرياتك شمعة بائسة بيضاء، في منتصفها ثقب.

في السنة السابقة، بعد ثلاثة أيام من موتكِ، اجتمعتُ مع أخوات الفوضى الدائمة في بيت واحدة منهن، مثلما نفعل دائماً كل يوم ثلاثاء، حول ست شموع جديدة. كان غيابك يحني ظهري ألماً. «أشعر بنار تحرقني في منتصف جسدي»، قلتُ لهن. أمسكنا بأيدي بعضنا البعض، أغمضنا عيوننا، ووجهت صديقاتي حنانهن وصلاتهن نحوي، لمساعدتي على تحمل حزن تلك الأيام. كنت أطلب إشارة، دليلاً على أنك لم تختفي في العدم إلى الأبد، وأن روحك مازالت موجودة في مكان ما. وفجأة سمعتُ صوت جين: «انظري شمعتك يا إيزابيل». كانت شمعتي تشتعل من منتصفها. «إنها نار في

البطن»، أضافت جين. انتظرنا. أذاب اللهب الشمع وشكّل فجوة في منتصف الشمعة، ولكنها لم تتكسر. ومثلما اشتعلت دون تفسير، انطفأ اللهب بعد لحظات. صارت الشمعة مجوفة، ولكنها ظلت منتصبة، وبدا لي أن هذه هي الإشارة التي انتظرها، غمزة موجهة إليّ من بُعد آخر: حرقة موتك لن تكسرني. تفحص نيكو الشمعة في ما بعد ولم يستطع العثور على سبب ذلك اللهب الغريب في منتصفها؛ ربما كان هناك عيب في صنعها، فتيلة ثانية اشتعلت من تطاير شرارة. «ولماذا تريدين تفسيراً، يا أماه. المهم في هذه الحالة هي الفرصة. لقد تلقيتِ الإشارة التي طلبتها، وهذا كافٍ»، قال لي نيكو كي يسعدني كما أفترض؛ فبالنظر إلى ارتيابيته، لا أظنه يعتبرها معجزة.

أوضحت فو أنه علينا أن نشعل بخوراً لأن الدخان يصعد مع أفكارنا. ضوء الشموع يمثل الحكمة، والضياء والحياة. والزهور ترمز إلى الجمال والاستمرارية، لأنها تموت ولكنها تترك بذوراً لأزهار أخرى، مثلما تظل بذورنا في أحفادنا. كل واحد منا تبادل مع الآخرين شعوراً ما أو ذكرى. وكانت سيليا آخر المتكلمين، وقالت: «باولا، تذكري أن لك ثلاثة أبناء أخ، وعليك العناية بهم كثيراً، انتبهي إلى أنهم قد يصابون بالبورفيريا أيضاً. تذكري كذلك أن تعملي من أجل أن تنال سابرينا حياة مديدة وسعيدة. وتذكري أن إرنستو بحاجة إلى زوجة أخرى، فضعي أنوارك وابحثي له عن عروس».

وكي ننهي، خلطنا تراباً مع قليل من رمادك الذي احتفظتُ به، وزرعنا شجرة في أصيص، مفكرين في نقلها، فور رسوخ جذورها، إلى حديقتنا أو إلى غابتك.

في تلك الليلة حضرت كذلك شيري فورستر، دكتورتنا الرحيمة، والحكيم ميكي شيما الذي كان، قبل أيام من ذلك، قد رمى لي عيدان الآي شنغ، وخرج منها أن «المرأة قد تحملت أرض

الخـراب بـصبر، وهـي تجتـاز النهـر حافـية بتـصميم، هنـاك أنـاس بعيدون تعتمد عليهم، ولكن لا رفاق معها، عليها السير وحيـدة فـي ممر الخوف». بدا لي ذلك واضحاً جداً. وقال الدكتور شيما إن لديه رسالة منكِ: «باولا فـي حالة جيدة، إنهـا تمضي مبتعـدة فـي طريقهـا الروحي، لكنها تُعنى بنا وهي حاضرة بيننا. تقول إنها لا تريد منا أن نواصل البكاء عليها، تريد رؤيتنا سعداء». تبادل نيكو وويللي نظرة ذات مغزى، لأنهما لا يصدقان هـذا السيد كثيراً، يقـولان إنـه غير قادر على إثبات شـيء مما يقوله؛ ولكنني لم أشـك لحظة فـي أنـه كـان صـوتكِ، لأنـه مشابه للرسـالة الـتي تركتِهـا فـي وصـيتك: «أرجوكم، لا تحزنوا. مازلت مع الجميع، ولكنني أكثر قربـاً مـن السـابق. بعد بعض الوقت سنجتمع معاً روحيـاً، ولكننـا حتـى ذلـك الحـين سنظل معاً مـادمتم تتذكرونني. تـذكروا أننـا نحـن الأرواح نساعد ونرافق ونحمي بصورة أفضل من يكونـون سـعداء». هـذا مـا كتبتِه يا بنتي. كانت شيري فورستر تبكي بغزارة، لأن أمهـا ماتت فـي مثل سنك، وأنكما الاثنتين، حسب قولها، متشابهتان جداً.

كنتُ قد نويت أن أضع فـي تلك المناسبة كلمة النهاية فـي مخطوطة الكتاب، وأن أقدمه لك هدية. باركـت فـو حزمة الأوراق المربوطـة بـشريط أحمـر، ورفعنـا بعـد ذلـك نخـب شمبانيـا وقطعنـا كعكـة شـكولاته. كـان هنـاك تـأثر عميـق، ولكنـه لم يكـن حـداداً، وإنمـا أشـبه بحفلـة دون صـخب. احتفلنـا بأنـكِ صـرت حـرة أخيراً، بعد أن أمضيت زمناً طويلاً وأنت سجينة.

❖ ❖ ❖

حزن. مثلما أشار المعالج النفسي، كـان هنـاك حزن فـي حيـاة ويللي وفـي حيـاتي، وإن لم يكـن شـعوراً مـسبباً للشلل، وإنمـا وعـي بالخسـائر والمصاعب التي تلون الواقع. كثيراً ما كان علينا أن نرتب وضع الحمولة ومواصلة التقدم قدماً دون أن نـسقط. كانـت هنـاك فوضى عارمة، نشعر معها بأننا وسط عاصفة على الدوام، نُحكم

إقفال الأبواب والنوافذ كي لا تكتسح ريح المصيبة كل شيء.

كان مكتب ويللي للمحاماة يعمل بالدين. فويللي يقبل تبني قضايا خاسرة، وينفق أكثر مما يكسب، ويحتفظ بجيش من الموظفين غير النافعين، وكان متورطاً في مشاكل ضريبية. إنه إداري بالغ السوء. ولم يكن بمقدور تونغ، محاسبه الصيني الوفي، أن يكبحه. حضوري في حياته حمل إليه الاستقرار، لأني استطعت أن أساعده في النفقات في الحالات المستعجلة، وتولي مسؤولية البيت، وتنظيم الحسابات المصرفية، وإلغاء معظم بطاقات الائتمان. نقل مكتبه من سان فرانسيسكو إلى بيت على الطراز الفيكتوري اشتريته في ساوساليتو، القرية الأكثر بهاء في الخليج. لقد شُيِّد البناء في حوالي العام 1870 ويزدهي بتوثيق نسب باهر. فقد كان أول ماخور في المنطقة؛ وتحول بعد ذلك إلى كنيسة، ثم صار مصنع بسكويت بالشكولاته، وأخيراً، بعد تحوّله إلى أطلال، انتقل إلى أيدينا. وكما قال ويللي، كان البناء ينحدر في السلّم الاجتماعي. كان غارقاً وسط أشجار معمرة ومريضة تهدد بالسقوط على بيوت الجيران مع أول عاصفة. وقد أجبرونا على قطع اثنتين منها. جاء القتلة، وصعدوا بالمناشير والفؤوس، وعلقوا الأغصان بحبال، وبدؤوا بتقطيع أوصال ضحيتيهما اللتين راحتا تنزفان دون صخب، مثلما تموت الأشجار. خرجتُ هاربة، غير قادرة على تحمل مشهد تلك المجزرة لمزيد من الوقت. وفي اليوم التالي لم نتعرف على البيت: كان عارياً ومعطوباً، أخشابه منخورة بفعل الزمن والأرضة، وقرميده متلو، ومصاريع نوافذه مخلعة ومتهدلة. كانت الأشجار تخفي حالته المتردية، وبدا من دونها أشبه بمومس هرمة. فرك ويللي كفيه متحمساً، لأنه في تقمص سابق كان بناءً، واحداً من أولئك البنائين الذي شيدوا كاتدرائيات. «سنعيد البيت جميلاً مثلما كان في البدء»، قال، وذهب للبحث عن المخططات الأصلية ليعيد إلى البيت أناقته الفيكتورية. وقد حقق ذلك بالكامل، وعلى الرغم من

انتهاكـات أدوات العمـل، مازالـت جدرانـه تحـتفظ بعبـق عطـور الموسسات الفرنسية، وبخور الكهنة المسيحيين ورائحة شوكولاته البسكويت.

وفـي الحجـرات نفسها، حيـث كانـت سـيدات الليـل يُنـسين زبائنهن أحـزانهم، يعمل ويللي اليوم على تصريف ارتيابات القانون غير اليقينية. وفـي المكـان الـذي كـان فـي السابق مـرآب العربـة، تـصارعتُ مـع أشـباحي الأدبيـة طـوال سـنوات، إلى أن تمكنـت مـن الحصول على غرفة صغيرة خاصة فـي البيت، حيـث أكتب الآن. واستغل ويللي انتقالنا ليتخلص من نصف موظفـيه، وصار بإمكانـه انتقاء قضاياه بصورة أفضل. ولكـن مكتبـه كـان لا يـزال فوضـوياً وقليـل المـردود. «مهمـا كـان مـا يـدخل، فـإن مـا يخـرج أكثـر. رتـب حساباتك يا ويللي، إنك تعمل مقابل دولار فـي الساعة» نبهته. لم ترق لـه تقـديراتي. ولكـن تونـغ الـذي عمـل معـه ثلاثـين سنة، وأنقـذه مـن حافة الإفلاس فـي أكثر من مناسبة، كان متفقاً معي. لقد تربيتُ مع جد باسكي شديد الحذر بشأن النقود، وبعد ذلك مع العم رامون الذي كان يعيش بأدنى قدر من المال. وكانت فلسفة زوج أمي هـذا: «إننا أغنياء بصورة فسيحة»، على الرغم من أن الحاجة تضطره لأن يكون حذراً جداً فـي النفقات. كان يرمي إلى الاستمتاع فـي الحياة بـأروع أسـلوب، ويُخـرج كـل سـنتافو مـن راتبـه الـضئيل كموظـف عمومي كـي يقيم أود أبنائه أربعة، وأبنـاء أمـي الثلاثة. كـان العم رامـون يقـسم نقـود الـشهر ويضع الأوراق النقديـة فـي مغلفـات، يعـدُّ النقـود ويعـود إلى عـدّها، كـي تكفـي لتغطيـة نفقـات كـل أسـبوع. فإذا ما استطاع أن يوفر القليل من هنا والقليل مـن هنـاك، يأخـذنا لتنـاول المثلجـات. وكانـت أمـي الـتي اعتُـبرت علـى الـدوام امـرأة علـى الموضة، تخيط ثيابها فـي البيت، وتكيّف الفساتين نفسها مـرة بعـد أخرى. كانا يشاركان في حياة اجتماعية واسعة، وهو ما لا يمكن للدبلوماسيين تجنبه، وكـان لـديها فستان رقـص أساسـي مـن حريـر

رمادي، تضع له أكماماً، وأحزمة، وشرائط، أو تنزعها عنه، بحيث أنها تظهر على الدوام، في صور ذلك الزمن، بفساتين مختلفة. ولم يكن يخطر ببال أي منهما الاستدانة. لقد قدم لي العم رامون أكثر التعليمات جدوى في الحياة، وهو ما اكتشفته من خلال العلاج النفسي في سن النضج: ذاكرة انتقائية من أجل تذكر الأمور الجيدة، تعقل منطقي من أجل عدم تدمير الحاضر، وتفاؤل متحَمّس لمواجهة المستقبل. كما منحني روح الخدمة والمساعدة وعلمني عدم الشكوى، لأن هذا يتلف الصحة. لقد كان أفضل صديق لي، وليس هناك ما لم أتقاسمه معه. وبفضل الطريقة التي تربيت بها، ومفاجآت المنفى بعد ذلك، تكوّنت لي عقلية فلاحة في موضوع المال. ولو كان الأمر بيدي، لكنت خبأت مدخراتي تحت الفراش، مثلما يفعل ذلك المتودد إلى تابرا بسبائك فضته. لقد كانت طريقة زوجي في الإنفاق ترعبني، ولكنني كلما دسست أنفي في شؤونه، يفتعل معركة.

ما إن أُرسلت مخطوطة ***باولا*** إلى إسبانيا، ووصلت سليمة إلى يديّ وكيلتي الراعية كارمن بالثييس، حتى انزاح عن كاهلي تعب عميق. كنت مشغولة جداً بأسرتي، برحلاتي، بمحاضراتي، وببيروقراطية مكتبي التي راحت تتعاظم إلى أن اكتسب أبعاداً مرعبة. كان الوقت ضئيل المردود، فأنا أدور حول نفسي في المكان نفسه مثل كلب يعض ذيله، دون أن أنتج شيئاً ذا قيمة، بل إنني كنت قد أنجزت قسماً لا بأس به من الأبحاث لكتابة رواية حول حمى الذهب في كاليفورنيا، ولكنني كنت أجلس أمام الكمبيوتر ممتلئة بالأفكار، ولا أتمكن من نقلها إلى شاشة الجهاز. «عليكِ أن تمنحي نفسك مزيداً من الوقت، فأنت لا تزالين في حداد»، تذكرني أمي في رسائلها، وتكرر الشيء نفسه بعذوبة الجدة هيلدا التي كانت تتنقل بالتناوب في ذلك الحين بين بيت ابنتها في تشيلي، وبيتنا وبيت نيكو في كاليفورنيا. لقد

كانت سيدة طيبة، وهي والدة هيلديتا، زوجة أخي بانتشو الأولى، وقد تحولت إلى جدة بالتبني لنا جميعاً، وخاصة لكِ أنت ولنيكو، إذ تولت تدليلكما منذ لحظة ولادتكما. وكانت شريكتي المتواطئة في كل حماقة خطر لي تنفيذها في شبابي، ورفيقة مغامراتكما أنتما الاثنين.

ماريجوانا وسليكون

الجدة هيلدا التي لا تعرف الكلل، الضئيلة والمرحة، تدبرت الأمر طوال حياتها لتجنب كل ما يمكن أن يسبب لها الغم؛ ولا بد أن يكون هذا هو سبب طبعها المفاجئ. لها فم قديسة: لا تتكلم بالسوء عن أحد، تتهرب من المجادلات، وتتسامح مع حماقات الآخرين دون أن تنبس ببنت شفة، ويمكن لها أن تتحول إلى شفافة وغير مرئية بإرادتها. في إحدى المرات ظلت منتصبة القامة لأسبوعين وهي مصابة بنزلة رؤية، إلى أن بدأت أسنانها تصطك، وبللت الحمى نظارتها؛ عندئذ فقط انتبهنا إلى أنها على وشك الانتقال إلى العالم الآخر. أمضت عشرة أيام في مستشفى أمريكي، حيث لا أحد يتكلم الإسبانية، بكماء من الذعر؛ ولكننا إذا ما سألنا كيف حالها، تقول إنها سعيدة جداً، وتضيف أن الهلام واللبن أفضل من الهلام واللبن التشيليين. كانت تعيش في غمامة ضبابية، لأنها لا تتكلم الإنكليزية، وكنا ننسى أن نترجم لها خليط اللغات التي يجري التكلم بها في البيت. ولأنها لم تكن تفهم الكلمات، فقد كانت تراقب الحركات والإيماءات. بعد سنة من ذلك، عندما بدأت دراما سيليا، كانت هي أول من انتبهت إلى الأمر، إذ كانت تلحظ إشارات غير مرئية للآخرين. والدواء الوحيد الذي تتناوله هو أقراص خضراء غامضة، تلقي بها في فمها عندما يتوتر الجو من حولها. لم

تستطع تجاهل غيابكِ يا باولا، ولكنها تتظاهر بأنك مسافرة في رحلة، وتتكلم عنكِ بصيغة المستقبل، كما لو أنها ستراكِ في الغد. إنها تتمتع بصبر غير محدود مع أحفادي، وعلى الرغم من أنها تزن خمساً وأربعين كيلوغراماً، ولها عظام يمامة، إلا أنها كانت تتنقل على الدوام وهي تحمل نيكول بين ذراعيها. فصرنا نخشى أن تبلغ حفيدتي العشرين من عمرها دون أن تتعلم المشي.

ـ تشجعي يا حماتي! ما تحتاجين إليه من أجل الإلهام الأدبي هو لفافة ماريجوانا ـ كانت هذه هي نصيحة سيليا التي لم تجرب ذلك قط، ولكنها تموت فضولاً لتجريبه.

ـ لماذا لا نجرب؟ ـ سألت الجدة هيلدا كي تصرف الشكوك.

وهكذا كان أن انتهينا نحن نساء الأسرة في بيت تابرا ندخن الحشيش بعد أن أعلنا أننا ذاهبات لممارسة طقس روحاني.

بدأت الأمسية بحدث سيئ، لأن الجدة طلبت من تابرا أن تثقب لها أذنيها، وتعطلت الآلة المعدنية ملتصقة بشحمة أذنها. خارت ركبتي تابرا حين رأت الدم، لكن الجدة لم تفقد اتزانها. ظلت ممسكة بالجهاز الذي يزن نصف كيلوغرام إلى أن وصل نيكو، بعد ساعة من الزمن، ومعه صندوق عدّته، وفك آلية الجهاز وحررها. كانت الأذن الدامية قد تورمت إلى ضعف حجمها الطبيعي. «اثقبي لي الآن الأذن الأخرى»، طلبت الجدة من تابرا. وبقي نيكو كي يفك الآلة ثانية، ثم انصرف بعد ذلك، احتراماً لـ «خلوتنا الروحية».

❖ ❖ ❖

في أثناء عملية هرس أذنيها، احتك ثديا تابرا عدة مرات بالجدة هيلدا التي كانت توجه إليهما النظر بطرف عينها، إلى أن لم تعد تتحمل المزيد، وسألتها عما تملكه في صدرها. وكانت صديقتي تتكلم الإسبانية، بحيث تمكنت أن توضح لها أنه سليكون. أخبرتها أنها عندما كانت معلمة شابة في كوستاريكا، اضطرت إلى الذهاب إلى الطبيب لأن طفحاً جلدياً

ظهر على أحد ذراعيها. طلب منها الطبيب أن تخلع بلوزتها، ومع أنها أوضحت له بأن المشكلة موضعية تقتصر على الذراع، إلا أنه أصر. فخلعت بلوزتها. «ما هذا يا امرأة، إنك مسطحة الصدر مثل لوح من الخشب!»، هتف الطبيب حين رآها. فاعترفت تابرا بأنها كذلك، عندئذ اقترح عليها حلاً مفيداً لكليهما. «أنوي التخصص في الجراحة التجميلية، ولكن لا زبائن لدي حتى الآن. ما قولك في أن تسمحي لي بأن أجرب معك؟ لن أتقاضى منك شيئاً مقابل العملية، وسأركب لك نهدين رائعين». كان عرضاً سخياً ومطروحاً بطريقة بالغة اللطف لم تستطع معها تابرا الرفض. ولم تستطع الرفض كذلك عندما أبدى بعض الاهتمام بمضاجعتها، وهو شرف لم تحظ به إلا بعض مريضاته، مثلما أوضح لها الدكتور، ولكنها عارضت عندما حاول توسيع العرض ليشمل أختها الصغرى ذات الخمسة عشر عاماً. وهكذا انتهت تابرا إلى الحصول على نهدي الجراحة الرخاميين.

ـ لم أر في حياتي صدراً بمثل هذه الصلابة ـ علقت الجدة هيلدا.

تحسسناهما أنا وسيليا أيضاً، ثم رغبنا بعد ذلك برؤيتهما. كانا غريبين دون شك، وأشبه بطابتي كرة قدم أمريكية.

ـ منذ متى تحملين هذا على كاهلك، يا تابرا؟ ـ سألتُها.

ـ منذ حوالي عشرين سنة.

ـ لا بد لك من إجراء فحوص، فالأمر لا يبدو طبيعياً.

ـ ألا يعجبانك؟

نزعنا نحن بقية النساء بلوزاتنا للمقارنة. لم يكن ممكناً لأثدائنا أن تظهر منشورة في مجلة إيروتيكية، ولكنها على الأقل طرية الملمس، مثلما خلقتها الطبيعة، وليس مثل ذينك النهدين اللذين لهما قوام كاوتشوك شاحنة. وافقت صديقتي على أن نرافقها إلى عيادة طبيب متخصص، وبعد وقت قصير من ذلك، في عيادة جرَّاح

تجميل، بدأ ما نسميه في الأسرة «أوديسة النهدين»، سلسلة من الحوادث أدت، كفائدة وحيدة، إلى تعزيز صداقتي بتابرا.

مع حلول الليل أشعلنا ناراً بين الأشجار وشوينا سجقاً وكرات من الخطمية مغروسة في أسياخ. وبعد ذلك أشعلنا واحدة من اللفافات التي تكلفنا مشقة كبيرة في الحصول عليها. سحبت تابرا مجتين، وقالت إن العشبة تجعلها تتأمل، وأغمضت عينيها وسقطت مخدرة. حملناها بصعوبة إلى البيت، ومددناها على الأرض، مغطاة بدثار، ورجعنا نحن المتبقيات تحت حماية أشجار الحديقة العطرة. كان القمر بدراً، وكان الجدول الذي غذته مياه المطر يتقافز بين أحجار مجراه. غنت سيليا بمرافقة الجيتار أشد أغنياتها حنيناً، وجلست الجدة تحوك بين لفافة وأخرى من اللفافات التي لم يكن لها مفعول الصعود بنا إلى السماء، مثلما كنا ننتظر، وإنما اقتصرت على أن سببت لنا الضحك والأرق. ظللنا في غابة تابرا نتبادل رواية قصص حياتنا حتى الفجر، عندما أعلنت الجدة أن الوقت قد حان لتناول كأس من الويسكي، نظراً لأن الماريجوانا لا تنفع حتى في تدفئة العظام. بعد عشر ساعات من ذلك، عندما استيقظت تابرا وتفحصت المنفضة، قدّرت أننا دخنا اثنتي عشرة لفافة دون نتائج ظاهرة، واستنتجت، مذهولة، أننا عصيات على التأثر. وأبدت الجدة رأيها بالقول إن السجائر كانت محشوة بالقش.

ملاك الموت

في خريف تلك السنة، عندما كنا نتنفس أجواء سلام غير معهود في البيت، وبدأنا نسلم أنفسنا إلى حالة خطرة من الرضا، جاء ملاك الموت زائراً. إنه رفيق جنيفر، وقد جاء مضطرباً، بوجه متورم كوجوه عتاة مدمني الشراب. وبرطانته المتجرجرة التي يجد

ويللي صعوبة في فهمها، أخبرنا أن جنيفر قد اختفت. لا يُعرف أي شيء عنها منذ حوالي ثلاثة أسابيع، عندما كانت في زيارة لخالة لها في مدينة أخرى. وحسب قول الخالة، فإنها رأتها آخر مرة برفقة أشخاص لهم مظهر الأشرار، جاؤوا لأخذها في شاحنة. ذكّر ويللي الرجل بأنه كثيراً ما تنقضي شهور دون أن تُعرف أية أخبار عن جنيفر، لكن الرجل كرر أنها اختفت، وأضاف أنها كانت مريضة جداً، ولم يكن بمقدورها وهي في تلك الحالة أن تمضي بعيداً. بدأ ويللي عملية بحث منهجية في السجون والمستشفيات، تحدث إلى الشرطة، ولجأ إلى الشرطة الاتحادية، تحسباً من أن تكون ابنته قد ذهبت إلى ولاية أخرى، وتعاقد مع تحر خاص، دون التوصل إلى نتيجة؛ بينما كانت فو وغريس تصليان من أجلها مع أعضاء مركز بوذية الزن، وأنا نفسي أيضاً مع أخوات الفوضى. أحسست برائحة كريهة في القصة التي رواها لنا الرجل، غير أن ويللي أكد لي أنه في حالات من هذا النوع، يكون المشتبه به الأول في نظر القانون هو من يساكن الضحية، لاسيما إذا كان صاحب سجل حافل مثله. ولا شك في أنهم قد حققوا معه بتعمق.

يقال إنه لا وجود لألم أكبر من موت ابن، ولكنني أظن أن الأمر يكون أسوأ عندما يختفي، إذ يبقى مصيره مجهولاً إلى الأبد. أهو ميت؟ هل تعذب؟ ويبقى الأمل في أنه مازال حياً، ولكن أحدنا يتساءل دون توقف عن نوع الحياة التي يعيشها، ولماذا لا يتواصل مع أسرته. كان قلب ويللي يقفز مفعماً بالأمل والرعب كلما رنّ الهاتف: قد يكون صوت جنيفر تطلب منه أن يأتي لإحضارها من مكان ما، وقد يكون كذلك صوت شرطي يطلب منه أن يذهب إلى مستودع الجثث للتعرف على جثة ما.

بعد انقضاء شهور، ظلت جنيفر مختفية دون أي أثر، لكن ويللي كان يتشبث بفكرة أنها مازالت حية. لا أدري من أوحى له باستشارة عرافة تساعد رجال الشرطة أحياناً في حلّ بعض

القضايا، لأنها تتمتع بموهبة العثور على جثث ومفقودين. وهكذا كان أن انتهينا معاً في مطبخ بيت متداع إلى حد كبير، بالقرب من المرفأ. لم يكن للمرأة مظهر المنجمة، فهي لا ترتدي تنورة مزركشة بنجوم، وليس لها عينان ملطختان بالأصباغ، ولا تملك كرة زجاجية: كانت امرأة بدينة تنتعل خفي تنس وترتدي مريلة بيتية. طلبت منا الانتظار لبعض الوقت، ريثما تنتهي من تحميم كلبها. كان المطبخ ضيقاً، نظيفاً، مرتباً، وفيه كرسيان من بلاستيك أصفر، جلسنا عليهما. وبعد تنشيف الكلب، قدمت لنا المرأة قهوة وجلست على مقعد صغير في مواجهتنا. شربنا من فنجانينا بصمت لبضع دقائق، وبعد ذلك شرح لها ويللي سبب زيارتنا وأراها مجموعة صور لابنته، بعضها وهي لا تزال معافاة إلى هذا الحد أو ذاك، والصور الأخيرة التقطت في المستشفى وهي مريضة جداً، وسابرينا بين ذراعيها. تفحصت العرافة الصور واحدة واحدة، ثم وضعتها على المنضدة. وضعت يديها فوقها، وأغمضت عينيها لدقائق طويلة. «لقد أخذها بعض الرجال في سيارة»، قالت أخيراً. «قتلوها، وألقوا الجثة في غابة، بالقرب من نهر روزينا. أرى ماءً وبرجاً خشبياً، لا بد أنه برج مراقبة حراجية».

لم يُبد ويللي الشاحب أي ردّ فعل. وضعتُ على المنضدة أجور خدماتها، وهي ثلاثة أضعاف استشارة طبيب. وأمسكتُ زوجي من ذراعه وجرجرته حتى السيارة. أخرجت المفتاح من جيبه، ودفعته إلى المقعد، وقدت السيارة بنفسي، بيد مرتعشة ونظرة غائمة، عبر الجسر، باتجاه البيت. «يجب ألا تصدق شيئاً من هذا، يا ويللي. إنه كلام غير علمي.. مجرد هذر»، توسلتُ إليه. وأجابني: «أعرف ذلك». ولكن الضرر كان قد وقع. ومع ذلك، لم يتفجع إلا بعد مرور وقت طويل، عندما ذهبنا لمشاهدة فيلم حول الحكم بالإعدام، حيث تضمن مشهد فتاة في غابة، مشابه لما وصفته العرافة. وفي صمت السينما وظلامها، سُمعت صرخة مؤثرة، مثل أنّة حيوان جريح. كان

ويللي متكوراً على نفسه في المقعد، ورأسه يلامس ركبتيه. خرجنا متلمسين طريقنا في الصالة المظلمة، وفي المرآب، عندما صرنا داخل السيارة، بكى طويلاً ابنته المختفية.

بعد سنة من ذلك، أقامت فو وغريس طقساً في مركز بوذية الزن لإحياء ذكرى جنيفر، ومنح كرامة لتلك الحياة المأساوية وختم نهايتها الغامضة التي لا تفسير لها، والتي خلّفت الأسرة في زفرة إلى الأبد. قبيلتنا الصغيرة، بمن فيها تابرا وجيسون وسالي، وأم جنيفر وبعض الصديقات، اجتمعت في القاعة نفسها التي احتفلنا فيها بعيد ميلاد سابرينا الأول، قبالة مذبح عليه صور جنيفر في أفضل أزمنتها، وأزهار وبخور وشموع. وقد وضعوا حذاء في منتصف الدائرة، في إشارة إلى الطريق الجديد الذي انطلقت الفتاة فيه. كان جيسون وويللي متأثرين بطيب نوايا الحاضرين جميعهم، لكنهما لم يستطيعا أن يتجنبا تبادل بعض الابتسامات، لأن جنيفر ما كانت لتنتعل أبداً مثل ذلك الحذاء. كان عليهم الحصول على صندل بنفسجي، لأنه ملائم أكثر لأسلوبها. ولأن كليهما كان يعرف ذلك جيداً، فقد تصورا أنها إذا كانت تراقب هذا الاجتماع من الفضاء، فسوف تنفجر في الضحك، لأن كل ما له رائحة الحقبة الجديدة يبدو لها مضحكاً، كما أنها لم تكن ممن يحبون التفجع؛ فقد كانت خالية تماماً من الإشفاق على النفس، لقد كانت جريئة وشجاعة. ولولا أصناف الإدمان التي احتجزتها في حياة البؤس، ربما عرفت مصيراً مغامراً، لأنها كانت تتمتع بقوة أبيها. فمن بين أبناء ويللي الثلاثة، كانت جنيفر هي الوحيدة التي ورثت قلب الأسد الذي يمتلكه ويللي، وقد أورثته لابنتها. فسابرينا، مثل ويللي، يمكن لها أن تقع على ركبتيها، ولكنها سرعان ما تنهض واقفة. هذه الطفلة التي لم تكد تتعرف على أمها، ولكنها تحتفظ بصورتها مطبوعة في روحها منذ ما قبل الولادة، شاركت في الطقس متكورة بين ذراعي غريس. وأخيراً أطلقت فو على

جنيفر اسماً بوذياً: يو كا داي شين، أي «جناحان من نار، قلب كبير». وكان اسماً مناسباً لها.

في الطقس، خلال اللحظات التي خصصناها للتأمل، اعتقد جيسون أنه يسمع صوت أخته تهمس في أذنه: «أي بلاهة تفعلون؟ ليست لديكم أدنى فكرة عما حدث لي! يمكن أن أكون حية، أليس كذلك؟ والمهزلة هي أنكم لن تعرفوا ذلك أبداً». ربما لهذا السبب لم يتوقف جيسون قط عن البحث عنها، والآن، بعد مرور سنوات طويلة، عندما صارت اختبارات الـ DNA متوافرة، يسعى هو إلى العثور عليها في ملفات الكوارث الشرطية اللانهائية. أما أنا، فقد برز في ذهني بوضوح، خلال التأمل، مشهد ظهرت فيه جنيفر جالسة على ضفة نهر، تبلل قدميها وتلقي حصى صغيرة في الماء. أشعة الشمس تنفذ من خلال أوراق الأشجار وتضيء شعرها الأشقر وجسدها النحيل. وفجأة تضطجع متكورة على الأرض، فوق الطحالب، وتغمض عينيها. في الليل، رويت تلك الرؤيا لويللي، كلانا قلنا إن نهايتها الحق كانت على ذلك النحو وليس ما قالته العرافة: لقد كانت متعبة جداً، فنامت ولم تستيقظ بعدها. في الصباح استيقظنا مبكرين، وذهبنا معاً إلى الغابة، وكتبنا اسم جنيفر على ورقة، وأحرقناها ونثرنا الرماد في الجدول نفسه الذي نثرنا فيه من قبل رمادكِ. لقد تعارفتما في هذا العالم، يا باولا؛ ولكننا نرغب في أن نتصور أن تكون روحاكما تلعبان بين هذه الأشجار كأختين.

الحياة في الأسرة

في العام 1994 تواتر ذكر رواندا في الصحافة. كانت أخبار الإبادة البشرية مرعبة إلى حد يصعب تصديقها: أطفال يُقتَلون، نساء

حوامل تبقر بطونهن بضربات السكاكين لانتزاع الأجنة منها، أسرة بكاملها تُغتال، مئات الأيتام الجائعين يهيمون على وجوههم في الدروب، قرى تُحرق بكل ساكنيها.

ـ وما يهم العالم بما يحصل في أفريقيا؟ فالموتى هم بعض الزنوج الفقراء ـ كانت سيليا تعلق حانقة بذلك الانفعال المتأجج الذي تبديه في كل الموضوعات.

ـ إنه شيء رهيب، يا سيليا، ولكنني لا أظنك منقبضة النفس بسبب ذلك. أخبريني بما جرى لك حقيقة... ـ كنتُ أحاول التقصي منها.

ـ تصوري، إنهم يمزقون الأطفال بضربات مناجل المتشيتي! ـ وتبدأ البكاء.

ثمة ما كان يعتمل في روح كنتي. لم تكن تجد لحظة سلام. تركض طوال الوقت لتنجز ألف مهمة. أظن أنها كانت تبكي خفية، وكانت تزداد نحولاً وضعفاً كل يوم، ولكنها تحافظ على مظهر من السعادة المستهترة. كانت قد طورت هوساً حقيقياً بأخبار الصحافة السيئة، تعلق عليها مع جيسون، وهو الوحيد في الأسرة الذي يقرأ الصحف كلها، وكان قادراً على تحليل الواقع بغريزة صحافي. وكان هو أول شخص سمعته يربط بين الدين والإرهاب، قبل وقت طويل من تحول الأصولية والإرهاب إلى مترادفين عملياً. وقد شرح لنا حول العنف في البوسنة، وفي الشرق الأدنى، وأفريقيا، وعن تطرف طالبان في أفغانستان وعن وقائع أخرى لا رابط بينها تسبب بها الحقد العنصري أو الديني على السواء.

كان جيسون وسالي يتحدثان عن انتقالهما فور تمكنهما من الحصول على شقة في أي مكان، ولكنهما كانا قد بحثا دون جدوى عن شيء يكون في متناول ميزانيتهما الضئيلة. كنا نعرض عليهما المساعدة، ولكن دون كثير من الإلحاح، كيلا نُشعرهما بأننا نطردهما. لقد كنا نحب بقاءهما معنا، فهما مسليان

ويضفيان مسحة من الرقة على الجو. وكان من المؤثر رؤية جيسون عاشقاً لأول مرة ويتحدث عن الزواج، بالرغم من أن ويللي كان مقتنعاً بأنه لا يشكل ثنائياً مناسباً مع سالي. ولا أدري لماذا تغلغلت هذه الفكرة في رأسه، بينما كنتُ أراهما على ما يرام.

كانت الجدة هيلدا تقضي فترات طويلة في كاليفورنيا، وتحت تأثيرها يتحول البيت إلى وكر قمار. حتى إن أحفادي، أولئك البريئين الذين مازالوا يضعون المصاصة في أفواههم، تعلموا الغش في لعب الورق. فقد علمتهم اللعب بمهارة إلى حد أنه كان بمقدور أليخاندرو في ما بعد، عندما كان في العاشرة من عمره، أن يكسب عيشه من حزمة أوراق لعب. ففي إحدى المناسبات، عندما كان الصبي عقلة إصبع يضع نظارات مدورة وله أسنان قُندُس، دخل إلى مخيم جماعة زعران، كانوا يخيمون مع عرباتهم ودرجاتهم النارية على الشاطئ. مظهر أولئك الرجال ذوي القمصان التي بلا أكمام، والوشم، وجزمات المرتزقة، والكروش التي لا مفر منها لمدمني شرب البيرة، لم يرعب أليخاندرو، لأنه رأى أنهم يلعبون الورق. اقترب واثقاً من نفسه وطلب الإذن بالمشاركة في اللعب. فرد عليه كورال من الضحك. ولكنه ألح. «إننا نراهن هنا على نقود، أيها الصغير»، قالوا له محذرين. هز أليخاندرو رأسه موافقاً. لقد كان يشعر بالثقة بنفسه لأنه استطاع أن يتغلب على الجدة هيلدا في اللعب، ويشعر بأنه غني لأن لديه خمسة دولارات في قطع نقدية صغيرة. دعوه للجلوس وقدموا له بيرة، رفضها بلطف، لأن اهتمامه منصب على لعب الورق. وبعد عشرين دقيقة، كان حفيدي قد جز صوف القتلة السبعة، وابتعد عن المكان بجيوب ممتلئة بالأوراق النقدية، تحت وابل من شتائمهم وكلماتهم البذيئة.

كنا نعيش في قبيلة، على الطريقة التشيلية، جميعنا معاً على الدوام. كانت الجدة تستمتع كثيراً مع سيليا ونيكو والأطفال؛ وتفضل مرافقتهم ألف مرة على مرافقتنا، وتقضي وقتاً طويلاً في

بيـتهم. أوضـحنا للجـدة أن أُمَّـيّ سـابرينا سـحاقيتان، وبوذيتـان، ونباتيتان، ولم تكن تعرف أياً من الكلمات الثلاث، والوحيدة التي بدت لها غير مقبولة هـي كونهمـا نبـاتيتين. ولكنهـا أقامت صداقة معهما على أي حال. وقد زارتهمـا أكثر من مرة فـي مركـز بوذية الزن، حيث كانت تحثهما على أكل الهمبرغـر، وشـرب المرغريتا، والمراهنـة فـي البوكر. وكانـت أمـي والعـم رامـون، زوج أمـي الـذي يفوق الوصف، يأتيان بكثرة من تشيلي؛ وينضم إليهمـا أحيانـاً أخـي خوان الذي يأتي من أطلنطا برأس مائل وملامح أسقف وقور، ذلك أنه درس اللاهوت. فبعد أربع سنوات مكرسة للشؤون الإلهية، تخرج خوان بمرتبة الشرف؛ وعندئذ قرر أنه لا ينفع لأن يكون واعظاً وعاد إلى وظيفته، ومازال فيها حتـى اليـوم، كأستاذ علوم سياسية فـي الجامعة. كان ويللي يشتري المأكولات بالجملة، ويطبخ لمعسكر اللاجئين ذاك. أراه فـي المطبخ ينقض بالسكين على فخذ بقـرة، ويقلي أكياساً من البطاطا، ويفرم أطناناً من الخس. وفـي لحظات الإلهام، يحضّر فطائر «تاكو» مكسيكية حارة وقاتلة على وقع اسطوانات أغاني الرانتشيرو. فيتحول المطبخ إلى مـا يشبه صبيحة الكرنفال، ويلحس المدعوون شفاههم، مع أنهم سيدفعون بعد ذلك ثمن الإفراط فـي تناول الدهون الدسمة والفلفل الحار.

كان البيت سحرياً: يتمدد ويتقلص حسب الحاجة. فـي موقعه المعلق فـي منتصف الرابية، لـه إطلالة بانورامية على الخليج، وفيه أربع غرف فـي الطابق الرئيسي، واثنتان فـي الأسفل. وفيهما أقمنا فـي العام 1992 غرفة المستشفى التي أمضيتِ فيها بضعة شهور دون أن تؤثري على إيقاع حياة الأسرة. إنني أستيقظ فـي بعض الليالي على همس ذكرياتي والشخصيات الهاربة من أحلام الآخرين، فأنهض بصمت، وأجوب الغرف ممتنة لسكون البيت ودفئه. «لا يمكن لشيء سيئ أن يحدث هنا ـ كنت أفكر ـ فقد طُرد الشر إلى الأبد، لأن روح باولا تحمينا». فـي بعض الأحيان يفاجئني الفجر

بروائحه النزوية من البطيخ والدراق، وأطل لأرى المشهد الممتد عند سفح الرابية، مع الضباب الخفيف المتصاعد من البحيرة وطيور الإوز البري التي تطير صوب الجنوب.

❖ ❖ ❖

بدأت سيليا تستعيد عافيتها من ولاداتها الثلاث المتتالية في الوقت الذي كان عليها السفر إلى فنزويلا لحضور زفاف أختها. وكانت قد حصلت آنذاك على تأشيرة إقامة تتيح لها السفر إلى الخارج والعودة إلى الولايات المتحدة. انتقل نيكو والأطفال مؤقتاً إلى بيتنا، وهو حل بدا مثالياً للجدة التي سألت: «لماذا لا نعيش جميعنا معاً، مثلما يجب أن نكون؟». وفي أثناء ذلك، واجهت سيليا في كاراكاس ما كانت ترغب في أن تخلّفه وراء ظهرها عندما تزوجت من نيكو، وأظنه لم يكن لطيفاً، لأنها رجعت بمعنويات منهارة، مصممة على قطع العلاقة مع جزء من أقربائها. التصقت بي، وتأهبتُ للدفاع عنها من أي شيء، بما في ذلك منها هي نفسها. عادت تفقد من وزنها، وعندئذ فرضنا عليها حصاراً عائلياً وأجبرناها على استشارة طبيب اختصاصي، وصف لها علاجاً مضاداً للاكتئاب. «أنا لا أؤمن بشيء من هذا»، كانت تقول لي، لكن العلاج ساعدها وسرعان ما عادت تعزف على الجيتار من جديد، وتُضحكنا وتُغضبنا بدعاباتها. وعلى الرغم من نوبات الكآبة التي لا تفسير لها، جعلتها الأمومة تتفتح.

كان الأطفال سيركاً متواصلاً، وكانت الجدة تذكرنا طيلة الوقت بأنه علينا الاستمتاع بهم، لأنهم يكبرون ويمضون باكراً. وقد كان للأطفال أثر، أكثر من الوصفة الطبية، في مساعدة سيليا في ذلك الوقت. فأليخاندرو الذي كان أقرب إلى الخجل ولكنه متيقظ جداً، يتعلثم بعبارات حكيمة بصوت مطابق لصوت أمه الأبح. وفي تلك السنة، في عيد الفصح، قبل أن يخرج بسلته كي يجمع البيض الملون من بين شجيرات الحديقة، همس في أذني

قائلاً إن الأرانب لا تضع بيوضاً، لأنها حيوانات لبونة. فسألته كبلهاء: «ومن الذي يضع بيض عيد الفصح إذا؟». فأجابني: «أنت تضعينها». وكان على نيكول، وهي الصغرى، أن تدافع عن نفسها في مواجهة أخويها منذ أن استطاعت الوقوف على قدميها. في أحد أعياد ميلاد أليخاندو، خطرت لي الفكرة السيئة بأن أهدي إليه طقم خناجر نينجا من البلاستيك، طلبه مني متوسلاً وهو جاثٍ على ركبتيه ويرمش بأهدابه. حصلتُ على إذن خاص من أبويه ـ وكانا لا يسمحان بالأسلحة، مثلما يعارضونها في التلفزيون، وهما تابوا الحقبة الجديدة في كاليفورنيا ـ، لأنه لا يمكن تربية الأولاد معزولين في فقاعة؛ ومن الأفضل أن يتلوثوا منذ الصغر، لتتكون لديهم مناعة. وعلى الفور نبهتُ حفيدي إلى أنه لا يمكنه مهاجمة أختيه، لكن ذلك كان كأن أقدم له حلوى وأطلب منه ألا يمصها. بعد خمس دقائق وجّه طعنة إلى آندريا التي ردت إليه الضربة بمثلها على الفور، وبعد ذلك واجه الاثنان نيكول. رأينا مرور أليخاندرو وآندريا يركضان مذعورين ونيكول وراءهما، وهي تحمل خنجراً في كل يد، وتولول مثل هنود الآباشي في الأفلام. كانت لا تزال تستخدم الحفاض. أما آندريا، فكانت الأكثر طرافة، ترتدي كل شيء وردي، باستثناء الصندل الأخضر الليموني، وتبرز تجعدات شعرها الذهبي من بين الزينات التي تضعها على رأسها ـ تيجان، أشرطة علب هدايا، أزهار ورقية ـ وتعيش تائهة في عالمها المتخيل. وكان لديها كذلك خاتم «**القوة الوردية**»، وهو خاتم سحري فيه حجر من اللون نفسه، هدية من تابرا، يمكنه تحويل القنبيط إلى مثلجات فريز، وتوجيه ركلة عن بُعد إلى الصبي الذي سخر منها في الفسحة. في إحدى المرات رفعت معلمتها الصوت عليها، فانتصبت آندريا أمامها، مشيرة إليها بخاتم القدرة «إياكِ أن تتجرئي على التكلم إليّ هكذا! فأنا آندريا!». وفي مناسبة أخرى رجعت متضايقة من المدرسة، وعانقتني.

- لقد كان يوماً تعيساً.
- ألم تكن في هذا اليوم لحظة واحدة طيبة، يا آندريا؟
- بلى. لقد وقع صبي وكسر أنفه.
- وما الطيب في هذا، بالله عليكِ!
- لم أكن أنا.

رسائل

طُبع *باولا* في إسبانيا وعلى غلافه صورة لك، كان قد التقطها ويللي، وتظهرين فيها مبتسمة ومفعمة بالحياة، بشعرك الأسود الذي ينسدل كطرحة. وسرعان ما بدأت تصلني مئات الرسائل، ملأت أدراجاً في المكتب، ولم تكن الساعات تكفي سيليا لترتيبها والرد عليها. لقد كنت أتلقى منذ سنوات رسائل من قراء متحمسين، وأعرف مع ذلك أنهم لم يكونوا جميعهم مدفوعين بالتعاطف مع كتبي. بعض تلك الرسائل كانت تتضمن طلبات، مثلما هي رسالة روائي لديه سبع عشرة رواية غير مطبوعة، يعرض عليّ بشهامة أن يتشارك معي ونتقاسم حقوق التأليف مناصفة، أو رسالة شخصين تشيليين في السويد يطلبان مني تذكرة سفر للعودة إلى تشيلي، لأنهما اضطرا بجريرة عمي سلفادور ألليندي أن يخرجا إلى المنفى. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يمكن مقارنته بسيل الرسائل الجارف الذي أغرقنا بعد صدور *باولا*. أردت الرد على الجميع، ولو بسطرين أخربشهما على بطاقة، لأن كل رسالة كانت مكتوبة من القلب ومرسلة في العماء، بعضها أُرسل إلى ناشريّ، وبعضها إلى وكيلتي، والكثير منها عبر أصدقاء أو مكتبات. كنت أقضي شطراً من الليل في تصنيع بطاقات من ورق ياباني أهداه إليّ ميكي شيما، وقطع صغيرة من الفضة والأحجار شبه

الكريمة من تابرا. لقد كانت الرسائل التي تلقيتها مؤثرة جداً، حتى إن بعض الناشرين الأوروبيين قرروا، بعد سنوات، عندما تُرجم الكتاب إلى عدة لغات، أن ينشروا مختارات من تلك المراسلات. يكتب لي في بعض الأحيان آباء فقدوا ابناً، غير أن معظم من يكتبون إلي هم شباب يطابقون أنفسهم معك، بمن في ذلك فتيات يرغبن في التعرف على إرنستو، مغرمات بالأرمل دون أن يعرفنه. لا أظن أنه سيفتقر إلى العزاء. فهو ليس قديساً، والعزوبة ليست من طباعه، مثلما أخبرني هو نفسه، ومثلما عرفتِ أنت دائماً. إرنستو يؤكد أنه لولا وقوعه في حبكِ لكان دخل مدرسة لاهوت ليتحول إلى راهب، وأنا أشك في ذلك. إنه بحاجة إلى امرأة إلى جانبه.

انشغالي بالرسائل لم يترك لي وقتاً للكتابة، وحتى تواصلي مع أمي تقلص. فبدلاً من الرسالة اليومية التي أبقتنا مرتبطتين لعقود من السنين، صرنا نتحدث في الهاتف أو نتبادل فاكسات مقتضبة، نتجنب فيها البوح بالأسرار التي قد تتعرض للانكشاف لفضول الغرباء. لا شيء مثل البريد، بحركته التي كخطوات السلحفاة، وحفاظه على الخصوصية؛ ولا شيء مثل متعة انتظار ساعي البريد، وفتح المغلف، وإخراج الأوراق التي طوتها أمي، وقراءة أخبارها بعد أسبوعين. فإذا كانت الأخبار سيئة، تكون قد فقدت أهميتها، وإذا كانت طيبة، فيمكن الاحتفال بها في أي وقت.

وبين الرسائل وصلت رسالة الممرضة الشابة التي تولت العناية بك في وحدة العناية المشددة في مستشفى مدريد. وكانت سيليا هي التي فتحتها وقرأتها أولاً. جاءتني بها شاحبة، وقرأناها معاً. تقول الممرضة إنها بعد أن قرأت الكتاب، رأت أن الواجب يفرض عليها أن تخبرني بما حدث. الإهمال الطبي وانقطاع في التيار الكهربائي أثر على جهاز الأوكسجين، أتلفا دماغك. كثيرون في المستشفى كانوا يعرفون ما حدث، لكنهم حاولوا إخفاء الأمر، ربما على أمل أن تموتي دون أن يكون هناك أي تحقيق. طوال شهور كانت

الممرضات يرينني أنتظر طيلة اليوم في ممر الخطى الضائعة، وقد رغبن في بعض الأحيان بأن يخبرنني بالحقيقة، ولكنهن لم يتجرأن على مواجهة النتائج. أصابتني الرسالة بالدوار لعدة أيام. «لا تفكري في هذا الأمر، يا إيزابيل، لأنه لم تعد لذلك أية جدوى. لقد كان ما حدث هو قدر باولا. وقد صارت روحها حرة الآن، ويجب ألا تعاني من الترهات التي تأتي بها الحياة دائماً»، هذا ما كتبته لي أمي عندما أخبرتها. وفكرت: «بمثل وجهة النظر هذه يتوجب علينا جميعنا أن نكون ميتين».

لقد اجتذبت تلك المذكرات اهتمام الجمهور والصحافة أكثر من مجموع كتبي السابقة. قمت برحلات كثيرة، وأجريت مئات المقابلات، وقدمت عشرات المحاضرات، ووقعت آلاف الأتوغرافات. إحدى النساء رغبت أن أكتب لها إهداء على تسع نسخ من الكتاب، نسخة لكل صديقة من صديقاتها اللواتي فقدن ابناً، وواحدة لها. فابنتها أصيبت بالشلل في حادث سيارة، وما إن تمكنت من الحركة على كرسي ذي عجلات، حتى ألقت بنفسها في المسبح. ألم ومزيد من الألم. وبالمقارنة، كان ألمي محتملاً، لأنني تمكنت على الأقل أن اعتني بكِ حتى النهاية.

أربع دقائق من الشهرة

الفيلم المأخوذ عن روايتي الأولى، ***بيت الأرواح***، أُعلن عنه بدعاية صاخبة لأنه ضم قائمة مهيبة من كبار نجوم ذلك الحين: ميري ستريب، جيرمي ايرونس، غلين كلوز، فاينيسا ريدغريف، فينونا ريدير، وممثلي المفضل أنطونيو بانديراس. والآن، عند التفكير فيهم بعد عدة سنوات، يبدو لي أن هؤلاء الممثلين قدماء مثل ممثلي السينما الصامتة. الزمن لا يرحم.

حين نُشرت روايتي الأولى، تضايق مني عدد من أفراد أسرة أمي، بعضهم لأن أفكارنا السياسية على طرفي نقيض، وآخرون لأنهم اعتبروا أنني خنت الأسرار. «الثياب القذرة تُغسل داخل البيت»، هذا هو الشعار في تشيلي. ولكي أكتب ذلك الكتاب، اتخذت نماذج من جديّ وبعض الأخوال، وشخصيات أخرى غريبة الأطوار من قبيلتي التشيلية كبيرة العدد، واستخدمت كذلك حكايات الحقبة السياسية، ولكنني لم أتصور قط أن بعض الأشخاص سيأخذون تلك الأمور بحذافيرها. لأن روايتي هي نسخة ملتوية ومبالغ فيها للوقائع. فجدتي لم تكن قادرة يوماً على تحريك منضدة بليادرو بأفكارها، مثلما هي كلارا دل بايّي، ولم يكن جدي مغتصب نساء وقاتل، مثلما هو إستيبان تروبيا في الرواية. امتنع أولئك الأقارب عن التكلم معي، أو صاروا يتجنبونني طوال سنوات. وقد فكرت أن الفيلم سيكون أشبه بذر الملح على الجرح، لكن ما حدث هو العكس. فسلطة السينما مُفحمة إلى حدّ تحول الفيلم معه إلى التاريخ الرسمي للأسرة، وقد علمتُ أن صور ميريل ستريب وجيرمي إيرونس قد حلت الآن محل صور جديّ.

كانت الشائعات في الولايات المتحدة تقول إن الفيلم سيحصد كل جوائز الأكاديمية في هوليوود، ولكن انتقادات سلبية ظهرت قبل عرضه، لأنه لم يجرِ التعامل مع ممثلين هسبانيين في موضوع أمريكي لاتيني. وقيل إنهم قديماً، عندما كانوا يحتاجون إلى ممثل زنجي في الفيلم، كانوا يطلون رجلاً أبيض بطلاء الأحذية، وأنهم عندما يحتاجون الآن لاتينياً، يلصقون شارباً لرجل أبيض. أضف إلى ذلك أن الفيلم صُور في أوروبا، على يد مخرج دانمركي، بأموال ألمانية، وممثلين أنجلو سكسونيين، وهو ناطق بالإنكليزية. وليس فيه من التشيلية إلا القليل، ولكنه بدا لي أفضل من الكتاب، وأحزنني أن يُستقبل بسوء نية مسبقة. قبل شهور من ذلك كان المخرج بيل أوغست قد دعانا، ويللي وأنا، لمتابعة التصوير في

كوبنهاجن. المشاهد الخارجية صُورت في مزرعة في البرتغال، وقد تحولت المزرعة في ما بعد إلى موقع سياحي، والمشاهد الداخلية صُورت في بيت شُيّد في استديو سينمائي في الدانمرك. الأثاث والإكسسوارات استُئجرت من متجر عاديات في لندن. لقد رغبت، على ما أذكر، أن ألقي في حقيبتي علبة مطلية بالملاط، غير أنه كان هناك سجل قانوني لكل قطعة، وكان ثمة شخص مسؤول عن متابعتها. عندئذ طلبتُ أن يُهدى إليّ رأس فينيسا ريدغريف، ولكنهم لم يعطوني إياه. وأعني نسخة للرأس من الشمع تظهر في أحد المشاهد ضمن صندوق قبعة، ولكنهم حذفوا المشهد خشية أن يثيروا ضحك الجمهور بدل الخوف المنشود. ما الذي حدث لذلك الرأس؟ ربما تضعه فينيسا على منضدة صغيرة بجوار سريرها، كي يذكرها بهشاشة الوجود. أما أنا فكان سينفعني لسنوات في كسر الجليد في أي محادثة، وفي إخافة أحفادي. لقد كنت أخبئ في قبو البيت جماجم، وخرائط قراصنة، وصناديق كنوز؛ فليس هناك أفضل من طفولة رعب من أجل تحريض المخيلة.

خلال أسبوع كنا أنا وويللي نمضي برفقة المشاهير، ونعيش مثل الناس المهمين في هذا العالم. كان لكل نجمة سينمائية حاشيتها من المساعدين، واختصاصيي المكياج، وتصفيف الشعر، والمساج، والطهاة. كانت ميريل ستريب، الجميلة والنائية، برفقة أبنائها، وكل منهم مع مربيته والوصية عليه. واحدة من بناتها الصغيرات، لها موهبة أمها ومظهرها الأبدي، مثّلت في الفيلم. وغلين كلوز التي كانت تمضي مع عدد من الكلاب وكلافيها، وقد قرأت كتابي باهتمام كبير لتهيئ نفسها لدور فيرولا، العانس، وقد أمضينا ساعات من المحادثات. وسألتني إذا ما كانت العلاقة بين فيرولا وكلارا علاقة سحاقية، ولم أرد كيف أرد عليها، لأن الفكرة فاجأتني. أظن أنه في تشيلي مطلع القرن العشرين، وهي الفترة التي تدور فيها أحداث هذا الجزء من الرواية،

كانت هناك علاقات غرامية بين نساء، ولكنها لم تكن تصل أبداً إلى المستوى الجنسي بسبب الموانع الاجتماعية والدينية. ولم يكن جيرمي إيرونس في الحياة الواقعية هو الأرستقراطي الإنكليزي البارد الذي اعتدنا تقديره على الشاشة؛ بل يمكن له أن يكون سائق تكسي لطيف في ضواحي لندن: كان يتباهى بنوع من السخرية السوداء، وبيدين مصبوغتين بالنيكوتين، ويفاخر بقائمة لا تنتهي من القصص الغريبة، مثل واحدة أضاع فيها كلبه في المترو، وطيلة صباح بكامله كان الكلب وصاحبه يتقاطعان في عدة اتجاهات، ويقفزان من عربات المترو كلما لمح أحدهما الآخر في إحدى المحطات. ولا أدري لماذا وضعوا له في الفيلم شيئاً في فمه، أشبه بمكبح صغير، شوه وجهه وصوته. أما فينيسا ريدغريف الطويلة، النبيلة والمشرقة، ذات العينين الزرقاوين الكوبَلتيتين، فكانت تأتي دون مكياج وبخرقة على رأسها، دون أن يقلل ذلك شيئاً من وقع حضورها المهيب. أما فينونا ريدير فعرفتها في ما بعد؛ وكانت أشبه بصبي وسيم، بشعر تقصه لها أمها بضربات مقص، وقد بدت لي فاتنة، على الرغم من سمعتها بأنها مدللة ومتقلبة الأهواء وسط الفريق التقني. يقال إن ذلك ألحق الضرر بمسيرتها الفنية، وإنه كان يمكن لها أن تكون لامعة. أما أنطونيو بانديراس، فكنتُ قد رأيته مرتين من قبل، وكنتُ مغرمة به بذلك الحب الخجول والمضحك الذي تكنه المراهقات لنجوم الشاشة، بالرغم من أنه يمكن له أن يكون ابني إذا ما مططنا الأمور قليلاً. كان هناك عند باب الفندق على الدوام صف من الفضوليين شبه الميتين من البرد، بأقدام مدفونة في الثلج، ينتظرون مرور أحد أولئك المشاهير ليطلبوا منه التوقيع على أتوغرافاتهم، لكن هؤلاء كانوا يدخلون من أحد أبواب الخدمة، ولا يجد المتعصبون مفراً من الاكتفاء بتوقيعي. «من هي هذه»، سمعتُ أحدهم يسأل بالإنكليزية وهو يشير إليّ. فأجابه آخر: «ألا ترى أنها ميريل ستريب؟».

وعندما اعتدنا على عيش تلك الحياة الملوكية بالضبط، انتهت الإجازة، فعدنا إلى البيت، وتحولنا فوراً إلى الإغفال المطلق: إذا ما اتصلنا هاتفياً بأحد أولئك «الأصدقاء» المشهورين، يتوجب علينا أن نتهجى أسماءنا حرفاً حرفاً. لم يجر العرض الأول للفيلم في هوليوود، لأن المنتجين ألمان، وإنما في ميونيخ، حيث واجهنا حشداً من علية الناس وقصفاً هائلاً من الكاميرات والفلاشات. كان الجميع يرتدون السواد، وأنا باللون نفسه، اختفيتُ تحت خط أحزمة الآخرين. وفي الصورة الصحفية الوحيدة التي ظهرتُ فيها، أبدو مثل فأر مذعور، سواد فوق سواد، مع يد مبتورة لويللي فوق إحدى كتفي.

❖ ❖ ❖

هناك أمر حدث بعد عشر سنوات من فيلم ***بيت الأرواح*** ولا يمكن لي أن أرويه إلا هنا أو أصمت عنه إلى الأبد، لأن له علاقة بالشهرة، وهو موضوع لا يسترعي اهتمامكِ، يا بنتي. ففي العام 2006 كان عليّ أن أحمل الراية الأولمبية في دورة الألعاب الشتوية في إيطاليا. كانت أربع دقائق فقط، لكنها أوصلتني إلى الشهرة: صار الناس يتعرفون عليّ في الشارع، وصار أحفادي يتباهون بأني جدتهم.

جرت الأمور كما يلي: اتصلت بي ذات يوم نيكوليتا بافاروتي، زوجة المغني التينور، وهي امرأة ساحرة، تصغر زوجها المشهور بأربع وثلاثين سنة، وكانت تريد أن تخبرني بأنه تم اختياري واحدة من النساء الثماني اللواتي سيحملن الراية في مراسم افتتاح الألعاب الأولمبية. أجبتها بأنه لا بد أن ثمة خطأ، لأنني أشكل نقيض أي رياضية؛ والواقع أنني لم أكن متأكدة من قدرتي على الدوران في مضمار الستاد دون كرّاجة. أوضحت لي أن المشاركة شرف كبير، وأن المرشحات قد اخترن بصرامة، وأنه جرى تقصٍ جيد لسيرة حياتهن، وأفكارهن، وعملهن. أضف إلى ذلك أنها المرة الأولى

التي سنولى نساء فقط حمل الراية، ثلاث رياضيات حصلن على ميداليات ذهبية، وخمس ممثلات للقارات الخمس؛ وكان عليّ أن أمثّل أميركا اللاتينية. وبالطبع، كان سؤالي الأول ما الذي سألبسه. فأوضحت لي أننا سنرتدي زياً موحداً، وطلبت مني مقاساتي. وبرعب، تخيلت نفسي في بدلة منجدة ذات لون طباشيري منفر، بدينة مثل إعلان إطارات ميتشلين. «وهل أستطيع انتعال كعب عالٍ؟»، سألتها، وسمعت زفرة في الجانب الآخر من الخط.

في منتصف شهر شباط وصلتُ مع ويللي وبقية الأسرة إلى تورين، مدينة جميلة على المستوى الدولي، ولكنها ليست كذلك في نظر الإيطاليين الذين لا يشعرون بالتأثر حتى في فينسيا أو فلورنسا. حشود متحمسة تهتف لمرور الشعلة الأولمبية في الشوارع أو لمرور أي من الفرق الثمانين المشاركة في المنافسة، كل فريق منها بألوانه. أولئك الشبان هم أفضل رياضيي العالم، بدؤوا التدرب منذ الثالثة أو الرابعة من العمر، وضحوا بحيواتهم من أجل الوصول إلى الألعاب الأولمبية. جميعهم يستحقون الفوز، غير أن هناك دائماً مفاجآت غير متوقعة: ندفة من الثلج، أو سنتيمتر من الجليد أو هبة من الريح، يمكن لها أن تحسم نتيجة مسيرة طويلة. لكن أكثر ما يهم، أكثر من التدريب أو الحظ، هو القلب، لأن القلب الأشد شجاعة وتصميماً هو الذي يأخذ الميدالية الذهبية. الشغف، هذا هو سرّ الفائز. كانت شوارع تورين مغطاة بملصقات تعلن شعار الألعاب: «الشغف يعيش هنا». وهذه هي رغبتي الكبرى، أن أعيش بشغف حتى يومي الأخير في الحياة.

تعرفت في الستاد على حاملات الراية الأخريات: ثلاث رياضيات، والممثلتان سوزانا ساراندون وصوفيا لورين؛ إضافة إلى ناشطتين، حاملة جائزة نوبل للسلام وانغاري ماثاي، من كينيا، وسومالي مان التي تناضل ضد تجارة جنس الأطفال في كمبوديا. وتلقيت هناك الزي الذي عليّ أن أرتديه. لم يكن من النوع الذي

أرتديه عادة؛ ولكنه لم يكن بالزي الفظيع الذي تصورته: كنزة، وتنورة، ومعطف من الصوف الأبيض الشتوي، وجزمة وقفازات من اللون نفسه، وجميعها تحمل ماركة أحد المصممين فاحشي الغلاء. لم يكن الزي سيئاً في الواقع. كنت أبدو أشبه بثلاجة، ولكن الأخريات كنّ يبدون كذلك أيضاً، باستثناء صوفيا لورين، طويلة القامة، مهيبة، عظيمة الصدر وحسية، حتى وهي في السبعين وبضع سنوات. لا أدري كيف تحافظ على نحولها، لأنها خلال الساعات الطويلة التي أمضيناها في الانتظار في الكواليس، لم تتوقف عن قضم أنواع مختلفة من الكربوهيدرات: بسكويت، جوز، موز، شوكولاته. ولا أدري كيف تظل برونزية بفعل الشمس، ودون تجاعيد. صوفيا من حقبة أخرى، مختلفة جداً عن موديلات وممثلات هذه الأيام اللواتي يبدون هياكل عظمية بنهود اصطناعية. جمالها أصلي، وهو غير قابل للتردي كما رأيت. لقد قالت قبل عدة سنوات في برنامج تلفزيوني إن سرها هو الحفاظ على قوام جيد و«عدم إحداث أصوات امرأة عجوز»، هذا يعني لا شيء من الشكوى، أو التذمر، أو السعال، أو اللهاث، أو التكلم وحدها، أو إطلاق غازات. أنتِ لستِ مضطرة إلى ذلك، يا باولا، لأنك ستكونين دوما في الثامنة والعشرين. أما أنا، المغرورة التي لا خلاص لها، فقد حاولتُ إتباع هذه النصيحة بحذافيرها، لأنني لا أستطيع محاكاة صوفيا في أي مظهر آخر.

من أثرت فيَّ أكثر من الجميع هي وانغاري ماثاي. إنها تعمل مع نساء من القرى الأفريقية، وقد زرعت أكثر من ثلاثين مليون شجرة، غيّرت بها المناخ ونوعية الأرض في بعض المناطق. هذه المرأة العظيمة تتألق مثل مصباح، وحين رأيتها شعرت بدافع لا يُقاوم إلى معانقتها، وهو ما يحدث لي عادة عند لقاء بعض الرجال الشبان، ولكن ليس امرأة مثلها. احتضنتها بيأس، دون أن أتمكن من إفلاتها؛ لقد كانت مثل شجرة، قوية وراسخة وساكنة وسعيدة.

وقد أفزعت تلك المفاجأة وانغاري، فأبعدتني عنها بمداراة.

افتُتحت الألعاب الأولمبية باستعراض مفرط في المغالاة، شارك فيه آلاف الأشخاص: ممثلون، وراقصون، وكومبارس، وموسيقيون، وفنيون، ومنتجون، وآخرون كثيرون. وفي ساعة محددة، حوالي الحادية عشرة ليلاً، عندما انخفضت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، أخذونا إلى الكواليس وتسلمنا الراية الأولمبية الهائلة. كانت مكبرات الصوت تعلن عن لحظة الذروة في الاحتفال وبدأ عزف «مارش الانتصار» من أوبرا *عايدة*، يرافقه كورال من أربعين ألف متفرج. كانت صوفيا لورين تمضي أمامي. يزيد طول قامتها بمقدار رأس عني، دون حساب لبدة شعرها المتموج، وكانت تمشي بأناقة زرافة في السافانا، رافعة الراية فوق كتفها. وكنت أنا أمشي وراءها خبباً على رؤوس أصابعي، ورافعة ذراعي إلى أعلى، بحيث ظل رأسي تحت الراية اللعينة. وكانت الكاميرات كلها موجهة إلى صوفيا لورين بالطبع، وهو ما كان مناسباً لي، لأنني ظهرت في الصور الصحفية، وإن يكن بين ساقيها. وأعترف لكِ بأنني كنت سعيدة جداً، إلى حدّ أنني كنت أمضي طافية في الهواء على حدّ قول نيكو وويللي اللذين كانا يهتفان لي من المدرجات مع دموع الاعتزاز. تلك اللفة في مضمار الستاد الأولمبي هي دقائق شهرتي الأربع العظيمة. لقد جمعتُ المقالات والصور الصحفية لأنه الحدث الوحيد الذي لا أرغب في نسيانه عندما يمحو خرف الشيخوخة ذكرياتي الأخرى كلها.

سانتا كلوز الشرير

ولكن، فلنرجع إلى الوراء، يا باولا، كيلا نضيع. لقد أحببنا سالي، خطيبة جيسون، وهي فتاة رصينة وقليلة الكلام، تظل في

البُعد الثاني، مع أنها متيقظة وحاضرة على الدوام. لها يد حورية حامية مع الأطفال. قصيرة القامة، جميلة دون مبالغة خارقة، لها شعر أشقر ناعم، ودون قطرة واحدة من المكياج؛ تبدو في الخامسة عشرة من العمر. وكانت موظفة في مركز للفتيان الجانحين، حيث يتطلب العمل شجاعة وحزماً. وكانت تستيقظ باكراً، تغادر ولا نراها حتى الليل، عندما ترجع متجرجرة من الإنهاك. العديد من الفتيان الذين تتولى مسؤوليتهم كانوا محبوسين بتهمة السطو المسلح، وبالرغم من أنهم قاصرون، إلا أنهم كانوا بضخامة الماموت؛ ولست أدري كيف كانت، بمظهر عصفور الدوري الذي لها، تفرض عليهم احترامها. في أحد الأيام هددها أحد أولئك القتلة بسكين، فعرضتُ عليها عملاً أكثر أماناً بعض الشيء في مكتبي، كي تساعد سيليا التي لم تعد قادرة على القيام بكل أعباء العمل. كانتا صديقتين مقربتين. فقد كانت سالي على استعداد دائم لمساعدتها في رعاية الأطفال ومرافقتها، لأن نيكو يقضي عشر ساعات خارج البيت، في دراسة الإنكليزية والعمل. ومع مرور الزمن توصلتُ إلى معرفتها واتفقت مع ويللي بأن ما يجمع بينها وبين جيسون قليل جداً. «لا تتدخلي»، أمرني ويللي. ولكن كيف يمكنني عدم التدخل إذا كانا يعيشان في بيتنا، وفستان زفافها المخرم بلون كريما البيض المخفوق مع السكر، معلق في خزانتي. كانا يفكران في الزواج عندما ينهي دراسته، حسب قول جيسون، ولكن سالي لا تبدي أي تلهف، وكانا يبدوان أشبه بخطيبين خمسينيين ضجرين. إن هذه الخطوبات الحديثة، الطويلة والمتراخية، تبدو لي مريبة؛ فالتعجل أمر لا يمكن فصله عن الحب. وإذا ما حدث وتزوجت سالي من جيسون، فلن يكون الدافع، حسب رأي الجدة هيلدا، هو جنون الحب، وإنما كي تبقى ضمن أسرتنا.

العمل المؤقت الوحيد الذي حصل عليه جيسون بعد تخرجه من *الكوليج* كان في مركز تجاري، حيث كان يتعرق في بدلة

سانتا كلوز سخيفة. وقد أفاد ذلك على الأقل في جعله يدرك أن عليه مواصلة تعليمه والحصول على شهادة مهنية. وقد أخبرنا أن معظم الأشخاص الذين يؤدون دور سانتا كلوز هم أناس تعساء، يأتون إلى العمل بعد أن يكونوا قد شربوا عدة كؤوس، وهناك منهم من يلمسون الأطفال بشبق. ونظراً لذلك، قرر ويللي أن يكون لأطفال الأسرة سانتا كلوزهم الخاص، فاشترى زي تنكر بديع من المخمل الأحمر مع حواش من فراء أرانب حقيقي، ولحية معقولة وجزمة من الجلد. أردتُ له أن يختار شيئاً أرخص ثمناً، لكنه نبهني إلى أنه لا يرتدي أي شيء عادي، إضافة إلى أن هناك سنوات طويلة قادمة لاستخدام ملابس التنكر. وفي عيد الميلاد من ذلك العام، دعونا حوالي اثني عشر طفلاً مع آبائهم؛ وفي الموعد المحدد، خففنا الإضاءة، وعزف أحدهم موسيقى عيد الميلاد على أرغن كهربائي، وظهر ويللي من إحدى النوافذ حاملاً كيس هداياه. حدثت صدمة خوف بين أصغر الأطفال، باستثناء سابرينا التي لا تخاف شيئاً. «لا بد أنكم أغنياء جداً لتتمكنوا من جعل سانتا كلوز يأتي إليكم في ليلة كثيرة الشغل»، قال معلقاً. كان كبار الأطفال مفتونين، بل إن أحدهم أعلن أنه لا يؤمن بوجود سانتا كلوز، فرد ويللي غاضباً: «ستظل دون هدية إذاً يا ذا المخاط البرازي». وعندئذ انتهت الحفلة. فعلى الفور خامرت الشكوك الأطفال بأن من يختبئ وراء اللحية هو ويللي، وساد بينهم التردد. ولكن أليخاندرو وضع حداً للشكوك بمسوغ عقلاني لا يمكن دحضه: «من غير الملائم لنا أن نعرف. فهذا مثل الفأر الذي يأتينا بعملة معدنية عندما تسقط إحدى أسناننا. من الأفضل أن يظن الآباء أننا حمقى». وكانت نيكول لا تزال صغيرة للمشاركة في تلك المهزلة، لكنها بعد سنوات من ذلك، كانت الشكوك لا تزال تنهشها. لقد كانت تخاف سانتا كلوز، وكنا نضطر في كل عيد ميلاد إلى مرافقتها إلى الحمام، حيث تظل محبوسة وهي ترتجف إلى أن نؤكد لها أن

العجوز المخيف قد غادر في زلاجته إلى بيت آخر. وفي هذه المرة قبعت إلى جانب المرحاض بوجه متطاول ورفضت أن تفتح هداياها.

- ماذا أصابك يا نيكول؟ - أردتُ أن أعرف.

- أخبريني الحقيقة، هل ويللي هو سانتا كلوز؟

- أظن أن من الأفضل أن تسأليه عن ذلك - نصحتها؛ لأنني خشيت بألا تعود إلى الثقة بي إذا ما كذبت عليها.

أمسك ويللي بيدها، واقتادها إلى الغرفة حيث توجد ثياب التنكر التي استعملها للتو، وأخبرها بالحقيقة بعد أن نبهها إلى أن ذلك سيظل سراً بينهما لا يمكن لها أن تبوح به للأطفال الآخرين. عادت حفيدتي إلى الحفلة، وقبعت في أحد الأركان بالوجه المتطاول نفسه، دون أن تلمس الهدايا.

- ماذا أصابك الآن يا نيكول؟ سألتُها.

- لقد كنتم تسخرون مني طيلة الوقت! لقد دمرتم حياتي! - هكذا كان جوابها، ولم تكن قد أكملت الثالثة من عمرها...

أخبرتُ جيسون بمدى الفائدة التي وفرها لي التدرب الصحافي في مهنة الكتابة، واقترحت عليه أنه يمكن للصحافة أن تكون الخطوة الأولى على طريق مسيرته الأدبية. فالصحافة تعلّم التقصي، والإيجاز، والعمل تحت الضغط، واستخدام اللغة بفعالية؛ كما أنها تضطر الكاتب إلى إبقاء القارئ حاضراً في ذهنه على الدوام، وهو أمر ينساه الكتّاب عادة لأنهم يتطلعون إلى الخلود. وبعد كثير من الضغط عليه، لأنه كان ممتلئاً بالشكوك إلى حد لم يرضَ معه أن يملأ استمارات القبول، تقدم إلى عدة جامعات، وكانت مفاجأته أنه تلقى القبول من تلك الجامعات كلها، واستطاع التمتع بدراسة الصحافة في أوسعها شهرة، جامعة كولومبيا في نيويورك. سفره إلى هناك أبعده عن سالي، وبدا لي أن الأمر سينتهي بهذه العلاقة الفاترة جداً إلى البرودة، وإن كانا لا يزالان يتكلمان عن الزواج. ظلت سالي ملتصقة بنا، تعمل معي ومع سيليا، وتساعد في شؤون

الأطفال: لقد كانت الخالة الكاملة. غادرنا جيسون عام 1995 مفكراً في التخرج من الجامعة والعودة إلى كاليفورنيا؛ فبين أبناء ويللي كلهم كان جيسون هو الأكثر احتفاء بالعيش ضمن قبيلة. وقد قال لي ذات مرة: «أحب أن تكون لي أسرة كبيرة العدد؛ وهذا الخليط من أمريكيين ولاتينيين يسير على أحسن حال». ولكي يندمج في الوضع، أمضى عدة شهور يدرس الإسبانية في المكسيك، وتوصل إلى التحدث بها جيداً، بلهجة قاطع الطريق نفسها التي يتحدث بها ويللي. لقد كنتُ وإياه صديقين على الدوام، نشترك في إدمان الكتب، وكان من عادتنا الجلوس على الشرفة مع كأس نبيذ لنتبادل قصّ حكايات يمكن أن تكون مناسبة للروايات وتقاسم الموضوعات. وكان يرى أنكِ أنت، وإرنستو، وسيليا، ونيكو أخوته بالقدر نفسه الذي هم فيه أخوته أولئك الذين شاءتهم المصادفة، وكان يرغب في أن نبقى جميعنا معاً إلى الأبد؛ ومع ذلك، فإن الروابط تقطعت بعد موتكِ أو تبدلت. وجيسون يقول الآن، بعد أن انقضت سنوات، إن الأسرة قد ذهبت إلى الجحيم، ولكنني أذكّره بأن الأُسر، مثل كل شيء في هذا العالم، تتحول وتتطور.

صخرة هائلة

كانت سيليا وويللي يتجادلان صراخاً وبالانفعال نفسه سواء في المسائل التافهة أو الشؤون العميقة.

ـ ضعي حزام الأمان يا سيليا ـ يقول لها ويللي في السيارة.

ـ ليس وضع الحزام إجبارياً لمن يجلس في المقعد الخلفي.

ـ إنه كذلك.

ـ لا!

ـ لا يهمني أن يكون إجبارياً أو غير إجباري! هذه سيارتي وأنا من يقودها! فإما أن تضعي الحزام أو تنزلي! ـ يزمجر ويللي وقد احمرّ بالغضب.

ـ يا للعنه! سأنزل إذاً.

منذ طفولتها تمردت على السلطة الذكورية، وكان ويللي الذي يُستثار أيضاً عند أدنى استفزاز، يتهمها بأنها بنت مدللة. كثيراً ما كان يغضب منها، ولكن كل شيء كان يغتفر فور تناولها الجيتار. كنت أنا ونيكو نسعى إلى إبقاء أحدهما بعيداً عن الآخر، لكننا لم نكن نتمكن من ذلك في بعض الأحيان. ولم تكن الجدة هيلدا تبدي رأياً في ذلك؛ وأكثر ما توصلت إلى قوله لي ذات مرة هو أن سيليا ليست معتادة على تلقي الحنان، ولكنها ستُهدئ من غلوائها مع مرور الزمن.

أجروا عملية جراحية لتابرا من أجل تخليصها من طابتي كرة القدم اللتين في صدرها، وتركيب ثديين عاديين لها، وهما عبارة عن جرابين مملوءين بمادة أقل إهلاكاً من السليكون. وبالمناسبة، الطبيب الذي ركّب لها الثديين الأولين توصل إلى أن يكون الجرّاح التجميلي الأشهر في كوستاريكا، أي أن الخبرة التي اكتسبها مع صديقتي لم تكن غير مجدية. وأتصور أنه صار الآن عجوزاً لا يتذكر الشابة الأمريكية التي كانت تجربته الأولى. ظلت تابرا ست ساعات في قاعة العمليات، وكان عليهم أن يجرفوا عن أضلاعها السليكون المتحجر، وعندما غادرت المستشفى كانت مرهقة إلى حدّ جئنا بها للإقامة في بيتنا من أجل العناية بها إلى أن تتمكن من الاعتماد على نفسها. التهبت عقد إبطيها، ولم تعد قادرة على تحريك ذراعيها، وأصابها التخدير بارتكاس سبب لها نوبات غثيان استمرت أسبوعاً. ولم تكن قادرة على تناول شيء سوى حساءٍ كثير الماء وخبزٍ محمص. وقد توافق ذلك مع سفر جيسون إلى نيويورك للدراسة، وكانت سالي قد انتقلت إلى شقة استأجرتها مع

صديقة لها في سان فرانسيسكو. ولكن الجدة هيلدا، ونيكو، وسيليا، والأطفال الثلاثة كانوا يعيشون معنا مؤقتاً. فالشقة على السطح في ساوساليتو صارت ضيقة عليهم، وكنا نقوم بالإجراءات الأخيرة لشراء بيت لهم، وهو بعيد قليلاً ويحتاج إلى إصلاح، غير أن فيه مسبحاً، فضلاً عن أنه فسيح وجميل وسط هضاب برية، مناسب جداً لتربية الأطفال. لقد كان بيتنا ممتلئاً، ويسوده على العموم جو حفلة على الرغم من سوء حالة تابرا، اللهم إلا عندما يجمع مزاج سيليا وويللي؛ إذ يمكن لأي شرارة عندئذ أن تتسبب في مشاجرة. وقد حدث الانفجار في ذلك اليوم بسبب مسألة في المكتب على جانب من الأهمية، فقد اتهمت سيليا ويللي بأنه غير واضح بشأن النقود، فغضب كمن أصابه مَسّ. تبادلا الشتائم باحتداد ولم أستطع تهدئتهما أو جعلهما يخفضان الصوت للتحدث بتعقل والبحث عن حلّ. وخلال دقائق قليلة ارتفعت النبرة إلى صخب ضواحي، أوقفه نيكو أخيراً بالصرخة الوحيدة التي سمعناها منه في حياته، والتي شلّتنا من المفاجأة. انصرف ويللي صافقاً الباب بقوة كادت أن تقوض الجدران. وفي إحدى الغرف كانت تابرا لا تزال مشوشة بتأثير العملية الجراحية ومسكّنات الألم، وكانت تسمع الصراخ وتظن أنها تحلم. واختفت الجدة هيلدا وسالي ومعهما الأطفال، وأظن أنهم اختبؤوا في القبو، بين الجماجم المصنوعة من الجبس وجحور الثعالب.

كانت نية سيليا حمايتي، وأنا لم أبادر إلى الدفاع عن زوجي، فظلت الشكوك التي أطلقتها هي معلقة في الهواء دون حلّ. ولم أتصور أن تلك المجادلة ستؤدي إلى نتائج طويلة الأجل. أحس ويللي بأنه قد جُرح برصاصة، ليس بسبب سيليا، وإنما بسببي. وعندما استطعنا تبادل الحديث أخيراً، قال لي إنني أشكل حلقة كتيمة مع أسرتي نتركه خارجها، وأنني لا أثق به. حاولت أن أسوي الضرر، ولكن ذلك كان مستحيلاً. لقد انحدرنا كثيراً. استمر الغيظ

أسابيع ولم يكن بإمكاني الخروج هاربة في هذه المرة، لأن تابرا الناقهة كانت عندي، وأسرتي كلها في البيت. أقام ويللي جداراً من حوله، وظل صامتاً، غاضباً، غائباً. يذهب باكراً جداً إلى المكتب ويرجع متأخراً، ويجلس لمشاهدة التلفزيون وحيداً، ولم يعد يطبخ لنا. فكنا نأكل الرز مع البيض المقلي كل يوم. حتى الأطفال لم يتمكنوا من التأثير عليه، كانوا يمشون على رؤوس أصابعهم، وقد ملّوا من التقرب منه بذرائع مختلفة؛ فقد تحول الجد إلى عجوز متأفف. ومع ذلك، حافظنا على اتفاقنا بعدم ذكر كلمة طلاق، وأعتقد أننا كلينا ـ على الرغم من المظاهر ـ كنا نعرف أننا لم نصل إلى النهاية، وأنه مازال لدينا الكثير من النوابض المعبأة. وفي الليل، كان كل منا ينام في ركنه من السرير، لكن الصباح يطلع علينا دوماً ونحن متعانقان. وقد ساعدنا ذلك، على المدى الطويل، في المصالحة.

❖ ❖ ❖

ربما أعطيتكِ الانطباع، بهذه القصة، بأنه لم يكن لدينا، أنا وويللي، ما نفعله سوى الجدال. الأمر ليس كذلك بالطبع، يا بنتي. فباستثناء المرات التي ذهبتُ فيها للنوم عند تابرا، وهذا يعني، في أشد لحظات مناوشاتنا جليدية، كنا نمضي على الدوام يداً بيد. سواء في السيارة، أو في الشارع، أو في أي مكان، نظل متشابكي الأيدي. هكذا كنا منذ البدء، ولكن هذه العادة تحولت إلى حاجة ضرورية بعد أسبوعين من تعارفنا، بسبب مسألة الأحذية. فبالنظر إلى قصر قامتي، اعتدت على انتعال أحذية عالية الكعب، غير أن ويللي أصر على أنني يجب أن أمشي براحة وليس بقدمين مجرحين مثل المحظيات الصينيات في الأزمنة الغابرة. وقد أهدى إليّ خفاً رياضياً مازال، منذ ثمانية عشر عاماً، جديداً في علبته. ولكي أرضيه اشتريت صندلاً رأيته في التلفزيون. كانوا يعرضون فتيات ممشوقات القامة يلعبن كرة السلة بملابس

كوكتيل مع صنادل عالية الكعب، وهو بالضبط ما أحتاج إليه. تخلصتُ من الحذاء الذي جئت به من فنزويلا واستبدلته بتلك الصنادل العجيبة. لكنها لم تنفع: فقد كانت تفلت من قدمي، وكثيراً ما كنت على وشك السقوط واصطدام أنفي بالأرض. ولأسباب مرتبطة بأساسيات الأمن، كان ويللي يمسك يدي طوال الوقت بقوة. وكنا فوق ذلك نشعر بتعاطف متبادل، وهذا يساعد في تمتين أي علاقة. فويللي يعجبني، وأنا أعبر عن ذلك بطرق مختلفة. لقد توسل إليّ ألا أترجم إلى الانكليزية كلمات الحب، وأن أقولها له بالإسبانية، لأنها تبدو مريبة بالإنكليزية. إنني أذكره دائماً بأن أحداً لم يحبه أكثر مني، بمن في ذلك أمه نفسها، وأنني إذا ما مت فسينتهي به المطاف مهجوراً في نزل للمسنين، ولهذا من الخير له أن يدللني ويعتني بي. هذا الرجل ليس من النوع الذي يسرف في العبارات الرومانسية، ولكنه عاش معي في الحقيقة سنوات طويلة دون أن يخنقني، ولا بد أنني أعجبه قليلاً أيضاً. ما هو سر العلاقة الزوجية الجيدة؟ لا أعرف، فكل زوجين هما حالة مختلفة. نحن تجمع بيننا أفكار، وطريقة متماثلة في النظر إلى العالم، ورفاقية، وإخلاص، وحس سخرية. ونتبادل العناية أحدنا بالآخر. ونحن لدينا المواقيت نفسها، ونستخدم في بعض الأحيان فرشاة الأسنان نفسها، وتعجبنا الأفلام نفسها. ويقول ويللي إننا عندما نكون معاً تتضاعف طاقتنا، لأن لدينا ذلك «التواصل الروحي» الذي ألمح إليه عند تعارفنا. ربما. ولكنني أجد متعة في النوم معه.

وبالنظر إلى الصعوبات، قررنا إجراء علاج نفسي على انفراد. توصل ويللي إلى طبيب نفساني، هو الذي تعامل معه منذ البدء، وهو دب ضخم وملتحٍ رأيت فيه عدوي المعلن، ولكن كان له مع الوقت دور رئيسي في حياتنا. لست أدري ما الذي حاول ويللي أن يجد له حلاً في العلاج، وأفترض أن الأمر المستعجل لديه هو علاقته بأبنائه. أما أنا فبدأت أنبش في ذاكرتي وانتبه إلى أنني أمضي بحمولة

ثقيلة جداً. كان لا بد لي من مواجهة حالات صمت قديمة، وتقبل أن هجر أبي لنا قد خلّف أثراً فيَّ وأنا في الثالثة، وأن هذا الجرح لا يزال مرئياً، وهو ما حسم موقفي النسوي وعلاقتي بالرجال، ابتداء من جدي ومن العم رامون، اللذين تمردت ضدهما دوماً، وحتى نيكو الذي كنت أعامله كما لو أنه طفل، ولا حاجة للتحدث عن العشاق والأزواج الذين لم أستسلم لهم بالكامل قط. في إحدى الجلسات، حاول المعالج ذو الشاي الأخضر أن ينومني مغناطيسياً. لم يتوصل إلى ذلك، ولكنني استرخيت على الأقل، وتمكنت أن أرى داخل قلبي قطعة كبيرة من حبة سوداء. وعرفت عندئذ أن مهمتي ستكون التحرر منها، عليّ أن أفتتها شيئاً فشيئاً إلى قطع صغيرة.

ولكي أزيح عني تلك الصخرة السوداء، بدأت، بالإضافة إلى العلاج النفسي والتنزه في غابة رمادكِ الشفافة، بأخذ دروس يوغا، وضاعفت جلسات الوخز بالإبر المهدئة مع الدكتور شيما، للاستفادة من علمه وحضوره على السواء. أستلقي على سرير مرضك والإبر في كل جزء من جسدي، وأستغرق في التأمل، أهرب إلى أبعاد أخرى. كنت أبحث عنك، يا بنتي. أفكر في روحك التي ظلت عالقة في جسد عاجز عن الحركة طوال العام 1992 ذاك. أشعر أحياناً بخطاف في حنجرتي وأكاد لا أتمكن من استنشاق الهواء، أو ينهكني ثِقل كيس رمل على صدري، وأحس أنني مدفونة في حفرة، لكنني سرعان ما أتذكر وجوب توجيه التنفس إلى موضع الألم، بهدوء، مثلما يُفترض التنفس أثناء الولادة، فيخف الضيق على الفور. وألمح عندئذ سلّما يتيح لي الصعود من الحفرة والخروج إلى ضوء النهار، إلى السماء المفتوحة. الخوف لا مفر منه، يتوجب عليّ تقبله، ولكن لا يمكنني السماح له بأن يشلني. ذات مرت قلتُ - أو كتبتُ في مكان ما - أنني لم أعد أخاف شيئاً بعد موتكِ، ولكن هذا غير صحيح، يا باولا. إنني أخشى فقدان الأشخاص الذين أحبهم، أو رؤيتهم يتألمون، وأخشى تردي

الشيخوخة، وأخشى تفاقم الفقر والعنف والفساد في العالم. في هذه السنوات التي عشتها من دونكِ تعلمتُ التحكم بالحزن، وجعله حليفاً لي. وشيئاً فشيئاً أخذ غيابك وخسارات أخرى في حياتي بالتحول إلى حنين عذب. هذا هو ما أرمي إليه من ممارستي الروحانية المزعزعة: التخلص من المشاعر السلبية التي تحول دون المشي بانطلاق. أريد تحويل الغضب إلى طاقة خلاقة، والذنب إلى تقبل ساخر لأخطائي؛ أريد أن أكنس خارجاً العجرفة والزهو. ولست أمني نفسي بالأوهام، لأنني لن أتوصل أبداً إلى السخاء المطلق، أو الرحمة الحقيقية، أو حالة النشوة التي يبلغها أصحاب الرؤى الإشراقية. يبدو أنني لا أمتلك عظام قديسة، ولكن يمكن لي التطلع إلى الفتات: قيود أقل، وشيء من الحب نحو الآخرين، وسعادة الضمير النقي.

من المؤسف أنه لم يكن باستطاعتكِ تقدير ميكي شيما خلال تلك الشهور التي كان يأتي فيها بكثرة لمعالجتكِ بالوخز بالإبر وتقديم أعشاب صينية لكِ. لأنك كنت ستقعين في حبه، مثلما أحببناه أنا وأمي. إنه يرتدي بدلة دوق، وقمصاناً منشاة، وأزرار معاصم ذهبية، وربطات عنق حريرية. لقد تعرفتُ عليه وكان شعره أسود، ولكن بعض الشيب وخط رأسه بعد بضع سنوات، بالرغم من أنه مازال بلا أي تجعيدة في وجهه، وببشرة أمير متوردة، بفضل مراهمه العجيبة. لقد أخبرني أن أبويه عاشا معاً طوال ستين سنة، يمقت أحدهما الآخر دون مدارة. وفي البيت، لم يكن الزوج يتكلم، والمرأة تتكلم دون توقف لإزعاجه، ولكنها تقوم على خدمته كزوجة يابانية على الطريقة القديمة: تهيئ له الحمّام، وتفرك ظهره بالليفة، وتقدم له الطعام في فمه، وتهوّي له في أيام الصيف، «كيلا يتمكن من القول يوماً أنها قصّرت في واجباتها»، وبالطريقة نفسها كان يتولى هو دفع الحسابات، وينام كل ليلة في البيت، «كيلا تقول هي إنه كان خبيثاً». وفي أحد الأيام ماتت

السيدة، بالرغم من أنه كان أكبر منها سناً بكثير، ومصاباً فوق ذلك بسرطان الرئة، لأنه يدخن مثل قاطرة. وهي القوية التي لا تعرف الكلل في عدائها، انتهت في دقيقتين بأزمة قلبية. لم يكن أبو ميكي قد غلى الماء يوماً ليصنع شاياً، ناهيك عن غسل جواربه، أو طيّ الحصيرة التي ينام عليها. ظن الأبناء أنه سيموت فوراً؛ ولكن ميكي وصف له أعشاباً، وسرعان ما بدأ العجوز يسمن، وتنتصب قامته، ويضحك ويتحدث لأول مرة منذ سنوات. وهو يستيقظ الآن عند الفجر، يأكل كرة من الرز مع «التوفو» والأعشاب الشهيرة، يتأمل، ويترنم بأغنيات، ويمارس تمارين التايشي ويذهب لصيد سمك الترويت وفي جيبه ثلاث علب سجائر. المسيرة إلى النهر تستغرق منه نحو ساعتين. ويعود بسمكة يقوم هو نفسه بطهيها، متبلة بمساحيق سحرية يوفرها له ميكي، وينهي يومه بحمام ساخن جداً وبطقس آخر لتوقير أسلافه، وفي أثناء ذلك لا يفوته أن يلعن ذكرى امرأته. «إنه في التاسعة والثمانين، وهو مثل برعم متفتح»، قال لي ميكي. وقد قررت أنه إذا كان بإمكان هذه الأدوية الصينية أن تعيد الشباب إلى ذلك الجد الياباني، فإنها ستكون قادرة كذلك على أن تنتزع من قلبي تلك الصخرة الثقيلة.

رقصة صالون وشوكولاته

أحد الأطباء النفسانيين ـ وكان هناك العديد منهم تحت تصرفنا ـ نصحنا بأن نتقاسم أنا وويللي بعض النشاطات المسلية، وعدم الاكتفاء بالواجبات وحدها. فقد كنا بحاجة إلى مزيد من الخفة والتسلية في حياتنا. فاقترحتُ على زوجي أن نتلقى دروساً في رقصات الصالونات، لأننا كنا قد رأينا فيلماً أسترالياً حول الموضوع، *Strictly Ballroom*، ورحتُ أتخيلنا نحن الاثنين نرقص

مضاءين بثريات من الكريستال، هو يرتدي السموكنغ، وحذاءً ذا لونين، وأنا بفستان مشكوك بالخرز وريش النعام، وكلانا هوائيين، ظريفين، نتحرك بالإيقاع نفسه، وبانسجام تام، مثلما نأمل أن نتوصل في أحد الأيام كثنائي. عندما تعارفنا في ذلك اليوم الذي لا يُنسى من شهر تشرين الأول عام 1987، أخذني ويللي إلى حفلة رقص في أحد فنادق سان فرانسيسكو، وأتيحت لي فرصة تقريب أنفي من صدره وتشممه، ولهذا عشقته. إن لويللي رائحة طفل معافى. ومع ذلك، فإن الذكرى الوحيدة المتبقية لديه من تلك المناسبة هي أنني كنت أتمسك به وأشده، كمن تحاول ترويض فرس جامحة. «هل سيشكل هذا مشكلة بيننا؟»، يبدو أنه سألني هذا السؤال. ويؤكد أنني أجبته بصوت مذعن خافت: «طبعاً لا!». لقد مضت عدة سنوات على ذلك.

قررنا البدء بدروس خصوصية، كي لا نكون مضحكين أمام تلاميذ آخرين متقدمين علينا. والأصح أن أقول إنني أنا من قررت ذلك، لأن ويللي في الحقيقة راقص جيد، وكان يحاط في شبابه بحلقة متفرجين، ويكسب مسابقات في الرقصات الرائجة. كانت جدران صالة الرقص الأربعة في الأكاديمية مغطاة بالمرايا من الأرض حتى السقف، وكانت المدربة اسكندينافية في التاسعة عشرة. ساقاها طويلتان، بطول قامتي كاملة، محشورتان في جوربين طويلين أسودين لهما درزة جانبية، وتنتعل صندلاً بكعبين إبريين. أعلنت أننا سنبدأ برقصة السلسا. أشارت لي إلى كرسي، وأحاطت نفسها بذراعي ويللي وانتظرت إيقاع الموسيقى المضبوط لتندفع إلى الحلبة.

ـ الرجل هو الذي يقود ـ كان درسها الأول.

ـ ولماذا ـ سألتها.

ـ لا أدري، ولكن الأمر كذلك ـ قالت.

ـ احم! ـ احتفل ويللي بنبرة انتصار.

- لا يبدو لي ذلك عادلاً - ألححت.
- ما هو غير العادل؟ - سألتني الاسكندينافية.
- أظن أنه علينا التناوب. مرة يقود ويللي، ومرة أنا.
- الرجل يقود دائماً! - هتفت تلك الجلفة.

انزلقت هي وزوجي على حلبة الرقص، على إيقاع موسيقى لاتينية، وسط المرايا التي تكرر إلى ما لا نهاية له جسديهما المتشابكين، والساقين الطويلتين وابتسامة ويللي البلهاء، بينما أنا أتأفف على الكرسي.

عند الخروج من الدرس، نشب بيننا شجار في السيارة، كاد يصل، لولا قليل، إلى تبادل اللكمات. فويللي يزعم أنه لم ينتبه إلى ساقي المدربة أو صدرها، وأن ذلك كله من بنات أفكاري فقط. «يا يسوع! لا بد من رؤية كم هي بلهاء هذه المرأة!»، صاح. وواقع أنني أمضيت ساعة على الكرسي بينما هو يرقص بدا له منطقياً، لأن الرجل يقود، وعندما يتعلم هو، يمكنه أن يقودني في حلبة الرقص بدقة طيور مالك الحزين في رقصتها الزفافية. لم يقل ما قاله بهذه الكلمات بالضبط، لكنني أحسست فيه نبرة سخرية. وكان رأي الطبيب النفساني أنه علينا ألا نستسلم، وأن رقصات الصالونات هي انضباط فعال لتطويع الجسد والروح. وما الذي يعرفه هو، هذا البوذي شارب الشاي الأخضر الذي لم يرقص في حياته كلها مرة واحدة! ولكننا ذهبنا في نهاية المطاف إلى درس ثان، ودرس ثالث قبل أن أفقد صبري وأتشاجر مع المدربة. لم أشعر قط بمثل تلك المذلة. وكانت النتيجة أننا أضعنا القليل الذي كنا نعرفه عن الرقص، ولم أعد أنا وويللي إلى الرقص معاً منذ ذلك الحين سوى مرة واحدة. ربما رويت هذه الحادثة لأنها تمثل طبعنا: تصورنا من الرأس حتى القدمين.

❖ ❖ ❖

انتقلت سيليا ونيكو والأطفال إلى بيتهم الجديد، وذهب أخو

سيليا للعيش معهم. كان شاباً طويلاً ولطيفاً، وإن كان مدللاً جداً، ويفكر في الاستقرار في الولايات المتحدة. أظن أنه لم يكن على علاقة جيدة بأسرته أيضاً.

وفي أثناء ذلك، جلب لي نشر *باولا* جوائز لا أستحقها، فعينوني عضواً في أحد المجامع اللغوية، بل إنهم قدموا إليّ المفاتيح الرمزية لإحدى المدن. تراكمت العباءات والقلنسوات في صندوق كبير، وكانت آندريا تستخدمها للتنكر. كانت حفيدتي قد دخلت في مرحلة حفظ الأشياء، وكانت لديها دمية تدعى سَلفي إل أتون. ولحسن الحظ أنني لم أنس قط أمراً قالته لي كارمن بالثيّس: «الجائزة لا تميز من يتلقاها بقدر ما تميز من يمنحها، فلا تسمحي للزهو بأن يسيطر عليك». وقد كان ذلك مستحيلاً: فأحفادي يتولون أمر إبقائي ذليلة، وويلي يذكرني أن النوم على أكاليل الغار هي أفضل طريقة لسحقها.

في تلك الفترة ذهبت أنا وويلي وتابرا إلى تشيلي لحضور عرض افتتاح فيلم *بيت الأرواح*. كان لا يزال هناك الكثير من مناصري بينوشيت ممن لا يخجلون من الإعراب عن تقديرهم له. ولكنهم صاروا قلة اليوم، لأن الجنرال فقد السمعة بين أنصاره عندما خرجت إلى الضوء سرقاته، وتهربه من الضرائب، وفساده. فمن ضربوا صفحاً عن أعمال التعذيب والقتل، لم يغفروا له اختلاسه الملايين. كانت قد انقضت قرابة ست سنوات على هزيمة الدكتاتور في استفتاء عام، غير أن العسكريين، والصحافة، والنظام القضائي كانوا يعاملونه بحذر شديد. وكان اليمين يتحكم بمجلس الشيوخ، والبلاد محكومة بدستور وضعه بينوشيت الذي يعتمد على الحصانة باعتباره عضواً مدى الحياة في مجلس الشيوخ، وعلى حماية قانون العفو العام. وكانت الديمقراطية مشروطة، وهناك اتفاق اجتماعي وسياسي على عدم استفزاز العسكريين. بعد سنوات قليلة من ذلك، في العام 1998، جرى اعتقال بينوشيت في

إنكلترا، وكان قد ذهب إليها ليتقاضى عمولات بيع أسلحة، وإجراء فحص طبي عام، وتناول شاي الساعة الخامسة مع صديقته، رئيسة الوزراء السابقة مرغريت تاتشر. ظهر في صحف العالم متهماً باقتراف جرائم ضد الإنسانية؛ عندئذ تهاوت العمارة القانونية التي شيدها لحماية نفسه، وتجرأ الشيليون أخيراً على الخروج إلى الشارع للسخرية منه.

كان للفيلم وقع الركلة على اليمين المتطرف، ولكنه قوبل بحماسة من الأكثرية، وخاصة الشباب الذين ترعرعوا في ظل الرقابة الصرامة، ويرغبون في معرفة المزيد عما حدث في تشيلي في سنوات السبعينيات والثمانينيات. وفي عرض الافتتاح، أتذكر أن عضو مجلس شيوخ يميني جداً نهض غاضباً وخرج بصورة عاصفة من الصالة، معلناً بأعلى صوته أن الفيلم هو سلسلة أكاذيب ضد صاحب الفضل على الوطن، جنرالنا بينوشيت. وقد سألتني الصحافة عن رأيي في ذلك. «العالم بأسره يعرف أن هذا السيد مجنون»، أجبتُ بطيب نية، لأنني كنتُ قد سمعت ذلك مرات كثيرة. ويؤسفني أنني نسيت اسم ذلك السيد... وعلى الرغم من العثرات الأولية، حقق الفيلم نجاحاً كبيراً، وبعد انقضاء عشر سنوات على إنتاجه، مازال أحد الأفلام المفضلة في التلفزيون والفيديو.

تابرا التي لم تكن قد ذهبت إلى سنتياغو دي تشيلي من قبل، بالرغم من أنها جالت على أشد الأماكن المجهولة في الكوكب، تكوّن لديها انطباع طيب. لا أدري ما الذي كانت تتوقعه، ولكنها وجدت نفسها في مدينة ذات مظهر أوروبي، تحرسها جبال هائلة، وأناس مضيافون، ومأكولات لذيذة. أقمنا في جناح في أعلى الفنادق سعراً، حيث كانوا يتركون لنا في كل ليلة منحوتة من الشوكولاته ذات موضوع محلي، مثل الزعيم الهندي كاوبوليكان مسلحاً برمح يتبعه اثنان أو ثلاثة من محاربيه المابوتشيين. فكانت تابرا تستهلك كاوبوليكان بمشقة، آملة أن تنهيه كاملاً،

ولكنهم بعد عدة ساعات يستبدلونه بكيلو غرام آخر من الشوكولاته على هيئة عربة يجرها جاموسان أو ستة من رعاة أبقارنا الغاوشو المشهورين، يمتطون الجياد ويحملون العلم التشيلي. وهي التي تعلمت منذ طفولتها ألا تترك شيئاً في الطبق، كانت تنقض على المنحوتة متنهدة، إلى أن هزمها مجسم لأكونكاغوا، أعلى قمة في الأنديز، مصنوع من الشوكولاته المصمتة، وحاسم مثل الصخرة القاتمة المغروسة، حسب قول طبيبي النفساني، في منتصف صدري.

مجانين قصار

انتبهت أنا وويلي بذهول إلى أن تسع سنوات قد مضت على عيشنا معاً؛ ونحن الآن نمضي بخطوات أكثر ثباتاً. لقد شعر هو منذ اللحظة الأولى، حسب قوله، بأنني توءم روحه وتقبلني بالكامل، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلي. فحتى الآن، بعد انقضاء ألف سنة، مازلت مندهشة من واقع أننا التقينا في اتساعات العالم، وشعرنا بالانجذاب أحدنا إلى الآخر، وتمكنا من كنس المعقوقات، وإن بدا تجاوزها غير ممكن أحياناً، من أجل أن نشكل ثنائياً.

الأطفال، هؤلاء المجانين القصار، مثلما عرّفتهم جيلا، كانوا أكبر متعة في حياتنا. كانت سابرينا قد أزاحت عنها ظلال ولادتها، وكانت واضحة بجلاء الموهبة التي منحتها إياها الحوريات للتعويض عن قصورها الجسدي: قوة شخصية قادرة على التغلب على العوائق التي يمكن لها أن تخيف أحد الساموراي. فما يقوم به غيرها من الأطفال دون جهد، مثل المشي أو دلق ملعقة حساء في الفم، يتطلب منها الكثير من المثابرة، ولكنها تتوصل إلى تحقيقه دائماً. كانت تعرج، فساقاها لا تتوافقان معها كما يجب، غير أنه لم

يكن هناك من يخامره الشك في أنها ستتمكن مستقبلاً من المشي، مثلما تعلمت المشي، ويمكنها التعلق بشجرة والتأرجح، وقيادة دراجة بساق واحدة. وهي مثل جدتها لأمها، زوجة ويللي الأولى، رياضية استثنائية: الجزء العلوي من جسدها بالغ القوة والرشاقة، وتمارس الآن لعب كرة السلة على كرسي متحرك. لقد كانت آنذاك طفلة حساسة وجميلة، لها كلها لون السكر المحمص، وبروفيل الملكة المشهورة نفرتيتي. تعلمت الكلام قبل أي طفل آخر، ولم تبد أدنى ملمح خوف، ربما لأنها اعتادت العيش محاطة بالناس.

وتكشف أليخاندرو عن شبه شديد بنيكو في الطبع، وتشابه مع أمه في المظهر. وكان له، مثل أبيه، ذهن فضولي، وكان قادراً على استيعاب المفاهيم الرياضية قبل أن يتمكن من نطق كل الحروف الصامتة في الأبجدية. وكان صبياً شديد الوسامة إلى حدّ يستوقفنا الناس معه في الشارع كي يتغزلوا به. في يوم الثاني من نيسان لإحدى السنوات، أتذكر التاريخ جيداً، كنا وحدنا في البيت، وجاء مذعوراً إلى المطبخ، حيث كنت أحضّر حساء، التصق بساقيّ وقال لي: «هناك شخص على الدرج». خرجنا للبحث، جبنا أنحاء البيت دون أن نعثر على أحد، ولدى عودتنا إلى الطابق الثاني، حيث يوجد المطبخ، توقف شاحباً عند أسفل الدرج.

- هناك!

- ماذا يوجد، يا أليخاندرو؟ - سألته. ولم أكن أرى سوى درجات السيراميك.

- إنها ميتة!

- هذه روح، يا أليخاندرو.

- أنتِ قلت لي إنها في الغابة! كيف وصلت إلى هنا؟

- في سيارة أجرة.

وأظن أنكِ كنتِ قد تلاشيتِ في أثناء ذلك، لأن الصغير وافق

على صعود الدرج ممسكاً بيدي. أظن أن أسطورة شبحكِ قد بدأت مع أمي التي كانت تزورنا مرتين في السنة، وتظل معنا لأسابيع، لأن السفر من سنتياغو إلى سان فرانسيسكو هو أشبه برحلة ماركو بولو، لا يمكن القيام بها بخفة. وقد قالت أمي إنها تسمع ضجة في الليل، وأن هناك من يحرك الأثاث. جميعنا كنا قد سمعنا تلك الأصوات وقدمنا لها عدة تفسيرات: دخول غزلان وتجولها على الشرفة، أو أنها الأنابيب التي تتقلص بسبب البرد، أو طقطقة أخشاب البيت. صديقتي سيليا كورّياس ثاباتا، أستاذة الأدب التي درّست رواياتي طوال سنوات في جامعة سان خوسيه، وكانت تكتب كتاباً حول أعمالي بعنوان ***حياة وروح***، بقيت معنا في إحدى الليالي ونامت في الحجرة التي كنتِ تشغلينها من قبل، وقد استيقظت في منتصف الليل على رائحة ياسمين قوية، بالرغم من أننا كنا في أوج الشتاء. وتحدثت كذلك عن أصوات. لكن أحداً لم يولِ ذلك كبير أهمية إلى أنا جاء صحفي ألماني، وظل معنا لإجراء مقابلة طويلة معي. وقد أقسم أنه رأى خزانة الكتب تنفصل قرابة نصف متر عن الجدار، منزلقة دون ضجة ودون أن يتبدل وضع الكتب فيها. لم تكن ليلة زلزال، ولم يكن الأمر في هذه الحالة مجرد أحاسيس نساء لاتينيات، وإنما هي شهادة ذكر ألماني لكلمته وزن ذري. تقبلنا فكرة أنكِ تأتين لزيارتنا، بالرغم من أن هذا الاحتمال كان يوتر أعصاب السيدة التي تتولى تنظيف البيت. وعندما علم نيكو بما جرى لأليخاندرو، قال إن الطفل قد سمع دون شك تعليقاً ما، وتكفلت المخيلة الطفلية بالباقي. فلدى ابني على الدوام تفسيرات عقلانية تطيح بأفضل حكاياتي.

انتهى الأمر بآندريا إلى تقبّل نظارتها، واستطعنا أن نخلصها من الأربطة ودبابيس البكلة، ولكن تعثراتها الأسطورية لم تتوقف. كانت تمضي ضائعة في العالم، لا يمكنها صعود الأدراج الآلية أو استخدام الأبواب الدوارة. وفي نهاية استعراض مدرسي، ظهرت فيه

بملابس فتاة من هاواي مع قيثارة أُكلال، قامت بانحناءة احترام عميقة وطويلة على منصة المسرح، لكنها كانت تدير مؤخرتها للجمهور. وقد قوبلت تلك التحية بقهقهة جماعية، أمام غضب الأسرة ورعب حفيدتي التي أمضت أسبوعاً دون الخروج من البيت خجلاً. وقد كان لآندريا وجه غريب، كوجه حيوان من الفرو، يبرزه شعرها الأجعد. وكانت تمضي متنكرة على الدوام. أمضت سنة كاملة وهي تلبس أحد قمصان نومي ـ وردي اللون بالطبع ـ. وهناك صورة لها في روضة الأطفال، بشال من الفرو، وشريط علبة هدايا على صدرها، وقفازي عروس، وريشتي طاووس على رأسها. وقد اعتادت على التكلم وحدها لأنها تسمع أصوات شخصيات حكاياتها الذين لا يتركونها بسلام، ومن عادتها الخوف من تخيلاتها. كانت هناك في البيت مرآة في نهاية ممر، وكثيراً ما كانت تطلب مني أن أرافقها إلى «ممر المرآة». وحين نقترب، تصبح خطواتها أكثر تردداً لأن هناك تنيناً يترصد. ولكن، في اللحظة نفسها التي يتأهب فيها الوحش للانقضاض علينا، تعود آندريا من بُعد آخر إلى هذا الواقع. «إنها مرآة وحسب، لا وجود فيها لأي مسخ»، تقول لي دون كثير من القناعة. وبعد هنيهة تكون قد عادت إلى أجواء حكاياتها، وتقودني من يدي عبر طريق الوهم. وكانت أمها تقول: «سينتهي الأمر بهذه الطفلة إلى الجنون أو إلى كتابة الروايات». لقد كنتُ هكذا وأنا في مثل عمرها.

طالت قامة نيكول فور بدئها بالمشي، وبعد أن كانت متيبسة ومربعة مثل معكب ثلج الأسكيمو، صارت تخفق بظرافة هوائية. كانت حادة الذهن، تتمتع بذاكرة جيدة، وحس توجه يتيح لها أن تعرف دوماً مكان وجودها، وكانت قادرة على التأثير في دراكولا نفسه بعينيها المدورتين وابتسامتها الأرنبية. يذهب ويللي إلى غرفة أخرى لرؤية برنامجه، وتضجر هي من البقاء وحدها، فتلحق به. ويتكرر ذلك عدة مرات خلال فترة بعد الظهر. وفي إحدى المرات

رأت على الشاشة فيلاً ذكراً يمتطي فيلة أنثى.

ـ ما الذي يفعلانه، يا ويللي؟

ـ إنهما يتزاوجان، يا نيكول.

ـ ماذا؟

ـ إنهما يصنعان طفلاً.

ـ لا ، يا ويللي، أنت لا تفهم، إنهما يتشاجران.

ـ حسن يا نيكول، إنهما يتشاجران. هل يمكنني مشاهدة الأخبار الآن؟

وفي هذه الأثناء ظهر فيل حديث الولادة. فأطلقت نيكول صرخة، وركضت لتراه عن قرب، ملصقة أنفها بالشاشة، ثم التفتت بعد ذلك إلى ويللي وهي تضع يديها على خصرها.

ـ لقد حدث هذا لأنهما يتشاجران، يا ويللي!

كان على الصغيرة أن تذهب إلى حضانة أطفال وهي لا تزال تستخدم الحفاض، لأن جميع كبار الأسرة كانوا يعملون، ولم يكن بإمكاننا العناية بها. وعلى خلاف أختها التي تجرجر دوماً حقيبة تضم أثمن كنوزها ـ مجموعة لا حصر لها من الأشياء التافهة التي تحتفظ بقائمة جرد صارمة لها في ذهنها ـ، كانت نيكول لا تعبأ مطلقاً بالتملك. لقد كانت حرة وسخية مثل حسون.

حرذون مجنح

كانت تابرا، مغامرة القبيلة، تسافر عدة مرات في السنة إلى أماكن نائية، وخاصة تلك التي ترى وزارة الخارجية الأمريكية أنه لا يُنصح بها للأمريكيين، سواء لأنها خطرة، مثل الكونغو، أو لأنها على الطرف النقيض سياسياً، مثل كوبا. وكانت قد جابت العالم في عدة اتجاهات، وفي ظروف بدائية، بتواضع حاج

ووحيدة، إلى أن تعرفت على الرجل المستعد لمرافقتها. وبما أنني أضعت حساب المتوددين إلى صديقتي وصارت بعض الحكايات تختلط في ذاكرتي، فإنني مضطرة، لأسباب تتعلق بحذر أولي، أن أبدّل اسمه. ولنقل إنه يدعى ألفريدو لوبيث حرذون مجنح. كان ذكياً جداً ووسيما إلى حد لا يتوانى عن تأمل نفسه في أي زجاج أو مرآة في متناول يده. له بشرة زيتونية، وجسد رياضي. إنه متعة للنظر، وخاصة نظر تابرا التي يصيبها البكم إعجاباً بينما هو يتكلم عن نفسه. كان أبوه مكسيكياً من تشولولا، وأمه هندية كومانشي من تكساس، مما ضمن له في الحياة شعراً أسود قوياً، اعتاد جمعه على شكل ذيل فرس، اللهم إلا عندما تجدله تابرا لتزينه بخرز وريش. وكان لديه فضول دائم إلى السفر، غير أنه لم يتمكن من تحقيق ذلك لأن دخله الضئيل لا يسمح له. وكان الحرذون المجنح قد رتب حياته كلها من أجل مهمة سرية، لكنه يرويها مع ذلك لكل من يعيره أذناً صاغية: استرجاع تاج موكتيزوما من متحف نمساوي، وإعادته إلى أبناء الأزتيك، أصحابه الشرعيين. وكان لديه قميص تي شرت أسود يحمل شعار: **التاج أو الموت، يحيا موكتيزوما**. أراد ويللي أن يعرف إذا ما كان الازتيكيون قد أبدوا ما يشير إلى تأييدهم لمبادرته، فقال لنا لا، لأن المبادرة مازالت سرية جداً. والتاج المؤلف من أربعمئة ريشة من ريش طائر الكيتزال، انقضى عليه أكثر من خمسة قرون، ومن المحتمل أن تكون العثة قد نخرته بعض الشيء. سألناه خلال عشاء أسريّ كيف يفكر في نقل التاج، فلم يعد لزيارتنا. ربما لاعتقاده أننا نسخر منه. وقد أوضحت لنا تابرا أن الإمبرياليين قد استولوا على الكنوز الثقافية لشعوب أخرى؛ مثل الإنكليز الذين سطوا على محتويات المدافن المصرية ونقلوها إلى لندن. ومن جهة أخرى، كان الحرذون معجباً بوشم كيتزالكواتل الذي على ربلة ساقها اليمنى. لا يمكن أن تكون مصادفة أن تابرا قد رسمت وشم ذلك الإله من أميركا

الوسطى، الأفعى المجنحة، الذي أوحى لي باسمه.

وبطلب ملّح من حرذون الذي يشعر بنداء الطبيعة الصحراوية باعتباره كومانشي طيب، قاما برحلة إلى وادي الموت. حذرتُ تابرا من أنها ليست بالفكرة الجيدة، بل إن اسم المكان نفسه يحمل نذير شؤم. قادت هي السيارة عدة أيام، وحملت على كاهلها الخيمة والأمتعة، وسارت في إثر بطلها عدة أميال، متعرقة حتى الجفاف ومصابة بضربة شمس، بينما هو يجمع حصوات مقدسة لشعائره. امتنعت صديقتي عن الشكوى؛ فهي لا تريده أن يواجهها مباشرة بقصورها البدني وكبر سنها؛ فقد كانت تكبره باثنتي عشرة سنة. وأخيراً وجد الحرذون المجنح المكان المناسب تماماً للتخييم. وقامت تابرا، الحمراء مثل شمندرة، ومنتفخة اللسان، بنصب الخيمة وانهارت على كيس نوم مرتجفة من الحمى. لكن بطل قضية السكان الأصليين هزها كي تنهض وتُعدّ بيضاً على طريقة الرانتشيرو المكسيكية. «ماء، ماء...»، تلعثمت تابرا. فرد عليها حرذونها حانقاً: «لقد كانت أمي، حتى وهي تحتضر، تطهو الفاصولياء في موعدها لأبي».

وعلى الرغم من تلك التجربة في وادي الموت، حيث أوشكت عظامها على التكلس، دعته تابرا إلى سومطرة وغينيا الجديدة، حيث اعتادت الذهاب بحثاً عن مصادر إلهام لمجوهراتها الاثنية وعن رأس بدائي تضيفه إلى مجموعة مقتنياتها الغريبة. أما الحرذون المجنح الذي يعنى كثيراً بكماله الجسماني، فقد حمل معه حقيبة ثقيلة من المحاليل والمراهم، لا يسمح لأحد بأن يشاركه فيها، ومجلداً سميكاً حول كل الأمراض والحوادث التي قد يتعرض لها رحالة في هذا الكوكب، ابتداء من داء البربري وحتى لدغ الأصلة. وفي إحدى قرى غينيا الجديدة أُصيبت تابرا بالسعال؛ كانت شاحبة ومرهقة، ربما من عقابيل عملية التديين الدامية.

ـ لا تلمسيني! قد يكون مرضاً معدياً. وربما تكونين مصابة

بـداء يتـسبب فـيه أكـل أدمغـة الأسـلاف ـ قـال الحـرذون المجـنح مذعوراً، بعد أن بحث فـي موسوعة المصائب التي يحملها.

ـ أي أسلاف؟

ـ أيـاً يـكـن. لا يتوجـب أن يكـونـوا أسـلافنا بالـضـرورة. فهـؤلاء الناس يأكلون أدمغة الموتى.

ـ إنهم لا يأكلون الدماغ كاملاً يا حرذون، وإنما جزءاً صغيراً منه، كإشارة احترام وتوقير. ولكـني لا أظـن أننـا أكلنـا شيئاً مـن ذلك.

ـ لا يدري أحدنا أحياناً ما هو موجود فـي الطبق. ثم إننـا أكلنـا لحـم خنزيـر، والخنـازير فـي بوكـانيغي تتغـذى علـى مـا تجـده. ألم تريها تنبش فـي المقبرة؟

علاقة تابرا بالحرذون المجنح انقطعت مؤقتاً عنـدما قـرر العـودة إلى عـشيقته القديمـة الـتي أقنعتـه بأنـه لا يمكـن إلا لقلـب نقـي أن يسترد تـاج موكتيزومـا، وطالمـا هـو مـع تـابرا سيظل قلبـه مدنـساً. «ولمـاذا هـي أكـثـر طهـارة منـك؟»، سـألتُ صـديقتي الـتي كـانت قـد سـاهمت فـي الأرصـدة الـضرورية مـن أجـل ملحمـة التـاج. «لا تقلقـي، سيرجع»، قال لها ويللي مواسياً. «لا، شاء الله»، فكـرتُ أنـا وكلـي استعداد لأن أحطم ذكرى ذلك الجاحدَ. ولكنني فضلت السكوت حين رأيت عيني تابرا الذاويتين. وقد رجع الحـرذون فـور إدراكـه أن المرأة الأخـرى، مهمـا كـانت درجـة طهارتهـا، لا تفكـر فـي تمويلـه. وجاء بفكـرة أنهم يستطيعون تبادل حب ثلاثي الأطراف، لكنهـا لم تكن مستعدة بأي حال لتقبل مثل هذا الحل المورمونيّ.

فـي تلـك الأيـام توفـي زوج تـابرا الـسابق، الـواعظ مـن سـاموا، الذي وصل وزنه إلى مئة وخمسين كيلوغراماً. كـان مـصاباً بارتفـاع الضغط، وبداء سُكّري متسارع. بتروا قدمه، ثم اضطروا بعد شهور من ذلك إلى بتر الساق من فوق الركبـة. وكانـت تـابرا قـد حـدثتني عن معاناتها فـي زواجها منه؛ وأعلم أنها احتاجت لسنوات من العـلاج

كي تتجاوز الهلع الذي سببه لها عنف ذلك الرجل الذي أغواها وهي لا تزال طفلة، وأقنعها بأن يهربا معاً، وضربها بوحشية منذ اليوم الأول، وأبقاها مرعوبة لسنوات، وبعد الطلاق أدار ظهره لابنه. لقد تولت تابرا تربية تونغي دون أي مساعدة من أبيه. ومع ذلك، عندما سألتها إذا ما كانت سعيدة بموته، نظرت إلي باستغراب وقالت: «ولماذا سأكون سعيدة؟ تونغي حزين، وقد خلّف أبناء آخرين كثيرين».

رفيق درب

بالمقارنة مع الحرذون المجنح، يُعتبر رفيق دربي ويللي أماً حقيقية: إنه يعنى بي. وبالمقارنة مع رحلات تابرا الاستكشافية في أقاصي الكوكب، تبدو رحلات عملي القصيرة مؤسفة، ولكنها تستنفدني بالقدر نفسه. فعلي أن أصعد في كل لحظة إلى طائرات، حيث يتوجب عليّ حماية نفسي بمشقة من فيروسات وميكروبات المسافرين الآخرين. أغيب لأسابيع، وأقضي أياماً كاملة في إعداد خطابات. لا أدري كيف كنت أختلس الوقت لأكتب. لقد تعلمت التحدث أمام الجمهور دون خوف، وألا أضيع في المطارات، وأن أعيش على محتويات حقيبة صغيرة، وأن أوقف سيارة تكسي بصفير، وأن أبتسم للناس الذين يصافحونني، حتى لو كانت معدتي تؤلمني وحذائي يضغط على قدمي. لا أتذكر أين كنت، وهذا غير مهم. أعرف أنني جلت في أوروبا، وأستراليا، ونيوزلندا، وأميركا اللاتينية، وأجزاء من أفريقيا وآسيا، والولايات المتحدة كلها، باستثناء داكوتا الشمالية. في الطائرات أكتب يدوياً لأمي كي أروي لها مغامراتي؛ ولكنني حين أقرأ الرسائل في ما بعد، أشعر كما لو أن ذلك كله قد حدث لشخص آخر.

الذكرى الوحيدة التي ظلت حية في ذاكرتي هي مشهد في نيويورك، في ذروة الشتاء، ظل يعذبني حتى تمكنتُ من التطهر منه في وقت لاحق، بعد زيارة قمت بها إلى الهند. كان ويللي قد جاء للقاء بي في نهاية الأسبوع، وقمنا معاً بزيارة جيسون وجماعة من زملائه في الجامعة، وهم شبان مثقفون يرتدون سترات من الجلد. وخلال تلك الشهور التي كان منفصلاً فيها عن سالي، لم يعد يتكلم عن الزواج؛ وقد تكونت لدينا فكرة عن أن تلك الخطوبة قد انتهت، لأن هذا ما أوحت لنا به هي نفسها في مناسبتين، بالرغم من نفي جيسون لذلك. فهو يقول إنهما سيتزوجان فور تخرجه من الجامعة. وفي إحدى زيارات إرنستو إلى كاليفورنيا، أخبرنا أنه أقام علاقة غرامية قصيرة، ولكنها زخمة، مع سالي. وقد استنتجنا من ذلك أنها حرة من الروابط والالتزامات. لكن جيسون لم يعلم بالأمر إلا بعد سنوات عديدة. وكانت قد توالت في تلك الأثناء الأحداث التي قوضت إيمانه بأسرتنا التي بالغ في رسم صورة مثالية لها.

ودعنا أنا وويللي ذلك الابن بتأثر، مفكرين بمدى تبدله. فعندما جئت للعيش مع ويللي، كان جيسون يقضي الليل في القراءة أو اللهو مع أصدقائه، ويستيقظ في الساعة الرابعة بعد الظهر، متشحاً ببطانية صدئة، ويجلس على الشرفة ليدخن ويشرب البيرة ويتكلم بالهاتف، إلى أن أدفعه بالضرب على رأسه كي يذهب إلى الدروس. إنه يمضي الآن على طريق التحول إلى كاتب، مثلما كنا موقنين من أنه سيكون، لأنه يتمتع بالموهبة. كنت أتذكر مع ويللي تلك المرحلة من الماضي، بينما نحن نتمشى في الجادة الخامسة وسط الضجيج والحشود، وحركة المرور، والإسمنت، والصقيع، عندما رأينا، أمام واجهة محل يعرض مجموعة مجوهرات قديمة من روسيا الإمبراطورية، امرأة متكورة على الأرض ترتجف. كانت أفروأمريكية، متسخة، ملتفة بخرق، ومغطاة بكيس قمامة بلاستيكي أسود، وكانت تبكي. الناس يمرون سريعاً بجانبها،

دون أن يروها. كان بكاؤها يائساً إلى حد تجمد العالم في نظري، كما في صورة فوتوغرافية؛ حتى الهواء توقف برهة في أسى تلك المرأة التعيسة الذي لا يُسبر غوره. انحنيت نحوها، وأعطيتها كل ما معي من نقود، بالرغم من ثقتي من أن وغداً سيأتي سريعاً وينتزع النقود منها، وحاولتُ التواصل معها، ولكنها لم تكن تتكلم الإنكليزية أو أنها كانت في ما وراء الكلام. من تكون؟ كيف وصلت إلى هذه الحالة من الهجران؟ ربما هي آتية من جزيرة كاريبية أو من الساحل الأفريقي ورمى بها الموج إلى الجادة الخامسة مثل تلك النيازك التي تسقط على الأرض من بُعد آخر. ظللت مغمومة مع الإحساس بذنب أنني لم أستطع أو لم أشأ مساعدتها. واصلنا السير مستعجلين في البرد؛ وبعد بضعة شوارع إلى الأمام دخلنا إلى المسرح وظلت المرأة وراءنا، ضائعة في الليل. لم أتخيل آنذاك أنني لن أتمكن من نسيانها، وأن بكاءها سيكون نداء لا يخمد، إلى أن منحتني الحياة، بعد سنتين من ذلك، فرصة الرد.

إذا ما تمكن ويللي من الهرب من العمل، يطير للقاء بي في أماكن مختلفة من البلاد كي نقضي ليلة أو ليلتين معاً. مكتب المحاماة يحتجزه ويسبب له استياء أكثر من الرضا. فالزبائن أناس فقراء أصيبوا في حوادث عمل. ومع ازدياد عدد المهاجرين من المكسيك وأميركا الوسطى، وهم غير شرعيين في الغالب، تتزايد أيضاً كراهية الأجانب في كاليفورنيا. كان ويللي يتقاضى نسبة مئوية من التعويض الذي يفاوض عليه لزبائنه أو يكسبه لهم في المحاكم، لكن هذه المبالغ تزداد ضآلة أكثر فأكثر ويصير الحصول عليها أصعب. ولحسن الحظ أنه لا يدفع إيجاراً، لأننا مالكو ماخور ساوساليتو القديم، حيث أقام مكتبه. وكان محاسبه تونغ يقوم ببهلوانيات لاعب سيرك كي يسدد الرواتب، والحسابات، والضرائب، والتأمين، والمصارف. لقد كان ذلك الصيني النبيل يحمي ويللي كأنه يحمي ابناً مجنوناً، ويقتصد إلى

حدّ بلغ فيه بخله مستوى الأسطورة. وتؤكد سيليا أننا عندما نغادر المكتب ليلاً، يُخرج تونغ من القمامة الفناجين والكؤوس الكرتونية، فيغسلها ويعيد وضعها في المطبخ. والحقيقة أنه لولا عين محاسبه الحارسة وجداول بياناته، لكان ويللي قد غرق وأفلس. كان عمر تونغ حوالي خمسين سنة، لكنه يبدو أشبه بطالب شاب، نحيل، ضئيل، بشعر متيبس، ويرتدي على الدوام بنطال رعاة بقر وينتعل خفاً. لم يكن يتكلم مع زوجته منذ حوالي اثنتي عشرة سنة، بالرغم من أنهما يعيشان تحت السقف نفسه، ولم يسعيا إلى الطلاق كذلك، كي لا يقسما ما وفراه، وخوفاً من أمه، وهي عجوز ضئيلة وشرسة، عاشت ثلاثين سنة في كاليفورنيا ومازالت تظن أنها تعيش في جنوبي الصين. لم تكن تتكلم كلمة إنكليزية واحدة، وتقوم بمشترياتها من تشيناتاون، وتستمع إلى الإذاعة الناطقة باللهجة الكانتونية، وتقرأ الجريدة التي تصدر بلهجة المندرين في سان فرانسيسكو. كنت أنا وتونغ نشترك في محبة ويللي، وهذا ما كان يوحدنا، بالرغم من أن أياً منا لم يكن يفهم لكنة الآخر. في البدء، عندما كنت قد جئت للتو كي أعيش مع ويللي، كان تونغ يشعر بريبة متأصلة تجاهي، ويظهرها كلما سنحت له الفرصة.

ـ ما الذي لدى محاسبك ضدي؟ ـ سألتُ ويللي في أحد الأيام.

ـ لا شيء خاص. فكل النساء اللواتي عرفتهن كلفنني غالياً، وبما أنه مسؤول عن الحسابات، فإنه يفضل أن أعيش في عزوبية صارمة ـ قال لي.

ـ أخبره أنني توليت مسؤولية نفقاتي مذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

وأظن أنه أخبره بذلك، لأن تونغ بدأ ينظر إليّ بشيء من الاحترام. وذات يوم سبت وجدني في المكتب أنظف الحمامات وأزيل الغبار بالمكنسة الكهربائية، عندئذ تحول الاحترام إلى تقدير مداري.

ـ أنت تتزوج من هذه... هذه نظيفة ـ نصح ويللي بإنكليزيته المحدودة بعض الشيء. وكان أول من هنأنا عندما أعلنا أننا سنتزوج.

هذا الحب الطويل مع ويللي كان هدية في سنوات النضج من حياتي. فبعد طلاقي من أبيكِ، هيأت نفسي لمواصلة الحياة وحيدة، لأني فكرت أنه سيكون من شبه المستحيل العثور على رفيق آخر. فأنا كثيرة الأوامر، مستقلة، قبلية، وعملي من النوع قليل الشيوع يتطلب مني قضاء نصف وقتي وحيدة، صامتة ومختبئة. قلة من الرجال يستطيعون تحمل ذلك كله. ولست أرغب في إظهار تواضع زائف، إذ أن لدي بعض الفضائل أيضاً. هل تتذكرين واحدة منها، يا بنتي؟ فلنر، دعيني أفكر... إنني، على سبيل المثال، أكتفي بالقليل للعيش، كما أنني معافاة وحنونة. أنت ستقولين إنني مرحة ولا يمكن لأحد أن يمل معي؛ ولكن ذلك كان في السابق، يا بنتي. فبعد ذهابك افتقدت القدرة على أن أكون روح الحفلات. وتحولت إلى انطوائية، بحيث لا يمكنك التعرف إليّ الآن. وكانت المعجزة أنني وجدت ـ في المكان والزمان اللذين لم أتوقعهما ـ الرجل الوحيد القادر على أن يتحملني. توافق مفاجئ. ضربة حظ. أما الجدة فستقول إنه القدر. أما ويللي فيقول إننا أحببنا أحدنا الآخر في حيوات سابقة وسنواصل حبنا في حيوات لاحقة، ولكنكِ تعرفين كم تخيفني الكارما والتقمص. أفضل اقتصار هذه التجربة الغرامية على حياة واحدة، وهذه تكفي. مازال ويللي يبدو لي غريباً! ففي الصباح، بينما هو يحلق ذقنه وأراه في المرآة، أتساءل أي شياطين هو هذا الرجل شديد البياض، الضخم والأمريكي، ولماذا نحن معاً في الحمام نفسه. عندما تعارفنا كانت قليلة الأشياء المشتركة بيننا، فنحن نتحدر من أوساط مختلفة جداً، وكان علينا أن نخترع لغة مشتركة ـ *espánglish* ـ كي نتفاهم. فالماضي، والثقافة، والعادات تفرّق بيننا، وكذلك المشاكل التي لا مفر منها بسبب أبناء أسرة ملتصقة بصورة اصطناعية، ولكننا استطعنا أن

نشق بالمناكب المجال الضروري للحب. صحيح أنه من أجل أن أستقر معه في الولايات المتحدة كان عليّ أعتاد كيفما كان على فوضى معركة حياته، ولكنه بذل هو أيضاً الكثير من التنازلات والتحولات كي نظل معاً. لقد تبنى أسرتي واحترم عملي منذ البدء، ورافقني في كل ما يستطيعه، وساندني وحماني حتى من نفسي. وهو لا ينتقدني، ويسخر برفق من نزواتي، ويتفادى التصادم، ولا يتنافس معي. وحتى في المشاجرات التي نشبت بيننا كان يعاملني بنبل. ويللي يدافع عن حيزه الخاص دون غضب؛ يقول إنه رسم دائرة صغيرة بالطباشير وهو في داخلها بمنجى مني ومن قبيلتي: فحذار من انتهاكها. عذوبة هائلة تكمن تحت مظهره الفظ؛ إنه عاطفي مثل كلب كبير. ومن دونه لا يمكن لي أن أكتب بالكثرة والطمأنينة التي أفعل بها ذلك، لأنه يتولى القيام بكل ما يرعبني، ابتداء من عقود عملي وحياتنا الاجتماعية، وحتى تشغيل الآلات المنزلية الغامضة. وبالرغم من أنني مازلت أفاجأ برؤيته إلى جانبي، إلا أنني اعتدت على حضوره الهائل ولم يعد بإمكاني العيش من دونه. ويللي يملأ البيت، يملأ حياتي.

البئر الفارغة

في صيف العام 1996، في مدينة أوكلاهوما، استخدم عنصري مختل شاحنة محملة بألفي كيلوغرام من المتفجرات لنسف مبنى فيدرالي. وقع خمسمئة جريح ومئة وثمانية وستون قتيلاً، بينهم عدد من الأطفال. إحدى النساء علقت تحت كتلة من الإسمنت، وقد اضطروا إلى بتر إحدى ساقيها دون تخدير لإنقاذها. أصاب ذلك سيليا بثلاثة أيام من التفجع، قالت إنه كان من الأفضل لتلك التعيسة أن تموت، لأنها لم تفقد في المأساة ساقها فقط، وإنما

فقدت كذلك أمها وابنيها الصغيرين. كان ردّ فعلها مشابها لما هو عليه حيال الأخبار السيئة الأخرى في الصحافة. لقد كانت تفتقر إلى دفاعات في مواجهة العالم الخارجي. لم أتمكن من إدراك ما يحدث لها، على الرغم من تواطئنا الطويل. كنت أظن أنني أعرفها أفضل من معرفتها هي لنفسها، غير أنه كان يفلت مني الكثير مما في روح كنتي، وهو ما سأتأكد منه بعد عدة أسابيع من ذلك.

قررت مع ويللي أن الوقت قد حان لأخذ إجازة. كنا متعبين، ولم أكن قادرة على نفض الحداد عني، بالرغم من انقضاء ما يقرب من أربع سنوات على موتك وثلاث سنوات على اختفاء جنيفر. ولم أكن أعرف بعد أن الحزن لا يزول بالكامل أبداً، وأنه يبقى تحت الجلد؛ ومن دونه ما كان لي اليوم أن أكون أنا نفسي، ولما استطعت التعرف على نفسي في المرآة. منذ أن أنهيتُ *باولا* لم أعد إلى كتابة أي شيء. كانت تراودني منذ سنوات فكرة رواية حول حمى الذهب في كاليفورنيا، في أجواء منتصف القرن التاسع عشر، لكنني كنت أفتقر إلى الحماسة للبدء بمهمة طويلة النفس كتلك. قلة من الناس كانوا يعرفون حقيقة حالتي المعنوية، لأنني كنت أواظب على النشاطات المعهودة، ولكني أحمل حسرة في روحي. لقد استكنتُ إلى الوحدة، وصرت لا أرغب في البقاء إلا مع أسرتي، أتضايق من الناس، واختُزل الأصدقاء إلى ثلاثة أو أربعة. لقد كنت مستنفدة. ولم أكن راغبة كذلك في مواصلة القيام بجولات تنشيط للمبيعات، وتقديم تفسيرات لما هو وارد في الكتب. كنت بحاجة إلى الصمت، لكن الحصول عليه صار يبدو أصعب فأصعب. يأتي صحفيون من أماكن بعيدة وينقضون علينا بكاميراتهم وأضوائهم. في إحدى المناسبات ظهر سائحون يابانيون يتفحصون بيتنا كما لو أنه بناء أثري، وفي الوقت نفسه تماماً وصل فريق آتٍ من أوروبا، وكانوا يريدون تصويري داخل قفص هائل مع ببغاء «كَتُوّة» بيضاء ضخمة. بدا لي أن الطائر غير ودّي، وكانت له

مخالب نسر كندور. وقد جاء معه مدربه الذي عليه التحكم به، ولكنه تبرز على الأثاث، وكاد أن يقتلع إحدى عيني في القفص. ومع ذلك، لم يكن باستطاعتي التذمر: كنت ألتقي بجمهور محب، وكانت كتبي متداولة في كل مكان. كان الحزن يتبدى في ليالي الأرق، وفي الملابس القاتمة، وفي الرغبة في العيش في مغارة ناسك، وغياب الإلهام. أستدعي ربات الإلهام دون طائل. فقد تخلت عني أشد ربات الإلهام رثاثة. وكان ذلك الخواء الداخلي مرعب لشخص يعيش ليكتب ويعيش من الكتابة. في أحد الأيام كنت في بوك باسيج أضيع الوقت في فناجين شاي متتالية عندما جاءت آنا لاموت، وهي كاتبة أمريكية محبوبة جداً لقصصها المفعمة بالفكاهة والعمق والإيمان بما هو إلهي وبشري. أخبرتها بأنني متجمدة فأجابتني بأن الكلام عن «تجمد الكاتب» ليس إلا ترهات، وكل ما هنالك هو أن البئر تفرغ أحياناً ويتوجب علينا أن نملأها.

أرعبتني فكرة أن بئر قصصي والرغبة في روايتها آخذة بالنضوب، لأنه لا وجود لمن يمكن أن يقدم لي عملاً في أي مكان، ولا بد لي من مساعدة أسرتي في نفقاتها. كان نيكو يعمل مهندس برمجة كمبيوتر في مدينة أخرى، وينتقل بالسيارة لأكثر من ساعتين كل يوم، وسيليا تقوم بعمل ثلاثة أشخاص في مكتبي، ولكنهما لا يستطيعان تغطية كافة نفقاتهما. فنحن نعيش في إحدى أغلى المناطق في الولايات المتحدة. عندئذ تذكرت تدربي كصحفية: إذا ما كلفوني بموضوع وبالوقت اللازم لجمع المعلومات، فإنني قادرة على الكتابة في أي موضوع تقريباً، باستثناء السياسة أو الرياضة. حددتُ لنفسي «ريبورتاجا» أبعد ما يكون عن موضوع كتابي السابق، ولا علاقة له بالحزن والخسارة، وإنما عن خطايا الحياة الممتعة: الشراهة والشبق. وبما أنه لن يكون عملَ تخييل روائي، فإن أهمية تقلب أهواء ربة الإلهام ستكون

ضئيلة، عليّ أن أتقصى حول الأطعمة، والإيروتيكية، والجسر الواصل بينهما: الأفروديسكية. وباطمئناني إلى هذه الخطة، وافقت على اقتراح تابرا وويللي بالذهاب إلى الهند، بالرغم من أني لم أكن راغبة في السفر، ناهيك عن السفر إلى الهند، لأنها أبعد مكان عن بيتنا يمكن الذهاب إليه قبل الرجوع من الجانب الآخر للكوكب. لم أكن أرى أنني قادرة على تقبل فقرِ تلك البلاد الأسطوري، وقراها الخربة، والأطفال المتضورين جوعاً، وبنات في التاسعة من أعمارهن يجبرن على الزواج المبكر، أو أعمال السخرة، أو الدعارة. لكن ويللي وتابرا أكدا لي أن الهند أكثر من ذلك بكثير، وصمما على أخذي ولو مقيدة. وأنا فوق ذلك، يا باولا، كنت قد وعدتكِ بأن أذهب يوماً إلى تلك البلاد، لأنكِ رجعتِ مبهورة من رحلة إلى هناك، وأقنعتني بأنها أغنى مصدر إلهام للكتاب. لم يرافقنا في الرحلة ألفريدو لوبيث الحرذون المجنح، بالرغم من أنه كان قد عاد للظهور في أفق تابرا، لأنه كان يفكر في قضاء شهر في الطبيعة برفقة اثنين من هنود الكومانشي، أخوته في القبيلة. وكان على تابرا أن تشتري له بعض الطبول المقدسة التي لا بد منها للشعائر.

اشترى ويللي ملابس كشاف كاكية اللون، لها سبعة وثلاثون جيباً، وحقيبة ظهر، وقبعة استرالية وعدسات جديدة لآلة تصويره التي لها شكل ووزن مدفع صغير، بينما كنتُ أنا وتابرا نوضب تنانيرنا الغجرية المعهودة، وهي مثالية لأن التجعدات والبقع لا تظهر عليها. انطلقنا في رحلة انتهت بعد قرن، عندما هبطنا في نيودلهي وغرقنا في حر المدينة اللزج وجلبة الأصوات، وحركة المرور الراديوهات المحتدمة. أحاطت بنا مليون يد، ولكن رأس ويللي كان يبرز، لحسن الحظ، فوق الجمع البشري مثل منظار استكشاف، ولمح من بعيد إعلاناً يحمل اسمه ترفعه يد رجل طويل القامة، له شارب متسلط ويضع عمامة. إنه سيريندير، الدليل الذي تعاقدنا معه من خلال وكالة سفر في سان فرانسيسكو. شق طريقه بعصاه،

واختار عدداً من الأجراء كي يحملوا الأمتعة واقتادنا إلى سيارته العتيقة.

ظللنا عدة أيام في نيودلهي، وكان ويللي يحتضر بسبب التهاب معوي، بينما خرجتُ مع تابرا للتجوال وشراء ترهات. «أظن أن زوجك في حالة سيئة جداً»، قالت لي في اليوم التالي، ولكنني كنت راغبة في مرافقتها إلى سوق خاص بالحرفيين، حيث توصي على قطع أحجار صغيرة لمجوهراتها. وفي اليوم الثالث أرتني تابرا أن زوجي ضعيف إلى حدّ لم يعد قادراً معه على الكلام، ولكنني لم أتخذ قراراً فورياً، لأننا لم نكن قد ذهبنا بعد إلى شارع الخياطين، حيث أرغب في شراء ساري. وقد رأيتُ أنه لا بد من منح ويللي مزيداً من الوقت؛ لأن هناك نوعين من الأمراض: تلك التي تشفى من تلقاء نفسها، والأخرى المميتة. وفي الليل، ألمحت تابرا إلى أنه إذا ما حدث ومات ويللي، فإنه سيقوض رحلتنا. وحيال فكرة أننا قد نضطر إلى إحراق جثمانه على ضفاف الغانج، اتصلتُ باستعلامات الفندق، وسرعان ما أرسلوا دكتوراً قصيراً، مزيت الشعر، ومحشوراً في بدلة لامعة بلون القرميد، وحين رأى زوجي أشبه بجثة، لم يبدُ عليه أدنى قلق. أخرج من حقيبته المترعة محقناً من الزجاج كالذي كانت تستخدمه جدتي في العام 1945، وتأهب لحقن المريض بسائل لزج، مستخدماً في المحقن إبرة ملفوفة في كرة صغيرة من القطن، ويبدو واضحاً أنها قديمة قِدم المحقن. أرادت تابرا التدخل، لكنني أكدت لها أنه لا حاجة لافتعال مشكلة لاحتمال إصابة بالتهاب الكبد لأن مستقبل المريض غير مؤكد في كل الأحوال. حقق الطبيب معجزة إعادة الصحة إلى ويللي خلال عشرين ساعة، وهكذا استطعنا مواصلة الرحلة.

لقد كانت الهند واحدة من تلك التجارب التي تترك أثرها في الحياة، والتاريخية لأسباب عديدة، ولكن ليس ثمة مكان هنا لذكرها، لأن ما أكتبه ليس تقريراً عن الرحلة؛ ويكفي القول إن

تلك الرحلة ساعدتني على ملء البئر وأعادت إليّ شغف الكتابة. وسأكتفي بتدوين حادثتين لهما مغزى خاص. الأولى منحتني فكرة لتكريم ذكراكِ، والثانية غيّرت حياة أسرتنا إلى الأبد.

من يريد طفلة؟

كان سيريندير يتمتع بالبراعة والشجاعة الضروريتين للحركة وتفادي السيارات، والحافلات، والحمير، والدراجات، وأكثر من بقرة جائعة وسط حركة المرور في المدينة. ليس هناك من هو مستعجل ـ فالحياة طويلة ـ، باستثناء الدراجات النارية التي تتلوى بسرعة طوربيد وهي محملة بخمسة ركاب. أظهر سيريندير ما يدل على أنه رجل قليل الكلام، وتعلمتُ أنا وتابرا ألا نوجه إليه أسئلة، لأنه لا يجيب إلا على أسئلة ويللي. كانت الدروب الريفية ضيقة وكثيرة المنعطفات، لكنه يقود السيارة بسرعة تفزر المحرك. وعندما تلتقي سيارتان وجهاً لوجه، ينظر كل من السائقين في عيني الآخر، ويقرران في جزء من الثانية من هو الفحل منهما، وعندئذ يفسح له الآخر الطريق ليمر. الحوادث التي رأيناها تتمثل على الدوام بشاحنتين من الحجم نفسه متصادمتين مواجهة؛ إذ لم يتضح في الوقت المناسب من هو السائق الفحل. ولم تكن تتوافر لنا أحزمة أمان بسبب مسألة الكارما: لا أحد يموت قبل أوانه. ولم نكن نستخدم الأنوار ليلاً للسبب نفسه. فالحدس يشير إلى سيريندير أن سيارة أخرى ستظهر آتية من الاتجاه المقابل؛ عندئذ يشعل الأنوار ويكشفها.

مع الابتعاد عن المدينة يصبح المشهد جافاً ومذهباً، وبعد ذلك يصير مغبراً وضارباً إلى الحمرة. القرى أكثر تبعثراً، والسهوب أبدية. ولكن هناك على الدوام ما يسترعي الانتباه. كان ويللي

يمضي حاملاً حقيبة كاميراته، مع المنصب ذي القوائم الثلاث ومدفع العدسة الذي يتطلب تركيبه بعض المشقة. يقال إن الذكرى الوحيدة التي يحتفظ بها مصور جيد هي الصورة التي لم يلتقطها. ويمكن لويللي أن يتذكر ألفاً من الصور التي لم يلتقطها، مثل فيل مخطط بخطوط طلاء صفراء ويرتدي ما يشبه لباس لاعب العُقلة، ويمضي وحيداً في ذلك القفر. ولكنه تمكن بالمقابل من تخليد جماعة من العمال كانوا ينقلون جبلاً من أحد جانبي الطريق إلى الجانب الآخر. الرجال الذين تكاد لا تستر أجسادهم سوى وزرة، يملؤون نوعاً من المقاطف بالأحجار، والنساء يحملنها على رؤوسهن. كن ظريفات، نحيلات، يرتدين سواري مخططة ذات ألوان زاهية ـ أحمر فوشي، ليموني، زمردي ـ ويتحركن كالقصب في النسيم وهن يحملن أثقال الصخور. إنهن يُعتبرن «معاونات»، ويكسبن نصف ما يكسبه الرجال. وفي موعد تناول الطعام، جلس الرجال القرفصاء في دائرة مع أوانيهم الصفيحية، وبقين هنّ ينتظرن على مسافة معينة. وفي ما بعد، أكلن فضلات الرجال.

شعرنا بالتعب بعد ساعات طويلة من السفر، وكانت الشمس قد بدأت بالانحدار وراحت لطخات بلون الحريق تخالط السماء. وفي البعيد، وسط الحقول الجافة، كانت تنتصب شجرة منفردة، ربما هي شجرة أكاسيا. ولمحنا تحتها أشكالاً تبدو كأنها طيور كبيرة، ولكن تبين لنا عند الاقتراب أنها جماعة نساء وأطفال. ما الذي يفعلونه هناك؟ لم يكن ثمة قرية أو بئر في الجوار. طلب ويللي من سيريندير أن نتوقف كي نحرك أرجلنا. مشيت أنا وتابرا باتجاه النساء اللاتي قمن بحركة تقهقر، غير أن فضولهن تغلب على الخوف، وسرعان ما كنا معاً تحت شجرة الأكاسيا، محاطين بأطفال عراة. النساء كن يرتدين سواري معفرة بالغبار ومهترئة. كن شابات، لهن شعور طويلة سوداء، وبشرة جافة، وعيون غائرة ومزينة بالكحل. في الهند، كما في أنحاء كثيرة من العالم، لا

وجود للمجال الشخصي الذي ندافع عنه كثيراً في الغرب. ونظراً لافتقادنا إلى لغة مشتركة، فقد رحبن بنا بالإشارات؛ وتفحصننا بعد ذلك بأصابع متمادية في الجرأة، بلمس ثيابنا، ووجهينا، وشعر تابرا الأحمر الداكن، وهو لون ربما لم يرينه من قبل، وزيناتنا الفضية... نزعنا أساورنا لنقدمها لهن؛ وقد وضعنها في معاصمهن بابتهاج الأطفال. كان لدينا ما يكفي لهن جميعاً. سواران أو ثلاثة لكل واحدة منهن.

أمسكت إحداهن وجهي بين يديها، يمكن أن تكون في مثل سنكِ، يا باولا، وقبّلت جبهتي برفق. أحسست بشفتيها المشققتين، وبأنفاسها الفاترة. لقد كانت حركة غير متوقعة، وحميمة، لم أستطع معها كبح دموعي، وهي أول دموع أسكبها منذ وقت طويل. داعبتني النساء الأخريات بصمت، وقد أريكهن ردّ فعلي.

ومن بعيد، انطلق نفير سيارة سيريندير مشيراً لنا أنه حان وقت الانطلاق. ودّعنا النساء وبدأنا نبتعد، لكن واحدة منهن لحقت بنا. لمست ظهري، فالتفتُ إليها. قدمت لي لفافة. ظننتُ أنها تريد إعطائي شيئاً مقابل الأساور وحاولتُ أن أوضح لها بالإشارة أنه لا حاجة إلى ذلك، لكنها أجبرتني على أخذها. كانت اللفافة خفيفة جداً، تبدو كأنها مجرد حزمة خرق قماشية، ولكنني عندما فتحتها رأيت أن فيها طفلاً حديث الولادة، ضئيلاً جداً وأسمر البشرة. كان مغمض العينين، وتنبعث منه رائحة حادة هي مزيج من رماد وغبار وبراز. قبّلتُ وجهه، وتلعثمتُ بمباركة وأردتُ إعادته إلى الأم؛ لكنها بدل أن تتلقاه، استدارت وركضت إلى جوار الأخريات، بينما ظللتُ أنا هناك، أهز الوليد، دون أن أفهم ما الذي يحدث. بعد دقيقة من ذلك وصل إلينا سيريندير صائحاً أن أتركه، وأنه لا يمكنني أخذه، وأنه وسخ، وانتزعه من بين ذراعيّ وذهب لتسليمه للنساء، لكنهن تقهقرن مذعورات حيال غضب الرجل. عندئذ انحنى ووضع الطفل على الأرض الجافة، تحت الشجرة.

كان ويللي قد جاء أيضاً، واقتادني شبه محمولة نحو السيارة، تتبعنا تابرا. شغّل سيريندير المحرك وابتعدنا، بينما أنا أغرس رأسي في صدر زوجي.

- لماذا أرادت تلك المرأة إعطاءنا طفلها؟ - تلعثم ويللي.

- إنها طفلة أنثى. ولا أحد يريد طفلة أنثى - أوضح سيريندير.

ثمة قصص لها قدرة على الشفاء. وتلك التي جرت تحت شجرة الأكاسيا حلّت العقدة التي تخنقني، ونفضت عني نسيج عنكبوت الأسى، وأجبرتني على العودة إلى العالم وتحويل خسارتي إلى فعل. لم أستطع إنقاذ تلك الطفلة، ولا إنقاذ أمها اليائسة، ولا «المعاونات» اللواتي ينقلن الجبل حجراً حجراً، ولا ملايين النساء مثلهن ومثل تلك المرأة التي لا تُنسى، من كانت تبكي في الجادة الخامسة في أحد شتاءات نيويورك، ولكنني عاهدت نفسي على أن أحاول، على الأقل، تخفيف قدرهن، مثلما كنتِ ستفعلين أنت، إذ لم تكن أي مهمة رحمة مستحيلة عليك. «يجب أن تكسبي مالاً كثيراً من كتبك، يا أماه، كي أتمكن من إقامة ملجأ للفقراء، وأنت تدفعين المال»، هذا ما كنتِ تقولينه لي بجدية كاملة. كان الدخل الذي تلقيته عن كتاب ***باولا*** مجمداً في أحد المصارف، بانتظار أن تخطر لي طريقة لتوظيفه. وفي تلك اللحظة عرفتُ ما يتوجب عليّ عمله. وقدرت أنه إذا جرت زيادة رأس المال من كل كتاب أكتبه في المستقبل، فإنه سيكون بالإمكان عمل شيء جيد، مجرد قطرة في صحراء الاحتياجات البشرية، ولكنني لن أشعر بالعجز على الأقل. «سأنشئ مؤسسة لمساعدة النساء والأطفال»، قلت لويللي وتابرا في تلك الليلة. ولم أتصور أن تلك البذرة ستتحول مع السنوات إلى شجرة، مثل شجرة الأكاسيا تلك.

صوت في القصر

قصر المهراجا، وكله من المرمر، ينتصب في جنة عدن، حيث لا وجود للزمن. الجو لطيف والهواء يعبق برائحة الغاردينيا على الدوام. ماء الينابيع يسيل في قنوات متعرجة بين الأزهار، وأقفاص طيور مذهبة، ومظلات من الحرير الأبيض، وطواويس متكبرة. تملك القصر الآن سلسلة فنادق عالمية تمتعت بحكمة الحفاظ على السحر الأصلي. أما المهراجا المفلس، لكنه يحتفظ مع ذلك بكامل وقاره، فكان يشغل جناحاً من المبنى، يحميه من فضول الغرباء حاجزٌ من القصب وسياج من شجيرات زهرة الثالوث البنفسجية. ومن عادته الجلوس في ساعة الأصيل الهادئة في الحديقة ليشرب الشاي مع طفلة غير بالغة، وهي ليست حفيدته، وإنما زوجته الخامسة، يحرسه حارسان يرتديان الزي الإمبراطوري مع سيف على الخصر، وعمامة ذات ريش على الرأس. وفي جناحنا الذي يليق بملك، لم تكن هناك بوصة واحدة فارغة لإراحة البصر في الديكور الوافر. ومن الشرفة يمكن التمتع بمنظر الحديقة كلها، والمفصولة بجدار مرتفع عن أحياء البؤس التي تمتد في الخارج حتى الأفق. بعد أن تنقلنا طوال أسابيع على دروب معفرة، استطعنا الراحة في هذا القصر، حيث حمل جيش من الموظفين الصامتين ملابسنا لغسلها، وأحضروا لنا الشاي وحلوى العسل في صوان فضية، وهيؤوا لنا حمامات الرغوة. إنها الجنة. تناولنا عشاء هندياً لذيذاً كان ويللي قد اكتسب مناعة ضده، وتهاوينا على السرير مستعدين للنوم إلى الأبد.

رن الهاتف في الثالثة فجراً ـ هذا ما كانت تشير إليه الأرقام الخضراء في الساعة القديمة التي تلمع في الظلام ـ ليوقظني من نوم ساخن وثقيل. مددت يدي باحثة بالتلمس عن الجهاز، دون أن أجده، إلى أن اصطدمت اليد بمفتاح كهرباء، فأضاءت المصباح الذي بجوار السرير. لم أدرِ أين أنا، ولا ما هي تلك الحرائر الشفافة

الطافية فوق رأسي ولا الشياطين المجنحين الذين يتوعدون من السقف المزين برسوم. أحسست بملاءة السرير مبللة، وملتصقة بجلدي، وبرائحة محلاة لم أستطع تحديدها. واصل الهاتف رنينه، وكان كل رنين منه يزيد من هواجسي، لأنه لا يمكن إلا لكارثة جسيمة أن تسوغ الاتصال في مثل هذا الوقت. «لا بد أن أحداً قد مات»، قلتُ بصوت عالٍ. ثم كررت: «اهدئي، اهدئي». لا يمكن أن يكون الميت هو نيكو، لأني فقدت ابنة، وحسب قانون الاحتمالات لا يمكن لهذا أن يتكرر في حياتي. ولا يمكن كذلك أن تكون أمي قد ماتت، لأنها خالدة. ربما هناك أخبار عن جنيفر... أيكونون قد عثروا عليها؟ قادني الرنين إلى الطرف الآخر من الغرفة واكتشفت وجود هاتف عتيق بين فيلين من الخزف. ومن الجانب الآخر للعالم جاءني، بوضوح النذير، صوت سيليا الذي لا يمكن لي أن أخطئه. لم أتمكن من سؤالها عما حدث.

ـ يبدو أنني ثنائية الجنس ـ بادرتني بصوت مرتعش.

ـ ماذا جرى؟ ـ سألني ويللي المشوش بالنعاس.

ـ لا شيء. إنها سيليا. تقول إنها ثنائية الجنس.

ـ آه! ـ تأفف زوجي، وواصل نومه.

أظن أنها اتصلت لتطلب مني المساعدة، غير أنه لم يخطر لي أي شيء سحري يمكن له مساعدتها في تلك اللحظة. رجوت كنتي ألا تتسرع في اتخاذ إجراءات يائسة، لأننا جميعنا تقريباً لدينا هذا القدر أو ذاك من الثنائية الجنسية، وإذا كانت قد انتظرت تسعاً وعشرين سنة لتكتشف ذلك، فإن بإمكانها أن تنتظر إلى أن نعود إلى كاليفورنيا. فمسألة مثل هذه تستحق أن تُناقش ضمن الأسرة. لعنت البعد الذي يحول دون رؤية ملامح وجهها. ووعدتها بأننا سنحاول الرجوع بأسرع ما يمكن، وإن كان لا يمكننا عمل الكثير في الساعة الثالثة فجراً بشأن استبدال تذاكر السفر الجوي، وهو إجراء معقد في الهند حتى في النهار. غادرني النعاس

ولم أرجع إلى فراش الأرق. ولم أتجرأ كذلك على إيقاظ تابرا التي تشغل غرفة أخرى في الطابق نفسه.

خرجتُ إلى الشرفة لأنتظر الصباح جالسة على أرجوحة خشبية متعددة الألوان عليها حشايا من الحرير بلون الياقوت. كانت شجيرة ياسمين وشجرة ذات أزهار بيضاء كبيرة هي التي تصدر رائحة الموسمات تلك التي شممتها في الغرفة. أصابني خبر سيليا بحالة صحو مفاجئة، كما لو أنني أستطيع رؤية نفسي وأسرتي من الجو، وأنا محلقة. «هذه الكنة لن تتوقف أبداً عن مفاجأتي»، دمدمتُ. فمصطلح «ثنائية الجنس» يمكن أن يعني في حالتها أموراً عديدة، ولكن أياً منها غير مؤذ لجماعتي. كذا، لقد كتبتُ الكلمة دون أن أفكر فيها: ***جماعتي***. هكذا أشعر بهم جميعاً، جماعتي، لي، ملكي: ويللي، ابني، كنتي، أحفادي، أبواي، وحتى أبناء زوجي الذين عشت معهم من مناوشة إلى مناوشة، جميعهم لي. لقد تكلفت كثيراً في جمع شملهم وأنا مستعدة لحماية هذه الجماعة الصغيرة من شكوك الطبيعة، لا يمكن لأحد أن يؤثر فيها. لم أسأل نفسي بمن تعلقت، لأن الجواب بدا لي واضحاً. «ساعدينا يا باولا، فهذه المسألة ليست مزاحاً»، طلبتُ منكِ، ولكنني لا أدري إذا ما سمعتِني.

لا شيء يستحق الشكر

وقعت الكارثة ـ لا تخطر لي كلمة أخرى لوصف ما حدث ـ في أواخر شهر تشرين الثاني، في يوم عيد الشكر. أجل، يبدو الأمر سخرية، ولكن أحدنا لا يختار تواريخ الأحداث. رجعت أنا وويللي إلى كاليفورنيا بأسرع ما استطعنا، لكن الحصول على مقاعد في الرحلات، واستبدال تذاكر السفر، واجتياز نصف الكوكب تطلب منا أكثر من ثلاثة أيام. في تلك الليلة التي

أيقظتني فيها سيليا، تمكنتُ من إخبار ويللي بالأمر، لكنه كان نائماً، ولم يسمعني، فكان عليّ في اليوم التالي أن أكرر ذلك. أضحكه الخبر. «سيليا هذه مثل رصاصة منطلقة من ماسورة بندقية»، قال لي دون أن يقدر نتائج خبر سيليا على أسرتي. كان على تابرا أن تواصل رحلتها إلى بالي، وهكذا تبادلنا الوداع دون كثير من التفسيرات. ولدى الوصول إلى سان فرانسيسكو، كانت سيليا تنتظرنا في المطار، ولكننا لم نقل أي شيء حول الموضوع إلى أن وجدنا نفسينا على انفراد؛ فالأمر ليس سراً ولا مانع لديها من البوح به أمام ويللي.

- لم أتصور قط أن مثل هذا سيحدث لي، يا إيزابيل. تذكري كيف كنت أتكلم عن المثليين - قالت لي.

- إنني أتذكر، يا سيليا، وكيف يمكن لي أن أنسى. هل نمتِ معها؟

- مع من؟

- مع سالي، ومن ستكون سواها.

- كيف تعرفين أنها هي؟

- آه يا سيليا، لا حاجة لمعرفة الحظ عند الفجر. هل نمتِ معها؟

- ليس هذا هو المهم! - هتفت بعينين متوقدتين.

- أما أنا فيبدو لي مهماً جداً، ولكنني قد أكون مخطئة... النزوات تنقضي، يا سيليا، ولا حاجة لتدمير زواج من أجل هذا. أنت تخلطين الأمور بسبب تعرفك على هذا الجديد، وهذا هو كل شيء.

- إنني متزوجة من رجل رائع ولدي ثلاثة أبناء لن أتخلى عنهم أبداً. يمكنك أن تتصوري كم فكرتُ في الأمر قبل أن أخبرك به. فقرار من هذا النوع لا يُتخذ بخفة. ولا أريد أن أجرح نيكو والأطفال.

- الغريب أنك تعترفين بذلك لي أنا، مع أني حماتك. ألا تكونين بصورة غير واعية...؟

ـ لا تخرجي لي الآن بنظريات نفسانية! أنت وأنا نخبر بعضنا بكل شيء ـ قاطعتني. وكان ما قالته صحيحاً.

تحملتُ أسبوعاً من الجزع الرهيب، ولكنه لا يقارن بأي حال بجزع سيليا وسالي اللتين عليهما تقرير مستقبلهما. لقد عاشتا في البيت نفسه، وعملتا معاً، وتشاركتا في رعاية الأطفال، وفي الأسرار، والاهتمامات والتسالي؛ ولكن طباعهما كانت مختلفة، وربما هنا تكمن الجاذبية المتبادلة. كانت الجدة هيلدا قد لفتت انتباهي إلى أن «هاتين الصغيرتين متحابتان جداً». كانت الجدة صموتاً، متكتمة، شبه غير مرئية، ولكن شيئاً لم يكن يفلت منها. أتراها أرادت تحذيري؟ من المستحيل معرفة ذلك، لأن هذه العجوز الحذرة لم تُقدم قط على إبداء تعليق ماكر.

تنازعتني بلبلة عبء ذلك السر بينما أنا أُحضّر الديك الرومي الخاص بيوم عيد الشكر وفق وصفة جديدة بعثتها لي أمي في رسالة. تُوضع كومة من الأعشاب في الصلصة مع زيت الزيتون والليمون، ثم يُحقن هذا الخليط الأخضر بمحقن بين جلد الطائر ولحمه ويترك منقوعاً لمدة ثمان وأربعين ساعة.

استقالت سالي من العمل في مكتبي، ولكننا كنا نلتقي كل يوم تقريباً حين أذهب لزيارة أحفادي، لأنها كانت تقضي وقتاً طويلاً في ذلك البيت. فكنتُ أحاول ألا أثبت نظري عليها وعلى سيليا عندما تكونان معاً، ولكنهما إذا ما تلامستا مصادفة، أشعر بقلبي يطفر. أما ويللي الذي كان لا يزال مشوشاً من رحلة الهند الطويلة وآثار الالتهاب المعوي، فقد ظل على الهامش على أمل أن تكون الانفعالات قد تحللت في الهواء.

حالفني الحظ في الحصول على موعد مع طبيبي النفسي الذي لم أره منذ بعض الوقت، لأنه كان قد انتقل إلى جنوبي كاليفورنيا. ولكنه جاء إلى سان فرانسيسكو لقضاء فترة الأعياد مع أسرته. التقينا في كافيتريا، إذ لم يعد لديه مكتب في المدينة، وبينما هو

يتناول الشاي الأخضر وأنا أتناول الكابوتشينو، أطلعته على المسلسل التلفزيوني العائلي. سألني إذا ما كنتُ معتوهة، وكيف يخطر لي أن أقوم بدور قوادة في مثل هذا الوضع؛ وهذا ليس سراً يتوجب عليّ إخفاؤه.

- حضرتكِ تجسدين الأم، وأنت تمثلين في هذه الحالة النموذج الكامل: أم نيكو، زوجة أب جيسون، حماة سيليا، جدة الأطفال، وحماة سالي المستقبلية، لو أنها تزوجت من جيسون - أوضح لي.

- أشك في ذلك، ولا أظن أن سالي كانت ستتزوج جيسون.

- ليست هذه هي القضية، يا إيزابيل. عليك أن تواجهيهما كي تعترفا بالحقيقة لنيكو وجيسون. أعطهما مهلة قصيرة. فإذا لم تفعلا، سيكون عليك عمل ذلك بنفسك.

عملتُ بالنصيحة، وانتهت المهلة بالضبط مع نهاية أسبوع عيد الشكر الطويل، وهو عيد مقدس عند أمريكيي الولايات المتحدة.

❖ ❖ ❖

بمناسبة الأعياد، كانت الأسرة ستجتمع أول مرة منذ شهور، بمن في ذلك إرنستو الذي أخبرنا بأنه قد وقع في حب زميلة له في العمل، اسمها غيليا، وأنه سيأتي بها إلى كاليفورنيا ليُعرّفها على الأسرة. لم تكن اللحظة مناسبة تماماً. سيأتي هو أولاً من نيوجرسي، وفي اليوم التالي تحضر غيليا، وهو ما سيمنحنا قليلاً من الوقت لتهدئة الخواطر. ولحسن الحظ أن فو وغريس وسابرينا سيحتفلون بالعيد في مركز بوذية الزّن، وهكذا سيكون هناك ثلاثة شهود أقل. كنت أنا وويللي مختنقين إلى حد لا يمكن لنا معه المساعدة ولو بمجرد نصيحة. لا أجد تفسيراً لتمكننا من تجاوز نهاية الأسبوع الفظيعة تلك دون عنف. اختلت سيليا بنيكو، ولا أدري كيف أخبرته بالأمر، لأنه ليس ثمة طريقة لعمل ذلك بدبلوماسية أو تجنب عاصفة عاطفية بسبب الخبر. من المستحيل عدم جرحه هو والأطفال، مثلما كانت هي نفسها تخشى. أظن أن نيكو لم

يستوعب في البدء ما جرى بكل أبعاده، وظن أنه يمكن تسوية الأمر بذكاء وتسامح. وسوف تمر أسابيع، وربما شهور، قبل أن يدرك أن حياته قد تبدلت إلى الأبد.

جيسون وسالي كانا منفصلين، ليس بالبعد الجغرافي وحده، وإنما كذلك بواقع أنه لا يجمع بينهما إلا القليل من التوافق المشترك. فمن المستحيل تصور سالي تعيش حياة ليلية وبوهيمية بين مثقفين في فوضى نيويورك، أو تصور جيسون في كاليفورنيا يعيش حياة الخمول وسط الأسرة ويضجر حدّ الموت. بعد سنوات من ذلك، بينما أنا أتحدث مع كليهما في هذا الأمر، كانت روايتاهما مختلفتين. فقد أكد جيسون أنه كان مغرماً بسالي ومقتنعاً بأنهما سيتزوجان، ولهذا فقد عقله عندما اتصلت به هاتفياً لتخبره بما حدث. «لدي ما أود قوله لكَ»، هكذا بدأت. وفكر هو على الفور في أنها قد خانته وأحس بموجة حنق؛ ولكنه افترض أن ما أقدمت عليه لم يكن جدياً، وأنها مستعدة للاعتراف بخطئها. وتمكنت هي من صياغة الجملة لتوضح له أن العلاقة مع امرأة أخرى، فتنهد جيسون مرتاحاً لاعتقاده بأنه لا يواجه خصماً في الواقع، وإنما هي حماقات تمارسها النساء بدافع الفضول. ولكنها أضافت أنها مغرمة بسيليا. أحس جيسون بأنه تلقى ضربة هراوة بتلك الخيانة المزدوجة. فهو لم يفقد فقط من كان يظن أنها خطيبته، وإنما خسر كذلك زوجة أخ كان يحبها كأخته. أحس بأنه ضحية خداع المرأتين وخداع نيكو كذلك، لأن هذا الأخير لم يستطع الحيلولة دون وقوع ذلك. وفي نهاية ذلك الأسبوع اللعين ظهر جيسون في البيت، كان نحيلاً، لا أدري كم كيلوغراماً فقد من وزنه، ومغموماً. جاء حاملاً حقيبة على ظهره، ودون حلاقة ذقنه، يضغط على أسنانه، وتفوح منه رائحة الكحول. وكان عليه أن يواجه الوضع دون دعم، لأن كل واحد منا كان تائهاً في انفعالاته.

ذهبت سالي إلى المطار لإحضار إرنستو القادم من نيوجرسي،

حيث يعيش منذ 1992، عندما جئنا بكِ مريضة إلى كاليفورنيا. وقد أخذته لتناول قهوة كي تخبره بما يحدث؛ فلن يكون بإمكانه مواجهة الميلودراما فجأة، وسيظن أننا جميعنا قد أصبنا بالجنون. كيف سيشرح هو الأمر لغيليا؟ كانت خطيبته فتاة شقراء طويلة القامة، محبة للكلام، ذات عينين سماويتين، ولها طزاجة أولئك الناس الذين يثقون بالحياة. وكنا نحن أخوات الفوضى الدائمة قد صلينا لسنوات من أجل أن يعثر إرنستو على حب جديد، وكانت سيليا قد كلفتكِ بالمهمة نفسها، وأنت لم تتجزيها فقط، وإنما وجهتِ إلينا كذلك غمزة من عالم الغيب: غيليا ولدت في يوم ميلادك نفسه، أي الثاني والعشرين من تشرين الأول، وأمها تدعى باولا، وأبوها ولد في اليوم والسنة نفسيهما اللذين ولدتُ فيهما أنا. كثير من التوافقات. لا يمكنني إلا أن أفكر في أنكِ اخترتها كي تُسعد زوجك. دارى إرنستو وغيليا على أحسن وجه ممكن ارتباكهما حيال الضربة العائلية. وعلى الرغم من الظروف الدراماتيكية التي كنا نعيشها، فقد صادقنا على غيليا فوراً: إنها مناسبة له تماماً: قوية، منظمة، مرحة، وحانية. ولم تكن بنا حاجة، حسب قول ويللي، لأن نزعج أنفسنا، لأن هذا الثنائي لا يحتاج إلى مصادقة أسرة لا تربطه بها رابطة الدم. فأجبته: «عندما يتزوجان سيكون علينا إحضارهما إلى كاليفورنيا».

في أثناء ذلك، تحول لحم الديك الرومي إلى اللون الأخضر بسبب معالجته بحقن التوابل تحت الجلد، وعند إخراجه من الفرن بدا متعفناً مثل الجو الذي نتنفسه في البيت. لم يستطع نيكو وجيسون المتهالكين أن يشاركا في السهرة، لأن ذلك اليوم لم يكن أكثر من سهر حدادي. وكان أليخاندرو ونيكول محمومين في السرير؛ وآندريا تتجول وهي تمص إصبعها وترتدي للمناسبة الساري الخاص بي، وقد بدت وهي ملتفة به كأنها قطعة نقانق. وانتهى الأمر بويللي إلى الغضب لأن أياً من ابنيه لم يحضر. كان

جائعاً، ولكن أحداً لم يهتم بالعشاء، مع أن أي يوم شكر عادي هو يوم مأدبة. وفي نوبة اندفاع جامح، حمل زوجي الديك الرومي الأخضر من قائمتيه وألقى به في القمامة.

رياح معاكسة

انهيار الأسرة لم يحدث بين عشية وضحاها، بل استمر عدة شهور، تناقش خلالها نيكو وسيليا وسالي بتشكك، ولكنهم كانوا يضعون الأطفال نصب أعينهم على الدوام. لقد حاولوا حمايتهم على أفضل وجه ممكن، بالرغم من الفوضى. وسعوا جاهدين إلى إحاطتهم بكثير من الحنان، غير أن المعاناة في مثل هذه المآسي أمر لا مفر منه. «ليس مهماً، سيجدون الحل في العلاج النفسي في ما بعد في»، طمأنني ويللي. استمرت سيليا ونيكو في البيت نفسه لبعض الوقت لأنه لم يكن لديهما مكان يذهبان إليه، بينما كانت سالي تدخل وتخرج بوصفها خالة. «يبدو هذا الوضع أشبه بفيلم فرنسي، أنا أفضل عدم المجيء إلى هنا»، أعلنت تابرا مستنكرة. وأنا أيضاً لم يعد يسعفني التسامح إلى ما هو أكثر من ذلك، وفضلت التوقف عن زيارتهم، بالرغم من أن كل يوم يمر دون أن أرى أحفادي كان يوم حداد.

بينما كنت أحاول البقاء قريبة من نيكو الذي لا يفسح لي مجالاً للتدخل، كانت علاقتي بسيليا تتحول من البكاء والمعانقة إلى التأنيب والتعنيف. فقد اتهمتني بأنني لا أفهم ما يحدث، وأنني مقفلة الذهن، وأحشر نفسي في كل شيء. ولماذا لا أتركهم بسلام؟ كانت تجرح مشاعري بطبعها المتفجر وأسلوبها الفظ، ولكنها تتصل بي بعد ساعتين طالبة المعذرة، ونتصالح إلى أن تتكرر الدورة. كنت أشعر بأسى عميق لرؤيتها تعاني. فالقرار الذي

اتخذته باهظ الثمن، ولا يمكن لكل عواطف العالم أن تتجيها من دفع ذلك الثمن. كانت سيليا تتساءل إذا ما كان هناك شيء خبيث فيها يدفعها إلى تدمير أفضل ما لديها، بيتها، أبناءها، وأسرة كانت تعيش بينها بأمان، مرتاحة، مرعية، محبوبة. كان زوجها يعبدها، وكان رجلاً طيباً، ولكنها تشعر بأنها متورطة بتلك العلاقة، تحس بالضجر، جلدها لا يتسع لها، قلبها يهرب منها إلى تطلعات لا تجد لها تسمية. أخبرتني بأن عمارة الكمال التي كانت تبدو عليها حياتها قد انهارت مع قبلة سالي الأولى. وهذا كان كافياً كي تدرك أنها لا تستطيع مواصلة الحياة مع نيكو، وأن وجهة قدرها قد تبدلت في تلك اللحظة. كانت تعلم أن الاستنكار ضدها سيكون بلا رحمة حتى في كاليفورنيا التي تتباهى بأنها المكان الأشد ليبرالية على كوكب الأرض.

ـ أتظنين أني غير طبيعية، يا إيزابيل؟ ـ سألتني.

ـ لا، يا سيليا. هناك نسبة مئوية من البشر «غاي». ولكن السيئ في الأمر أنك انتبهت إلى ذلك متأخرة قليلاً.

ـ أعرف أنني سأفقد كل أصدقائي، وأن أسرتي لن تعود إلى التكلم معي. فأبواي لن يفهما هذا أبداً، وأنت تعرفين الوسط الذي تحدرتُ منه.

ـ إذا لم يستطيعا تقبلك مثلما أنت، فإنك لا تحتاجين إليهم الآن. هناك أولويات أخرى، فأولادك أولاً.

تخلت عن الذهاب إلى مكتبي، لأنها لا تريد أن تكون تابعة لي، مثلما قالت، ولو لم تقرر الأمر بنفسها، لاضطررتُ أنا إلى عمل ذلك. لم يكن بمقدورنا المواصلة معاً. كان من المستحيل تقريباً العثور على من تحل محلها، فكان علي التعاقد مع ثلاثة أشخاص لإنجاز العمل الذي كانت تقوم به وحدها. لقد كنتُ معتادة على سيليا، كنت أثق بها ثقة عمياء، وقد تعلمت هي كل شيء عني، بدءاً من تقليد توقيعي حتى أسلوبي؛ وكنا نمزح بأنها في يوم غير

بعيد ستكتب لي كتبي. بدأت سيليا ونيكو وسالي بالذهاب إلى جلسات العلاج النفسي، منفصلين أحياناً ومعاً في أحيان أخرى، من أجل حلّ التفاصيل. وعادوا يصفون لسيليا مضادات اكتئاب ومنومات، فكانت تمضي مشوشة بسبب تلك الأقراص.

أما جيسون فلم يفكر أحد فيه كثيراً. لقد قرر البقاء في نيويورك بعد التخرج. إذ لم يعد هناك ما يشده إلى كاليفورنيا، ولم يكن راغباً في العودة إلى رؤية سالي وسيليا. أحس أنه وحيد، وظن أنه فقد أسرته تماماً. وتواصلت خسارته لوزنه وتبدل مظهره، ولم يعد الفتى الخامل، بل تحول إلى رجل حانق يقضي شطراً كبيراً من الليل هائماً على وجهه في شوارع مانهاتن لأنه لا يستطيع النوم. ولم يكن يعدم فتيات ليل يروي لهن نكبته كي يواسينه بعد ذلك في الفراش. «كان لا بد من مرور ثلاث أو أربع سنوات قبل أن أعود إلى الوثوق بامرأة»، قال لي ذلك بعد وقت طويل جداً، عندما تمكنا من العودة للحديث في الموضوع. وفقد كذلك الثقة بي، لأنني لم أقدر حجم المعاناة التي كانت من نصيبه. «دعك من التخنث»، ردّ عليه ويللي عندما ذكر ذلك أول مرة، وكانت هذه هي جملته المفضلة لحل نزاعات ابنه العاطفية.

وماذا بشأني أنا؟ انهمكتُ في الطبخ والحياكة. كنت أنهض في الفجر كل يوم، أحضر قدور الطعام وأحملها إلى بيت نيكو، أو أتركها على سطح سيارة سيليا، كي لا ينقصهم الطعام على الأقل. وكنت أحوك وأحوك بصوف سميك لباساً هائلاً وبلا شكل محدد، قال عنه ويللي إنه سترة للف البيت كله.

وسط هذه المأساة وصل أبواي في زيارة من تشيلي، وهبطا بالضبط في أثناء واحدة من تلك العواصف العاتية التي تقلب عادة مناخ شمالي كاليفورنيا الطيب، كما لو أن الطبيعة تريد توضيح الحالة المعنوية لأسرتنا. يعيش أبواي في منطقة زاهية في حي سكني هادئ بسنتياغو، بين أشجار نبيلة، حيث تخرج الخادمات،

بـزي موحـد ، حتـى اليـوم ونحـن فـي أوج القـرن الحـادي والعـشرين، لتنزيـه مـسنات هـشات البنيـة وكـلاب كثيفـة الفـرو. وتقـوم علـى خدمتهما هناك بيرتا التي عملت لديهما طوال أكثر من ثلاثين سنة، وهـي فـي حياتيهمـا أهـم بكـثير مـن الأبنـاء الـسبعة الـذين يجمعـون بينهمـا. فـي إحدى المرات اقـترح ويللـي أن يـستقرا فـي كاليفورنيـا ليقضيا ما تبقى من شيخوختيهما قريباً منا، ولكن لا وجـود لأمـوال يمكن دفعها فـي الولايات المتحدة لتوفر لهما الراحة والصحبة اللتين ينعمان بهما فـي تشيلي. وعزائي فـي هذا الانفصال بيننا هو التفكير فـي أمي مع أستاذ الرسم ذي الشارب الكثيف، ومع صـديقاتها فـي لقـاءات شـاي أيـام الاثـنين، وفـي نومهـا القيلولـة بـين مـلاءات كتـان منشاة، وترؤسها مائدة الولائم التي تعدّها بيرتا، فـي بيتهـا الممتلئ بالأقارب والأصدقاء. أما هنا فيبقى المسنون وحيدون جداً. أمي والعم رامـون يأتيـان لزيارتنـا مـرة فـي الـسنة علـى الأقـل، وأذهـب أنـا إلى تـشيلي مـرتين أو ثـلاث مـرات، وهنـاك فـوق ذلـك التواصـل اليـومي بالرسائل والهاتف. من شبه المستحيل إخفاء شيء عن هذين العجوزين الماكرين، ولكنني لم أكن قد أخبرتهما شيئاً مما حدث مع سيليا لأني تشبثت بوهم أن المسألة ستُحل بعد بعض الوقت؛ وأن ذلـك كلـه قد لا يكون سوى نـزوة شبابية. ولهذا كـان هنـاك فـراغ ظـاهر فـي مراسـلاتي مـع أمـي خـلال تلـك الـشهور؛ ومـن أجـل إعـادة بنـاء هـذه القـصة، اضـطررت إلى أن أسـتجوب، بـصورة منفـصلة، المشاركين بها وعدداً من الشهود. وكان كل واحد منهم يتذكر الأمور بصورة مختلفـة، ولكننـا اسـتطعنا التحـدث دون تـابوات علـى الأقـل. ومـا إن وطأ أبواي أرض سان فرانسيسكو حتـى انتبهـا إلى أن شـيئاً خطـيراً قد هـزنا ولم يعد هناك مفر من إخبارهما بالحقيقة.

ـ لقد وقعت سيليا في حب سالي، خطيبة جيسون ـ أفلتُ الخبر فجأة.

ـ آمل ألا يُعرف ذلك في تشيلي ـ دمدمت أمي عندما استطاعت التكلم.

ـ سيُعرف، فهذه الأمور لا يمكن إخفاؤها. ثم إنها تحدث في كل مكان.

ـ صحيح، ولكنهم في تشيلي يتكتمون عليها.

ـ وما الذي تفكرون في عمله؟ ـ سأل العم رامون.

ـ لا أدري. الأسرة كلها تتلقى علاجاً نفسياً. هناك جيش من الأطباء النفسيين يغتنون على حسابنا.

ـ إذا ما كان بإمكاننا المساعدة في شيء... ـ دمدمت أمي المستعدة دائماً للمساعدة دون شروط، وإن كان صوتها يرتجف، ثم أضافت أنه علينا تركهم يرتبون الوضع بأنفسهم، وأن نكون متكتمين، لأن كثرة التعليقات تزيد الوضع حرجاً.

ـ اكتبي يا إيزابيل، وهكذا تشغلين نفسك. إنها الطريقة الوحيدة كي لا تتدخلي أكثر في الموضوع ـ نصحني العم رامون.

ـ هذا ما يقوله لي ويللي أيضاً.

ولكننا نواصل الإبحار

أخواتي في جمعية الفوضى أضفن شمعة على مذابحهن البيتية، فضلاً عن تلك التي كنَّ قد وضعنها من أجل سابرينا وجنيفر، كي يصلّين من أجل أسرتي المفككة، وكي أتمكن أنا من العودة إلى الكتابة، لأنني منذ زمن أبحث عن ذرائع كي لا أفعل ذلك. كان الثامن من كانون الثاني يقترب، ولم أكن أشعر بأني قادرة على كتابة تخييل روائي. قد أتمكن من فرض الانضباط على نفسي، ولكنني أفتقد الطلاقة، على الرغم من أن الرحلة إلى الهند قد ملأت رأسي بالصور والألوان. لم أعد أشعر بأنني مشلولة، فبئر الإلهام ممتلئة، ولدي نشاطات أكثر من أي وقت مضى لأن فكرة المؤسسة بدأت انطلاقتها، غير أن كتابة الرواية تحتاج إلى عاطفة

مندفعة، وقد كانت هذه العاطفة مشتعلة، ولكن لا بد من تزويدها بالأوكسجين والوقود كي تتأجج بمزيد من الألق. كنت لا أزال أقلّب فكرة كتاب عن «ذاكرة الحواس»، ارتياد لموضوع الطعام والحب الجسدي. ونظراً للوضع العاطفي المخيم على الأسرة، ربما يصير الموضوع تهكمياً، ولكن نيتي لم تكن كذلك. لقد خطرت لي الفكرة في وقت سابق لغراميات سيليا وسالي، بل كان لدي عنوان الكتاب، *أفروديت*، وهو يتيح لي مطلق الحرية لأنه عنوان ملتبس. رافقتني أمي إلى دكاكين البورنوغرافيا في سان فرانسيسكو، بحثاً عن إلهام، وعرضت عليّ مساعدتها في المأكولات الحسية. سألتها من أين تأتي بالوصفات الإيروتيكية، وأجابت بأن أي طبق يقدم بتغنج يكون أفروديسيكي، ولهذا لا حاجة إلى إضاعة الطاقة في السعي إلى أعشاش السنونو وقرون الكركدن التي يصعب العثور عليها في الأسواق المحلية. وأمي التي تربت في أشد الأوساط كاثوليكية وعدم تسامح في العالم، لم تكن قد وطأت من قبل دكاكين «البالغين»، كما يسمونها، وكان عليّ أن أترجم لها من الإنكليزية التعليمات المرفقة بعدة أدوات مساعِدة مطاطية، مما كاد يميتها من الضحك. الأبحاث من أجل *أفروديت* سببت لكلينا أحلاماً إيروتيكية. «مازلتُ، وأنا في السبعين وبضع سنين أفكر في هذا»، اعترفت لي أمي. فذكّرتها بأن جدي أيضاً كان يفكر في هذا وهو في التسعين. وكان ويللي والعم رامون هما أرنبينا الهنديين، وعليهما كنا نجرب الوصفات المهيجة التي لا تعطي مفعولاً، كما في السحر الأسود، إلا إذا عرف الضحية أنه قد تناولها. فطبق من المحار، دون توضيح أنه يحرض الشهوة، لن يعطي النتائج المنتظرة. لم يكن كل شيء مأساة في تلك الشهور، إذ أننا استمتعنا أيضاً.

عندما تُتاح لنا الفرصة، كنا نهرب إلى غابتكِ مع تابرا وأبوي للقيام بمسيرات طويلة. كان المطر يعاظم الجدول الذي نثرنا فيه

رمادكِ، وكانت الغابة تعبق برائحة الأرض المبللة والأشجار. كنا نمشي بخطوات سريعة، أنا وأمي في المقدمة، والعم رامون مع تابرا في الخلف يتبادلان الحديث عن تشي غيفارا. فزوج أمي يرى أن تابرا هي واحدة من أكثر النساء اللواتي عرفهن ـ وهن كثيرات ـ تشويقاً وجمالاً. وكانت هي تقدره لأسباب عديدة، وخاصة لأنه التقى ذات مرة بالمحارب البطل، بل لديه صورة فوتوغرافية معه. لقد روى لها العم رامون القصة نفسها مئتي مرة، ولكنها لم تكن تمل سماعها، مثلما لا يمل هو روايتها. وكنتِ أنت تحييننا من قمم الأشجار، ونحن نتمشى معكِ. امتنعتُ عن إخبار أبوي بأن شبحك قد ذهب في أحد الأيام بسيارة تكسي لزيارتنا في البيت، لأنه لم يكن ثمة داع للتسبب بمزيد من التشويش لهما.

لقد تساءلت من أين أتاني هذا الميل إلى التعايش مع الأرواح. ويبدو لي أن آخرين ليس لديهم مثل هذا النزوع. علي أن أوضح أولاً أنني لم ألتقِ قط مع روح وجهاً لوجه، وفي المرات التي حدث فيها ذلك، لا أستطيع أن أؤكد أنني لم أكن أحلم؛ ولكنني لا أشك في أن روحكِ ترافقني طوال الوقت. وإلا لماذا تراني أكتب هذه الصفحات؟ إنك تظهرين بأشد الطرق غرابة. ففي إحدى المرات، مثلا، عندما كان نيكو يبدل عمله، خطرت لي فكرة اختراع شركة لتقديم وظيفة له. ووصل بي الأمر إلى حدّ استشارة المحاسب ومحامِيين، وقد أغرقوني بالأنظمة والقوانين والأرقام. «لو أنني استطيع استدعاء باولا لأطلب منها النصح»، هتفتُ بصوت عالٍ. وفي تلك اللحظة وصل البريد، وكان بين الرسائل مغلف موجه إليّ، مكتوب بخط شبيه جداً بخطي، ففتحته على الفور. كانت الرسالة تتضمن سطوراً قليلة مكتوبة بقلم رصاص على ورق ذي مربعات: «من الآن فصاعداً لن أحاول حلّ مشاكل الآخرين قبل أن يطلبوا مساعدتي. لن ألقي على كاهلي مسؤوليات لا تخصني. ولن أظل حامية لنيكو وأحفادي». وكانت الرسالة تحمل توقيعي ومؤرخة قبل

سبعة شهور. عندئذ تذكرتُ أنني كنت قد ذهبت إلى مدرسة أحفادي في «يوم الأجداد»، وطلبت المعلمة من جميع الحاضرين أن يكتبوا حلاً أو رغبة ويضعوه في مغلف مع عنوانهم، كي ترسله هي بالبريد في ما بعد. لا وجود لأي شيء غريب في هذا. ولكن الغريب هو وصول الرسالة في اللحظة نفسها التي كنت أطلب فيها تلقي نصيحة منكِ. تحدث أمور كثيرة لا تفسير لها. وفكرة الكائنات الروحانية، الواقعية، المتخيلة أو المجازية، بدأتها جدتي لأمي. فهذا الفرع من الأسرة كان على الدوام أصيلاً وقدم لي مادة للكتابة. وما كان لي أن أكتب *بيت الأرواح* أبداً لو لم تقنعني جدتي بأن العالم مكان سري وغامض جداً.

❖ ❖ ❖

الوضع العائلي وجد له حلاً بطريقة عادية إلى هذا الحد أو ذاك، طريقة عادية بالنسبة إلى كاليفورنيا. فلو أن الأمر حدث في تشيلي لكان فضيحة جديرة بالصحافة الصفراء، لاسيما أن سيليا رأت أنه لا بد من إعلان ذلك بمكبر صوت، والتبشير بفضائل الحب المثلي. وكانت تقول إن على الجميع أن يجربوه، وأنه أفضل من كون المرء أحادي الجنس. فكان عليّ أن أذكّرها بأن لها ابناً وأنه من غير المناسب التقليل من قدره. أنا نفسي كنت أعلق كثيراً، فقد كنا على كل لسان، والأقاويل تذهب وتجيء بسرعة عظيمة. أناس لا نكاد نعرفهم يقتربون كي يقدموا لنا المواساة، كما لو أننا في حداد. أظن أن كاليفورنيا بأسرها علمت بالأمر. صخب كثير. كنت أرغب في أول الأمر بالاختباء في كهف، لكن ويللي أقنعني بأن ما يؤذينا ليس الحقيقة المكشوفة، وإنما الأسرار. طلاق نيكو وسيليا لم يحلّ الأمور، لأننا ظللنا عالقين في شبكة من العلاقات التي كانت تتبدل بصورة دائمة ولكنها لا تتقطع، لاسيما وأن الأطفال الثلاثة يبقوننا مرتبطين، سواء أشئنا ذلك أم لم نشأ. باعا البيت الذي اشتريناه بجهد كبير، وتقاسما النقود. وقررا أن يقضي

الأطفال أسبوعاً مع الأم وآخر مع الأب؛ هذا يعني أنهم سيعيشون حاملين الحقائب على ظهورهم، غير أن ذلك بدا أفضل من الحل السليماني بتقطيعهم إلى نصفين. عثرت سيليا وسالي على بيت بحاجة إلى إصلاح، ولكنه في موقع جيد، واستقرتا فيه بأحسن ما تستطيعان. كان الأمر قاسياً عليهما في البدء، لأن أقرباءهما والعديد من الأصدقاء أداروا لهما ظهورهم. ظلتا شبه وحيدتين، بموارد ضئيلة والإحساس بأنهما تعرضتا للمحاكمة والإدانة. ظللتُ إلى جانبهما وحاولت مساعدتهما، وغالباً ما كنت أفعل ذلك من وراء ظهر نيكو الذي لا يستطيع فهم ضعفي تجاه هذه الكنة السابقة التي جرحت الأسرة. وقد اعترفت لي سيليا بأنها تبكي كل يوم تقريباً، وكان على سالي أن تتحمل الاتهامات بأنها دمرت بيتاً، ولكن الصخب راح يخفت مع مرور الشهور، مثلما يحدث على الدوام.

عثر نيكو على بيت قديم على بعد شارعين من بيتنا وأعاد تأهيله باستبدال الأرضية، والنوافذ، والحمامات. وكانت له حديقة متوجة بنخلتين هائلتين، ويطل على ضفة بحيرة صغيرة يعشش فيها الإوز والبط البري. وكان يعيش هناك مع شقيق سيليا مقدماً له سقفاً يؤويه طيلة سنة، والذي لم يذهب لسبب ما مع أخته. ومازال هذا الشاب يبحث عن مستقبله دون كثير من النجاح، ربما لأنه ليس لديه تصريح عمل، وتأشيرته السياحية التي جددها مرتين كانت على وشك الانتهاء. وكثيراً ما كان يصاب بالإحباط أو يصاب بتعكر المزاج، وفي أكثر من مناسبة كان على نيكو أن يوقف بحزم نوبات غضب ذلك الرجل الذي لم يعد صهره ولكنه مازال ضيفه.

بالنسبة إلى سيليا وسالي اللتين كانت مواقيت عملهما مرنة، لم تكن العناية بالأطفال في الأسبوع المخصص لهما معقدة كما هي بالنسبة إلى نيكو الذي عليه القيام بذلك بمفرده، فضلاً عن أن

مكان عمله بعيد جداً. فكانت ليخيا، السيدة نفسها التي كانت تهز نيكول في شهور بكائها الدائم، هي من ساعدته وستواصل مساعدته لعدة سنوات. فكانت تُحضر أحفادي من المدرسة، حيث توجد كذلك حضانة أطفال يمكن لنيكول الذهاب إليها، وتبقى معهم في البيت إلى أن أصل أنا، إذا كنتُ قادرة على ذلك، أو يصل نيكو الذي يحاول الخروج مبكراً من مكتبه خلال أسبوع وجود الأطفال معه، ويعوض تلك الساعات في الأسبوع الذي لا يكونون معه. لم يبدِ نيكو قط مظاهر الارتباك أو الجزع، بل على العكس، كان أباً مرحاً وهادئاً. وبفضل قدرته على التنظيم حافظ على دورة الحياة في بيته، لكنه كان يستيقظ في الفجر وينام مستنفداً في وقت متأخر. «ليس لديك دقيقة واحدة تخصصها لنفسك، يا نيكو»، قلت له ذات يوم. فأجابني: «بلى يا أماه، هناك ساعتان أقضيهما وحيداً وصامتاً في السيارة، خلال ذهابي إلى العمل وإيابي منه. وكلما كانت حركة المرور أكثر ازدحاماً، يكون الوضع أفضل».

العلاقة بين نيكو وسيليا صارت بلون نملة. كان نيكو يدافع عن مواقعه كيفما استطاع، والحقيقة أنني لم أكن أساعده في مهمة الجحود تلك. وأخيراً، وقد أتعبته الأقاويل والخيانات الصغيرة، طلب مني أن أقطع صداقتي بزوجته السابقة، لأنه مضطر في ظل تلك الظروف إلى الصراع على جبهتين. كان يشعر بأنه مُزدرى وعاجز كأب للأطفال، وممتهن من أمه بالذات. كانت سيليا تلجأ إليّ عندما تحتاج إلى شيء، ولم أكن أستشيره قبل أن أتصرف، وهكذا، دون أن أدري، كنت أخرب بعض القرارات التي اتفقا عليها من قبل، وبدّلتها سيليا بعد ذلك. كما أنني كنت أكذب عليه كي أتجنب تقديم تفسيرات، وكان يكتشف كذبي على الدوام بالطبع؛ فالأطفال على سبيل المثال يتولون القول له بأنهم رأوني في اليوم السابق في بيت أمهم.

الجدة هيلدا الحائرة في سياق تلك الأحداث، رجعت إلى تشيلي، عند هيلديتا، ابنتها الوحيدة. لم تُسمع منها كلمة انتقاد واحدة، امتنعت عن إبداء رأيها، مخلصة بذلك إلى صيغتها في تجنب الخلافات، غير أن هيلديتا أخبرتني بأنها كانت تلقي في فمها كل ثلاث ساعات حبة دواء خضراء للسعادة؛ وقد كان لتلك الأقراص مفعول سحري، لأنها عندما رجعت إلى كاليفورنيا بعد سنة من ذلك، استطاعت أن تزور سيليا وسالي بالمحبة المعهودة نفسها. «هاتان الفتاتان صديقتان طيبتان، من الممتع رؤية انسجامهما»، قالت، مكررة التعليق الذي كانت قد قالته لي قبل وقت طويل، عندما لم يكن هناك من يرتاب بما سيحدث.

قبيلة مجلودة بشدة

في الأزمنة الأولى كنت أتكلم بالهاتف خفية في الحمام كي أحدد مواعيد سرية مع سيليا. وكان ويللي يسمعني أوشوش بصوت خافت، فبدأ يرتاب بأن لي عشيقاً، لا وجود لتملق أعظم من ارتيابه ذاك، إذ تكفي رؤيتي لنفسي عارية كي أدرك أنه لا يمكن لي أن أكشف عن لحمي أمام أحد سواه. ولكن زوجي لم يكن لديه في الحقيقة من القوة ما يكفي لنوبات غيرة. كانت بين يديه في تلك الفترة قضايا قانونية أكثر من أي وقت مضى، وكان لا يزال يرفض الاستسلام بشأن قضية خوفيتو باتشيكو، ذلك المكسيكي الذي سقط عن سقالة في بناء قيد الإنجاز في سان فرانسيسكو. وعندما رفضت شركة التأمين دفع تعويض. شرع ويللي بإجراءات المحاكمة. وكان اختيار المحلفين مسألة أساسية، مثلما أوضح لي، لأن هناك عداء متزايداً ضد المهاجرين اللاتينيين، ومن شبه المستحيل التوصل إلى هيئة محلفين متعاطفة. ومن خلال

خبرته الطويلة كمحام، تعلم أن يستبعد من هيئة المحلفين أشخاصاً مهووسين، يصوتون ضده على الدوام لسبب ما، والعنصريين وكارهي الأجانب الموجودين دائماً، ولكنهم يتزايدون يوماً بعد يوم. فالعداء بين الأنجلو والمكسيكيين في كاليفورنيا قديم جداً، غير أن قانوناً أقر في العام 1994، برقم 187، أتاح استغلال ذلك الشعور. إنهم مفتونون في الولايات المتحدة بفكرة الهجرة، فهي ركيزة الحلم الأمريكي ـ حيث يمكن لشيطان بائس، يصل إلى هذه الشواطئ حاملاً حقيبة كرتونية، أن يتحول إلى مليونير ـ؛ ولكنهم يكرهون المهاجرين. هذا العداء الذي عانى منه الاسكندينافيون، والايرلنديون، والإيطاليون، واليهود، والعرب ومهاجرون آخرون، يكون أسوأ ضد الملونين، وبصورة خاصة ضد الهسبانيين، لأنهم كثيرون جداً ولا سبيل إلى وقف تدفقهم. سافر ويللي إلى مكسيكو، فاستأجر سيارة، وباتباع الإشارات المعقدة التي أرسلت إليه في رسالة، ظل ثلاثة أيام يتلوى على دروب ترابية حتى وصل إلى قرية نائية بيوتها من الطين. وكان يحمل معه صورة باهتة لعائلة باتشيكو، ساعدته في تحديد زبائنه والتعرف عليهم: جدة حديدية، وأرملة هيابة، وأربعة أطفال بلا أب، أحدهم ضرير. لم يستخدموا أحذية قط، ويفتقرون إلى ماء الشفة والكهرباء، وينامون على فراش من القش على الأرض.

أقنع ويللي الجدة، وهي من تقود الأسرة بقبضة صارمة، بوجوب ذهابهم إلى كاليفورنيا ليحضروا المحكمة وأكد لها أنه سيرسل إليهم الوسائل اللازمة لذلك. وعندما أراد الرجوع إلى مدينة مكسيكو، انتبه إلى أن الطريق السريع يمر على بعد خمسين متراً عن الضيعة، ولكن أياً من زبائنه أولئك لم يكن قد استخدمه من قبل؛ ولهذا كانت تعليماتهم في الرسالة تشير فقط إلى دروب البغال. وقد استطاع القيام برحلة العودة في أربع ساعات. تدبر أمر الحصول لآل باتشيكو على تأشيرات زيارة قصيرة إلى الولايات المتحدة،

وأركبهم في طائرة وجاء بهم، وقد أصابهم البكم رعباً من فكرة ارتفاعهم في الجو في ذلك الطائر المعدني. وفي سان فرانسيسكو، اكتشف أن أسرة باتشيكو لا يمكنها الشعور بالراحة في أي موتيل، مهما بلغ تواضعه. فهم لا يعرفون شيئاً عن الأطباق وأدوات الطعام ـ لأنهم يأكلون عجة الذرة ـ ولم يروا في حياتهم مرحاضاً. وكان على ويللي أن يقدم لهم عرضاً لطريقة استخدام المرحاض، مما أثار موجات ضحك بين الأطفال، وارتباكاً بين المرأتين. كانوا يشعرون بالخوف من هذه المدينة الإسمنتية الهائلة، ومن سيول السيارات في الشوارع، ومن الناس الذين يرطنون بلغة غير مفهومة. وأخيراً احتضنتهم أسرة مكسيكية أخرى. استقر الأطفال قبالة التلفزيون غير مصدقين تلك الأعجوبة، بينما كان ويللي يشرح للجدة والأرملة آلية المحاكمات في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الموعود ذهب إلى المحكمة مع آل باتشيكو: الجدة في المقدمة، ملتفة بطرحتها، وبخف يكاد لا يثبت في قدمي الفلاحة العريضتين، ودون أن تفهم شيئاً بالإنكليزية، ووراءها الأرملة والأطفال. وفي مرافعته الأخيرة، صاغ ويللي جملة ظللنا نتهكم منها لسنوات: «أيها السادة المحلفون، هل ستسمحون لمحامي الدفاع بأن يلقي بهذه الأسرة البائسة إلى مزبلة التاريخ؟». ولكن، حتى هذه الجملة لم تتمكن من إثارة مشاعرهم. لم يُمنح آل باتشيكو أي تعويض. «لا يمكن أبداً لمثل هذا أن يحدث لشخص أبيض»، هذا ما علّق به ويللي بينما هو يستعد للاستئناف أمام محكمة أعلى. كان حانقاً من نتيجة المحكمة، غير أن الأسرة أخذت الأمر بعدم مبالاة الناس المعتادين على النكبات. إنهم يأملون القليل جداً من الحياة، ولا يدركون لماذا تحمّل هذا المحامي ذو العينين الزرقاوين مشقة الذهاب لإحضارهم من قريتهم كي يبيّن لهم كيفية عمل المرحاض.

وللتخفيف من إحباط إخفاقه في عونهم، قرر ويللي أن

يأخذهم في رحلة إلى «ديزنيلاند»، في لوس أنجلوس، كي تبقى لديهم ذكرى طيبة من الرحلة على الأقل.

ـ ولماذا تولّد لدى هؤلاء الأطفال آمالاً لن يتمكنوا من تحقيقها أبداً؟ ـ سألته.

ـ عليهم أن يعرفوا ما الذي يوفره العالم، كي يتطوروا. أنا خرجت من جيتو البؤس الذي تربيت فيه لأنني انتبهت إلى أنه بالإمكان التطلع إلى المزيد ـ ردّ علي.

ـ أنت رجل أبيض، يا ويللي. وأنت نفسك تقول إن للبيض مزية إضافية.

❖ ❖ ❖

اعتاد أحفادي على روتين تبديل البيت كل أسبوع، وعلى رؤية أمهم تشكل ثنائياً مع الخالة سالي. لم يكن وضعاً غير مألوف في كاليفورنيا، حيث تتنوع العلاقات المنزلية إلى حدّ التخمة. ذهب نيكو وسيليا إلى مدرسة الصغار ليوضحا ما جرى، وقالت لهما المعلمات ألا يقلقا، لأن الأطفال عندما يصلون إلى الصف الرابع، يكون لثمانين بالمئة من زملائهم زوجة أب أو زوج أم، وكثيراً ما يكون ثلاثة آباء من الجنس نفسه، أو يكون لهم أخوة بالتبني من عروق أخرى، أو يعيشون مع جديهم. فأسرة كتب الحكايات لم يعد لها وجود.

كانت سالي قد شهدت ولادة الأطفال، وكانت تحبهم كثيراً، حتى إنني عندما سألتها، بعد عدة سنوات، إذا ما كانت لا تفكر في إنجاب أبناء، أجابتني لماذا، مادام لدي ثلاثة منهم. تولت دور الأم بقلب منفتح، وهو ما لم أستطع التوصل إليه قط مع أبناء زوجي، ولهذا السبب وحده لم أتخلَّ يوماً عن تقديرها. ومع ذلك، فقد بلغ بي الخبث في إحدى المرات حدّ اتهامها بإغواء نصف أسرتي. كيف استطعتُ قول مثل تلك الحماقة؟ فهي ليست حورية البحر التي تجتذب ضحاياها كي يصطدموا بالصخور؛ وكل واحد مسؤول عن

أفعاله ومشاعره. أضف إلى ذلك أنني لا أتمتع بالسلطة الأخلاقية لمحاكمة أحد؛ فقد اقترفت في حياتي الكثير من الحماقات بسبب الحب، ومن يدري إذا ما كنت سأقترف حماقة أخرى قبل أن أموت. هذا ما حدث لي مع ويللي، فكيف لن أتفهم مسألة سيليا وسالي.

في تلك الأيام تلقيتُ رسالة من أمِ سيليا تتهمني فيها بأنني أفسدت ابنتها بأفكاري الشيطانية و«لطّختُ سمعة أسرتها اللطيفة، حيث الخطأ يسمى خطأ والخطيئة خطيئة»، وهو عكس ما أبثه أنا في كتبي وسلوكي. أعتقد أنها لم تستوعب أن سيليا كانت مثلية؛ والمشكلة هي أن الفتاة لم تكن تعرف ذلك، وقد تزوجت وأنجبت ثلاثة أبناء قبل أن تتمكن من تقبل الأمر. وأي سبب يدفعني أنا لحرف كنتي وجرح أسرتي؟ بدا لي استثنائياً أن يكون هناك من يعزو إليّ كل تلك السلطة.

ـ يا لحسن الحظ! لم نعد مضطرين إلى التكلم مع هذه السيدة إلى الأبد ـ كان هذا هو أول ما قاله ويللي عندما قرأ الرسالة.

ـ النظر إلينا من الخارج، يعطي الانطباع بأننا منحطين جداً يا ويللي.

ـ أنت لا تعرفين ما الذي يجري وراء الأبواب المغلقة عند أسر أخرى. والفرق هو أنٍ كل شيء في أسرتنا يظهر إلى العلن.

اطمأننت قليلاً بشأن أحفادي، لأنهم يعتمدون على إنكباب أبويهما، ولأن قواعد التعايش نفسها تقريباً تسود في البيتين، ولأن المدرسة توفر لهم الاستقرار. لن يصابوا بصدمات نفسية، وإنما بإفراط في التدليل. كان هناك كثير من الصراحة في توضيحنا لهم الأمور التي يفضّل الصغار أحياناً عدم السؤال عنها، لأنه يمكن للإجابة أن تمضي إلى ما هو أبعد مما يودون سماعه. لقد أقررت منذ البدء عادة رؤيتهم كل يوم تقريباً حين يكونون في بيت نيكو، ومرة في الأسبوع في بيت سيليا وسالي. كان نيكو صارماً ومتماسكاً، وكانت قواعده واضحة، ولكنه يغدق في الوقت

نفسه الكثير من الحنان والصبر على أبنائه. لقد كنت أفاجئه في صباح أيام آحاد كثيرة والصغار جميعهم نائمون معه في سريره، ولم يكن هناك ما يؤثر فيَّ أكثر من رؤيته يصل إلينا حاملاً ابنتيه بين ذراعية وأليخاندرو يتعلق بساقيه. وفي بيت سيليا كان هناك جو من التراخي، والفوضى، والموسيقى، وهران مشاكسان يتصارعان على الأثاث. وكان من عادة الأطفال ارتجال خيمة من أغطية الفراش في الصالون، حيث يخيمون طوال الأسبوع. أظن أن سالي كانت تحافظ بصرامة على عادات تلك الأسرة، ولولاها لكانت سيليا قد غرقت في فترة الاضطرابات الكثيرة تلك. كانت سالي تتمتع بغريزة صائبة مع الأطفال، تحدس المشاكل قبل حدوثها، وتراقبهم بتكتم، دون أن تُشعرهم بالخجل.

خصصتُ «أياماً خاصة» لكل واحد من أحفادي على انفراد، حيث يختارون هم النشاط. وهكذا كان عليّ أن أرى فيلم الرسوم المتحركة *طرزان* ثلاث عشرة مرة، وفيلماً آخر بعنوان *مولان* سبع عشرة مرة؛ وصار بإمكاني تكرار الحوار معكوساً من النهاية حتى البداية. فهم يريدون دائماً الأشياء نفسها: بيتزا، مثلجات، وسينما، باستثناء مرة واحدة أبدى فيها إليخاندرو الاهتمام برؤية الرجال الذين يرتدون زي الراهبات، وكان قد أُعلن عنهم في التلفزيون. إنهم جماعة من الشاذين جنسياً، أناس مسرح، يتنكرون كراهبات بوجوه مطلية بالأصباغ، ويتبخترون طالبين نقوداً لأعمال الإحسان. الحماقة أنهم فعلوا ذلك في الأسبوع المقدس. وقد ظهر في نشرة الأخبار لأن الكنيسة الكاثوليكية أمرت أتباعها بعدم زيارة سان فرانسيسكو لتخريب سياحة هذه المدينة التي تعيش، مثل سيدوم وعمورة، في الخطيئة القاتلة. فأخذتُ أليخاندرو لمشاهدة *طرزان* مرة أخرى.

❖ ❖ ❖

تحول نيكو إلى رجل صامت جداً، وتبدت قسوة جديدة في

نظرته. كان الحنق قد أغلقه مثل قوقعة، ولم يكن يتبادل مشاعره مع أحد. لم يكن هو وحده من يعاني، فكل واحد منا نال نصيبه، ولكنه هو وجيسون ظلا وحيدين. تشبثتُ بعزاء أن أحداً لم يتصرف بغدر، فقد كانت عاصفة من ذلك النوع الذي يفقد فيه المرء السيطرة على الدفة. ما الذي حدث خلف الباب المغلق بين سيليا ونيكو؟ وما الدور الذي تولته سالي؟ كان من المستحيل سبر ذلك، فهو يردّ عليّ دوماً بقبلة على جبهتي، وبعبارة محايدة لإلهائي، ولكنني لن أفقد الأمل في معرفة ذلك في ساعتي الأخيرة، عندما لن يتجرأ على رفض تلبية الرغبة الأخيرة لأمه المحتضرة. لقد اختُزلت حياة نيكو إلى العمل والاهتمام بأبنائه. لم يكن اجتماعياً قط، وصداقاته كانت بمساهمة من سيليا، ولم يحاول الحفاظ على تلك الصداقات. لقد عزل نفسه.

في تلك الأيام جاء لتنظيف الزجاج في بيتنا طبيب نفسي له هيئة ممثل سينمائي وتطلعات روائي يكسب من تنظيف زجاج نوافذ الآخرين أكثر مما يكسبه من سماع شكاوى مرضاه المملة. والحقيقة أنه لم يكن هو من يقوم بالعمل، وإنما فتاة أو فتاتان هولنديتان بديعتان، لم يكشف لنا أين يصطادهن، وتكونان مختلفتين في كل مرة، برونزيات بشمس كاليفورنيا، وبشعور فضية وبناطيل قصيرة. كانت الحسناوات يتسلقن السلّم اليدوي مع خرق ودلاء ماء، بينما يجلس هو في المطبخ ليروي لنا حبكة روايته القادمة. لقد كان يغيظني، ليس فقط بسبب الشقراوات الحمقاوات اللواتي يقمن بالعمل القاسي، ليتقاضى هو الأجر بعد ذلك، وإنما لأن ذلك الرجل لم يكن مجرد ظل لنيكو، ولديه مع ذلك كل ما يشاء من النساء. سألته كيف يفعل ذلك، فقال لي: «بالإصغاء لهن، فهن يرغبن في من يستمع إليهن». قررت أن أنقل هذه المعلومة إلى نيكو. وعلى الرغم من عجرفته، فقد كان ذلك الطبيب النفسي أفضل من الهيبيّ العجوز الذي كان يقوم قبله بتنظيف الزجاج،

وكان من عادته، قبل أن يوافق على تناول فنجان شاي، تفحص الإبريق بدقة ليتأكد من أنه لا يحتوي رصاصاً؛ ويتكلم بصوت هامس، وقد بدد في إحدى المرات خمس عشرة دقيقة وهو يحاول إخراج حشرة من النافذة دون التسبب في هرسها. وكاد يسقط عن السلم عندما قدمت إليه مذبَّة.

كنت أعيش متعلقة بنيكو، وكنا نلتقي كل يوم تقريباً. لكنه تحول إلى شخص لا أعرفه، يزداد في كل يوم انزواء وبعداً عني، وإن كان يتظاهر على الدوام بإبداء اللباقة المعهودة التي لا تشوبها شائبة، وقد صارت تلك الرقة تضايقني؛ فقد كنت أفضل أن يشد كل منا شعر الآخر. بعد مرور شهرين أو ثلاثة شهور لم أعد أستطيع التحمل، وقررت أنه لا يمكن لنا مواصلة تأجيل محادثة صريحة. المواجهات بيننا نادرة جداً، من جهة لأننا على علاقة جيدة دون إعلانات عاطفية، ومن جهة أخرى لأننا هكذا في طباعنا وعاداتنا. فخلال خمس وعشرين سنة من زواجي الأول، لم يرفع أحد صوته قط، وقد اعتاد ابناي على تمدن بريطاني سخيف. وكنا ننطلق فوق ذلك من نوايا طيبة، ونفترض أنه إذا ما كان ثمة إساءة، فإنها ناتجة عن خطأ أو سهو، وليس بنية التجريح. حاولتُ للمرة الأولى ابتزاز ابني وذكّرته، بصوت كسير، بحبي غير المشروط له، وبما فعلته من أجله ومن أجل أطفاله منذ ولادتهم، وأنبته على ابتعاده وصده... وباختصار، خطبة مؤثرة. ولا بد لي من الاعتراف، وهذا صحيح، بأنه كان يتصرف معي على الدوام كأمير، باستثناء المرة التي مازحني فيها مزحة ثقيلة بشنق نفسه، وهو في الثانية عشرة من عمره. أتتذكرين أن أخاكِ علّق نفسه ذات يوم عند عتبة أحد الأبواب، وعندما رأيته، ولسانه خارج فمه، مع حبل ثخين حول عنقه، كدت أنتقل إلى الحياة الأفضل. لن أسامحه أبداً! «لماذا لا نصل إلى لب الموضوع مباشرة أيتها العجوز؟»، سألني بلطف بعد أن استمع إليّ طويلاً، وعندما لم يعد قادراً على تجنب توجيه نظره إلى

السقف. عندئذ انطلقنا في المواجهة. وتوصلنا إلى اتفاق متمدن: سيبذل هو جهده ليكون أكثر حضوراً في حياتي، وأنا سأبذل جهداً لأكون أكثر ابتعاداً عن حياته. أي: لا أصلع ولا بباروكتين، مثلما يقولون في فنزويلا. لم أكن أنوي تنفيذ الجزء الخاص بي من الاتفاق، مثلما رأى على الفور حين اقترحت عليه أن يحاول التعرف على نساء، لأن العزوبية ليست مناسبة في مثل سنه: فالعضو الذي لا يعمل يضمر.

ـ علمتُ أنكَ تبادلت الحديث مع فتاة لطيفة جداً في الحفلة التي أقامها مكتبك، من هي؟ ـ سألته.

ـ كيف عرفت ذلك؟ ـ أجابني مذعوراً.

ـ لدي مصادر معلوماتي. هل تفكر في دعوتها؟

ـ لدي ثلاثة أطفال، يا أماه. ولا متسع لدي للغرام ـ وضحك.

كنت واثقة من أن نيكو قادر على اجتذاب من يشاء: له مظهر نبيل من عصر النهضة الإيطالي، وهو طيب الطبع، فقد خرج لأبيه في هذا الجانب. وليس فيه أي قدر من الحماقة، وقد خرج لي في هذا الأمر؛ ولكنه إذا لم يُشغل البطاريات فسوف ينتهي في دير رهبان ترينيين. حدثته عن الطبيب النفسي وحاشيته من الهولنديات اللواتي ينظفن نوافذ بيتنا، ولكنه لم يُبدِ أدنى اهتمام. وكعادته، عاد ويللي ليقول لي: «لا تتدخلي». ولكنني سأتدخل بالطبع، إنما عليّ منح نيكو قليلاً من الوقت كي يلعق جراحه.

القسم الثاني

بدأ الخريف

الخريف، حسب المعجم، ليس الفصل الذهبي من السنة وحسب، وإنما هو السن التي لا يعود فيها المرء شاباً. كان قد تبقى القليل لويللي كي يبلغ الستين، وكنتُ لا أزال أمضي بثبات في العقد الخامس من عمري، لكن شبابي انتهى إلى جانبكِ، يا باولا، في ممر الخطى الضائعة، في ذلك المستشفى المدريدي. أحسست بالنضج كرحلة نحو الداخل وبدء طريقة جديدة من الحرية: صار بمقدوري استخدام أحذية مريحة، ولم أعد مضطرة إلى العيش على الحمية، وإرضاء نصف العالم، وإنما فقط أولئك الذين يهمني أمرهم. قبل ذلك كانت قرون استشعاري كلها جاهزة على الدوام لالتقاط الطاقة الذكورية في الجو، ولكن قرون استشعاري أصابها الوهن بعد الخمسين، وصار ويللي وحده هو الذي يجتذبني الآن. حسن، وأنطونيو بانديراس أيضاً، ولكن نظرياً فقط. لقد حدث تبدل جسدي وذهني عليّ وعلى ويللي. فذاكرته العجيبة بدأت تتعثر، ولم يعد يتذكر أرقام هواتف أصدقائه ومعارفه كلهم. وأصاب التصلب ظهره وركبتيه، وازدادت حساسيته سوءاً، وبدأتُ أعتاد على سماعه يتحنح كل لحظة مثل قاطرة قديمة. وبدأ هو بدوره يستسلم لخصائصي المميزة: المشكلات الانفعالية تسبب لي مغصاً في البطن وآلاماً في الرأس، ولا أستطيع رؤية أفلام دموية، ولا تروقني اللقاءات الاجتماعية، وألتهم الشوكولاته خفية، وأغضب بسهولة، وأبذر النقود كما لو أنها تنمو على الأشجار. لقد توصلنا أخيراً، في خريف العمر، إلى معرفة كل منا للآخر وتقبله بالكامل؛ فاغتنت علاقتنا. وصار جونا معاً يبدو طبيعياً جداً كالتنفس، وتراجع الوله الجنسي مفسحاً المجال للقاءات أكثر

راحة ورقة. لا شيء من العفة. إننا متلاصقان، ولا يريد أحدنا الابتعاد عن الآخر، ولكن هذا لا يعني أننا لا نخوض بعض المشاجرات؛ فأنا لا أفلت سيفي أبداً، تحسباً واحتياطاً.

في إحدى الرحلات إلى نيويورك، وهي محطة إجبارية في كل جولاتي لترويج كتبي، زرنا إرنستو وغيليا في بيتهما في نيوجرسي. فتحا لنا الباب وكان أول ما رأيناه لدى الدخول هو مذبح صغير عليه صليب، وأسلحة الأيكيدو الخاصة بإرنستو، وشمعة، ووردتان في كأس، وصورة لكِ. جو البيت يخيم عليه البياض والبساطة، وهو الجو نفسه الذي كنتِ تفضلينه في حياتك القصيرة، ربما لأن إرنستو يشاطرك الذوق نفسه. «إنها تحمينا»، قالت لنا غيليا مشيرة إلى صورتكِ لدى المرور، وقد فعلت ذلك بأكبر قدر من التلقائية. أدركتُ أن هذه الشابة امتلكت من الذكاء ما يكفي لأن تتبناكِ كصديقة بدل أن تكافح ذكراكِ، وقد كسبت بذلك تقدير أسرة إرنستو التي أحبتكِ حدّ العبادة، وكذلك أسرتنا بالطبع. عندئذ بدأت أخطط لطريقة استقرارهما في كاليفورنيا، حيث يمكن لهما أن يصيرا جزءاً من قبيلتنا. أية قبيلة؟ لم يبق إلا القليل منها: جيسون في نيويورك، وسيليا في شائي آخر، ونيكو متبرم ومنعزل، وأحفادي الثلاثة يذهبون ويأتون بحقائب مهرجين، وأبواي في تشيلي، وتابرا تسافر إلى جهات مجهولة من العالم. وحتى سابرينا صارت لها حياتها الخاصة وقلما نراها؛ فقد صار بإمكانها التجول وحدها على مشاءة، وطلبت من أجل عيد الميلاد دراجة أكبر من التي لديها.

ـ إننا نفقد القبيلة يا ويللي. يجب علينا عمل شيء سريعاً أو سننتهي إلى لعب البنغو في دار للمسنين في فلوريدا، مثل كثير من المسنين الأمريكيين الذين هم أشد وحدة مما لو كانوا في القمر.

ـ وما هو البديل؟ ـ سألني زوجي مفكراً بالموت دون شك.

ـ أن نتحول إلى عبء على الأسرة. ولكن علينا أن نوسعها قبل ذلك ـ قلتُ له.

كان مزاحاً، لأن أكثر ما يخيفني في الشيخوخة ليس الوحدة، وإنما التبعية. لا أريد أن أزعج ابني وأحفادي في شيخوختي، وإن لم يكن سيئاً قضاء سنواتي الأخيرة إلى جانبهم. أعددت قائمة بما أحتاج إليه عند بلوغي الثمانين: صحة، موارد مادية، أسرة، كلبة، تاريخ. الأمران الأولان يتيحان لي أن أقرر كيف وأين أعيش. والثالث والرابع يرافقانني. والتاريخ يُبقيني صامتة ومشغولة، دون أن أزعج أحداً. أشد ما يخيفنا أنا وويللي هو فقدان القدرة الذهنية، ويكون على نيكو، أو غرباء، وهذا أسوأ، أن يقرروا عنا. إنني أفكر فيكِ، يا بنتي، وقد ظللتِ شهوراً تحت رحمة أناس غير معروفين قبل أن نتمكن من نقلكِ إلى كاليفورنيا. كم من المرات أساء معاملتكِ أحد الأطباء، أو إحدى الممرضات، أو مستخدم، دون أن أعرف ذلك؟ كم من المرات تمنيتِ الموت بصمت وسريعاً خلال تلك السنة؟

السنون تمضي بتكتم، على رؤوس أصابعها، ساخرة بصوت هامس، وفجأة ترعبنا في المرآة، تضرب فجأة ركبنا أو تُغمد خنجراً في ظهرنا. الشيخوخة تهاجمنا يوماً بعد يوم، ولكنها تتكشف بوضوح مع اكتمال كل عقد. هناك صورة لي وأنا في التاسعة والأربعين، أقدم كتابي ***الخطة اللانهائية*** في إسبانيا؛ إنها صورة امرأة شابة، تضع يديها على وركيها متحدية، وبشال أحمر على الكتفين، وأظفار مطلية وقرط من صنع تابرا. في تلك اللحظة بالذات، وكان أنطونيو بانديراس إلى جانبي وفي يدي كأس شمبانيا، أخبروني بأنكِ قد أُدخلتِ إلى المستشفى. خرجتُ راكضة، دون أن أدري أن حياتكِ وشبابي آخذان بالانتهاء. وصورة أخرى لي، بعد سنة من ذلك، تكشف عن امرأة ناضجة، ذات شعر قصير، وعينين حزينتين، وملابس داكنة، دون زينة. أشعر بثقل جسدي، أنظر إلى المرآة ولا أتعرف على نفسي. لم يكن الحزن وحده هو ما

أصابني بالهرم المفاجئ، لأني عندما أقلّب ألبوم الصور العائلية، أتبين أنه كانت هناك تبدلات كبيرة مفاجئة كذلك عندما أكملت الثلاثين، وبعد ذلك الأربعين. وهكذا سيكون في المستقبل، ولكن بدلاً من ملاحظة التبدل كل عقد، ستكون الملاحظة كل سنة كبيسة، كما تقول أمي. إنها تسبقني بعشرين سنة، تكشف لي كيف سأكون في كل مرحلة من حياتي. «تناولي كالسيوم وهرمونات، كي لا تخونك عظامك مثلي»، تنصحني. وتكرر الطلب مني بأن أعتني بنفسي، وأن أحب نفسي، وأنا استمتع بالساعات، لأنها تنقضي بسرعة، وألا أتوقف عن الكتابة، كي أُبقي ذهني نشطاً، وأن أمارس اليوغا كي أتمكن من الانحناء وانتعال حذائي بنفسي. وتضيف أنه عليّ عدم الإلحاح في الحفاظ على مظهر الشباب، لأن السنوات ستظهر واضحة على أي حال، مهما حاولت إخفاءها، وليس هناك ما هو مضحك أكثر من امرأة عجوز بزهو لوليتا. ليست هناك خدع سحرية لتجنب التردي، وإنما يمكن تأجيله قليلاً. «بعد الخمسين، لا يعود للزهو من فائدة سوى زيادة المعاناة»، تؤكد لي هذه المرأة التي اكتسب جمالها الشهرة. ولكن قبح الشيخوخة يخيفني وأفكر في مقاومته مادامت لدي الصحة. ولهذا شددت وجهي في عملية تجميل، لأنهم لم يكتشفوا بعد طريقة لاستعادة الشباب بشرب عقار سائل. لم أولد من المادة الأولية الرائعة التي ولدت منها صوفيا لورين، وأنا بحاجة إلى كل مساعدة يمكنني الحصول عليها. الجراحة تعني فصل العضلات والجلد، وقطع ما هو زائد وخياطة اللحم من جديد على العظم، ليصبح مشدوداً مثل لباس راقصة شبكي. ظللت لأسابيع أشعر كما لو أنني أضع قناعاً من الخشب، ولكنني اكتشفت في النهاية أن الأمر يستحق العناء. فجرّاح تجميل جيد يمكنه خداع الزمن. هذا موضوع لا يمكنني التحدث فيه أمام أخواتي في حلقة الفوضى أو أمام نيكو، لأنهم يؤكدون أن

للشيخوخة جمالها الخاص، بما في ذلك ثآليلها ذات الشعر ودواليها. وأنتِ ترين الرأي نفسه. فقد كنتِ تفضلين الشيوخ دوماً على الأطفال.

في أيد خبيثة

وبمناسبة الحديث عن الجراحة التجميلية، اتصلت بي تابرا هاتفياً في فجر يوم أربعاء، وكانت مضطربة بعض الشيء، لتنقل إليّ خبر أن أحد ثدييها قد اختفى.

- ألست تمزحين؟

- لقد فشّ. أحد الجانبين أملس، أما الثدي الآخر فيبدو جديداً. ولست أشعر بأي ألم. أتظنين أنه يجب عليّ مراجعة الطبيب؟

ذهبتُ إليها فوراً وأخذتها إلى الجرَّاح الذي أجرى العملية، فأكد لنا أن الذنب ليس ذنبه، وإنما هو ذنب المصنع: إذ تخرج القطع معطوبة أحياناً، فتتمزق ويتوزع السائل في الجسم. وأضاف أنه لا داعي للقلق، لأنه محلول ملحي، ويجري امتصاصه مع الزمن دون أي خطر على الصحة. فتدخلتُ: «ولكنها لا تستطيع البقاء بثدي واحد!». بدا ذلك منطقياً للطبيب؛ وبعد أيام استبدل لها البالون المثقوب، ولكن لم يخطر له أن يقدم تخفيضاً في أتعابه. وبعد ثلاثة أسابيع فشّ الثدي الآخر. وجاءت تابرا إلى بيتنا ملتفة بمعطف جبلي.

- إذا لم يتحمل هذا التعيس مسؤولية ثدييك، فسوف أرفع عليه دعوى وأحضره إلى المحكمة! عليه أن يجري لك العملية مجاناً! - زمجر ويللي.

- أُفضل عدم إزعاجه من جديد، يا ويللي، فقد يغضب. لقد ذهبتُ إلى طبيب آخر - قالت.

- وهل يعرف هذا الطبيب شيئاً عن النهود؟ - سألتُها.

ـ إنـه رجـل محـترم جـداً. لاحظـي أنـه يـذهب كـل سـنة إلى نيكاراغوا ليعالج بالمجان أطفالاً مصابين بالشفة الأرنبية.

والواقع أنه قام بعمل رائع، وسيبقى لتابرا نهدا آنسة بكـر إلى أن تموت عند بلوغها المئة سنة. فنساء أسرتها يعشن طويلاً جداً. وبعد شهور قليلة ظهر في الصحف الجرّاح الأول، جرّاح زراعة الثدي الفاشلة. فقد سحبوا منه رخصة ممارسة المهنة وكانوا على وشك اعتقاله لأنه أجرى جراحة لإحدى المريضات، وأبقاها ليلة كاملة في عيادته دون ممرضة، وقد أصيبت المرأة بنوبة وماتت. قدّر حفيدي أليخاندرو تكاليف كل واحد من ثديي الخالة تابرا، وأشار عليها بأنها إذا ما تقاضت عشر دولارات مقابل النظر إليهما، وخمسة عشر مقابل لمسهما، فإنها ستسترد ما أنفقته خلال ثلاث سنوات ومئة وخمسين يوماً تقريباً؛ ولكن دخلها من صناعة مجوهراتها كان يمضي على ما يرام، ولم تكن بحاجة إلى اللجوء إلى مثل تلك الوسائل القصوى.

❖ ❖ ❖

بالنظر إلى ازدهار تجارتها، تعاقدت تابرا مع مدير ذي أفكار فرعونية. كانت قد نهضت بتجارتها من الصفر، إذ بدأت من البيع في الشارع، وخطوة خطوة، بكثير من الجهد والعمل، والمثابرة والموهبة، توصلت إلى إنشاء مؤسسة نموذجية. لم أدرِ ما هي حاجتها إلى شخص متعجرف لم يصنع في حياته سواراً واحداً، ولم يضعه في يده كذلك. بل إنه لا يستطيع أن يتباهى بامتلاك شعر طويل أسود. لقد كانت تعرف أكثر منه بكثير. بدأ المجاز بشراء جهاز كمبيوتر كتلك التي تمتلكها ناسا، ويبيعها صديق له، ولم يتعلم أي من مهاجري تابرا الآسيويين طريقة استخدامه، بالرغم من أن بعضهم يتكلمون عدة لغات ويتمتعون بمستوى تعليمي متين؛ ثم قرر بعد ذلك أنه بحاجة إلى فريق مستشارين لتشكيل مجلس إدارة. فاختار عدداً من أصدقائه وعيّنهم برواتب جيدة. وخلال أقل من سنة

صارت تجارة تابرا تتأرجح مثل مكتب محاماة ويللي، فالنقود التي تخرج أكثر من تلك التي تدخل. وكان لا بد من الإنفاق على جيش من الموظفين الذين لا يفهم أحد حقيقة أعمالهم. وتوافق ذلك من تعرض اقتصاد البلاد إلى انحسار، وراجت في تلك السنة المجوهرات المنمنمة بدل القطع الاثنية الكبيرة التي تصنعها تابرا. وكانت هناك سرقات داخلية في الشركة وإدارة سيئة. فكانت تلك هي اللحظة التي اختارها المدير لينتقل ويترك تابرا مثقلة بالديون. توظف مستشاراً في شركة أخرى، بتوصية من الأشخاص أنفسهم الذين جاء بهم هو إلى مجلس إدارته.

وخلال سنة تقريباً خاضت تابرا صراعاً في مواجهة الدائنين وضغط المصارف، ولكنها اضطرت أخيراً إلى الاستسلام للإفلاس. فخسرت كل شيء. باعت عقارها الشاعري في الغابة بسعر أدنى بكثير مما دفعته ثمناً له. واستولت المصارف على ممتلكاتها، ابتداء من سيارتها حتى آلات المصنع ومعظم المواد الأولية التي اقتنتها على امتداد حياتها. قبل شهور من ذلك، كانت تابرا قد أهدت إليَّ مرطبانات من الخرز والأحجار شبه الكريمة، احتفظتُ بها في القبو بانتظار اللحظة التي تعلمني فيها كيفية استخدامها؛ ولم تكن تدري أنها ستنفعها في ما بعد في العودة إلى العمل. أفرغت أنا وويللي غرفة الطابق الأول التي كانت لكِ، وطليناها وقدمناها إليها، كي يكون لديها على الأقل سقف وأسرة. وانتقلت مع الأثاث والقطع الفنية القليلة التي استطاعت إنقاذها. وفرنا لها منضدة كبيرة، وهناك بدأت من جديد صنع مجوهراتها واحدة فواحدة، مثلما فعلت قبل ثلاثين سنة. كنا نخرج بصورة يومية تقريباً للمشي والتحدث عن الحياة. لم أسمعها تشكو أو تلعن المدير الذي أودى بها إلى الإفلاس. «أنا المذنبة لأني تعاقدت معه. وهذا لن يحدث مرة أخرى أبداً»، كان هذا هو كل ما قالته. وخلال السنوات التي عرفتها فيها، وهي كثيرة، كانت صديقتي مريضة، خائبة الأمل،

فقيرة، وتعرضت لألف مشكلة أخرى، ولكنني لم أرها يائسة إلا عندما توفى أبوها. لقد بكت طويلاً ذلك الرجل الذي كانت تعبده دون أن أتمكن من مساعدتها. في زمن إفلاسها المادي لم تتبدل. استعدت بمرح وشجاعة لتقطع منذ البدء الطريق الذي قطعته في شبابها، مقتنعة بأنها إذا تمكنت من تحقيق ذلك وهي في العشرين، فسوف تتمكن من تحقيقه وهي في الخمسين. وكانت لديها ميزة أن اسمها صار معروفاً في عدة بلدان؛ وأي متعامل في تجارة المجوهرات الاثنية يعرف من هي؛ فأصحاب معارض فنية في اليابان، وإنكلترا، وجزر الكاريبي وأماكن كثيرة أخرى كانوا يتوافدون لشراء مجوهراتها. وكان هناك زبائن مهووسون باقتناء أعمالها؛ يجمع أحدهم أكثر من خمسمئة قطعة منها ويواصل الشراء.

❖ ❖ ❖

أثبتت تابرا أنها ضيفة مثالية. فهي تأكل بتهذب ما هو متوافر في الطبق. وكان يمكن لها، لولا مسيراتنا اليومية، أن تتحول إلى كتلة مكورة. لقد كانت متكتمة، صموتاً، ومرحة؛ كما أنها كانت تسلينا بآرائها.

ـ الحيتان مصابة بغريزة التسلط الذكوري. فعندما تكون الأنثى في فترة التزاوج، يحيط الذكور بها ويغتصبونها ـ روت لنا.

ـ لا يمكن محاكمة الحيتان برؤية مسيحية ـ دحض ويللي كلامها.

ـ الأخلاق وحدة لا تتجزأ يا ويللي.

ـ هنود يانومامي في أدغال الأمازون يخطفون نساء القبائل الأخرى، وهم متعددو الزوجات.

عندئذ تستخلص تابرا، وهي التي تشعر باحترام كبير تجاه الشعوب البدائية، أنه لا يمكن أن تطبق على هذه الحالة المعايير الأخلاقية نفسها التي تطبق على الحيتان. ولا حاجة إلى التحدث عن

النقاشات السياسية! فويللي تقدمي جداً، ولكنه بالمقارنة مع تابرا يبدو واحداً من طالبان. ومن أجل أن تشغل نفسها في واحدة من اختفاءات ألفريدو لوبيث الحرذون المجنح المفاجئة، والتي توافقت مع إفلاسها، عادت صديقتنا إلى خواء المواعيد المتخبطة من خلال إعلانات الصحف. أحد المرشحين قدم نفسه بقميص مفتوح حتى السرة، كاشفاً عن نصف دزينة من الصلبان الذهبية على صدره كثيف الشعر. هذا المظهر، إضافة إلى واقع كونه من العرق الأبيض، ولديه بداية صلع في قمة رأسه، كان يمكن له أن يكون كافياً لصرف اهتمامها؛ ولكنه بدا لها ذكياً ورغبت في أن تعطيه فرصة. التقيا في كافيتريا، وتبادلا الحديث لبعض الوقت، واكتشفا أموراً مشتركة تجمع بينهما، مثل تشي غيفارا وأبطال حرب عصابات آخرين. وفي الموعد التالي، كان الرجل قد زرر قميصه وحمل إليها هدية ملفوفة بعناية. عندما فتحتها، تبين لها أنها عضو ذكري بحجم كبير منحوت من الخشب. وصلت تابرا إلى البيت غاضبة وألقت به إلى المدفأة، ولكن ويللي أقنعها بأنه عمل فني، وإذا كانت تجمع ثمار قرع مجوفة تستعمل لستر حياء الذكور في غينيا الجديدة، فإنه لا يرى مبرراً لغضبها من تلك الهدية. وبالرغم من شكوكها، فقد عادت للخروج من ذلك الشيق. وفي الموعد الثالث، استنفدا الموضوعات المتعلقة بحروب العصابات الأمريكية اللاتينية وظلا صامتين لوقت طويل، إلى أن أعلنت، من أجل أن تقول شيئاً، أنها تحب البندورة. «أنا أحب بندورتيكِ»، ردّ عليها وهو يضع مخلبه على الثدي الذي كلفها الكثير. ولأن الدهشة شلّتها حيال ذلك التهور، أحس هو بأن لديه الصلاحية بخطو الخطوة التالية، فدعاها إلى حفلة مجون يتعرى فيها المدعوون ويلقون بأنفسهم وسط بركة بشرية ليتقلبوا معاً مثل الرومان في زمن نيرون. وهي من عادات كاليفورنيا في الظاهر. حمّلت تابرا ويللي المسؤولية، وقالت إن العضو الذكري لم يكن هدية فنية،

وإنما دعوة غير شريفة واعتداء على الوقار، مثلما اعتبرتها هي. وكان هناك متوددون آخرون مسلون جداً لنا، ولكنهم ليسوا كذلك بالنسبة إليها.

لم تكن تابرا هي الوحيدة التي تقدم لنا المفاجآت. فقد علمنا في تلك الأيام أن سالي وشقيق سيليا قد تزوجا من أجل الحصول له على تأشيرة إقامة دائمة في البلاد. ومن أجل إقناع موظفي الهجرة بأنه زفاف قانوني، أقاما حفلة مع كعكة زفاف والتقطا صورة تظهر فيها سالي مرتدية فستان الزفاف الأبيض الذي ذوى في خزانتي لسنوات. رجوت سيليا أن تخبئ الصورة، لأنه لا سبيل إلى وسيلة نفسر بها للأطفال أن رفيقة أمهم قد تزوجت من خالهم، ولكن سيليا لم تكن تحب الأسرار. فهي تقول إن كل شيء سيُعرف على المدى الطويل وليس هناك ما هو أخطر من الكذب.

بحثاً عن عروس

صار نيكو وسيماً جداً. فشعره طويل مثل أسقف، وقد برزت عليه ملامح جده بوضوح: عينان واسعتان برموش طويلة ناعسة، وأنف أرستقراطي، وفك مربع، ويدان أنيقتان. ولم يكن ممكناً تفسير عدم وجود دزينة من النساء يتزاحمن أمام باب بيته. ومن وراء ظهر ويلي الذي لا يفهم شيئاً في هذه الأمور، قررت أنا وتابرا أن نبحث له عن عروس، وهذا هو بالضبط ما كنتِ ستفعلينه أنتِ في مثل هذه الظروف، يا بنتي، ولهذا عليك ألا تلوميني.

ـ في الهند وأماكن كثيرة من العالم يجري ترتيب الزيجات. وحالات الطلاق هناك أقل منها في العالم الغربي ـ أوضحت تابرا.

ـ هذا لا يعني أنهم سعداء، وإنما لديهم قدرة أكبر على التحمل ـ قلت متعللة.

ـ ولكن ذلك ينفع. فالزواج عن حب له مشاكله الكثيرة، ومن المضمون أكثر جمع شخصين متوافقي الطباع، ومع الزمن يتعلمان أن يحب أحدهما الآخر.

ـ في هذا بعض المجازفة، ولكن لا تخطر فكرة أفضل ـ قلتُ موافقة.

ليس من السهل تحقيق مثل هذه الترتيبات في كاليفورنيا مثلما تأكد لها هي نفسها طوال سنوات، حيث لم تتمكن أي وكالة زواج أن توصلها إلى رجل عليه القيمة. فالأفضل كان الحرذون المجنح، ولكنها مازالت لا تعرف أخباره. وقد كنا نراجع الصحافة باستمرار لنرى إذا ما كان تاج موكتيزوما قد أُعيد إلى المكسيك، ولكن دون جدوى. ونظراً للنتائج غير المشجعة التي توصلت تابرا إليها، لم أشأ اللجوء إلى إعلانات الصحف ولا إلى وكالات الزواج؛ أضف إلى ذلك أن مثل هذا التصرف سينم عن عدم رصانة، لأني لم أستشر نيكو في الأمر. ولم يكن ثمة فائدة في صديقاتي لأنهن لسن شابات، ولا يمكن لامرأة في سن اليأس أن تتولى مسؤولية أحفادي الثلاثة، مهما بلغت وسامة نيكو.

صرت أبحث عن عروس في كل الأركان، وفي أثناء ذلك ازدادت حدة عيني. رحت أتقصى بين الأصدقاء والمعارف، وأتفحص الشابات اللواتي يطلبن توقيعي في المكتبات، بل إنني تصديت بتهور لفتاتين في الشارع، غير أنه تبين لي أن هذا الأسلوب ضئيل الجدوى وبطيء جداً. يمكن معه لأخيكِ أن يبلغ الستين وهو عازب. كنتُ أدرس النساء وأستبعدهن لأسباب مختلفة: جديات أو بلهاوات، متهورات أو خجولات، مدخنات أو بيئيات، يلبسن مثل أمهاتهن، أو لديهن وشم عذراء غوادالوبي على ظهورهن. المعني هو ابني، ولا يمكن الاختيار بخفة. بدأت أيأس، عندما عرفتني تابرا على آماندا، وهي مصورة وكاتبة، ترغب في إجراء تحقيق صحفي معي في الأمازون من أجل مجلة رحلات. كانت آماندا مثيرة للاهتمام

وجميلة، ولكنها متزوجة وتفكر في إنجاب أبناء قريباً، ولهذا لا تنفع لمقاصدي العاطفية. ومع ذلك، وفي أثناء الحديث معها برز موضوع ابني، ورويت لها المأساة كاملة، لأن ما حدث مع سيليا لم يعد سراً. فهي نفسها كانت قد نشرته ذات اليمين وذات اليسار. فأخبرتني آماندا بأن لديها الفتاة المثالية: لوري بارّا. إنها صديقتها المفضلة، كريمة القلب، وبلا أبناء، وجميلة، وراقية، ومُخرجة ومصممة مطبوعات من نيويورك، وتقيم في سان فرانسيسكو. لديها متودد بغيض، حسب رأيها، ولكننا سنجد الطريقة للتخلص منه، وبذلك تصير لوري جاهزة لتعريفها على نيكو. ليس بهذه السرعة، قلتُ لها، فلا بد أن أعرفها أنا بعمق أولاً. رتبت آماندا دعوة غداء وأنا أخذت معي آندريا، إذ بدا لي أنه لا بد للمصممة الشابة من أن تحصل على فكرة تقريبية عما ينتظرها. وقد كانت آندريا هي الأكثر تميزاً بين الأطفال الثلاثة. ظهرت حفيدتي بملابس متسولة، مع خرق وردية مربوطة على أجزاء مختلفة من جسمها، وعلى رأسها قبعة قش مزينة بأزهار ذابلة، ودميتها «سلفي إل أتون». كنتُ على وشك أن أقتادها جرجرة لشراء ملابس أفضل مظهراً، ولكنني قررت بعد ذلك أنه من الأفضل أن تتعرف عليها لوري في حالتها الطبيعية.

لم تخبر آماندا صديقتها شيئاً عن خططنا، وأنا أيضاً لم أخبر نيكو، كي لا أستثير غضبه. كان الغداء في مطعم ياباني ذريعة جيدة لم تستثر شكوك لوري التي كانت راغبة في التعرف علينا لأنها معجبة بمجوهرات لوري، ولأنها قرأت اثنين من كتبي، وفي هذا نقطتان لصالحها. كان انطباعنا أنا وتابرا جيداً، فهي ملاذ من البساطة والفتنة. تفحصتها آندريا دون أن تفوه بكلمة بينما هي تحاول دون جدوى أن تلقي في فمها قطعاً من السمك النيئ باستخدام العيدان.

ـ لا يمكن معرفة شخص خلال ساعة واحدة ـ نبهتني تابرا في ما بعد.

ـ إنها كاملة! حتى إنها تشبه نيكو، فكلاهما طويل القامة، ونحيل، وجميل، ولهما عظام نبيلة ويرتديان السواد: يبدوان توءمين.

ـ ليس هذا هو الأساس لزيجة جيدة.

ـ في الهند يعتمدون على توافق الأبراج، وهي طريقة يمكننا القول إنها غير علمية. فكل شيء يعتمد على الحظ، يا تابرا ـ أجبتها.

ـ لا بد لنا من معرفة شيء أكثر عنها. يجب رؤيتها في ظروف صعبة.

ـ أتعنين في ظروف حرب مثلاً؟

ـ سيكون ذلك مثالياً، ولكن لا وجود لحرب قريبة منا. ما رأيك في أن ندعوها للذهاب معنا إلى الأمازون؟ ـ اقترحت تابرا.

وهكذا كان أن لوري التي لم ترنا سوى مرة واحدة حول طبق سوتشي، انتهت إلى الطيران معنا باتجاه البرازيل بصفة مساعدة لآماندا المصورة.

❖ ❖ ❖

عند التخطيط لأوديسة الأمازون، تصورت أننا ذاهبون إلى مكان بدائي جداً، حيث ينكشف بجلاء طبع لوري وطباع أعضاء الحملة الآخرين، ولكن تبين أن الرحلة، لسوء الحظ، أقل خطورة مما توقعت. كانت آماندا ولوري قد احتاطتا لأدق التفاصيل، ووصلنا دون أية عقبات إلى ماناوس، بعد قضاء بضعة أيام في باهيا، حيث توقفنا للتعرف على جورج آمادو. وكنت أنا وتابرا قد قرأنا أعماله الكاملة، ونرغب في معرفة إذا ما كان آمادو الرجل استثنائياً مثلما هو الكاتب.

استقبلنا مع زوجته زيليا غاتي في بيته، وكان يجلس على كرسي بلا مسند، لطيفاً ومضيافاً. ففي الرابعة والثمانين، وهو شبه أعمى، ومريض جداً، كان لا يزال سيد الفكاهة والذكاء اللذين يميزان رواياته. إنه الأب الروحي لمدينة باهيا، فهناك

اقتباسات من كتبه في كل مكان: منحوتة على الحجر، تزيّن واجهات المباني العامة؛ وبأصباغ بدائية، بخط اليد، على أكواخ الفقراء. ساحات وشوارع تحمل بفخر عناوين كتبه وأسماء شخصياتها. دعانا آمادو لتذوق لذائذ مطبخ موطنه في مطعم «دادا»، وهي زنجية فاتنة لم تلهمه روايته الشهيرة ***دونيا فلور وزوجاها***، لأنها كانت لا تزال طفلة عندما كتبها، ولكنها تتفق تماماً مع أوصاف الشخصية: جميلة، ضئيلة، ممتلئة اللحم بلطف دون أن تكون بدينة. هذه النسخة من دونيا فلور كرمتنا بأكثر من عشرين صنفاً من أطباقها اللذيذة، وبنماذج من حلوياتها توجتها بحلوى الـ *punhetinha*، وهو ما يعني باللهجة المحلية «استمناء». ولا حاجة للقول كم أفادني ذلك كله في كتابي ***أفروديت***!

وقد أخذنا الكاتب العجوز كذلك إلى *terreiro* أو معبد، كان هو نفسه أباه الراعي، كي نشهد أحد طقوس الكاندمبلي، وهي ديانة جلبها معهم العبيد الأفارقة إلى البرازيل قبل عدة قرون، ولها اليوم ملايين الأتباع في تلك البلاد، بمن في ذلك بيض من الطبقة الوسطى في المدن. كانت الشعائر الدينية قد بدأت باكراً بتضحية بعض الحيوانات للآلهة (*orishas*)، ولكننا لم نر هذا الجزء من الطقوس. وقد أقيم الاحتفال في بناء يشبه مدرسة متواضعة، مزينة بورق كورنيش وصور الأمهات (*maes*) المتوفيات. جلسنا على مقاعد خشبية قاسية، وسرعان ما حضر الموسيقيون وبدؤوا بقرع طبولهم بإيقاع لا يُقاوم. دخل رتل من النساء يرتدين ثياباً بيضاء، يدرن وهن يرفعن أيديهن عالياً حول عمود مقدس، مستدعيات الآلهة *orishas*. ورحن يسقطن واحدة فواحدة مغمى عليهن. لا شيء من الزبد على أفواههن، وبلا أي اختلاجات، ودون شيء من الشموع السوداء أو الأفاعي، ولا شيء من الأقنعة المخيفة أو رؤوس الديوك الدامية. وكانت النساء المسنات يحملنهن من يسقطن وقد «امتطاهن» الآلهة إلى حجرة أخرى، ثم يعدن بهن بعد ذلك، مزينات برمز آلهتهن

ليواصلن الرقص حتى الفجر، حيث انتهى الطقس بطعام وافر من لحم حيوانات القرابين المشوي والمانديوكا والحلويات.

أوضحوا لي أن لكل شخص إله قرين ـ وأحياناً أكثر من إله واحد ـ ويمكن أن يُستدعى في أي لحظة من حياته، وعليه أن يكون جاهزاً لخدمة إلهه. أردت أن أعرف من هو إلهي. فقبل سنوات من ذلك، عندما قرأت كتاب جين شيتودا بولين، أختي في جمعية الفوضى، حول الآلهة الذين يفترض وجودهم في كل امرأة، شعرت بشيء من البلبلة. وربما كانت ديانة الكاندمبلي أكثر دقة وتحديداً. قامت منجمة «أم قديسة»، وهي امرأة ضخمة، ترتدي عباءة من قماش خفيف ومخرم مع عمامة من عدة مناديل وفيض من العقود والأساور، «بضرب الودع»، لنا وهو ما تسميه *jogo de buzios*. دفعتُ لوري كي ترى حظها أولاً، وأخبرها الودع بحب خفي جديد، «شخص تعرفه، لكنها لم تره بعد». كنت أنا وتابرا قد تحدثنا كثيراً عن نيكو، مع أننا كنا نحاول عدم إظهار حقيقة نوايانا؛ فإذا كانت لوري لم تعرفه، فهذا يعني أنها ساهية في القمر. «وهل سيكون لي أبناء؟»، سألتها لوري. ثلاثة، أجابها الودع. «رائع!» هتفت مفتونة، غير أن نظرة من تابرا أعادتني إلى التعقل. بعد ذلك جاء دوري. فركت **الأم القديسة** مجموعة الأصداف بين يديها، وطلبت مني أن ألمسها بدوري، ثم نثرتها فوق قطعة قماش سوداء. «أنت تتبعين جيمايا، إلهة المحيطات، وأم الجميع. مع جيمايا تبدأ الحياة. إنها قوية، حامية، ترعى أبناءها، تقوي عزيمتهم، وتعينهم في الألم. يمكنها أن تشفي النساء من العقم. جيمايا رحيمة، ولكنها رهيبة حين تغضب، مثل عاصفة في المحيط». وأضافت أنني مررت بمعاناة عظيمة، شلّتني لبعض الوقت، ولكنها بدأت تتقشع. وكان على تابرا التي لا تؤمن بهذه الأمور أن توافق على الجزء الخاص بالأمومة على الأقل. ولكنها استنتجت: «إنها مصادفة».

❖ ❖ ❖

برؤيتها من الطائرة، تبدو منطقة الأمازون بقعة خضراء غير متناهية. أما في الأسفل، فهي مملكة الماء: بخار، مطر، أنهار فسيحة كأنها البحار، عرق. تشغل منطقة الأمازون ستين بالمئة من مساحة البرازيل، وهي منطقة أكثر اتساعاً من الهند، وتشكل جزءاً من أراضي فنزويلا وكولومبيا والبيرو والإكوادور. في بعض مناطقها مازالت تسود «شريعة الغاب» بين قطاع الطرق والمتاجرين بالذهب والمخدرات والأخشاب والحيوانات الذين يقتتلون فيما بينهم، وإذا هم لم يتمكنوا من إبادة الهنود دون قصاص، فإنهم يعملون على طردهم من أرضهم. إنها قارة قائمة بذاتها، عالم غامض وساحر. لقد بدت لي غير قابلة للفهم باتساعها، ولم أتخيل أنه يمكن لها أن تفيدني كمصدر إلهام، لكنني استخدمت بعد بضع سنوات كثيراً مما رأيته في روايتي الأولى للفتيان.

وكاختصار للرحلة، لأنه لا مجال للتفاصيل في هذه القصة، يمكنني القول إنها كانت أكثر أماناً بكثير مما رغبتُ فيه، لأننا ذهبنا مستعدات لخوض مغامرة طرزانية درامية. وأقرب ما بدا شبيهاً بطرزان، كان قردة مقملة تعلقت بي، وكانت تنتظرني منذ الفجر عند باب حجرتي كي تستقر على كتفي، وذيلها ملتف حول رقبتي، لتبحث في رأسي بأصابعها العفريتية. لقد كانت قصة حب حساسة. أما ما سوى ذلك فكان نزهة سياحية بيئية: فالبعوض محتمل، ولم تنهش أسماك البيرانيا قطعاً منا، ولم يكن علينا أن نتفادى سهاماً مسمومة. وكان المهربون، والجنود، وقطاع الطرق يمرون بجانبنا دون أن يرونا. ولم نصب بعدوى الملاريا، ولم تدخل ديدان تحت جلودنا، ولا أسماك كالإبر عبر مجارينا البولية. وقد خرجنا نحن نساء الحملة الأربع سليمات معافيات. ومع ذلك، فإن هذه المغامرة الصغيرة أنجزت الهدف منها بالكامل، إذ تمكنتُ من التعرف جيداً على لوري.

خمس رصاصات

اجتازت لوري الامتحان بالدرجات القصوى. إنها مثلما وصفتها آماندا: ذات ذهن صافٍ وطيبة نفس طبيعية. كانت تخفف من أعباء رفيقاتها بتكتم وفعالية، وتجد حلولاً لتفاصيل متعبة، وتخفف توترات لا يمكن تحاشيها. تتمتع بعادات طيبة، وهو أمر أساسي للتعايش الصحي. لها ساقان طويلتان، لا يمكن لهما أن تكونا زائدتين عما هو ضروري، وضحكة صريحة لا شك في أنها ستغوي نيكو. وتتمتع بفضيلة أنها تكبره ببضع سنوات، لأن الخبرة والتجربة مفيدة على الدوام، ولكنها تبدو فتية جداً. إنها جميلة، ذات تقاطيع قوية، وشعر أسود مجعد بديع، وعينين ذهبيتين، ولكن هذا هو آخر ما يؤخذ في الاعتبار، لأن ابني لا يولي أي اهتمام للمظهر البدني. فهو يؤنبني لأني استخدم المكياج ولا يريد أن يصدق أنني أرى نفسي بوجهي المغسول أشبه بدركي. راقبتُ لوي باهتمام نسر رخمة، حتى إنني نصبتُ لها بعض الفخاخ، ولكنني لم أتمكن من مباغتتها في خطأ. وقد أقلقني ذلك قليلاً.

بعد حوالي أسبوعين، رجعنا مستنفدات إلى ريو دي جانيرو، حيث سنستقل الطائرة إلى كاليفورنيا. نزلنا في أحد فنادق كوباكابانا، وبدل أن نكتسب اللون البرونزي على شاطئ الرمال البيضاء، خطر لنا أن نذهب إلى فافيلا، كي نكوّن فكرة عن كيف يعيش الفقراء، ونبحث عن منجمة أخرى تقرأ لنا حظنا، لأن تابرا مازالت تلاحقني بارتيابيتها بشأن إلهتي جيمايا. ذهبنا برفقة صحفية برازيلية وسائق، حملنا في شاحنة مغلقة عبر رابية مطلقة البؤس، حيث لا تدخل الشرطة، وأقل من ذلك السائحون. وفي معبد أشد تواضعاً بكثير من معبد باهيا، استقبلتنا امرأة في سن النضج، ترتدي سروال رعاة بقر. وقد كررت تلك الكاهنة طقوس الودع نفسها التي رأيتها في باهيا وقالت دون تردد أنني أنتمي إلى

الرية جيمايا. من المستحيل أن تكون العرافتان قد اتفقتا. وكان على تابرا في هذه المرة أن تبتلع تعليقاتها الساخرة.

غادرنا الفافيلا، وفي طريق العودة رأينا محلاً متواضعاً يبيعون في وجبات تقليدية محلية سريعة. بدت لي أكثر طرافة من تناول غداء من كوكتيل القريدس على شرفة الفندق، فطلبت من السائق أن يتوقف. ظل الرجل في الشاحنة كي يحرس أجهزة التصوير، بينما وقفنا نحن الآخرين في الصف أمام منضدة كي يسكبوا لنا الطعام بملعقة خشبية في طبق من الكرتون. لست أدري لماذا خرجت من المحل، وتبعتني لوري وآماندا، ربما كي أسأل السائق إذا ما كان راغباً في الأكل. وعندما أطللتُ من بوابة المحل، لاحظت أن الشارع الذي كان يغص قبل قليل بحركة المرور، قد أقفر، فلا سيارات تمر، والدكاكين تبدو مغلقة، والناس اختفوا. وفي الجانب الآخر من الشارع، على بعد حوالي عشرين متراً، كان هناك شاب يرتدي بنطالاً أزرق وقميصاً قصير الأكمام من اللون نفسه، وينتظر عند موقف للحافلات. تقدم من خلفه رجل مماثل، شاب أيضاً، يرتدي بنطالاً قاتماً وقميصاً مشابهاً، يحمل في يده دون مواراة مسدساً كبيراً. رفع السلاح، صوبه إلى رأس الآخر وأطلق النار. لم أدرِ للحظة ما الذي حدث، لأن الرصاصة لم تكن مدوية كما في السينما، وإنما خرجت بصوت أصم وجاف. انبثق دفق من الدم قبل أن يسقط الضحية. وبينما هو على الأرض، أطلق عليه القاتل أربع رصاصات أخرى. وبعد ذلك مضى مبتعداً في الشارع بهدوء وتحدٍ. تقدمت مثل إنسان آلي نحو الرجل الذي ينزف على الأرض. اهتز في اختلاجتين عنيفتين وخمد على الفور، بينما كانت تتعاظم حوله بركة من الدم المتلألئ. لم أتمكن من الانحناء لنجدته، لأن صديقاتي والسائق الذين سارعوا إلى الاختباء في السيارة أثناء الجريمة، سحبوني نحوها. وخلال دقيقة عاد الشارع

يمتلئ بالناس، سمعت صرخات، أبواق سيارات، رأيت الزبائن يخرجون راكضين من المطعم.

أجبرتنا الصحفية البرازيلية على الصعود إلى الشاحنة وطلبت من السائق أن يأخذنا إلى الفندق عبر طرق جانبية. ظننت أنها تريد تحاشي ازدحام حركة المرور التي سيحدث دون شك، ولكنها أوضحت لنا أنها استراتيجية لتجنب الشرطة. احتجنا إلى حوالي أربع دقائق للوصول، ولكنها بدت لي أبدية. وفي الطريق انقضت عليّ صور الانقلاب العسكري في تشيلي، والموتى في الشارع، والدم، والعنف المفاجئ، والإحساس بأنه يمكن حدوث شيء رهيب في أي لحظة، وأنه ليس هناك أحد آمن في أي مكان. كانت الصحافة تنتظرنا في الفندق مع عدة كاميرات تلفزيونية؛ فقد كانوا، بصورة لا يمكن تفسيرها، قد علموا بما حدث، غير أن ناشري، وكان هناك أيضاً، لم يسمح لنا بالتحدث إلى أحد. قادنا بسرعة إلى إحدى الغرف وأمرنا بأن نبقى محبوسين هناك إلى يتمكن من نقلنا مباشرة إلى الطائرة، لأنه يمكن لعملية الاغتيال أن تكون تصفية حسابات بين مجرمين، ولكن نظراً للطريقة التي جرت بها، في الشارع وفي وضح النهار، فإنها تبدو أقرب إلى عمليات الإعدام المشهورة التي تنفذها الشرطة التي اعتادت في تلك السنوات على تولي تطبيق القانون بيدها دون التعرض لأي مساءلة. علقت الصحافة والجمهور على الحادث، غير أنه لم تكن ثمة أدلة، ولو أنها توافرت، لكانت اختفت في الوقت المناسب. وعند معرفة أن جماعة من الأجانب، بينهم أنا ـ وكتبي معروفة إلى هذا الحد أو ذاك في البرازيل ـ، قد شهدوا الجريمة، افترض الصحفيون أن بإمكاننا تحديد هوية القاتل. إذا كان هذا صحيحاً، كما قيل لنا، فإن أكثر من شخص سيحول دون ذلك. وخلال ساعات قليلة كنا في الطائرة عائدين إلى كاليفورنيا. وكان على الصحفية والسائق أن يتواريا عن الأنظار عدة أسابيع.

كانت هذه الحادثة هي اختبار بالنار للوري. فعندما انسللنا إلى الشاحنة، كانت ترتجف بين ذراعي آماندا. أعترفُ بأن رؤية رجل ينزف بفعل خمس رصاصات هو مشهد رهيب، ولكن لوري كانت قد تعرضت مرتين أو ثلاث مرات من قبل للسطو في نيويورك، وقد جالت نصف العالم، ولم تكن المرة الأولى التي تجد فيها نفسها في موقف عنيف. كانت الوحيدة التي لم تستطع تحمل المشهد، أما نحن الأخريات فتحملنا بصمت. لقد كان ردّ فعلها بالغ الدراماتيكية، مما اضطرهم لدى وصولنا إلى الفندق إلى استدعاء طبيب كي يعطيها مهدئاً. هذه الفتاة الهادئة التي حافظت طوال الأسابيع الفائتة على رباطة جأشها تحت الضغط، وأبدت حس الفكاهة في مواجهة الصعاب، والتي تجرأت على الخوض في النهر بين أسماك البيرانيا، وامتلكت الصرامة لوقف أربعة روس مخمورين عند حدّهم، بعد أن أسرفوا في إغداق اهتمامهم بها وبآماند، بالرغم من معاملتهم لي ولتابرا بالاحترام اللائق بجدتين من أوكرانيا، انهارت تماماً مع تلك الرصاصات الخمس. ربما باستطاعة لوري أن تتولى عبء أحفادي الثلاثة والصراع مع أسرتنا الغريبة دون أن يؤثر ذلك عليها، ولكنني عندما رأيتها في تلك الحال أدركت أنها أقل قدرة على التحمل مما تبدو عليه للوهلة الأولى. إنها بحاجة إلى قليل من المساعدة.

مهنة القوادة

ألهب الأمازون مخيلتي. أنهيت كتابة *أفروديت* خلال أسابيع قليلة وأضفت إليه وصفات إيروتيكية من مطبخ دادا في باهيا وأخرى من ابتكار أمي ثم طلبت من لوري أن تصمم الكتاب، وهي حجة جيدة لتحقيق تقدم في تخفيف دفاعاتها.

كانت آماندا متواطئة معي. وذات مرة ذهبنا نحن الثلاثة إلى خلوة بوذية، بمبادرة من لوري، وانتهينا إلى النوم في حجرات ضيقة جدرانها من ورق الرز، وعلى فُرش موضوعة على الأرض، بعد جلسات طويلة من التأمل. كان لا بد من الجلوس لساعات على **سافو**، وهي حشايا مدورة وقاسية يعتبر الجلوس عليها جزءاً من ممارسة الطقوس الروحية. فمن يتحمل الحشية يكون قد كسب نصف الطريق إلى الإشراق. وكان هذا العذاب يتوقف ثلاث مرات في اليوم من أجل أكل الحبوب والمشي بخطوات بطيئة في دائرة، بصمت كامل، في حديقة يابانية ذات أشجار صنوبر قزمة وأحجار حسنة الترتيب. كنا في زنزانتنا المتقشفة نكتم ضحكنا بوسائد **السافو**، ولكن سيدة ذات جدائل رمادية وعينين صافيتين، جاءت لتذكّرنا بالأنظمة. «أي ديانة هذه التي تحظر الضحك؟»، علقت آماندا. وأنا كنت قلقة بعض الشيء، إذ بدا على لوري أنها مستمتعة في مغارة السلام والتمتمة، وهو ما قد يتوافق مع طبع نيكو المتزن، ولكنه لا يتفق بأي حال مع مهمة تربية ثلاثة أطفال. أوضحت لي آماندا أن لوري قد عاشت ثلاث سنوات في اليابان ومازال لديها شيء من موانع الزّن، ولكن لا داعي للقلق، لأنه ليس بالأمر غير القابل للعلاج.

دعوتُ لوري مع آماندا وتابرا للعشاء في بيتنا وقدمتها إلى نيكو والطفلين اللذين لم يعرفاها، ولم يكونا شيئاً يذكر بالمقارنة مع آندريا. كنت قد قلت للوري إن نيكو مازال مستاء بسبب الطلاق، ولن يكون من السهل عليه أن يجد خطيبة، لأنه لا وجود لامرأة سليمة العقل ترغب برجل لديه ثلاثة أطفال. وقلتُ لنيكو بصورة عابرة إنني تعرفت على امرأة مثالية، ولكن بما أنها أكبر منه سناً، ولديها ما يشبه الخطيب، فلا بد لنا من مواصلة البحث. «أظن أن هذا أمر يخصني»، ردّ مبتسماً، غير أن ظلاً من الرعب ظهر في نظرته. ولكنني اعترفتُ لويللي بالخطة، وكان قد

حدس ذلك على أية حال. وبدلاً من أن يكرر عبارته المعهودة بألا أتدخل، بذل جهده في إعداد وجبة نباتية شهية للوري، لأنه حين رآها أعجبته فوراً، وقال إنها راقية، وتتفق تماماً مع قبيلتنا. وكانت ستنال إعجابكِ أنتِ أيضاً، يا بنتي، لأن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينكِ وبينها. وخلال العشاء، لم يتبادل نيكو ولوري كلمة واحدة، بل إنهما لم يتبادلا النظر. وكانت آماندا وتابرا متفقتين معي على أننا قد أخفقنا إخفاقاً مدوياً. ولكن ابني اعترف لي بعد شهر من ذلك بأنه خرج مع لوري عدة مرات. لا أستطيع أن أفهم كيف تدبر أمر إخفاء ذلك عني طوال شهر كامل.

ـ هل أنتما متحابان؟ ـ سألته.

ـ يبدو لي أنه من المبكر قول ذلك ـ ردّ أخوكِ باحتراسه المعهود.

ـ لا يمكن للحب أن يكون مبكراً أبداً، وخاصة في مثل سنك يا نيكو.

ـ لقد أكملتُ للتو ثلاثين سنة!

ـ أتقول ثلاثين سنة؟ ولكنك بالأمس كنت تكسر عظامك على عجلات التزلج، وترمي بيضاً على الناس بمقلاع! السنوات تمضي طيراناً، يا بني، وليس ثمة وقت لإضاعته.

بعد سنوات من ذلك، أخبرتني آماندا بأن ابني، في اليوم التالي لتعرفه على لوري، وقف ينتظر أمام مكتب عملها حاملاً وردة صفراء في يده، وعندما خرجت هي أخيراً لتناول الغداء ووجدته واقفاً هناك مثل عمود، تحت الشمس، قال لها نيكو «كنت ماراً من هنا». إنه لا يعرف كيف يكذب، فقد خانته حمرة الخجل.

وسرعان ما توارى من الأفق، دون ضجة، الرجل الذي كان على علاقة بلوري، وهو مصور رحلات شديد الغيرة. كان يكبرها بخمس عشرة سنة، ويظن أن النساء لا يقاومن جاذبيته، وربما كان كذلك قبل أن يحوّله الغرور ومرور السنوات إلى مثير للشفقة. عندما لا يكون في إحدى رحلاته في أقاصي العالم، تنتقل لوري إلى

شقته في سان فرانسيسكو، وهي علّية بلا أثاث، ولكن لها إطلالة متكبرة، حيث تشاطره شهر عسل بالغ الغرابة يبدو أشبه بحج إلى دير. وكانت تتحمل بلطف انكباب ذلك الرجل المرضي على المراقبة، وتقلبات أهوائه كعازب، والواقع المحزن أن الجدران كانت مغطاة بصور فتيات آسيويات بثياب قليلة يصورهن عندما لا يكون في ثلوج القارة القطبية الجنوبية أو في رمال الصحراء الكبرى. كان على لوري أن تعرف قواعد المساكنة: الصمت، انحناءات التوقير، عدم لمس أي شيء في العلية، عدم الطهو لأن الروائح تضايقه، وعدم الاتصال بأحد هاتفياً، ناهيك عن زيارة أحد، لأن هذا سيكون إهانة عظمى. وكان عليها أن تمشي على رؤوس أصابعها. وقد كانت أعظم ميزة يوفرها ذلك السيد هي غيابه في رحلات. ما الذي كان يعجب لوري فيه؟ صديقاتها لم يستطعن فهم ذلك. ولحسن الحظ أنها كانت قد بدأت تتعب من منافسة الفتيات الآسيويات، واستطاعت أن تهجره دون إحساس بالذنب عندما تولت آماندا وصديقات أخريات مهمة السخرية منه بينما هن يُشدن بمزايا نيكو الواقعية وبأخرى وهمية. وعند الوداع، قال لها إنه عليها عدم الظهور في أي من الأماكن التي ذهبا إليها معاً. إنني أتذكر اللحظة التي أُعلن فيها حب نيكو ولوري للملأ. ذات يوم سبت، ترك نيكو عندنا الأطفال الذين كان برنامجهم المفضل هو النوم عند الجدين والإتخام بالحلوى ومشاهدة التلفزيون. ورجع لأخذهم في صباح يوم الأحد. كانت تكفيني رؤية أذنيه القرمزيتين لأعرف أنه أمضى الليل مع لوري وأن أستنتج، لأنني أعرفه، أن المسألة جدية. وبعد ثلاثة شهور من ذلك، صارا يعيشان معاً.

في اليوم الذي جاءت فيه لوري بأمتعتها إلى بيت نيكو، تركتُ لها رسالة على الوسادة أرحب بها في قبيلتنا وأقول لها إننا انتظرناها، وإننا كنا نعرف أنها موجودة في مكان ما، وإن

المسألة كانت تتلخص في العثور عليها. وقدمت لها في أثناء ذلك نصيحة، لو أنني عملت أنا نفسي بها لوفرت ثروة أنفقتها على المعالجين النفسيين: أن تتقبل الأطفال كتقبلنا للأشجار، بامتنان، لأنهم بركة؛ ولكن دون آمال أو رغبات. فمن غير المتوقع أن تكون الأشجار مختلفة، لأنها تبقى مثلما هي إن أحببناها. لماذا لم أفعل ذلك مع ابنيّ زوجي، ليندساي وهارلي؟ لو أنني تقبلتهما كشجرتين، فربما كانت مشاجراتي مع ويللي أقل. لم أحاول تغييرهم وحسب، بل عيّنتُ نفسي حارساً على بقية الأسرة وعلى بيتنا خلال السنوات التي كانا منغمسين فيها بتعاطي الهيروين. وقد أضفتُ في تلك الرسالة القصيرة إلى لوري أنه لا جدوى من مراقبة حياة الصغار أو المبالغة في حمايتهم. فإذا كنتُ عاجزة عن حمايتك من الموت، يا باولا، كيف سأتمكن من حماية نيكو وأحفادي من الحياة؟ إنها نصيحة أخرى لا أمارسها.

❖ ❖ ❖

من أجل العيش مع نيكو والانضمام إلى القبيلة، كان على لوري أن تبدل حياتها بالكامل. فمن شابة عازبة متحذلقة تعيش في شقة متقنة في سان فرانسيسكو، تحولت إلى زوجة وأم في الضواحي، مع كل المهمات المزعجة التي يعنيها ذلك. لقد كانت تتحكم من قبل بكل تفصيل، أما الآن فتتخبط في الفوضى المحتمة في بيت أطفال. صارت تستيقظ في الفجر، وبعد أن تنجز المهمات المنزلية، تذهب إلى ورشة التصميم التي تملكها في سان فرانسيسكو، أو تقضي ساعات في التنقل على الطرق السريعة لتلتقي بزبائنها في مدن أخرى. لم يعد لديها وقت للقراءة، ولشغفها بالتصوير، وللرحلات التي كانت تقوم بها، ولصداقاتها الكثيرة، وممارسة اليوغا والزّن، ولكنها كانت عاشقة وتولت دون أن تتبس ببنت شفة دور الزوجة والأم. وسرعان ما استوعبتها الأسرة. لم تكن تعرف آنذاك، ولكن كان عليها أن تنتظر عشر سنوات ـ إلى أن

يتمكن الأطفال من الاعتماد على أنفسهم ـ كي تستعيد، بجهد واعٍ، هويتها السابقة.

حوّلت لوري حياة وبيت نيكو. فقد اختفى الأثاث الفظ، والأزهار الاصطناعية، واللوحات الصارخة. وأعادت قولبة البيت وزرعت الحديقة. طلت غرفة المعيشة، وكانت تبدو من قبل أشبه بزنزانة، بلون أحمر فينيسي ـ كدت أن يغمى عليّ حين رأيت نموذجاً من اللون، ولكنه بدا راقياً جداً بعد الطلاء ـ، واشترت أثاثاً خفيفاً، ووضعت بعض الوسائد الحريرية موزعة هنا وهناك، كما في مجلات الديكور. وعلقت في الحمامات صوراً عائلية، وشموعاً ومناشف سميكة باللونين الأخضر والبنفسجي. وكانت هناك في مخدعها أزهار أوركيدا، وعقود معلقة على الجدران، وكرسي هزاز، ومصابيح قديمة لها شاشات مخرمة، وصندوق ياباني. كانت لمستها تبدو واضحة على كل شيء، بما في ذلك المطبخ، حيث استبدلت وجبات البيتزا التي يُعاد تسخينها وزجاجات الكوكاكولا بوصفات أطعمة إيطالية تعلمتها من جدة صقليّة، و«توفو» ولبن. كان نيكو مغرماً بالمطبخ، وكان اختصاصه طبق البائية البلنسية التي علمتِه أنتِ تحضيرها، ولكنه حين كان وحيداً، لم يكن يجد الوقت ولا الحماسة للقدور. واستعادها مع لوري. أضافت هي لمسة بيتية كانت الحاجة إليها شديدة، فأشرق ونيكو. لم أره قط سعيداً ومرحاً بمثل تلك الحال. يمضيان متماسكي الأيدي، ويتبادلان القبلات وراء الأبواب، والأطفال يتجسسون عليهما، بينما أنا وتابرا وآماندا نتبادل التهاني على حسن اختيارنا. كنت أسمح لنفسي أحياناً بالانقضاض فجأة على بيتهما في ساعة الفطور لأن مشهد هذه الأسرة السعيدة يمنحني العزيمة لبقية النهار. ضوء الصباح يغمر المطبخ، ومن النافذة تظهر الحديقة، وأبعد قليلاً البحيرة والبط البري. وكان نيكو يحضّر جبلاً من الخبز المحمص، ولوري تُقطّع الفواكه، والأطفال

الناعسون، المترنحون وهم بثياب النوم، يلتهمون بشراهة. كانوا لا يزالون صغاراً جداً، وقلبوهم مفتوحة. وكان الجو احتفالياً وليناً، إنه مبعث للراحة بعد الأمراض، والموت، والطلاق، والمشاجرات التي تحملناها لوقت طويل.

حماة جهنمية

لقد قلتُ لكِ إنني أسمح لنفسي «أحياناً» بالانقضاض عليهم، ولكنني كنت أملك في الحقيقة مفتاحاً لبيت نيكو ولوري، وكنت سيئة العادات: أصل في أي وقت دون إشعار مسبق، وأتدخل في حياة أحفادي، وأعامل نيكو كما لو كان طفلاً...، وباختصار، كنت حماة سيئة. في إحدى المرات اشتريتُ سجادة، ودون أن أطلب الإذن منهما، وضعتها في صالة بيتهما، بعد أن أزحتُ الأثاث كله. ولم أفكر في أنه إذا ما حاول أحدهم تبديل ديكور بيتي كي يفاجئني، فإنه سيتلقى ضربة هراوة على رأسه. لو حدث ذلك معكِ، يا بولا، لكنتِ أعدت إلي السجادة، وألقيتِ عليّ خطبة وعظ لا تُنسى؛ مع أنني ما كنتُ لأتجرأ أبداً على أن أفرض عليك سجادة فارسية عرضها ثلاثة أمتار وطولها خمسة. أما لوري فشكرتني. بدت شاحبة، ولكنها مجاملة. وفي مناسبة أخرى اشتريت شراشف مطبخ أنيقة لأستبدل بها تلك التي يستخدمانها، وألقيت القديمة إلى القمامة، دون أن يخطر ببالي أنها كانت لجدة لوري المتوفاة، وأن لوري احتفظت بها ككنز طيلة عشرين سنة. وبحجة أنني أود إيقاظ أحفادي بقبلة، كنت أدخل بيتهم في الفجر. ولم يكن غريباً أن تصطدم لوري بحماتها فجأة وهي خارجة من الحمام شبه عارية. أضف إلى ذلك أنني كنت ألتقي سراً بسيليا، وهو ما يعني في الواقع نوعاً من خيانة لوري، مع أنني لم أكن قادرة

على رؤية الأمر بهذه الصورة. وبسبب مزاح القدر المعهود، كان لا بد لنيكو من أن يعلم بتلك اللقاءات. ومع أنني صرت ألتقي بسيليا وسالي أقل بكثير من السابق، إلا أنني لم أقطع علاقتي بهما نهائياً، موقنة أن الأمور ستلين مع مرور الزمن. فراحت تتراكم أكاذيب وتفريط من جانبي، واستياء من جانب نيكو. اختلطت الأمور على لوري، فكل شيء من حولها يتحرك، ولا شيء واضح وبيّن. لم تكن تعلم أنني وابني نتعامل بصراحة مطلقة في كل الأمور، باستثناء موضوع سيليا. وكانت هي من أصرت على الحقيقة والمصارحة، قالت إنها لا تتحمل هذه الأرض الزلقة، وسألت إلى متى سنظل نتجنب خوض مواجهة صحية. ومن نافل القول أننا قمنا بتلك المواجهة في مناسبات عديدة.

ـ يجب أن أحتفظ بنوع من العلاقة مع سيليا، وآمل أن تكون علاقة متحضرة، إنما في أضيق الحدود. إنها فظة، تستفزني بسوء طبعها وبواقع أنها تبدل قواعد التعامل بصورة دائمة. الشيء الوحيد المشترك بيننا هم الأطفال، ولكنكِ إذا ما تدخلتِ في الأمر، فسوف يزداد كل شيء تعقيداً ـ أوضح لي نيكو.

ـ أفهم موقفك، ولكنني لستُ في مثل وضعك. أنت ابني وأنا أعبدك. وصداقتي بسيليا لا علاقة لها بك أو بلوري.

ـ بل لها علاقة، يا أماه. إنك تحزنين وأنت ترينها تمر بصعوبات. ألا تفكرين بي؟ ولا تنسي أنها هي من افتعلت هذا الوضع، هي من مزقت هذه الأسرة، فعلت ما يحلو لها، وهذا تترتب عليه نتائج.

ـ لا أريد أن أكون جدة لنصف الوقت فقط، يا نيكو. إنني بحاجة إلى رؤية الأطفال أيضاً خلال الأسابيع التي يقضونها مع سيليا وسالي.

ـ لا يمكنني أن أمنعكِ من ذلك، ولكنني أريدك أن تعلمي أنني مجروح وغاضب، يا أماه. إنك تعاملين سيليا كأنها الابن الضال. إنها لن تحل محل باولا أبداً، إذا كان هذا هو ما تسعين

إليه. إنك تشعرين بأنك مدينة لها لأنها كانت إلى جانبك عن موت أختي، ولكنني كنتُ موجوداً كذلك. وكلما ازددتِ تقرباً من سيليا، سنزداد أنا ولوري بعداً عنك، هذا أمر لا يمكن تجنبه.

ـ آه، يا بني! لا وجود لقواعد تحكم العلاقات الإنسانية، يمكن إعادة اختراعها، يمكن لنا أن نكون أصيلين. ومع مرور الوقت ينقضي الغضب وتندمل الجراح...

ـ أجل، ولكن هذا لن يقربني من سيليا، أؤكد لكِ. أتراكِ أنت قريبة من أبي، أو ويللي قريب من زوجتيه السابقتين؟ إنه طلاق. وأريد أن أُبقي سيليا على مسافة حذرة كي أتمكن من الاسترخاء والعيش.

في إحدى الليالي جاء نيكو ولوري ليقولا لي إنني أتدخل كثيراً في حياتهما. حاولا فعل ذلك بتهذب؛ ولكن هول الصدمة كاد أن يسبب لي سكتة قلبية. أُصبتُ بنوبة عصبية صبيانية، مقتنعة بأنه قد ارتكب أسوأ ظلم بحقي. ابني يطردني من حياته! يأمرني بألا أخالف تعليماته في ما يتعلق بأبنائه: لا مثلجات قبل العشاء، ولا نقود أو هدايا عندما لا تكون هناك مناسبة خاصة، ولا تلفزيون عند منتصف الليل. ما فائدة الجدة إذاً؟ أيريد أن يحكم عليّ بالوحدة؟ بدا ويللي متضامناً، ولكنه كان يسخر مني في أعماقه. جعلني أرى أن لوري لا تقل استقلالية عني، وأنها عاشت لسنوات وحيدة، ولم تكن معتادة على مجيء أشخاص إلى بيتها دون دعوة. وكيف خطر لي أن آخذ سجادة إلى مصممة ديكور؟

ما إن استطعت التحكم بيأسي حتى اتصلت بتشيلي وتحدثت إلى أبوي اللذين لم يفهما في أول الأمر المشكلة جيداً، لأن العلاقات في الأسر التشيلية تكون عادة كهذه التي فرضتها على هذين الزوجين، ولكنهما تذكرا بعد ذلك أن العادات في الولايات المتحدة مختلفة. «بنيتي، المرء يأتي إلى هذا العالم ليخسر كل شيء. ومن غير المكلف التخلص من الماديات، ولكن الصعوبة هي في

إطلاق العواطف»، قالت لي أمي بأسى، لأن ذلك ما كان عليه قدرها، فليس هناك أحد من أبنائها أو أحفادها يعيش قريباً منها. وأفسحت كلماتها المجال لسيل من الشكاوى، فقاطعها العم رامون بصوت العقل ليوضح لي أنه كان على لوري أن تتساهل كثيراً كي تقبل العيش مع نيكو: الانتقال من مدينتها وبيتها، تعديل أسلوب حياتها، تبني ثلاثة أبناء لزوجها وأقارب جدد، وغيرها وغيرها، ولكن الأسوأ من ذلك كله هو حضور الحماة الطاغي. لقد كان الزوجان بحاجة إلى هواء ومكان ينميان فيه علاقتهما دون أن أكون شاهدة على كل حركة من حركاتهما. نصحني بالتحول إلى غير مرئية، وأضاف إنه على الأبناء أن ينفصلوا عن أمهاتهم وإلا سيظلون أطفالاً إلى الأبد. وقال إنه مهما كان طيب نواياي، فإنني أظل الأم الكبيرة، وهي المكانة التي يمقتها الآخرون بكل تأكيد. وقد كان محقاً: دوري في القبيلة يتجاوز الحدود، وليس لدي حسابات الجدة هيلدا. وويللي يصفني بأنني أشبه ببركان في قارورة.

عندئذ تذكرتُ فيلماً لوودي آلان، ترافقه فيه أمه، وهي عجوز تستعبده، لها تلة شعر مصبوغ بلون الصدأ وعينا بومة، إلى عرض مسرحي. يطلب الساحر من الجمهور متطوعاً ليجعله يختفي، ودون أن تفكر السيدة في الأمر مرتين، تصعد إلى المنصة وتدخل زاحفة في الصندوق. يقوم الساحر بخدعته، وتتلاشى السيدة إلى الأبد. يبحثون عنها في الصندوق السحري، ووراء الكواليس، وفي كل أنحاء المبنى، وفي الشارع، دون نتيجة. وأخيراً يأتي رجال شرطة، وتحريون، ورجال مطافئ، ولكن جهود البحث عنها لا تسفر عن أي نتيجة. ويظن ابنها، بسعادة، أنه قد تخلص منها إلى الأبد أخيراً، غير أن العجوز اللعينة تظهر له في السماء ممتطية غيمة، كلية القدرة وحتمية مثل يهوة. لقد كنت أنا هكذا كما يبدو، مثل الأمهات اليهوديات في النكات. فبحجة مساعدة وحماية

ابني وأحفادي، تحولت إلى أفعى بوا متقلصة. «ركزي على زوجك، فلا بد أن هذا الرجل المسكين قد سئم أسرتك»، أضافت أمي. ويللي؟ سئم مني ومن أسرتي؟ لم أفكر في ذلك. ولكن أمي على حق. لقد تحمل ويللي احتضارك وحدادي الطويل اللذين بدّلا شخصيتي وأبعداني عنه لأكثر من سنتين، ثم جاءت مشاكل سيليا، وطلاق نيكو، وتغيبي في رحلات، وانكبابي المهووس على الكتابة التي تبقيني على الدوام بإحدى قدمي في بُعد آخر، ومن يدري أية أشياء أخرى. لقد حان الوقت لأبدأ بإفلات العربة الممتلئة بالناس التي أجرها منذ التاسعة عشرة من عمري، وأن أهتم به أكثر. نفضتُ عني الغم، وألقيت مفتاح بيت نيكو إلى القمامة وقررتُ الابتعاد عن حياته، ولكن دون أن أختفي تماماً. وأعددت في تلك الليلة أحد الأطباق التي يفضلها ويللي، معكرونة عريضة مع القريديس، وفتحت أفضل زجاجة نبيذ أبيض وانتظرته بثوب أحمر. «هل حدث شيء؟» سألني مرتبكاً عند وصوله، وهو يفلت حقيبته الثقيلة لتسقط على الأرض.

لورا تدخل من أوسع الأبواب

كانت هذه فترة تسويات كثيرة في العلاقات الأسرية. أظن أن حاجتي إلى تكوين أسرة والحفاظ عليها، أو بكلمة أدق قبيلة صغيرة، قد وُجدت في منذ أن تزوجتُ وأنا في العشرين؛ وقد ازدادت تلك الحاجة حدة بعد خروجي من تشيلي، ذلك أنه لم يكن لدينا عند وصولنا إلى فنزويلا، مع زوجي الأول والطفلين، أي أصدقاء أو أقرباء باستثناء أبويّ اللذين بحثا كذلك عن ملجأ لهما في كاراكاس. وترسخت حاجتي تلك نهائياً عندما تحولتُ إلى مهاجرة في الولايات المتحدة. وقبل أن أصل أنا إلى قدر ويللي، لم

تكن لديه أدنىٰ فكرة عما هي الأسرة. لقد فقد أباه وهو في السادسة من عمره، وانسحبت أمه إلى عالم روحي خاص لم يجد هو مدخلاً إليه. وكانت تجربتا زواجه السابقتان قد أخفقتا وانطلق أبناؤه منذ وقت مبكر في طريق المخدرات. تكلف ويللي، في البدء، مشقة في فهم هوسي بجمع شمل ابنيّ، والعيش أقرب ما يكون منهما، وضمّ أشخاص آخرين إلى هذه الجماعة الصغيرة لتشكيل أسرة كبيرة مثلما حلمتُ على الدوام. كان ويللي يعتبر ذلك وهماً رومانسياً يستحيل نقله إلى حيز التطبيق، ولكنه خلال السنوات التي أمضيناها معاً، لم يدرك فقط أن هذه هي طريقة العيش المشترك في معظم أنحاء العالم، وإنما نالت إعجابه كذلك. إن للقبيلة مساوئها، غير أن لها فضائلها كذلك. وأنا أفضلها أكثر ألف مرة من الحلم الأمريكي في الحرية الفردية المطلقة التي إن كانت تساعد على الخروج قدماً في هذا العالم، إلا أنها تحمل معها الوحدة والعزلة. لهذه الأسباب، ولكل ما تقاسمناه مع سيليا، شكل فقدانها ضربة قاسية. لقد جرحنا فقدانها جميعنا، وضعضع تماماً الأسرة التي جمعنا شملها بجهد كبير، ولكنني كنت أشعر بافتقادها.

كان نيكو يسعى لإبقاء سيليا بعيدة، ليس لأن ذلك أمر طبيعي بين شخصين مطلقين وحسب، وإنما لإحساسه بأنها تقتحم ميدانه. لم أستطع أن أقدر مشاعرهما، ولم أر أنه عليّ أن أختار أحدهما، فكرت في أن صداقتي لسيليا لا علاقة لها به. لم أمنحه دعمي غير المشروط المفروض عليّ كأم. أحسّ أنني خنته، وأتصور مدى إيلام ذلك له. لم نكن نتكلم بصراحة لأنني كنت أتجنب الحقيقة، وكانت عيناه تغرورقان بالدموع ويعجز عن نطق الكلمات. لقد كان كل منا يحب الآخر كثيراً، ولم يكن بمقدورنا إدارة الوضع الذي سيوصلنا دون مفر إلى جرح أحدنا لمشاعر الآخر. كتب لي نيكو عدة رسائل. فعندما يكون وحيداً

أمام الورقة يتمكن من التعبير عن مشاعره، وأتمكن أنا من سماعه. كم كنا نشعر بافتقادك آنذاك، يا باولا. فقد كنتِ تتمتعين على الدوام بموهبة الوضوح. وأخيراً قررنا الذهاب معاً إلى العلاج النفسي، حيث يمكننا التكلم والبكاء، وإمساك كل منا بيدي الآخر، وتبادل الغفران.

وبينما كنت أنا وأخوك نحاول التعمق في علاقتنا، والتقصي في الماضي وفي حقيقة كل واحد منا، تولت لوري مسؤولية معالجة الجراح التي خلّفها الطلاق فيه؛ جعلته يشعر بأنه محبوب ومرغوب، وأدى ذلك إلى تغييره. كانا يخرجان في مسيرات طويلة، ويذهبان إلى متاحف، ومسارح، وسينما جيدة، عرفته على أصدقائها، وجميعهم تقريباً من الفنانين، وأثارت اهتمامه بالسفر، مثلما فعلت هي منذ شبابها المبكر. ووفرت للأطفال منزلاً هادئاً، مثلما كانت تفعل سالي في البيت الآخر. وقد كتبت آندريا في موضوع إنشاء مدرسي: «امتلاك ثلاث أمهات أفضل من أم واحدة فقط».

خلال سنة أو سنتين، لم يعد مردود مكتب لوري مجدياً. فقد ظن الزبائن أنه يمكن استبدال رؤية الفنان ببرنامج كمبيوتر، وصار آلاف المصممين بلا عمل. كانت لوي واحدة من أفضلهم. وقد قامت بعمل باهر في كتابي ***أفروديت*** الذي استخدم الناشرون في أكثر من عشرين بلداً التصاميم والرسوم التوضيحية نفسها التي اختارتها هي. ولهذا السبب، وليس للسبب الآخر، كان الكتاب محط الاهتمام. فالموضوع لم يكن يستحق أن يؤخذ بجدية، أضف إلى ذلك أنه كان قد أُطلق للتو في السوق عقارٌ جديد يعد بالقضاء على العجز عند الذكور. فلماذا يُدرس منهجي المضحك وتُحضر قواقع بصلصة شفافة إذا كانت حبة زرقاء واحدة كافية؟ لهجة بعض الرسائل التي وصلتني بشأن ***أفروديت*** تختلف بصورة بيّنة عن تلك التي تلقيتها حول ***باولا***. فسيد في السابعة والسبعين دعاني للمشاركة في ساعات من المتعة المكثفة معه ومع جاريته الجنسية،

وأرسل إليّ شاب لبناني ثلاثين صفحة حول منافع الحريم. وكان هذا كله يحدث بينما لا حديث في الولايات المتحدة إلا عن فضيحة الرئيس بيل كلينتون مع موظفة بدينة في البيت الأبيض، وهي الفضيحة التي تمكنت من الاستحواذ على الحكومة، وكلفت الديمقراطيين بعد ذلك الانتخابات. وتوصل ثوب أو سروال داخلي ملطخ إلى إحراز ثقل في السياسة الأمريكية أكبر من الإدارة الاقتصادية والسياسية والدولية لأحد أكثر الرؤساء الذين عرفتهم البلاد تألقاً. وقد أثارت القضية تحقيقات قانونية جديرة بمحاكم التفتيش، كلفت دافعي الضرائب مبلغاً تافهاً مقداره واحد وخمسون مليون دولار. وقد شاركت في تلك الأثناء برنامجاً إذاعياً يُبث مباشرة ويتلقى اتصالات المستمعين. وقد سألني أحدهم عن رأيي في القضية، فقلت إنها عملية المص الأعلى كلفة في التاريخ. وقد ظلت هذه الجملة تلاحقني لسنوات عديدة. كان من المستحيل إخفاء ما يحدث عن الأطفال، لأن أدق التفاصيل الفضائحية كانت تظهر منشورة على الملأ.

ـ ما هو الجنس الفموي؟ ـ سألت نيكول عن المصطلح الذي سمعته حتى التخمة في التلفزيون.

ـ فموي؟ يعني عندما يتكلم أحدهم عن الفم ـ أجابتها آندريا التي تمتلك معجماً واسعاً من المفردات وفرتها لها المطالعة الجيدة.

وفي تلك الأيام، قررت إحدى المجلات إبراز كتابي بتحقيق صحفي تجريه في بيتنا، وكان على لوري أن تتولى الإشراف على الأمر، لأني لم أفهم ما الذي يرمون إليه. وقبل ثلاثة أيام من الموعد، حضر فنيان لقياس درجة الإنارة، وإعداد نماذج ملونة، وقياس الأبعاد، والتقاط صور فورية. ومن أجل التحقيق حضر سبعة أشخاص في شاحنتين صغيرتين ومعهم أربعة عشر صندوقاً ممتلئة بأشياء متنوعة، ابتداء من السكاكين وحتى مصفاة شاي. مثل هذه المداهمات تحدث لي بكثرة، ولكنني لم أعتد عليها قط. وفي هذه

المرة كان فريق العمل يضم منسقة وشيفيّ طهاة، احتلوا مطبخ البيت كي يُعدّوا وجبة مستوحاة من كتابي. كانوا يعدّون الأطباق ببطء مذهل، فقد كانوا يضعون كل ورقة خس كما لو أنهم يثبتون ريشة قبعة، في الزاوية الدقيقة بين قطعة البندورة والهليون. أصبح ويللي عصبياً جداً إلى حدّ غادر معه البيت، ولكن لوري كانت تدرك كما يبدو أهمية ورقة الخس اللعينة. وفي أثناء ذلك، كانت المنسقة تستبدل زهور الحديقة التي زرعها ويللي بيديه، بأخرى أكثر زهواً. لم يظهر شيء من ذلك كله في المجلة، لأن الصور كانت لقطات قريبة تفصيلية: نصف صدفة بحرية وقطعة ليمون. سألت لماذا أحضروا الفوط اليابانية، والمغارف المصنوعة من قواقع السلاحف، والمصابيح الفينسية، غير أن لوي وجهت إليّ نظرة ذات مغزى كي أصمت. استمر ذلك النهار كله، ولأنه لم يكن بمقدورنا الهجوم على الطعام قبل تصويره، فقد شربنا خمس زجاجات نبيذ أبيض وثلاث زجاجات نبيذ أحمر على معدة فارغة. وأخيراً، حتى المنسقة نفسها صارت تمشي متعثرة. أما لوري التي لم تشرب سوى شاي الياسمين، فكان عليها أن تحمل الأربعة عشر صندوقاً وتعيدها إلى الشاحنة.

❖ ❖ ❖

تمكنت لوري من تجاوز الضائقة لوقت أطول من مصممين آخرين، ولكن جاء يوم لم يعد ممكناً فيه تجاهل الأرقام الحمراء في دفتر حساباتها. عندئذ عرضتُ عليها أن تتولى شؤون المؤسسة التي أسستها فور عودتي من الهند، بوحي من تلك الطفلة تحت شجرة الأكاسيا، وهو عملٍ كانت تقوم بنصفه منذ بعض الوقت. في كل سنة أخصص جزءاً من دخلي للمؤسسة، وفقاً لتلك الخطة المسلية التي خطرت لي لعمل الخير، وأمولها من مبيعات كتبي. في تلك السنة التي قضيتِها نائمة، يا بنتي، علمتِني الكثير؛ فبينما كنتِ مشلولة وبكماء، ظللتِ معلمة لي، مثلما كنتِ خلال ثمانية

وعشرين عاماً من حياتك. قلة من الناس تتاح لهم الفرصة التي وفرتها لي بالبقاء هادئة وصامتة، متذكرة. استطعتُ أن أراجع ماضيّ، وأن أدرك من أنا في الجوهر، وعندها تخلصتُ من زهوي، وقررت كيف أرغب أن أكون خلال السنوات المتبقية لي في هذا العالم. لقد استحوذتُ على شعارك: «المرء لا يملك إلا ما يعطيه» واكتشفتُ، متفاجئة، أن هذا هو حجر الأساس في سعادتي. لوري تتمتع بنزاهتك ورحمتك نفسيهما؛ ويمكنها إنجاز هدف «العطاء حتى الشعور بالألم»، مثلما اعتدتِ القول. جلسنا إلى منضدة جدتي السحرية للتحدث طوال أيام، إلى أن وُضعت اللمسات الأخيرة على مهمة واضحة: مساندة أشد النساء فقراً بأي وسيلة في متناول يدنا. أشد المجتمعات تخلفاً وبؤساً هي تلك التي تكون النساء فيها مذعنات. وإذا ما تمت مساعدة امرأة، فلن يتعرض أبناؤها للموت جوعاً، وإذا ما ارتقت الأسر، فسوف تستفيد القرية، ولكن هذه الحقيقة باهرة الوضوح مجهولة في عالم محبي البشر، حيث مقابل كل دولار يخصص لبرامج النساء، يُقدم عشرون دولاراً للرجال.

أخبرت لوري بأمر المرأة التي رأيتها تبكي، ملتحفة كيس قمامة في الجادة الخامسة، وبتجربة تابرا حديثة العهد التي رجعت لتوها من بنغلاديش، حيث تنفق مؤسستي على مدارس للبنات في قرى نائية، وعلى عيادة صغيرة للنساء. لقد ذهبت تابرا مع طبيبة صحة أسنان صديقة لها، ترغب في تقديم خدماتها خلال أسبوعين في العيادة. ملأتا الحقائب بأدوية، وحقن، وفراشي أسنان، وأي مساعدة استطاعتا الحصول عليها من أطباء الأسنان الأصدقاء. وما كادتا تصلان إلى القرية حتى كان هناك صف طويل من المريضات على باب العيادة، وهي فناء مسور حار يملؤه الذباب، حيث لا يوجد إلا القليل جداً إضافة إلى الجدران. كان عدد من أضراس المريضة الأولى مصاباً بالنخر إلى حد التعفن، وكانت مجنونة من الألم المتواصل منذ شهور. عملت تابرا كمساعدة، بينما تولت صديقتها

التي لم تقلع أضراساً من قبل، تخدير فم المريضة بيد مرتجفة، ثم بادرت بعد ذلك إلى قلع الأضراس المصابة، محاولة ألا يُغمى عليها خلال العملية. وعندما انتهت قبّلت لها المرأة التعيسة يديها ممتنة ومرتاحة. وقد عالجتا في ذلك اليوم خمس عشرة مريضة، وقلعتا تسعة أضراس وعدة أسنان، بينما رجال القرية يراقبون في دائرة ضيقة ويعلقون. وفي صباح اليوم التالي حضرت تابرا وطبيبة صحة الأسنان في وقت مبكر إلى العيادة المرتجلة، ووجدتا مريضة اليوم السابق الأولى متورمة الوجه مثل بطيخة. وكان يرافقها زوجها الذي راح يصرخ غاضباً بأنهما دمرتا زوجته، وأن رجال القرية قد بدؤوا بالتجمع للانتقام. أصيبت طبيبة الصحة بالهلع، وقدمت للمرأة مضادات حيوية ومسكّنات، متوسلة إلى السماء ألا تكون للحالة نتائج مميتة. «ما الذي فعلتُه؟ إنها مشوهة!»، راحت تئن بعد أن انصرف الزوجان. فأوضح لها الشخص الذي يقوم بالترجمة: «لم تكن العملية هي السبب. فزوجها تلقاها بالصفعات في الليل لأنها لم تصل في الوقت المناسب لتعدّ له الطعام».

ـ هكذا هي حياة معظم النساء، يا لوري. إنهن أفقر الفقراء على الدوام؛ يقمن بثلاثة أرباع العمل في العالم، ولكنهن لا يملكن إلا أقل من واحد بالمئة من الثروات ـ أوضحتُ لها.

كانت المؤسسة قد وزعت أموالاً حتى ذلك الحين في استجابة للدوافع أو انصياعاً لضغوط قضية عادلة، ولكنها، بفضل لوري، أقرت أولويات: التعليم، باعتباره الخطوة الأولى إلى التحرر بكل المعاني؛ والحماية، لأن هناك الكثير من النساء المحاصرات بالخوف؛ والصحة، التي لا يمكن لما سبق من دونها إلا أن يكون ضئيل الجدوى. وأضفتُ بند التحكم بالنسل، وهو أمر جوهري في نظري، لأنه ما لم تتمكن المرأة من تقرير شيء أساسي مثل عدد الأبناء الذين ستنجبهم، فإنها لن تتمكن من عمل شيء مما فعلتُه.

ولحسن الحظ أن تم اختراع حبوب لمنع الحمل، وإلا كنتُ أنجبت دزينة من الأبناء.

شُغفت لوري بالعمل في المؤسسة، وأثبتت في أثناء ذلك أنها ولدت من أجل هذا العمل. فلديها مُثل عليا، وهي منظمة، وتدقق حتى في أصغر التفاصيل، ولا تتجنب بذل الجهد، وهو كثير في هذه الحالة. بيّنت لي أن المسألة ليست في توزيع نقود بمروحة، وأنه لا بد من تقويم النتائج ودعم المشاريع لسنوات؛ فهذه هي الطريقة الوحيدة لجعل المساعدة مفيدة. وعلينا كذلك أن نركّز، لأنه لا يمكننا إلصاق رقع في أماكن نائية لا يراقبها أحد، أو التصدي لما يفوق إمكاناتنا، فمن الأفضل تقديم دعم أكبر لعدد أقل من المنظمات. وخلال سنة بدّلت لوري هيكلية المؤسسة واستطاعت أن تتولى بنفسها كل شؤونها، ولم تعد تطلب مني شيئاً سوى توقيع الشيكات. لقد أنجزت عملها بصورة باهرة، بحيث لم تضاعف المساعدة للسيدات، وإنما كذلك رأس المال، وهي تدير الآن مبالغ من الأموال لم نتخيلها قط. وكل ذلك مخصص للمهمة التي وضعناها نصب أعيننا، منجزين بذلك خطتكِ، يا باولا.

الفرسان المغول

في منتصف تلك السنة رأيت حلماً مثيراً ودونته كي أرويه لأمي، مثلما نفعل أنا وهي عادة. ليس هناك ما هو أشد ضجراً من سماع أحلام الآخرين؛ ولهذا السبب يتقاضى الأطباء النفسانيون غالياً. والأحلام في حالتنا أساسية، لأنها تساعدنا في فهم الواقع وفي أن تُخرج إلى الضوء ما هو مدفون في كهوف الروح. كنت أقف عند حافة جرف نحتته الرياح، يطل على شاطئ ذي رمال بيضاء، وبحر قاتم، وسماء صافية بلون النيلة. وفجأة، في أعلى

الجرف، ظهر حصانان حربيان هائلان مع فارسيهما. وكانت البهيمتان والرجلان بزينات وملابس محاربين آسيويين قدماء ـ من منغوليا، أو الصين، أو اليابان ـ، مع رايات حريرية، وشراشيب وحواشي ورياش وزينات نبالة، تجيهزات حربية بديعة تتلألأ تحت الشمس. وبعد لحظة من التردد على حافة الهاوية، رفع الحصانان قوائمهما الأمامية وصهلا، وبقفزة ملائكة اندفعا نحو الفراغ، مشكلين في السماء قوساً واسعاً من الأقمشة، والرياش، والبيارق، بينما كنتُ أحبس أنفاسي أمام مرأى ذينك السنطورين. لقد كان عملاً طقوسياً وليس انتحاراً، عرض بسالة وبراعة. وقبل لحظات من ملامسة الأرض، أحنى الحصانان عنقيهما وسقطا على أحد الكتفين، تكورا وتدحرجا على نفسيهما مثيرين سحابة من غبار ذهبي. وعندما هدأ الغبار والجلبة، نهض الجوادان على قوائمهما بحركة كاميرا بطيئة، والفارسان على صهوتيهما، وابتعدا يعدوان على الشاطئ باتجاه الأفق. بعد أيام من ذلك، وكانت تلك الصور لا تزال طازجة في ذهني، أحاول أن أجد لها تفسيراً، التقيت بمؤلفة كتب عن الأحلام. فقدمت لي تفسيرا، وكان مشابهاً لما قالته أصداف المنجمة الودع في البرازيل: انهيار مديد ومأساوي وضع شجاعتي على المحك، ولكنني تمكنت من النهوض، ومثل الحصانين، نفضتُ الغبار عني واندفعت أعدو نحو المستقبل. لقد كان الحصانان في الحلم يتقنان التدحرج، والفارسان لم يفلتا مطيتيهما. وهذا يعني حسب رأيها أن المحن السابقة قد علمتني السقوط، ويجب ألا أخشى شيئاً، لأنني سأتمكن من النهوض دائماً. وقالت لي: «تذكري هذين الحصانين كلما شعرتِ بالوهن».

تذكرتُ ذلك بعد يومين، عند عرض افتتاح عمل مسرحي مقتبس من كتابي *باولا*.

في الطريق إلى المسرح مررنا بمعرض فولسوم، في سان فرانسيسكو. لم يخطر ببالنا أن ذلك اليوم هو كرنفال

السادومازوشيين: شوارع وشوارع مكتظة بأناس يرتدون أشد أشكال الملابس غرابة. «الحرية! الحرية لعمل ما أريد، اللعنة!»، كان يصرخ رجل طيب يرتدي عباءة كاهن مفتوحة من أمام لإظهار حزام عفة يلبسه. أشكال من الوشم، والأقنعة، وقبعات الثوريين الروس، والسلاسل، والسياط، والمسوح مختلفة الأنواع. النساء يظهرن بشفاه وأظفار مطلية بالأسود أو الأخضر، وبجزمات ذات كعوب إبرية، وأربطة وأحزمة بلاستيكية سوداء، وباختصار، كل رموز هذه الثقافة الغريبة. كانت هناك عدة بدينات هائلات يتعرقن في بناطيل وجزمات من الجلد مع صلبان معقوفة ووشم جماجم. سيدات وسادة يضعن أقراط حلقات أو أشواك تخترق أنوفهم، وشفاههم، وآذانهم، وحلمات أثدائهم. لم أتجرأ على النظر إلى ما هو أخفض من ذلك. وعلى مقدمة سيارة من سنوات الستينيات، كانت تجلس شابة مكشوفة الصدر ومقيدة اليدين، بينما امرأة ترتدي زي مصاص دماء تجلدها مقرعة حصان على نهديها وذراعيها. لم يكن مزاحاً، فقد كانت مغطاة بالرضوض والكدمات، وصرخاتها تُسمع في الحي كله. وكان ذلك كله يجري أمام أعين شرطيين مستمتعين وعدد من السائحين المنهمكين في التقاط الصور. أردتُ التدخل، لكن ويللي أمسكني من سترتي، وحملني، وأخرجني من هناك وأنا أرفس في الهواء. وعلى مسافة نصف كوادرا رأينا مارداً ذا كرش ضخم يقود قزماً مربوطاً بحزام وطوق كلب. وكان القزم، مثل سيده، يمضي بجزمة حربية، وعارياً باستثناء لباس من جلد أسود مع تبشيمات معدنية، مثبت بأحزمة غير مرئية محشورة في خط انتصاف مؤخرته. نبح الصغير علينا، أما المارد فحيانا بلطف شديد وقدم لنا مصاصات حلوى على شكل عضو ذكري. أفلتني ويللي وراح يتأمل ذلك الثنائي وهو فاغر الفم: «إذا ما كتبتُ يوماً رواية فسوف يكون هذا القزم هو بطلي»، قال بصورة غير متوقعة.

العمـل المسرحي *باولا* ، بـدأ بـالممثلين وهـم يقفـون فـي دائـرة، ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً ، يستدعون روحك. كان المشهد مؤثراً حتى إن ويللي أيضاً لم يستطع منع نفسه من البكاء عندما قرؤوا فـي النهايـة الرسـالة الـتي كتبتِهـا «لتفـتح عنـدما أمـوت». راقـصة أثيريـة ولطيفة، ترتـدي قميصاً أبيض، قامت بـدور البطولـة. وكانـت تظهـر فـي بعـض الأحيـان مستلقية علـى حمالـة، فـي غيبوبـة، وفـي أحيـان أخرى تتراقص روحها بين الممثلين. لم تتكلم إلا فـي النهايـة، كـي تطلب من أمها أن تساعدها على الموت. أربع ممثلات جسدن لحظات مختلفة من حياتي، مذ كنت طفلة حتى صرت جدة، يتناقلن من يد إلى يـد شـالاً أحمـر يرمـز إلى الراويـة. وأدى ممثـل واحـد دور إرنـستو وويللي؛ وآخر كان العم رامون، وقد انتزع ضحكات الجمهور وهـو يبـوح بحبـه لأمـي، أو يوضـح كيـف أنـه يتحـدر مباشـرة مـن يـسوع المسيح، وانظروا قبر خيسوس هويدوبرو في المقبرة الكاثوليكية في سنتياغو. خرجنـا مـن المسرح بصمت موقنين أنـكِ مازلـتِ طافيـة بـين الأحياء. هل تصورتِ يوماً أنكِ ستؤثرين بكل هذه الأعداد من الناس؟

في اليوم التالي ذهبنا إلى غابة رمادكِ لنحييك ونحيي جنيفر. كـان الـصيف قـد انتهـى، وكانـت الأرض مفروشـة بـأوراق يابسة تطقطـق، وقـد اكتست بعـض الأشـجار بـألوان الحـظ، ابتـداء مـن النحاسي القاتم حتى الذهبي اللامع، وكان الجو يشير إلى اقتراب أول الأمطـار. جلسنا علـى جذع شجرة سيكويّا فـي المـصلى الـذي تشكله قمم الأشجار. كان هناك سنجابان يلعبان بثمرة بلوط عند أقدامنا، وينظران إلينا بطرف أعينهما دون خوف. استطعتُ رؤيتكِ معافاة، قبل أن يُلحق المرض بكِ الأذى: رأيتكِ في الثالثة من عمرك، ترقـصين فـي جنيـف، وفـي الخامسة عـشرة تـتلقين شـهادة، وفـي الـسادسة والعـشرين بثـوب الزفـاف. حـصانا حلمـي اللـذان يـسقطان ويعودان للنهوض وردا إلى ذهني، لأنني وقعتُ وعدت للنهوض مـرات كثيرة في الحياة، ولكن أي سقوط لم يكن بقسوة موتكِ.

حفلة زفاف تاريخية

في شهر كانون الثاني 1999، بعد سنتين من أول ليلة أمضياها معاً، تزوج نيكو ولوري. كانت هي قد قاومت فكرة الزواج حتى ذلك الحين، لأن الزواج لا يبدو لها ضرورياً. أما هو فقدر أن الأطفال قد مروا باضطرابات كثيرة وزواجهما سيُشعرهم بمزيد من الطمأنينة. فقد اعتادوا على رؤية سيليا وسالي معاً على الدوام، ولم يكن حبهما موضع نقاش، ولكنني أظن أنهم يخشون أن تهرب لوري منهم عند أول سهو. وقد كان نيكو على حق، فالصغار هم الذين احتفوا بالقرار أكثر من الجميع. «الآن ستبقى لوري معنا وقتاً أطول»، قالت لي آندريا. يقال إن التعود على دور زوجة الأب يحتاج إلى ثماني سنوات، والحالة الأشد صعوبة هي المرأة التي ليس لها أبناء، وتدخل حياة رجل أب لأبناء. لم يكن من السهل على لوري تغيير حياتها وتقبل الأطفال؛ كانت تشعر بأنها مقتحمة. ومع ذلك، تولت مسؤولية المهمات غير المرغوبة، ابتداء من غسل الثياب وحتى شراء أحذية لآندريا التي لا تستخدم إلا صنادل بلاستيكية خضراء، ولكن ليس أي نوع من الصنادل، بل يجب أن يكون من تايوان. وكانت تقتل نفسها في العمل كي تقوم بدور الأم الكاملة، دون أن تخطئ في تفصيل واحد. ولكن، لم يكن عليها أن تجهد نفسها إلى ذلك الحد، لأن الأطفال يحبونها على أي حال للأسباب نفسها التي جعلتنا جميعنا نحبها: ضحكتها، حنانها غير المشروط، مزاحها الودي، شعرها المشعث، طيبة قلبها الهائلة، وطريقة حضورها القوي في السراء والضراء.

جرى الزفاف في سان فرانسيسكو؛ في حفلة بهيجة انتهت بدرس سوينغ جماعي، وهي المرة الوحيد التي رقصنا فيها أنا وويللي معاً منذ تلك التجربة المذلّة مع المدربة الاسكندنافية. وكان ويللي، ببدلة السموكينغ، يشبه بول نيومان في أحد أفلامه، وإن كنت لا

أتذكر أي فيلم منها. حضر إرنستو وغيليا من نيوجرسي؛ والجدة هيلدا وأبواي من تشيلي، ولم يأت جيسون لأن لديه عملاً. كان لا يزال وحيداً، وإن لم يكن يفتقر إلى نساء لليلة واحدة. وقد كان يبحث، حسب قوله، عن أحد جدير بالثقة مثل ويللي.

تعرفنا على أصدقاء لوري الذين جاؤوا من الجهات الأربع. ومع مرور الزمن تحول بعضهم إلى أفضل أصدقاء ويللي وأصدقائي، على الرغم من فارق السن. في ما بعد، عندما سلّمونا صور الحفلة، انتبهت إلى أنهم جميعهم يبدون كموديلات مجلات؛ فأنا لم أرَ قط جماعة من الناس بمثل ذلك الجمال. تبين أن معظمهم فنانين موهوبين وبلا مزاعم: إنهم مصممون، رسامون، رسامو كاريكاتير، مصورون، سينمائيون. وسرعان ما صرنا أنا وويللي صديقين لأبوي لوري اللذين لم يريا في تجسيداً للشيطان، مثلما جرى لي مع أبوي سيليا، بالرغم من أنني اقترفت، عند رفع النخب، عدم الحكمة بالتلميح إلى غرام ابنينا الجسدي. وهو ما لم يغفره لي نيكو حتى الآن. آل بارّا أناس يتميزون بالبساطة والمودة، وهم من أصل إيطالي، يعيشون منذ أكثر من خمسين سنة في البيت الصغير نفسه في بروكلين، حيث ربوا أبناءهم، على مسافة كوادرا واحدة من منازل رجال المافيا القديمة التي تتميز عن بيوت الحي الأخرى بنوافير الرخام، والأعمدة الإغريقية، وتماثيل الملائكة. كانت الأم لوسيل، آخذة بفقدان البصر شيئاً فشيئاً، ولكنها لا تولي أهمية لذلك، ليس بدافع الكبرياء، وإنما كي لا تزعج أحداً. إنها تتحرك بصورة صائبة داخل بيتها الذي تعرفه عن ظهر قلب، وليس هناك من يضاهيها في مطبخها؛ حيث مازالت تحضّر باللمس وصفات الطعام المتوارثة جيلاً بعد جيل. وزوجها توم، وهو جد حكايات، عانقني بمودة بريئة.

ـ لقد صليت كثيراً من أجل أن يتزوج نيكو ولوري ـ اعترفَ لي.

ـ كي لا يواصلا العيش في الخطيئة؟ ـ سألته مازحة، وكنت قد عرفت أنه كاثوليكي ممارس.

ـ أجل، ولكن من أجل الأطفال قبل أي شيء آخر ـ أجابني بجدية مطلقة.

قبل أن يتقاعد، كان توم يملك صيدلية صغيرة في الحي. وقد دربه ذلك على الجهد والخوف، إذ تعرض للسطو عدة مرات. ومع أنه لم يعد شاباً، إلا أنه يواصل إزاحة الثلج في الشتاء، ويتسلق سلماً كي يطلي السقوف في الصيف. وقد صارع دون هوادة ضد مستأجرين غريبي الأطوار شغلوا على التوالي، وطوال سنوات، الطابق الأول من البيت، مثل رافع أثقال كان يهدده بمطرقة. ومهووس يراكم الصحف من الأرض حتى السقف، ويكاد لا يترك سوى طريق نمل يصل إلى باب الحمام، ومن هناك إلى السرير. أو شخص ثالث انفجر ـ لا تخطر لي كلمة أخرى لوصف ما حدث ـ وخلّف الجدران مغطاة بالبراز والدم وأجهزة الجسم، وكان على توم أن ينظف ذلك كله. لم يستطع أحد تفسير ما حدث، لأنه لم يُعثر على آثار متفجرات، ولكنني أتصور أنه يجب أن يكون ظاهرة احتراق ذاتي. وعلى الرغم من هذه التجارب المشؤومة وغيرها، يحتفظ توم ولوسيل بثقة بالبشرية لم تُمس.

أما سابرينا التي صارت في الخامسة من عمرها، فرقصت طوال تلك الليلة متعلقة بأشخاص مختلفين، بينما أماها النباتيتان تستغلان الفرصة لتقضما خفية قطعاً من لحم الخنزير والخراف. قدم نيكو خاتمي الزفاف وهو ببدلة وربطة عنق حفار قبور، ترافقه آندريا ونيكول بثياب أميرات ذات لون عنبري خالص، في تضاد مع فستان زفاف العروس النبفسجي الطويل، وقد بدت تبدو متألقة. وكان نيكو مزهواً، يرتدي الأسود، وقميصاً له ياقة ماو، وشعره مربوط فوق رقبته، ويشبه أكثر من أي وقت آخر فلورنسياً من العام ألف وخمسمئة. لقد كانت نهاية من تلك النهايات التي لا يمكن لي أن أضعها في رواياتي: تزوجا ومضيا سعيدين. وهذا ما أعربت عنه لويللي بينما كان يرقص *سوينغ* وأنا أحاول مجاراته.

فالرجل يقود، مثلما كانت تقول تلك الاسكندينافية.

- يمكنني الآن أن أموت هنا بالذات بسكتة قلبية، لقد أنجزتُ عملي في هذا العالم: رتبت وضع ابني - قلت له.

- إياك أن تفكري في هذا، فالآن هو الوقت الذي سيحتاج فيه إليكِ - أجابني.

مع اقتراب نهاية الليلة، عندما بدأ المدعوون بالوداع، تجرجرتُ زحفاً تحت منضدة يغطيها شرشف طويل برفقة عشرة أطفال مخمورين بالحلوى والسكاكر، ومتهيجين بالموسيقى، وممزقي الملابس من كثرة التقلب. فقد شاع بينهم أنني أعرف كل الحكايات، ويكفي أن يُطلب مني روايتها. وأرادت سابرينا أن تكون الحكاية عن حورية. فحكيت لهم عن تلك الحورية الصغيرة جداً التي سقطت في كأس ويسكي، فابتلعها ويللي وهو غافل. وصف رحلة تلك المخلوقة عاثرة الحظ عبر أحشاء الجد، وإبحارها وسط الكثير من التقلبات المفاجئة في جهاز الهضم، حيث تواجهها كل أنواع العوائق والمخاطر المقززة، ووصولها أخيراً إلى البول، لتخرج وتجد نفسها في مجرور، ومن هناك إلى خليج سان فرانسيسكو، أصابهم بالبكم من الدهشة. وفي اليوم التالي جاءت نيكول بعينين زائغتين لتقول لي إن قصة الحورية لم تعجبها أبداً. وسألتني:

- هل هي حكاية حقيقية؟

- ليس كل ما فيها حقيقي، وليس كل شيء زائف أيضاً.

- كم هو الزائف وكم هو الحقيقي؟

- لا أدري، يا نيكول. جوهر القصة حقيقي، وهذا هو المهم في عملي كراوية حكايات.

- الحوريات لا وجود لهن، ولهذا كل ما في قصتك كذب.

- وكيف تعرفين أنت أن هذه الحورية لم تكن جرثومة، مثلاً؟

- الحورية هي حورية، والجرثومة جرثومة - ردت عليّ حانقة.

إلى الصين بحثاً عن الحب

تقبل تونغ دعوة اجتماعية أول مرة خلال ثلاثين سنة من عمله كمحاسب في مكتب ويللي. كنا قد توصلنا إلى القناعة بعدم دعوته، لأنه لا يأتي أبداً، غير أن زفاف نيكو ولوري كان حدثاً مهماً حتى بالنسبة لرجل انطوائي مثله. «وهل الحضور إجباري؟»، سألنا. وردت عليه لوري بنعم، وهو ما لم تجرأ أحد على عمله من قبل. وقد حضر وحده، لأن زوجته، وبعد سنوات وسنوات من النوم في الفراش نفسه دون تبادل الكلام، طلبت منه الطلاق. وقد فكرتُ أنه بعد النجاح الذي حققته مع نيكو ولوري صار بإمكاني البحث عن عروس لتونغ أيضاً؛ ولكنه أخبرني أنه يريدها صينية، وأنا ليست لدي أية اتصالات مع هذه الجالية. وكانت لدى تونغ فرصة أن تشيناتاون في سان فرانسيسكو هي أكبر وأشهر حي صيني في الغرب، ولكنني عندما اقترحت عليه أن يبحث هناك، أوضح أنه يريد امرأة غير ملوثة بالولايات المتحدة. كان يحلم بزوجة مذعنة، عيناها مصوبتان إلى الأرض، تطبخ له أطباقه المفضلة، وتقلم أظفاره، وتمنحه ابناً ذكراً، وتخدم في أثناء ذلك حماتها كجارية. لا أدري من الذي أدخل في رأسه تلك الأوهام؛ أعتقد أنها أمه، تلك العجوز الضئيلة التي نرتجف جميعنا أمامها. «وهل تظن أنه بقيت نساء كهذه في هذا العالم، يا تونغ؟»، سألته حائرة. وكان جوابه أن اقتادني إلى شاشة كمبيوتره وأراني قائمة لا نهاية لها من الصور والمواصفات لنساء مستعدات للزواج بأشخاص مجهولين للهرب من بلادهم أو أسرهم. كن مصنفات حسب العرق، والجنسية، والديانة، وكذلك بمقياس حمالة صدورهن إذا اقتضى الأمر. لو أنني كنت أعلم بوجود هذا السوبرماركت للعروض النسائية، لما كنت تحملت كل ذلك الغم من أجل نيكو. ولكنني أرى، بعد التأمل جيداً، أن عدم معرفتي بذلك كانت أفضل، لأنني

ما كنت سأجد لوري أبداً في مثل تلك القوائم.

تحولت عروس تونغ المستقبلية إلى مشروع طويل ومعقد في المكتب. في أثناء ذلك كنا نتقاسم مبنى ماخور ساوساليتو القديم بالعدل، بين مكتب محاماة ويللي، ومكتبي في الطابق الأول؛ ولوري في الطابق الثاني، حيث تدير المؤسسة. وكانت لمسة لوري الأنيقة قد بدلت أيضاً هذا البيت الذي يتألق الآن بملصقات لكتبي في إطارات، وسجاجيد تيبيتية، وأصص خزفية بيضاء وزرقاء للنباتات، ومطبخ كامل لا يُفتقد فيه ما هو ضروري لتقديم فنجان شاي بخدمة تعادل خدمة سافوي. انهمك تونغ بمهمة اختيار المرشحات اللواتي كنا ننتقدهن: هذه لها عينا امرأة خبيثة، وهذه إنجيلية، وهذه تتبرج مثل مومس، الخ. لم نسمح للمحاسب أن يُخدع بالمظاهر، ذلك أن الصور تكذب، مثلما يعرف هو نفسه على أحسن وجه، بعد أن حسنت لوري عدداً من صوره بوساطة الكمبيوتر، فجعلته أطول قامة، وأكثر شباباً، وأشد بياضاً، وهي على ما يبدو ملامح مرغوبة في الصين. وقد استقرت أم تونغ في المطبخ لتقارن إشارات الأبراج عندما ظهرت فجأة صورة شابة ممرضة من كانتون بدت لنا جميعنا مثالية جداً. ذهبت الأم لاستشارة فلكي حكيم في تشيناتاون، وقد أعطى موافقته أيضاً. كانت تبتسم في الصورة فتاة بخدين أحمرين وعينين حيويتين، ووجه يبعث على الرغبة في تقبيله.

بعد مراسلات رسمية استمرت عدة أشهر بين تونغ والفتاة الافتراضية، أعلن ويللي أنهما سيذهبان معاً إلى الصين للتعرف عليها. لم أستطع الذهاب معهما لأنه كان لدي عمل كثير، مع أني كنت أموت فضولاً. طلبتُ من تابرا أن تبقى معي لأنني لا أحب النوم وحدي. وكانت صديقتي قد تمكنت من النهوض بتجارتها من جديد. ولم تعد تعيش معنا، ووجدت بيتاً صغيراً مع فناء يطل على هضاب ذهبية، حيث يمكنها أن تنمي وهم العزلة الذي طالما رغبت فيه. لا بد أن التعايش مع قبيلتنا كان عذاباً لها هي التي تحتاج إلى

الوحدة، ولكنها وافقت على مرافقتي خلال غياب زوجي. كانت تابرا قد تخلت، لبعض الوقت، عن البحث عن رجال في مواعيد غير متبصرة، لأنها تعمل نهاراً وليلاً لتخرج من ديونها، ولكنها لم تتوقف قط عن انتظار الحرذون المجنح الذي اعتاد أن يظهر في الأفق. ففجأة يأمرها صوته المسجل في حافظة الهاتف: «إنها الرابعة والنصف بعد الظهر، اتصلي بي قبل الخامسة وإلا لن تريني أبداً». فتصل تابرا إلى البيت في منتصف الليل، منهكة من العمل، وتجد هذه الرسالة اللطيفة التي تشوشها لأسابيع. لحسن الحظ أن عملها كان يضطرها إلى السفر، وكانت تقضي فترات في بالي، والهند وأماكن أخرى نائية، وترسل لي من هناك رسائل قصيرة ممتعة، مترعة بالمغامرات، ومكتوبة بتلك السخرية المتدفقة التي تميزها.

- اكتبي كتاب رحلات، يا تابرا - رجوتها عدة مرات.

ـ أنا فنانة، ولست كاتبة ـ عرّفت بنفسها ـ ولكن إذا استطعتِ أنتِ صنع عقود، فأعتقد أنني سأتمكن من تأليف كتاب.

حمل ويللي معه إلى الصين حقيبة كاميراته ورجع ببعض الصور الجيدة، وخاصة صور أشخاص، وهو أكثر ما يهمه. وكالعادة، فإن أهم الصور هي تلك التي لم يتمكن من التقاطها. وفي قرية منغولية نائية، ذهب إليها وحيداً لرغبته في منح تونغ فرصة قضاء بضعة أيام مع الفتاة دون أن يكون شاهداً عليهما، رأى هناك سيدة عمرها مئة سنة، بقدمين ملفوفتين بالأربطة، مثلما كانوا يفعلون بالطفلات في ذلك الجزء من العالم. اقترب ليسألها بالإشارة إذا ما كان بمقدوره التقاط صورة لقدميها الصغيرتين «الزنابق الذهبية»، فهربت العجوز مولولة بأقصى سرعة تتيحها قدماها المشوهتان؛ فهي لم ترَ أحداً من قبل له عينان زرقاوان، وظنت أنه الموت قد جاء لأخذها.

كانت الرحلة ناجحة، حسب قول زوجي، لأن عروس تانغ المستقبلية كاملة، فهي ما كان يبحث عنه المحاسب بالضبط:

خجولة، وديعة، وجاهلة بالحقوق التي تتمتع بها النساء في الولايات المتحدة. وتبدو معافاة وقوية البنية، ومن المؤكد أنها قادرة على منحه الابن الذكر المنشود. كان اسمها ليلي، وتكسب عيشها كممرضة غرفة عمليات، تعمل ست عشرة ساعة في اليوم، وستة أيام في الأسبوع، مقابل راتب يعادل مئتي دولار في الشهر. «إنها محقة في الخروج من هناك»، علق ويللي، كما لو أن العيش مع تونغ وأمه سيكون أكثر راحة.

أزمنة عاصفة

تأهبتُ للتمتع ببضعة أسابيع من الوحدة، وفكرتُ في استغلالها في الكتاب الذي بدأت بكتابته أخيراً عن كاليفورنيا في أزمنة حمى الذهب. وكنتُ أؤجله منذ أربع سنوات. كان العنوان جاهزاً لدي، *ابنة الحظ*، وجبل من الأبحاث التاريخية، بما في ذلك صورة الغلاف. البطلة هي شابة تشيلية، إلزا سومرز، مولودة في حوالي العام 1833، تصمم على اللحاق بحبيبها الذي انطلق إلى جنون الذهب. إن مغامرة بهذا الحجم، بالنسبة لآنسة من ذلك العصر، هي أمر لا يمكن التفكير فيه، ولكنني أظن أن النساء قادرات على اجتراح المآثر في سبيل الحب. ما كان ليخطر ببال إلزا أن تجتاز نصف العالم بدافع الحصول على الذهب، ولكن الرجل لم يتردد في عمل ذلك. غير أن خططي في الكتابة بسلام لم تتحقق، لأن نيكو أصيب بالمرض. فمن أجل قلع ضرسيّ عقل، كان لا بد من تخديره تخديراً عاماً لدقائق، وهو أمر خطر على مرضى البورفيريا. نهض عن كرسي طبيب الأسنان، ومشى حتى قاعة الانتظار، حيث كانت لوري بانتظاره، وأحس أن الدنيا صارت سوداء. تراخت ركبتاه، وسقط إلى الوراء متيبساً مثل حطبة، وارتطم قذاله وظهره

بالجدار. ظل على الأرض مغمياً عليه. وكانت تلك بداية شهور طويلة من الآلام له ومن الغم لأفراد الأسرة الآخرين، وخاصة لوري التي لم تكن تعرف ما الذي جرى له، ولي أنا التي كنت أعرف ذلك جيداً.

انتصبت أشد ذكرياتي مأساوية في أمواج هائجة. كنتُ أظن بعد أن مررت بتجربة فقدانكِ بأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يؤثر فيَّ كثيراً، ولكن أدنى احتمال بحدوث شيء مماثل للابن المتبقي لي، أطاح بي. كنت أشعر بثقل في صدري، أشبه بصخرة تسحقني، وتقطع أنفاسي. أشعر أنني مجروحة في اللحم الحي، وأوشك على البكاء في أي لحظة. وفي الليل، عندما يخلد الجميع للراحة، كنت أسمع همساً بين الجدران، وكان هناك أنين مكتوم في العتبات، وتنهدات في الغرف الخاوية. لقد كان خوفي بالذات على ما أظن. الألم المتراكم طوال سنة احتضاركِ تلك كان رابضاً في البيت. هناك مشهد محفور في ذاكرتي إلى الأبد. دخلتُ في أحد الأيام إلى حجرتكِ ورأيتُ أخاكِ مديراً ظهره إلى الباب، وكان يبدل لكِ الحفاض بالتلقائية نفسها التي يفعل بها ذلك لأبنائه. وكان يكلمكِ، كما لو أنكِ تستطيعين فهم ما يقوله، عن أزمنة فنزويلا، عندما كنتما مراهقين، وكنتِ تتدبرين الأمر للتستر على شيطناته وإنقاذه إذا ما تورط في مشاكل. لم يرني نيكو. خرجتُ وأغلقت الباب بهدوء. لقد كان هذا الابن معي على الدوام، وقد تقاسمنا معاً أحزاناً أولية، وإخفاقات مذهلة، ونجاحات عابرة. وقد خلّفنا كل ذلك وراء ظهورنا وعدنا لنبدأ في مكان آخر. لقد تشاجرنا وتعاونا، وبكلمات قليلة: أظن أننا متلاصقين لا يمكن الفصل بيننا.

قبل أسابيع من الحادث عند طبيب الأسنان، أجرى نيكو فحوص البورفيريا السنوية، ولم تكن النتائج جيدة، فمستوياته قد تضاعفت منذ السنة السابقة. ثم واصلت الارتفاع بعد تلك الصدمة بصورة مثيرة للذعر، وكان القلق يساور شيري فورستر التي تراقب حالته باستمرار. ففضلاً عن ألم الظهر الدائم، والذي يحول دون

تمكنه من رفع ذراعيه أو الانحناء، أضيف إليه ضغط العمل، وعلاقته بسيليا التي كانت تمر بمرحلة بالغة السوء، وعلاقته المتقلبة معي، إذ كنت أخطئ بكثرة في نيتي بتركه بسلام؛ وإرهاق بالغ العمق إلى حد أنه ينام واقفاً. حتى الصوت يخرج منه همهمة، كما لو أنه يتكبد مشقة في زفر الهواء. وفي بعض الأحيان تترافق نوبة البروفيريا باضطرابات ذهنية تبدل شخصيته. فنيكو الذي يباهي في الأوقات العادية بهدوء الديلي لاما السعيد، صار من عادته الغليان من الغضب، ولكنه يواري ذلك بفضل قدرته الفريدة على التحكم بنفسه. كان يرفض الحديث عن حالته، ولا يريد أن يُعامل وفق اعتبارات خاصة. واقتصرنا أنا ولوري على مراقبته، دون توجيه أسئلة إليه، كي لا نزعجه أكثر مما هو عليه. ولكننا اقترحنا عليه أن يترك عمله على الأقل، لأنه بعيد جداً ولا يمثل له سعادة أو تحدياً. كنا نفكر في أنه قادر، بمزاجه الهادئ، وبديهته، ومعارفه الرياضية، على الانخراط في المضاربة في سوق الأسهم، ولكنه رأى أن ذلك ينطوي على مجازفة كبيرة. رويت له حلم الحصانين، كي أبيّن له أنه يمكن للمرء أن يقع ثم يعود للنهوض، فردّ بأنه حلم مشوق، ولكنه ليس حلمه.

لم يكن بمقدور لوري أن تساعده في صحته، ولكنها دعمته ورافقته دون أن تضعف لحظة واحدة، بالرغم من أنها هي نفسها كانت تعاني، لأنها تتلهف لأن تصير أماً، وقد خضعت من أجل ذلك إلى مشقات علاج الإخصاب. عندما اجتمعت مع نيكو تحدثا عن الأبناء بالطبع. فهي لا يمكنها التخلي عن الأمومة، وقد أجلتها كثيراً بانتظار حب حقيقي، ولكنه أعلن منذ البداية أنه لا يريد مزيداً من الأبناء، ليس لأنه قد ينقل إليهم البورفيريا وحسب، وإنما كذلك لأن لديه ثلاثة أبناء. لقد تحول إلى أب مبكر جداً، لم يتوصل إلى عيش تجربة الحرية والمغامرات التي ملأت أول خمس وثلاثين سنة من حياة لوري، وكان راغباً في التمتع بالحب الذي

حظّ في حياته، وأن يكون رفيقاً، وعاشقاً، وصديقاً وزوجاً. فخلال الأسابيع التي كان الأطفال يقضونها مع سيليا وسالي، كان نيكو ولوري عروسين، أما في بقية الأوقات فلا يمكنهما إلا أن يكونا أبوين.

كانت تقول إن نيكو غير قادر على فهم فراغها، وترى ـ ربما بحق ـ أنه ليس هناك من هو مستعد لتحريك قطعة من «بزل» الأسرة ليفسح مجالاً لها. كانت تشعر أنها غريبة. وأن هناك شيئاً من السلبية في الجو كلما تحدثت عن احتمال طفل آخر. وأنا أتحمل أكبر ذنب في هذا المجال، لأنني لم أساندها في البداية. لقد احتجتُ إلى أكثر من سنة كي أنتبه إلى مدى أهمية الأمومة بالنسبة إليها. حاولتُ عدم التدخل كيلا أجرحها، ولكن صمتي كان بليغاً: كنت أفكر في أن الوليد سيأخذ منها ومن نيكو القليل مما لديهما من الحرية. وكنت أخشى كذلك أن يحل الوليد الجديد محل أحفادي. والأسوأ أن إحدى الطفلتين رسمت، في عيد الأم، بطاقة محبة، وقدمتها إلى لوري، وبعد قليل من ذلك طلبت استعادتها، لأنها تريد تقديمها إلى سيليا. كان ذلك بالنسبة إلى لوري أشبه بطعنة في الصدر، بالرغم من أن نيكو أوضح لها مرة بعد أخرى أن الطفلة صغيرة لا تدرك ما الذي فعلته. كان إحساسها بالواجب يصل إلى حد يتماثل فيه مع العقاب؛ فهي ترعى الأطفال وتخدمهم بنوع من اليأس، كما لو أنها تريد التعويض عن الشعور بأنهم ليسوا لها. وهم لم يكونوا كذلك، فلهم أمهم، ولكنهم اتخذوا كذلك من سالي أماً لهم، وبالسرعة نفسها سيكونون قادرين على محبة لوري.

توافقت تلك الفترة مع حبل عدد من صديقات لوري؛ فكانت محاطة بنصف دزينة من النساء اللواتي يتباهين ببطونهن، ولم يكن الحديث يدور عن شيء آخر. كان الهواء يعبق برائحة أطفال، بينما الضغط يتفاقم عليها لأن احتمالات كونها أماً راحت تتقلص شهراً

بعد شهر، مثلما أوضح لها الاختصاصي الذي يعالجها. لم يخطر ببال لوري أن تشعر بالغيرة من صديقاتها قط، بل على العكس، كانت تتهمك في تصويرهنّ، وكوّنت بذلك مجموعة استثنائية من الصور حول موضوع الحبل، وآمل أن تتحول يوماً إلى كتاب.

كان الزوجان يذهبان إلى العلاج النفسي، حيث ناقشا هذا الموضوع، كما أعتقد، حتى الإشباع. وفي لحظة اندفاع، اتصل نيكو بالعم رامون في تشيلي، وكان يثق بوجهات نظره دون جدال. «كيف تريد من لوري أن تكون أماً لأبنائك إذا كنت لا تريد أن تكون أباً لأبنائها؟»، هكذا كان ردّ العم رامون. لقد كانت حجة عدالة بدائية. لم يتراجع نيكو عند موقفه وحسب، بل تحمس للفكرة. ومع ذلك، وقع ثقل ذلك القرار بالكامل على كاهل لوري. أخضعت نفسها وحيدة وبصمت لعلاج الإخصاب الذي كان يُلحق الأذى بجسمها ومعنوياتها. فهي التي كانت تسعى دوماً إلى الأكل جيداً، وممارسة التمارين الرياضية، وعيش حياة سليمة؛ أحست أنها تتسمم بقصف العقاقير والهرمونات. وقد أخفقت محاولاتها مرة بعد أخرى. «إذا كان العلم لم ينفع، فلا بد من وضع الأمر بين يدي الأب هورتادو»، قالت صديقتي الوفية بيا من تشيلي. ولكن صلواتها لم تُجدِ نفعاً، مثلما لم تنفع جلسات قبالة أخواتي في جمعية الفوضى، ولا التضرعات لكِ، يا باولا، أعطت نتيجة. وهكذا انقضت سنة كاملة.

بيت آخر للأرواح

على قمة الرابية التي يقع عليها بيتنا، عرضوا للبيع قطعة أرض بمساحة هكتار تقريباً، فيها أكثر من مئة شجرة بلوط عتيقة، وإطلالة شامخة على الخليج. لم يتركني ويللي بسلام إلى أن وافقت

على شرائها، بالرغم من أن ذلك بدا لي نزوة لا ضرورة لها. استحوذ هو على المشروع وقرر أن يبني بيت الأرواح الحقيقي. «لك عقلية قشتالية، تحتاجين إلى أسلوب. وأنا أحتاج إلى حديقة»، قال لي. كنت أرى أن انتقالنا إلى بيت آخر فكرة لا أساس لها ولا رأس، لأن البيت الذي عشنا فيه لأكثر من عشر سنوات له تاريخه، وشبحه المحبب، ولا يمكنني السماح بأن يسكن غرباء بين هذه الجدران، لكن ويللي صمّ أذنيه عن حججي وواصل قدماً بخططه. كان يصعد الرابية كل يوم ويصور كل مرحلة من مراحل البناء؛ لم يدق مسماراً واحداً دون أن يسجله بآلة تصويره. بينما ظللت أنا متمسكة بمنزلي القديم، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن البيت الآخر. رافقته بضع مرات لمجرد القيام بالواجب، لكنني لم أستطع فهم المخططات، فقد بدت لي تشابكاً من الأعمدة والدعائم، وبدا البناء كئيباً وكبيراً جداً. طلبت مزيداً من النوافذ وكوى الإنارة العلوية. وكان ويللي يقول إنني مغرمة بالأيرلندي العجوز الذي يصنع الكوى السقفية، لأني كلفته بأن يفتح في البيتين حوالي اثنتي عشرة كوة؛ واحدة أكثر، وقد صارت السقوف مفتتة مثل البسكويت. من الذي سينظف هذه السفينة؟ إنها بحاجة إلى أميرال يفهم شبكة الأنابيب والكابلات، والمراجل، والمراوح وغيرها من آلات تغيير المناخ في البيت. كان هناك فائض من الغرف، وسيضيع أثاثنا في هذا الجو الفسيح. استخف ويللي بكل معارضاتي، ولكنه وافق على ما قلته عن حجم النوافذ والكوى، وعندما صار البيت جاهزاً ولا يحتاج إلا لاختيار لون الطلاء، أخذني لرؤيته.

كانت المفاجأة مذهلة: كان أكثر بكثير من مسكن. إنه دليل حب، تاج محلي الخاص. لقد تخيل هذا الحبيب بيتاً ريفياً تشيلياً، بجدران سميكة وسقف من القرميد، وأقواس كولونيالية، وشرفات من حديد مزخرف، ونافورة إسبانية وكوخ في أقصى الحديقة كي أكتب فيه. بيت جديّ في سنتياغو الذي أوحى

بكتابي الأول، لم يكن هكذا قط، لم يكن كبيراً ولا جميلاً ولا مضاء بالقدر الذي وصفته به في الرواية. فالبيت الذي بناه ويللي هو الذي تخيلته. إنه ينتصب مزهواً على قمة الرابية، محاطاً بأشجار البلوط، مع ثلاث نخلات في فناء المدخل المرصوف ـ ثلاث سيدات ممشوقات يعتمرن قبعات رياش خضراء ـ، نُقلت برافعة وزُرعت في الحفر التي أُعدت لها مسبقاً. وكانت هناك لوحة خشبية معلقة على الشرفة: **بيت الأرواح**. اختفت معارضتي المسبقة للمكان. قررت طلاءه من الخارج بلون دراقي ومن الداخل بلون مثلجات الفانيلا. صار أشبه بقالب حلوى، ولكننا تعاقدنا مع سيدة حبلى في شهرها السابع، ومزودة بسلّم، ومطرقة، وأنبوب لحام أكسجين، وحمض، انقضت على الجدران، والأبواب، والحديد، فمنحتها خلال أسبوع قرناً من التعتيق. ولو لم نوقفها، لحولت البيت كله إلى كومة من الأنقاض قبل أن تضع مولودها في فناء بيتنا. كانت النتيجة عدم تناسب تاريخي: بيت تشيلي من العام ألف وتسعمئة في أوج كاليفورنيا القرن الحادي والعشرين.

على العكس مني أنا التي أُبقي أمتعتي في متناول يدي كي أخرج هاربة في أي لحظة، كانت المناسبة الوحيدة التي وقع فيها ويللي تحت إغواء الطلاق فعلاً هي فترة الانتقال إلى البيت. الحقيقة أنني تصرفت مثل كولونيل نازي، ولكننا استطعنا خلال يومين من انجاز الانتقال والاستقرار كما لو أننا نعيش هناك منذ سنة. الجميع شاركوا، ابتداء من نيكو مع حزام أدواته وعدّته لتركيب المصابيح وتعليق اللوحات، وحتى الأصدقاء والأحفاد الذين وضعوا الفناجين والأطباق في الخزائن، وفتحوا الصناديق، وأخرجوا القمامة في أكياس. كان يمكن لكِ أن تضيعي في تلك الفوضى يا باولا. وبعد ليلتين من ذلك اعتبرنا المهمة منتهية، والأربعة عشر شخصاً الذين أُنهكنا في عملية الانتقال، تناولنا العشاء حول «منضدة القشتالية»، مثلما سماها ويللي منذ البدء، مع شموع

وأزهار، وقد تضمن الغشاء: سلطة قريديس، وطبيخ تشيلي على البخار، وكريم كراميل. لا شيء من الطعام الصيني الذي يُطلب بالهاتف. وهكذا افتُتح أسلوب حياة لم نعرفه حتى ذلك الحين.

وإذا كنتُ سأستمتع بوضعي الجديد كقشتالية، فإن ويللي سيكون أكثر متعة بكثير، لأنه يحتاج إلى الإطلالة، والفضاء، وإلى سقوف عالية ليتمدد، وإلى مطبخ فسيح لتجاربه، وإلى سفود شواء للبهائم التعسة التي اعتاد على شيّها، وحديقة نبيلة لنباتاته. وعلى الرغم من المليون نوع من التحسس الذي يعذبه منذ الطفولة، فإنه يخرج عدة مرات في اليوم ليشم الأزهار، ويحصي البراعم الجديدة في كل شجيرة، وليستنشق ملء رئتيه عبق الغار، وعذوبة النعناع، ورائحة الصنوبر وإكليل الجبل النفاذة، بينما الغربان السوداء والحكيمة تسخر منه في السماء. زرع سبع عشرة شجيرة ورد للاستعاضة عن تلك التي تركها في البيت الآخر. عندما تعرفتُ عليه، كانت لديه سبع عشرة شجيرة ورد مزروعة في براميل، تتقّل بها طوال سنوات على دروب الطلاق والتنقل من بيت إلى آخر، ولكنه زرعها في الأرض الراسخة عندما استسلم للحب معي. منذ السنة الأولى قطف أزهاراً لكوخي، وهو المكان الوحيد في البيت الذي يمكن وضع الأزهار فيه، لأنها قد تسبب له الموت. وجاءت صديقتي بيا من تشيلي لتبارك البيت، وأحضرت معها، مخبأة في حقيبتها، فسيلة من «وردة باولا» المزروعة إلى جانب الصومعة في حديقة بيتها، وسوف تتحفنا تلك الفسيلة بعد سنتين بورود وردية وفيرة. ومن قريتها سانتا فيه دي ساغارًا، ترسل لي كارمن بالثيس كل أسبوع باقات أزهار مبالغاً فيها، ويكون عليّ طبعاً أن أخفيها عن ويللي. إن وكيلتي الأدبية سخية مثل نبلاء إسبانيا الإمبراطورية. لقد أهدت إليّ في إحدى المرات حقيبة مملوءة بشكولاته سحرية. وبعد سنتين من ذلك مازلت أجد قطعاً منها في أحذيتي، أو داخل إحدى حقائبي اليدوية، فهي تتكاثر بصورة غامضة في الظلام.

من أيار حتى أيلول نسخن ماء المسبح كحساء، ويمتلئ البيت بأطفالنا وأطفال آخرين، يتجسدون في الجو، وبزائرين يأتون دون إشعار مسبق، مثل ساعي البريد. فنحن أكثر من أسرة، إننا شعب. جبال من المناشف المبللة، والصنادل الغاوشية، والألعاب البلاستيكية؛ وصوانٍ من الفواكه، والبسكويت، والأجبان، والسلطات على منضدة المطبخ الكبيرة؛ ودخان ودهون عند موقد الشواء حيث يقلّب ويللي شرائح لحم، وأضلاع خراف، وأقراص همبرغر، ومقانق. وفرة وصخب يعوضان عن شهور الانزواء والوحدة والصمت الشتائية، زمن الكتابة المقدس. الصيف يخص النساء؛ نجتمع في الحديقة، في كرنفال الزهور والنحلات ببدلاتها ذات الخطوط الصفراء، لنُكسب سيقاننا اللون البرونزي ونحرس الأطفال. ونجتمع في المطبخ لنجرب وصفات جديدة، وفي الصالون لنطلي أظفار أقدامنا، وفي جلسات خاصة لتبادل الثياب مع صديقاتنا. ملابسي تأتي كلها تقريباً من عند ليا، وهي مصممة واسعة المخيلة، تفصل لي كل شيء بصورة مواربة وطويلة، وهكذا يمكن بمط الفستان أو تقليصه أن ينفع لاستخدام كتيبة من النساء مختلفات المقاسات، بمن في ذلك لوري، بجسدها الذي كجسد عارضة أزياء، والتي تخلت عن اللون الأسود المطلق، وهو الزي الإجباري في نيويورك، وتبنت ألوان كاليفورنيا. وحتى حفيدتي آندريا اعتادت على ارتداء فساتيني، ولكن ليس نيكول بأي حال، إذ لها عين لا تخطئ بشأن الموضة.. وفي شهور الصيف هذه تتصادف أعياد ميلاد نصف أفراد الأسرة وكثير من الأصدقاء المقربين، ويُحتفل بها جماعياً. إنه موسم الحفلات، والنمائم، والضحك. الأطفال يخبزون بسكويت، ويحضرون وجبات العصر من الأجبان والفواكه المخفوقة والمثلجات. وأعتقد أن هناك في كل جماعة متعايشة شخصاً يحمل على كاهله الأعمال غير المرغوبة: ومن تقوم بذلك في جماعتنا هي لوري. فنضطر إلى الصراع معها بقوة كي لا

تتولى وحدها مهمة غسل جبال من الأواني والأطباق. وإذا ما سهونا عنها، فإنها لا تتورع عن مسح الأرضية وهي جاثية.

وأفضل ما حدث هو أنه بعد شهر من انتقالنا بدأت تُسمع الضجة غير المفهومة نفسها التي كانت توقظنا في البيت الآخر، وعندما جاءت أمي من تشيلي، تأكد لها أن الأثاث يتحرك في الليل. وكان هذا ما يحتاجه البيت ليستحق اسمه. لم نفقدكِ في انتقالنا، يا بنتي.

وكان أن حان الوقت لاستدعاء إرنستو وغيليا، وكانا يفكران منذ شهور في إمكانية انتقالهما إلى كاليفورنيا، ليشكلا جزءاً من القبيلة ويسكنا في البيت الذي تركناه وكان ينتظرهما. كانا قد تزوجا منذ نحو سنتين في حفلة حضرتها أسرتا العروسين وأسرتنا، بمن في ذلك جيسون الذي لم يكن قد علم بعد بالفاصل الغرامي القصير بين إرنستو وسالي. وسيعترف له إرنستو بالأمر في ما بعد، متأسفاً. ولكن غيليا بالمقابل كانت تعرف ذلك، ولكنها ليست من صنف النساء اللواتي يشعرن بالغيرة من الماضي. العروس بفستان زفافها البسيط الذي من الساتان الأبيض، لم تولِ اهتماماً لرد فعل بعض المدعوين الذين كانوا على وشك تخريب الزفاف. وبالرغم من أن أقرباء إرنستو كانوا مفتونين بها، إلا أنهم كانوا ينزوون في الحمام بالتناوب ليتباكوا لأنهم يتذكرونكِ. أما أنا فلم أفعل؛ والواقع أنني كنت سعيدة جداً، فقد عرفتُ على الدوام أنكِ أنت نفسكِ من بحثتِ عن غيليا كي لا يبقى زوجك وحيداً، مثلما كنتِ تقولين مازحة أحياناً أنك ستفعلين. لماذا كنتِ تتكلمين عن الموت، يا بنتي؟ أية دوافع كانت لديك؟ يقول إرنستو إنكما كنتما تشعران أن الحب لن يكون طويلاً، وأن عليكما الاستمتاع به بسرعة، قبل أن يختطفه منكما.

كانت حياة إرنستو وغيليا في نيوجرسي مريحة، ولكليهما وظيفة جيدة هناك، ولكنهما كانا يشعران بأنهما وحيدان، ووافقا

على دعوتي لهما بالإقامة في بيتنا القديم. ومن أجل تقبل هذه الهدية، كان لا بد لإرنستو من أن يعثر على وظيفة في كاليفورنيا، ولأن هناك ملاكاً يحرسه، فقد تعاقدوا معه في شركة على بعد عشر دقائق من مسكنه الجديد. تأخرا نحو شهرين ريثما باعا شقتهما، واجتازا القارة في شاحنة محملة بأثاثهما وأشيائهما. وقد دخلا هذا البيت في اليوم نفسه من شهر أيار الذي جئنا بك فيه من إسبانيا قبل سنوات، كي تمضي هنا الوقت المتبقي لكِ في الحياة. وبدا لي ذلك إشارة واضحة إلى فأل حسن. وقد انتبهنا إلى الأمر لأن غيليا أهدت إليّ ألبوماً فيه أرشيف مرتب زمنياً للرسائل التي كتبتُها إليك في العام 1991، عندما كنت عروساً حديثة الزواج في مدريد، والرسائل التي كتبتُها إلى إرنستو في العام 1992، عندما كنتِ مريضة في كاليفورنيا وكان هو يعمل في نيوجرسي. «سنكون سعداء هنا»، قالت غيليا عندما دخلت البيت، ولم يخامرني أي شك في أنهما سيكونان كذلك.

سيالة الريشة

لم نكن قد استعدنا توازننا من الملامسة القصيرة لشهرة السينما، عندما أقيم حفل افتتاح *الحب والظلال*، الفيلم المأخوذ عن روايتي الثانية. الممثلة جنيفر كونيللي تشبهكِ كثيراً ـ نحافة، عنق طويل وحاجبان كثيفان، وشعر أملس وفاحم ـ، ولم أستطع استكمال رؤية الفيلم. هناك مشهد تكون فيه على سرير المستشفى ورفيقها، أنطونيو بانديراس، يحملها بين ذراعيه ويسندها في الحمام. إنني أتذكر المشهد نفسه بينكِ وبين إرنستو قبل قليل من وقوعكِ في الكوما. المرة الأولى التي رأيت فيها جنيفر كونيللي كانت في مطعم في سان فرانسيسكو، حيث تواعدنا

للقاء. وحين رأيتها تصل ببنطال رعاة البقر المكحوت، وبلوزتها البيضاء المنشاة، وشعر كذيل حصان، ظننت أنني أحلم، لأنها كانت أنتِ منبعثة إلى الحياة بكل جمالك. جرى تصوير *الحب والظلال* في الأرجنتين لأنهم لم يتجرؤوا على التصوير في تشيلي، حيث كان إرث الدكتاتورية لا يزال يلقي بثقله، وقد بدا لي فيلماً نزيهاً، وتأسفت لأنه عرض بقليل من الضجيج، بالرغم من أنه، بعد مرور سنوات طويلة، مازال متداولاً في الفيديو والتلفزيون. إنها قصة سياسية، تستند إلى أحداث واقعية، تتحدث عن خمسة عشر فلاحاً اختفت آثارهم بعد أن اعتقلهم العسكريون، ولكنها رواية حب من حيث الجوهر. عندما احتفل ويللي بعيد ميلاد الخمسين، أهدت إليه صديقة هذا الكتاب، فقرأه خلال إجازته، بعد ذلك شكر صديقته على الكتاب بملاحظة تقول: «المؤلفة تفهم الحب مثلما أفهمه أنا». ولهذا، بسبب الحب الذي وجده في تلك الصفحات، قرر الذهاب للتعرف إليّ عندما كنت أقوم بجولة لترويج الكتاب في شمالي كاليفورنيا. في لقائنا الأول حدثني عن أبطال الرواية، وكان يريد أن يعرف إذا ما كانوا قد وُجدوا بالفعل أم أنهم من تخيلي، وإذا ما كان حبهم قد تجاوز تقلبات المنفى، وإذا ما كانوا قد رجعوا مرة أخرى إلى تشيلي. هذا السؤال يواجهني في كل لحظة؛ فليس الأطفال وحدهم هم الذين يريدون أن يعرفوا كم من الحقيقة يوجد في التخييل. بدأت أشرح له، ولكنه قاطعني بعد جمل قليلة. «لا، لا تخبريني بالمزيد، فلست أريد أن أعرف. المهم أنكِ أنت من كتبتها، وبالتالي فإنك تؤمنين بهذا النوع من الحب.» بعد ذلك اعترف لي أنه كان دائماً على يقين بأن مثل ذلك الحب ممكن وأنه سيعيشه ذات يوم، بالرغم من أنه لم يحدث له حتى ذلك الحين شيء مشابه ولو من بعيد جداً. لقد جلبت لي روايتي الثانية الحظ، فبفضلها تعرفت على ويللي.

في تلك الأثناء كانت قد نُشرت في أوروبا *ابنة الحظ*، وهي

في رأي بعض النقاد رمز للنسوية، لأن إلزا تهرب من مشدّ التزمت الفيكتوري لتغوص، دون أي إعداد مسبق، في عالم ذكوري، حيث عليها أن تلبس كرجل كي تتمكن من البقاء، وفي أثناء ذلك تكتسب شيئاً بالغ القيمة: الحرية. لم أفكر في هذا عندما كتبت الكتاب، كنت أظن أن الموضوع يقتصر ببساطة على حمى الذهب، على تزاحم المغامرين، وقطاع الطرق، والواعظين، والمومسات وصخبهم الذي كان الأصل في نشوء سان فرانسيسكو، غير أن التفسير النسوي بدا مناسباً، لأنه يعكس قناعاتي وهذه الرغبة في الحرية التي حسمت توجهي في الحياة. ومن أجل كتابة الرواية جبت أنحاء كاليفورنيا مع ويللي، متشربة قصتها ومحاولة أن أتخيل ما كانت عليه تلك السنوات من القرن التاسع عشر، حيث كان الذهب يلمع في مجاري الأنهار وبين شقوق الصخر، مثيراً جنون الجشع في الرجال. وعلى الرغم من الطرق السريعة، فإن المسافات شاسعة؛ ولا بد أن هذه المسافات كانت لانهائية على الخيول أو مشياً على الأقدام عبر دروب جبلية ضيقة. الجغرافية المتشامخة، بغاباتها، ورؤوس جبالها المكللة بالثلوج، وأنهارها ذات المياه العكرة، تدعو إلى الصمت وتذكرني بأماكن سحرية في تشيلي. التاريخ والشعوب التي تقطن موطنيّ الاثنين، تشيلي وكاليفورنيا، مختلفة جداً، ولكن المنظر الطبيعي والمناخ متشابهان. في أحيان كثيرة، عندما أرجع إلى البيت بعد رحلة، يراودني الشعور بأنني قد سرتُ في دوائر طيلة ثلاثين سنة كي أنتهي من جديد إلى تشيلي؛ إنها شتاءات الأمطار والرياح نفسها، وصيف الجفاف والحر نفسه، والأشجار نفسها، والسواحل شديدة الانحدار نفسها، والبحر البارد والقاتم نفسه، والهضاب غير المتناهية، والسماء الصافية نفسها.

تلت *ابنة الحظ* رواية *صورة عتيقة* التي كنت أكتبها في تلك الشهور، وهي تربط أيضاً بين تشيلي وكاليفورنيا. الموضوع هو

الذاكرة. إنني غرسة أبدية التنقل، مثلما كان يقول الشاعر بابلو نيرودا، وكان يمكن لجذوري أن تجف لو لم تكن تتغذى من صهارة الماضي الغنية التي تشكل المخيلة أحد مكوناتها المؤكدة في حالتي. وربما ليس في حالتي فقط، إذ يقال إن عمليتي التذكر والتخيل متطابقتان تقريباً في الدماغ. حبكة الرواية مستوحاة من واقعة حدثت لأحد الفروع البعيدة من عائلتي، حيث وقع زوج إحدى بناتها في حب أخت زوجته. ومثل هذه القصص لا تذاع في تشيلي؛ وبالرغم من أن الجميع يعرفون الحقيقة، إلا أنهم يحوكون مؤامرة صمت للحفاظ على المظاهر. وربما لهذا السبب ليس هناك من يرغب في وجود كاتب في الأسرة. وقد كان مسرح الأحداث التي رويتها في الكتاب مزرعة بديعة عند أقدام جبال الأنديز، وأبطالها من أطيب الناس في العالم، ولا يستحقون مثل تلك المعاناة. وأظن أنه كان يمكن للأمر أن يكون أكثر تسامحاً لو أنهم تكلموا عنه دون تابوات، ولو أنهم، بدل الانغلاق على السر، فتحوا الأبواب وأتاحوا للهواء أن يحمل معه الرائحة الكريهة. لقد كانت واحدة من مآسي الحب والخيانة والمواراة تحت طبقات وطبقات من الأعراف الاجتماعية والدينية، كما في رواية روسية. فوراء الأبواب المغلقة، مثلما يقول ويللي، هناك الكثير من الأسرار الأسرية.

لم أخطط لأن يكون هذا الكتاب جزءاً ثانياً من *ابنة الحظ*، وإن كانا يتوافقان تاريخياً، ولكن عدة شخصيات، مثل إلزا سومرز، والطبيب الصيني تاو تشين، والسيدة الأمومية باولينا دل بايي وغيرهم، دخلوا صفحات الكتاب دون أن أتمكن من منع ذلك. وعندما كنت في منتصف الكتابة، أدركت أنه يمكن ربط هاتين الروايتين مع *بيت الأرواح*، وأن أكوّن منها بذلك ثلاثية تبدأ برواية *ابنة الحظ*، وتستخدم رواية *صورة عتيقة* كجسر. والسيئ في الأمر هو أن سيفيرو دل بايي فقد إحدى ساقيه في الحرب في أحد الكتب الثلاثة، وظهر في الكتاب التالي بساقيه الاثنتين؛ هذا

يعني أن هناك ساقاً مبتورة تطفو في أجواء الأخطاء الأدبية الكثيرة. الأبحاث حول كاليفورنيا كانت سهلة، لأنني كنت قد أجريتها في الرواية السابقة، ولكن كان عليّ القيام بالباقي في تشيلي، بمساعدة العم رامون الذي نبش لشهور في كتب التاريخ، والوثائق، والصحف القديمة. وكان ذلك حجة جيدة للإكثار من الذهاب لزيارة والديّ اللذين دخلا في عقد الثمانينيات وصارا يبدوان أكثر هشاشة. وقد فكرت للمرة الأولى في الاحتمال الرهيب بأنني قد أتحول في يوم غير بعيد إلى يتيمة. ما الذي سأفعله أنا من دونهما، ومن دون روتين الكتابة إلى أمي؟ وفي تلك السنة، فكرت أمي في اقتراب الموت، وأرسلت إليّ حزم رسائلي، ملفوفة في ورق هدايا. «خذي، احتفظي بها، فقد أموت فجأة، وليس من المناسب أن تقع رسائلك في أيدٍ غريبة»، قالت لي. وصارت منذ ذلك الحين تسلمني رسائلي كل سنة مع الالتزام بأن يتولى نيكو ولوري إحراقها في موقد تطهير عندما أموت. وسيتولى لهيب النار حمل خطايانا غير الرصينة: ففي تلك الرسائل كنا نسكب كل ما يجول في رأسينا، ونلقي فوق ذلك وحلاً على أشخاص آخرين. وبفضل موهبة أميْ في كتابة الرسائل، واضطراري إلى الرد عليها، صارت لدي وفرة من المراسلات التي تظل الأحداث فيها طازجة. وقد تمكنتُ بذلك من كتابة هذه المذكرات. الهدف من هذه المراسلات هو الحفاظ على نبض الحبل الذي ربط بيننا منذ لحظة بدء تشكلي في أحشائها، ولكنها تمرين كذلك لتعزيز الذاكرة، هذه الغمامة الضبابية التي تتلاشى فيها الذكريات، وتختلط، وتتبدل، ويتبين لنا في نهاية أيامنا أننا لم نعش إلا ما يمكننا أن نتذكره. ما لا أكتبه أنساه، وهذا يعني كما لو أنه لم يحدث؛ ولهذا ليس هناك من شيء ذي مغزى يغيب عن هذه الرسائل. في بعض الأحيان تتصل بي أمي هاتفياً لتخبرني بشيء أثر فيها بصورة خاصة، ويكون أول ما يخطر لي هو القول لها أن تكتبه لي، كي لا يُمحى. فإذا ما ماتت قبلي،

مثلما هو محتمل، فسوف أستطيع أن أقرأ رسالتين كل يوم، واحدة منها وأخرى مني، إلى أن أكمل مئة وخمسين سنة، وبما أنني سأكون غارقة عندئذ في اختلاطات الشيخوخة، فإن كل شيء سيبدو لي جديداً. وهكذا سأعيش مرتين بفضل مراسلاتنا.

متاهة الأحزان

شفي نيكو من آلام ظهره، وبدأت مستويات البورفيريا تهبط لديه، وفكر جدياً في إمكان تبديل عمله. كما أنه بدأ بممارسة اليوغا والرياضة: رفع أثقال دون حاجة إلى ذلك، والسباحة ذهاباً وإياباً حتى القطرس في مياه خليج سان فرانسيسكو الجليدية، وقيادة الدراجة ستون ميلاً صعوداً على الجبل، والركض من قرية إلى أخرى مثل هارب... برزت له عضلات حيث لم تكن موجودة، وصار بإمكانه تحضير الخبز المحمص وهو بوضعية اليوغا المسماة الشجرة: الوقوف على قدم واحدة، والثانية تستند إلى الجانب الداخلي من الفخذ، وأحد الذراعين مرفوع بينما الذراع الأخرى تعمل، وهو يكرر في أثاء ذلك الكلمة المقدسة «أوووم». جاء في أحد الأيام لتناول الفطور في بيتي ولم أتعرف إليه. فأمير عصر النهضة تحول إلى مصارع روماني.

أخفقت كل جهود لوري في الحبل بطفل، وودعت هذا الحلم بحزن كبير. تأذت من علاج الإخصاب وكثرة ما نبشوا في جسدها، ولكن ذلك كله لم يكن شيئاً يذكر بالمقارنة مع آلام الروح. كانت العلاقة بين سيليا ونيكو شبه عدائية، مما كان يولد التوتر ويؤثر كثيراً على لوري التي تشعر أنها تُهاجَم. لم تكن قادرة على تجاوز الفظاظة التي تعاملها بها سيليا، على الرغم من كثرة ترديد نيكو لشعاره: «ليس الأمر شخصياً، وكل شخص مسؤول

عن مشاعره، والحياة ليست عادلة». لا أظن أن هذا كله يساعد كثيراً. ومع ذلك، ظل الأربعة (نيكو ولوري، وسيليا وسالي) على هامش مشكلاتهم.

دور زوجة الأب ليس لطيفاً، وأنا نفسي ساهمتُ في هذه الأسطورة بإضافة قطرة من المرارة. لا وجود لزوجة أب واحدة طيبة في التقاليد الشفوية أو في الأدب العالمي، باستثناء زوجة أب بابلو نيرودا التي كان الشاعر يدعوها «مامتي». ليس هناك، عموماً، امتنان من زوجات الآباء، غير أن لوري بذلت اهتماماً كبيراً في المهمة، حتى إن أحفادي، بتلك الغريزية الطفولية التي يتمتع بها الصغار، لم يحبوها كثيراً مثلما يحبون سيليا وحسب، بل إنها أول شخص يهرعون إليه إذا احتاجوا إلى شيء، لأنها لا تخيب ظنهم أبداً. وهم اليوم لا يستطيعون تخيلها إلا كواحدة من أمهاتهم الثلاث. وقد رغبوا لسنوات في أن يجتمع آباؤهم الأربعة: نيكو، ولوري، وسيليا، وسالي، ليعيشوا معاً، ضمن المعقول، في بيت جديهم؛ ولكن هذا الوهم تلاشى لديهم الآن. لقد انقضت طفولة أحفادي في التنقل من أسرة إلى أخرى، وبصورة عابرة على الدوام، مثل ثلاثة من حملة حقائب الظهر. فعندما يكونون مع أحد الزوجين، يشتاقون للآخر. كانت أمي تخشى أن يؤدي بهم هذا التنقل إلى فوضى غجرية لا شفاء منها، ولكن الأطفال توصلوا لأن يكونوا أكثر استقراراً من معظم الناس الذين عرفتهم.

انتهى العام 2000 بطقس بسيط لوداع طفل لوري ونيكو الذي لم يوجد قط، ومآتم أخرى. ففي عصر يوم عاصف الريح انطلقنا إلى الجبال تقودنا إحدى صديقات لوري، فتاة كأنها تجسيد لغايا، الربة ـ الأرض. ذهبنا مزودين بمصابيح يدوية وعباءات بونتشو، تحسباً من أن يفاجئنا الليل. ومن أعالي الجبل، أشارت لنا غايا إلى وهدة، وفي الأسفل، في الوادي، كانت هناك متاهة دائرية مكونة من أحجار، متقنة بهندستها. نزلنا عبر شق ضيق بين تلال

رمادية، تحت سماء بيضاء تعبرها طيور سوداء. قالت دليلتنا إننا اجتمعنا للتخلص من بعض الأحزان، وإننا جئنا لمرافقة لوري، ولكن ليس هناك من ليس لديه حزن خاص يخلّفه هناك. كان نيكو يحمل صورة لكِ، وويللي معه صورة لجنيفر، ولوري معها علبة وصورة لابنة أختها الصغيرة. مشينا متبعين الدروب المحددة بالأحجار، ببطء، كل واحد منا حسب إيقاعه، بينما الطيور الجنائزية الكبيرة تحوّم وتتعب في تلك السماء الشاحبة. وكنا نتقابل أحياناً في المتاهة، وقد لاحظت أننا جميعنا نرتجف من البرد، وكلنا منفعلون.

كانت هناك في المنتصف كومة من الصخور، أشبه بمذبح، حيث ترك عابرون آخرون ذكريات بللها المطر: رسائل مقتضبة، ريشة، أزهار ذاوية، قلادة. جلسنا حول ذلك المذبح ووضعنا عليه كنوزنا. وضعت لوري صورة ابنة أختها الصغيرة الشبيهة بالطفل الذي طالما رغبت فيه، طفل بلون أسرتها ورائحتها. وأخبرتنا أنها منذ صغرها خططت، هي وأختها، أن تعيشا في الحي نفسه وتربيا أبناءهما معاً؛ فهي سيكون لها ابنان، طفلة تسميها أوما، وطفل تسميه بابلو. وأضافت أنها حظيت بحسن طالع مع نيكو الذي يشاركها في أبنائه، وأنها ستحاول أن تكون صديقة طيبة لهم. وأخرجت من العلبة ثلاث أبصال زهور وزرعتها في الأرض. وضعت إلى جانب إحداها حجراً، يرمز إلى أليخاندرو الذي يحب المعادن، وعند الثانية وضعت قلباً من بلور وردي، يرمز إلى آندريا التي لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة ذلك اللون الرهيب، وإلى جانب البصيلة الثالثة وضعت دودة حية، ترمز إلى نيكول التي تحب الحيوانات. ووضع ويللي بصمت صورة جنيفر فوق المذبح، مثبتة بحجر صغير كيلا تحملها الريح. وأوضح نيكو أنه سيترك هناك صورتكِ كي ترافقي ابن لوري الذي لم يولد والأحزان الأخرى التي ستبقى هناك، أما هو فلا يريد التخلص من حزنه. «إنني أشتاق إلى

أختي وسأظل مشتاقاً إليها طوال ما تبقى من حياتي»، قال. بعد سنوات طويلة من موتك، مازال الحزن على فراقك مثلما كان، يا باولا. يكفي حك السطح قليلاً ليبرز الحزن من جديد، طازجاً مثلما كان في أول يوم.

❖ ❖ ❖

ومع ذلك، لا يمكن لطقس في متاهة بين الجبال أن يكون كافياً لتجاوز رغبة المرأة في أن تكون أماً، مهما تطلب ذلك من علاج وتصميم. إنها لسخرية قاسية أن هناك أمهات يتجنبن إنجاب الأبناء أو إجهاضهم، بينما ينكر القدر على لوري ابناً. كان عليها أن تستسلم لعدم قدرتها على الحبل، ذلك أن الأسلوب الرائع بزرع بيضة غريبة ملقحة في أحشائها لم يُجدِ معها، ولكن ظلت لها وسيلة التبني. هناك ما لا حصر له من الأطفال الذين ينتظرون من يقدم لهم مسكناً كريماً. كان نيكو متأكداً من أن هذا الخيار سيفاقم مشكلات لوري بسبب انعدام الوقت، وكثرة العمل، وقلة الخصوصية. وكان يقول لي: «إذا كانت تشعر الآن بأنها متضايقة، فإن الوضع سيكون أسوأ مع طفل». ولم يكن بمقدوري تقديم أي نصيحة لها. فالحرب الصليبية التي كانا يخوضان غمارها شيطانية، لأن تراجع أي منهما سيبقيه مستاءً، هي ستظل مستاءة لأن نيكو حرمها من شيء جوهري، وهو لأنها فرضت عليه ابناً بالتبني.

كان من عادتي الذهاب مع نيكو لتناول الفطور في كافيتريا، كي نتبادل الاطلاع على الأحداث اليومية وعلى أسرار الروح. وطوال سنة كان الموضوع المهيمن على تلك المحادثات الحميمة هو غم لوري ومسألة التبني. لم يكن يفهم أن تكون رغبتها في أن تصير أماً أهم من الحب بينهما الذي صار في خطر بسبب تسلط هذه الفكرة على عقلها. كان يقول لي إنهما ولدا ليحب أحدهما الآخر، وإنهما يتكاملان في كل شيء ولديهما الموارد ليعيشا حياة

مثالية؛ ولكنها بدل أن تقدر ما لديهما، تعاني بسبب ما تفتقر إليه. أوضحت له أن الجنس البشري ما كان ليوجد لولا هذه الحاجة التي تتغلب علينا نحن النساء. فليس هناك أي سبب لأن تُخضع المرأة جسدها لجهد الحبَل العجيب، وإنجاب طفل، من أجل الدفاع عنه كلبوة ولو على حساب نفسها، وتكرس له كل لحظة لسنوات وسنوات إلى أن يتمكن من الاعتماد على نفسه، ثم تحرسه من بعيد بحنين بعد أن تفقده، لأن الأبناء ينفصلون عن أمهاتهم عاجلاً أو آجلاً. تعلل نيكو بأن هذه الرغبة في أن تكون المرأة أماً ليست مطلقة وغير واضحة تماماً: بعض النساء يفتقرن إلى هذه الحتمية البيولوجية. وقال ليذكرني:

- باولا كانت واحدة منهن، فهي لم تكن ترغب في أن يكون لها أبناء.

- ربما كانت تخشى نتائج البورفيريا، ليس لما في ذلك من خطورة عليها فقط، وإنما لأنها كانت تخشى أن تنقل المرض إلى أبنائها أيضاً.

- قبل وقت طويل من الارتياب بأنها مصابة بالبورفيريا، كانت أختي تقول إن الأطفال رائعين من بعيد فقط، وأن هناك وسائل أخرى لتحقيق الذات، وليس بالأمومة وحدها. وهناك أيضاً نساء لا تستيقظ فيهن غريزة الأمومة. وإذا ما حبلن يشعرن بأنهن اقتُحمن من قبل كائن غريب يستنفدهن، ولا يرغبن بعد ذلك في الطفل. أتتصورين الجرح الذي سيبقى في روح من يُرفض منذ الولادة؟

- أجل، يا نيكو، هناك استثناءات، ولكن الأغلبية الساحقة من النساء يرغبن في إنجاب أبناء، وعندما يأتون، يضحين بحياتهن من أجلهم. ليس هناك خطر بأن تفنى الإنسانية بسبب نقص الأطفال.

زوجة بالتوصية

جاءت ليلي من الصين بتأشيرة عروس مدتها ثلاثة أشهر، عليها عند انتهائها أن تتزوج من تونغ أو ترجع إلى بلادها. كانت امرأة سليمة البنية وجميلة، تبدو كأنها في العشرين من العمر، ولكنها كانت في حوالي الثلاثين، وكان تلوثها بالثقافة الغربية ضئيلاً جداً مثلما هي رغبة زوجها المستقبلي. كما أنها لم تكن نعرف كلمة واحدة بالإنكليزية. سيكون من السهل بذلك إبقاؤها مذعنة، هذا ما رأته حماتها المستقبلية التي طبقت منذ البدء المنهج التقليدي في جعل حياة كنتها مستحيلة. بدت لنا لا تُقاوم بوجهها القمري وعينيها المتوقدتين، حتى إن أحفادي وقعوا في حبها. «يا للفتاة المسكينة، سيكون تأقلمها شاقاً جداً»، علق ويللي عندما علم أن ليلي تستيقظ في الفجر كي تنجز أعمال البيت وتحضّر الأطباق المعقدة التي تطلبها حماتها المستبدة التي، على الرغم من ضآلة جسدها، تعاملها بالشتم والدفش. «لماذا لا ترسلين هذه العجوز إلى الجحيم؟»، سألتُ ليلي بالإشارة، ولكنها لم تفهمني. وكرر ويللي: «لا تتدخلي»، وأضاف أنني لا أعرف شيئاً عن الثقافة الصينية. ولكنني أعرف في الحقيقة أكثر منه بقليل، فأنا قرأت على الأقل آمي تان. لم تكن العروس بالمراسلة رعديدة مثلما قال ويللي حين تعرف عليها، وقد تأكد لي ذلك. فقد كانت تتمتع بقوة فلاحية، ولها كتفان عريضتان، وفي نظرتها وحركاتها تصميم؛ يمكن لها بنقفة واحدة أن تهشم جمجمة أم تونغ، وجمجمته هو نفسه أيضاً إذا نوت ذلك. أما من الحمامة العذبة، فلا وجود فيها لشيء.

بعد ثلاثة شهور، وعندما كانت صلاحية تأشيرة ليلي على وشك الانتهاء، أخبرنا تونغ أنهما سيتزوجان. فذكّره ويللي، كمحام وصديق، بأن المسوغ الوحيد لدى هذه الفتاة للزواج منه هو

الاستقرار في الولايات المتحدة، حيث تحتاج إلى زوج لمدة سنتين فقط؛ وبعد ذلك يمكنها الطلاق والحصول مع ذلك على تصريح الإقامة. كان تونغ قد فكر في ذلك، ولم يكن ساذجاً إلى حد يفترض معه أن فتاة الانترنت ستقع في الحب بمجرد رؤية صورته، مهما بذلت لوري من جهد في تجميلها. ولكنه رأى أن كليهما سيكسب شيئاً من مثل هذا الترتيب: سيكسب هو احتمال الحصول على ابن، وتكسب هي التصريح بالإقامة. وسيريان أياً من الأمرين سيتحقق أولاً؛ والمجازفة تستحق العناء. نصحه ويللي بعقد اتفاق قبل الزواج؛ وإلا فإنها ستحصل على جزء من مدخراته التي جمعها بكثير من التقتير، غير أن ليلي أعلنت أنها لن توقع على وثيقة لا تستطيع قراءتها. ذهبا إلى محام في تشيناتاون ترجمها لهما. وحين فهمت ليلي حجم ما هو مطلوب منها، تحولت إلى حمرة الشوندر، ورفعت صوتها أول مرة. كيف يمكن لهم أن يتهموها بأنها تريد الزواج من أجل تأشيرة! لقد جاءت من أجل بناء بيت مع تونغ!، أعلنت ذلك مسببة للعريس والمحامي إحساساً عميقاً بالذنب. تزوجا دون اتفاق مسبق. وعندما أخبرني ويللي بذلك كان يطلق الشرر من أذنيه، ما كان قادراً على تصديق أن يكون محاسبه أحمق إلى هذا الحدّ، وكيف خطرت له مثل تلك البلاهة، وأنه قد ورط نفسه الآن، أتراه لم يرَ ما جرى له هو نفسه وكيف جزّت وبره النساء اللواتي مررن في حياته، وراصل على هذا النحو بترتيلة من النبوءات المشؤومة. فكانت المرة الأولى التي استمتعتُ برد كلمته إليه: «لا تتدخل».

سجلت ليلي في دورة مكثفة لتعلم الإنكليزية، وصارت تمضي طوال الوقت بسماعات على أذنيها لتسمع اللغة حتى وهي نائمة، ولكن التعلم بدا أصعب وأبطأ مما هو متوقع. خرجت للبحث عن عمل، وبالرغم من دراستها المتقنة وخبرتها كممرضة لم تستطع الحصول على شيء لأنها لا تتكلم الإنكليزية. طلبنا منها أن تتولى

تنظيف بيتنا وإحضار الأحفاد من المدرسة، لأن ليخيا لم تعد تعمل؛ فقد أحضرت أبناءها واحداً بعد الآخر من نيكاراغوا، ووفرت لهم تعليماً عالياً وأصبحوا جميعهم مهنيين، وصار بإمكانها أخيراً أن تستريح. يمكن لليلي أن تكسب معنا راتباً محترماً ريثما تجد عملاً يتناسب مع إمكاناتها. وافقت على الاقتراح شاكرة، كما لو أننا نقدم لها جميلاً في الوقت الذي كانت هي من تقدم لنا الجميل في الحقيقة.

في البدء بدا التواصل مع ليلي مسلياً: كنت أترك لها رسوماً ألصقها على الثلاجة، ولكن ويللي كان يكلمها بالإنكليزية بصرخات مجروحة، وتكتفي هي بالرد عليه «No!» مرفقة ذلك بابتسامة محببة. وفي أحد الأيام جاءت روبرتا لزيارتنا، وهي صديقة متحولة الجنس، كانت قبل إجراء عملية التحول إلى امرأة ضابطاً في البحرية باسم روبرت. وكان قد قاتل في فيتنام، ونال وساماً لشجاعته، ولكنه شعر بالرعب من موت الأبرياء وترك الخدمة العسكرية. وكان محباً طوال ثلاثين سنة لزوجته التي رافقته في عملية التحول إلى امرأة وظلا معاً إلى أن ماتت الزوجة بسرطان الثدي. وبالنظر إلى الصور القديمة، كانت روبرتا من قبل رجلاً كثيف الشعر، له فك قرصان، وأنف معقوف. أجرى علاجاً بالهرمونات، وجراحة تجميلية، وجلسات كهرباء لنزع الشعر، وأجرى أخيراً عملية تناسلية، ولكنني أعتقد أن مظهرها لم يكن مناسباً تماماً، لأن ليلي ظلت تنظر إليها فاغرة الفم ثم اقتادت ويللي إلى ما وراء أحد الأبواب لتسأله شيئاً بالصينية. واستنتج زوجي أنها تسأل عن جنس صديقتنا؛ فبدأ يشرح الموضوع لليلي همساً، ولكن الصوت راح يرتفع وانتهى إلى الصراخ بملء رئتيه قائلاً إنها كانت رجلاً بروح امرأة أو شيئاً من هذا القبيل. كدتُ أموت من الخجل، ولكن روبرتا واصلت شرب الشاي وقضم الحلوى بطريقتها الراقية، دون أن تبدي ما يشير إلى أنها تسمع صخب المجانين الذي يدور وراء الباب.

أحفادي والكلبة أوليفيا تآلفوا مع ليلي. ولم يكن بيتنا في أي وقت من الأوقات أكثر نظافة مما صار إليه، كانت تعقمه كما لو أنها ستُجري جراحة قلب مفتوح في غرفة الطعام. وهكذا انضمت إلى قبيلتنا. وقد اختفى خجلها بعد الزواج؛ فصارت تتنفس بعمق، ونفخت صدرها، واستصدرت إجازة قيادة، واشترت سيارة. وصار تونغ سعيداً بالحياة، بل صار يبدو الآن أكثر وسامة، لأن ليلي تُلبسه على الموضة وتقص شعره. وهذا لا يعني أنهما لا يتشاجران، لأنه يعاملها كزوج مستبد. أردت أن أوضح لليلي بالإشارات بأنه عندما يرفع عليها الصوت في المرة القادمة، عليها أن تضربه بمقلاة على رأسه، ولكنني أظن أنها لم تفهمني. لم يكن ينقصهما سوى الأبناء الذين لم يأتوا لأن لديها مشكلة خصوبة، ولأن تونغ لم يعد شاباً. نصحتهما بأن يتبنيا ابناً من الصين، ولكنهم هناك لا يقدمون الأطفال الذكور و«من الذي يرغب في طفلة؟». الجملة نفسها التي كنت قد سمعتها في الهند.

سحر للأحفاد

عندما أنهيت *صورة عتيقة*، كان يلاحقني وعد لا يمكنني مواصلة تأجيله: كتابة ثلاث روايات مغامرات لأليخاندرو، وآندريا، ونيكول، رواية لكل واحد منهم. ومثلما فعلت مع ابنيَّ من قبل، بدأت أحكي لأحفادي منذ مولدهم الحكايات وفق نظام دقيق: يعطونني ثلاث كلمات، أو ثلاث موضوعات، وتكون لدي عشر ثوان كي أخترع قصة تتضمن تلك الكلمات. كانوا يتفقون كي يقترحوا عليّ أشد الأشياء بعداً عن المعقول، ويتراهنون على أنني لن أستطيع الجمع بين تلك الأشياء في قصة، غير أن خبرتي ـ وقد بدأت معك، يا باولا، في العام 1963 ـ كانت عظيمة بقدر ما هي براءتهم

عظيمة، ولم أقصر معهم أبداً. ولكن المشكلة كانت تبرز في الأسبوع التالي إذا ما طلبوا مني، مثلاً، أن أعيد عليهم كلمة كلمة القصة نفسها عن النملة الساهية التي دخلت في دواة حبر واكتشفت مصادفة الكتابة الهيروغليفية المصرية. ولا أكون قادرة على تذكر أي شيء من تلك الحشرة الأديبة وأجد نفسي في حرج شديد عندما يطلبون مني اللجوء إلى كمبيوتري الذهني. «قدر النمل مزعج كله، مجرد عمل وخدمة للملكة؛ من الأفضل أن أروي لكم حكاية عقرب قاتل»، وانطلق في رواية القصة قبل أن يتاح لهم الوقت لأي ردّ. ولكن جاء يوم لم يعد حتى لهذا الأسلوب من جدوى؛ عندئذ وعدتهم بأن أكتب ثلاثة كتب في موضوعات يقترحونها هم عليّ، مثلما كنا نفعل في الحكايات المرتجلة في عشر ثوان قبل النوم.

قدم لي أحفادي موضوع الكتاب الأول، وكان بالإمكان التكهن به من الحكايات الكثيرة التي طلبوها مني سابقاً: البيئة. مغامرة *مدينة الوحوش* ولدت من الرحلة إلى الأمازون. لقد صرت أعرف الآن أنه عندما تجف بئر إلهامي، مثلما حدث لي بعد موتكِ، يا باولا، يمكنني أن أملأها من جديد من خلال الرحلات. مخيلتي تستيقظ عند الخروج من الجو المعهود ومواجهة أشكال أخرى من الحياة، وأناس مختلفين، ولغات لا أتكلمها، ومصاعب غير متوقعة. وأعرف أن بئري آخذة بالامتلاء لأن أحلامي تضطرب. فالصور والقصص التي أراكمها خلال الرحلة تتحول إلى أحلام معيشة، وإلى كوابيس عنيفة أحياناً، تنبئني بمجيء ربات الإلهام. لقد غرقت وأنا في الأمازون في طبيعة نهمة، أخضر على أخضر، وماء على ماء، رأيت تماسيح بحجم القوارب، ودلافين وردية، أسماك مانتارايا تطفو كأنها سجاجيد في مياه النهر الأسود التي بلون الشاي. رأيت أسماك بيرانيا، وقردة، وطيوراً عجيبة، وأفاعي متنوعة، بما في ذلك أفعى أنكندة ميتة، ولكنها أنكندة على أي حال. وفكرت

أنه لا يمكن استخدام أي شيء من ذلك كله، لأنه لا يتناسب مع نوعية الكتب التي أكتبها، ولكن تبين أن ذلك كله مفيد عندما طرحت على نفسي كتابة رواية للفتيان. كان حفيدي أليخاندرو هو النموذج الذي استلهمت منه شخصية ألكسندر كولد، بطل الرواية؛ وصديقته ناديا سانتوس هي مزيج من آندريا ونيكول. وفي الرواية يذهب ألكسندر مع جدته، وهي كاتبة رحلات، إلى الأمازون، حيث يتعرف على ناديا. ويضيع الصغيران في الأدغال، ويعيشان مع قبيلة من «الهنود غير المرئيين»، ويكتشفان أن هناك وحوشاً خرافية تعيش في «تيبوي»، تلك التكوينات الجيولوجية الغريبة في المنطقة. وقد خطرت لي فكرة الوحوش من محادثة سمعتها في أحد مطاعم ماناو بين جماعة من العلماء كانوا يتداولون حول مسألة العثور على هيكل عظمي متحجر هائل له مظهر إنسان الغاب. وكانوا يتساءلون إلى أي نوع من الحيوانات ينتمي، ربما هو من عائلة القردة، أو نوع من إنسان الثلج الاستوائي. وبتلك المعلومات كان من السهل تخيل هيئة الوحوش. أما الهنود غير المرئيين فهم موجودون، إنهم قبائل مازالت تعيش في العصر الحجري، ولكي يتماهوا مع الوسط يطلون أجسادهم بألوان النباتات المحيطة بهم ويتنقلون بخفة وهدوء يمكن لهم معهما الوصول إلى بعد ثلاثة أمتار عنك، دون أن تراهم. وكثير من القصص التي سمعتها في الأمازون عن الفساد، والجشع، والتجارة غير المشروعة، والعنف، والتهريب كانت كلها مادة أولية للحكاية، ولكن الشيء الأساسي هو الغابة التي تحولت إلى المشهد العام وحددت إيقاع الكتاب.

❖ ❖ ❖

بعد أسابيع قليلة من البدء بكتابة الكتاب الأول من الثلاثية، أدركت أنني عاجزة عن التحليق بمخيلتي بالجرأة التي يتطلبها المشروع. كنت أجد صعوبة في الدخول تحت جلد ذينك اليافعين

اللذين سيعيشان مغامرة عجيبة بمساعدة «حيوانيهما الروحيين»، كما في تقاليد بعض قبائل السكان الأصليين. إنني أتذكر رعب طفولتي بالذات، عندما لم تكن لدي أي قدرة على التحكم بحياتي أو بالعالم المحيط بي. كنت أخشى أشياء محددة تماماً، مثل أن يأتي أبي، المختفي منذ سنوات عديدة إلى حد أن اسمه اختفى، ليطالب بي، أو أن تموت أمي وأنتهي أنا إلى ملجأ أيتام أتغذى فيه على حساء الملفوف؛ ولكن أكثر ما كنت أخشاه هو الكائنات التي تملأ ذهني. فقد كنت أعتقد أن الشيطان يظهر ليلاً في المرايا؛ وأن الموتى يخرجون من المقابر عند حدوث الهزات الأرضية، وهي عادية جداً في تشيلي؛ وأن هناك مصاصي دماء بين سقفي البيت، وضفادع ضخمة تختبئ في الخزائن، وأرواحاً محزونة هائمة بين ستائر الصالون؛ وأن جارتنا ساحرة شريرة، وأن صدأ تمديدات الأنابيب هو دم قرابين بشرية. وكنت واثقة من أن شبح جدتي يرسل إلي رسائل قبورية في فتات الخبز أو في أشكال الغيوم، ولكن ذلك لم يكن يخيفني، بل كان أحد تخيلاتي المهدئة. فذكرى هذه الجدة الأثيرية والمرحة كانت سلوى لي على الدوام، وحتى الآن، حيث صار لي من العمر خمس وعشرون سنة أكثر من سنوات عمرها عند موتها. لماذا لم تكن تحيط بي جنيات محبة لهن أجنحة فراشات أو حوريات بحر بأذيال مرصعة بالجواهر؟ لماذا كان كل شيء مخيفاً؟ ليس بإمكاني معرفة ذلك، ربما يعيش معظم الأطفال بإحدى القدمين في عوالم الكوابيس تلك. ومن أجل كتابة رواياتي لليافعين لا يمكن لي الاستعانة بتخيلات طفولتي القبورية، لأن المسألة ليست في ذكر تلك التخيلات وتعدادها، وإنما في الإحساس بها في العظام، مثلما كنت أشعر بها في الطفولة، وبكل شحنتها الانفعالية. إنني أحتاج إلى أن أعود لأكون الطفلة التي كنتها ذات يوم، تلك الطفلة الصموت، المعذبة بمخيلتها، والتي تجوب كشبح في أنحاء بيت الجدة. يتوجب عليّ أن أقوض دفاعاتي

العقلانية وأن أفتح ذهني وقلبي. ومن أجل ذلك قررت إخضاع نفسي للتجربة التشامانية[1] بتناول الأياهواسكا، وهذا شراب يحضر من .بتة متسلقة تسمى بانيستيريوبسيس، يستخدمها هنود الأمازون لاستثارة الرؤى.

لم يشأ ويللي السماح لي بالمجازفة وحدي، فرافقني دون تبصر، مثلما فعل في مناسبات كثيرة خلال حياتنا المشتركة. شربنا شاياً قاتماً له مذاق مقزز، أقل من ثلث فنجان، لكنه شديد المرارة والنتانة إلى حدّ يكاد ابتلاعه يكون مستحيلاً. ربما لدي خلل في قشرة دماغي ـ إنني أمضي مرتبكةً على الدوام، سواء أكان الأمر جيداً أم سيئاً ـ لأن شراب الأياهواسكا الذي يوفر للآخرين دفعة خفيفة نحو عالم الأرواح، طوّح بي أنا بعيداً جداً في ركلة قوية، لم أرجع منها إلا بعد يومين. فبعد خمس عشرة دقيقة من تناولي الشراب، أصاب توازني الخلل وطُرحتُ أرضاً، ولم أعد قادرة على الحركة. سيطر عليّ الرعب وناديت ويللي الذي تمكن من جرجرة نفسه إلى جانبي، وتشبثت بيده كأنها طوق نجاة في أسوأ عاصفة يمكن تخيلها. كنت عاجزة عن الكلام وعن فتح عيني. ضعت في دوامة من الصور الهندسية والألوان المتلألئة التي بدت فاتنة في أول الأمر، ثم صارت خانقة بعد ذلك. شعرت بأنني أتخلص من جسدي، وأن قلبي ينفجر، وأغرق في غم رهيب. رجعت عندئذ لأكون الطفلة العالقة بين شياطين المرايا وأشباح الستائر.

بعد قليل تلاشت الألوان وظهرت الصخرة السوداء التي تستقر، شبه منسية، في صدري، متوعدة مثل بعض جبال بوليفيا. عرفتُ أنه عليّ أن أزيحها من طريقي وإلا فإنني سأموت. حاولت تسلقها، فكانت زلقة. أردت الدوران حولها، فكانت هائلة. بدأتُ بانتزاع قطع منها، فلم يكن للمهمة نهاية. وبينما كان يتعاظم اليقين بأن

---

[1] التشامانية: نسبة إلى التشامان، وهو الساحر في بعض القبائل الأمازونية.

الصخرة تتضمن كل شرور العالم، كنت أمتلئ بالشياطين. لا أدري كم من الوقت ظللت على تلك الحال، حيث لم تكن للزمن أي علاقة بزمن الساعات. وفجأة أحسست بصدمة كهربائية من الطاقة، خبطّتُ الأرض خبطة قوية بقدمي وارتفعت فوق الصخرة. رجعتُ لبرهة إلى جسدي؛ متلوية من القرف، وبحثت بالتلمس عن الدلو الذي كنت قد وضعته في متناول يدي وتقيأت مرارة. غثيان، ظمأ، رمل في الفم، شلل. سمعتُ، أو فهمت، ما كانت تقوله جدتي: الفضاء مملوء بالحضورات وكل شيء يحدث بالتزامن. كانت الصور متراكبة وشفافة، مثل اللوحات التوضيحية المطبوعة على أوراق خلات في الكتب العلمية. هِمتُ على وجهي في حدائق تنمو فيها نباتات متوعدة ذات أوراق لحمية، وفطور ضخمة تفرز سُمّاً، وأزهار خبيثة. رأيت طفلة في حوالي الرابعة، منكمشة على نفسها، مرعوبة؛ مددت يدي لأساعدها على النهوض، فكانت أنا. فترات وشخصيات مختلفة تنتقل من لوحة إلى أخرى. ووجدت نفسي معي في لحظات مختلفة وفي حيوات أخرى. تعرفت إلى عجوز ذات شعر رمادي، ضئيلة، ولكنها منتصبة القامة وبعينين لامعتين؛ يمكن لها أن تكون أنا نفسي مع بضع سنوات زائدة، ولكني لست متأكدة، لأن العجوز كانت وسط حشد مضطرب.

سرعان ما تلاشى هذا العالم المأهول، ودخلتُ في فضاء أبيض وصامت. كنت أطفو في الجو، لقد كنت نسراً يفرد جناحيه الكبيرين، يحملني الهواء، وأرى العالم من علٍ، حرة، متسلطة، متوحدة، قوية، غير مبالية. هناك ظل ذلك الطائر لوقت طويل، ثم صعد فوراً إلى مكان آخر، أكثر مجداً، اختفى فيه الشكل ولم يبق سوى الروح. انتهى النسر، والذكريات والمشاعر. لم يعد لي وجود، لقد ذبتُ في الصمت. ولو كان لي أدنى قدر من الوعي أو الرغبة، لكنت بحثت عنكِ، يا باولا. بعد انقضاء وقت طويل جداً رأيتُ دائرة صغيرة، كأنها قطعة عملة فضية، فاتجهتُ نحوها مثل

سهم، اجتزت الثقب ودخلت دون مشقة في فراغ مطلق، في فضاء رمادي لامع وعميق. لم يكن ثمة إحساس، أو روح، أو أدنى وعي فردي؛ ولكنني كنت أشعر مع ذلك بحضورٍ إلهي ومطلق. لقد كنت في داخل الربة. إنه الموت أو المجد الذي يتكلم عنه الأنبياء. إذا كان هذا هو الموت، فإنكِ موجودة في بُعد عصي على البلوغ، ومن العبث التخيل أنك ترافقينني في الحياة اليومية، أو أنكِ تساعدينني في مهماتي، وطموحاتي، ومخاوفي، وأباطيلي.

رجعتُ بعد ألف سنة، مثل حاجّة مستنفدة، إلى الواقع اليومي عبر الطريق نفسه الذي اجتزته في الذهاب، ولكنه طريق معكوس؛ اجتزت القمر الفضي الصغير، طفوت في فضاء النسر، نزلت إلى السماء البيضاء، غرقت في صور نفسية ساحرة، ودخلت أخيراً في جسدي البائس الذي كان يقبع مريضاً منذ يومين، يعتني به ويللي الذي بدأ يظن أنه فقد امرأته في عالم الأرواح. ففي تجربته مع الأياهواسكا، لم يصعد ويللي إلى المجد ولم يدخل إلى الموت، بل ظل قابعاً في مطهر بيروقراطي، يقلّب أوراقاً، إلى أن فارقه تأثير المخدر بعد بضع ساعات. وفي أثناء ذلك كنتُ ملقاة على الأرض، حيث وفر لي هو بعد ذلك وضعاً مريحاً بدثار وبعض الوسائد، مرتجفة، مغمغمة بكلمات غير مترابطة، ومتقيئة الكثير من الزبد الذي يصير في كل مرة أكثر بياضاً. كنتُ مضطربة في البدء، ولكنني استرخيت بعد ذلك دون حراك، ولم يبدُ عليّ أنني أعاني، كما قال ويللي.

اليوم الثالث، وكنت قد استعدت الوعي، أمضيته في فراشي وأنا أستعيد كل لحظة من تلك الرحلة الاستثنائية. كنت أعلم أنه صار بمقدوري كتابة الثلاثية، لأنه صارت لدي، حيال عشرات المخيلة، وسيلة العودة إلى تصور الكون بزخم الأياهواسكا، وهو مشابه لكون طفولتي. فاجأتني مغامرة المخدر بشيء لا يمكن لي أن أحدده إلا بأنه الحب، انطباع بالوحدة: لقد ذبتُ في الألوهة،

أحسست أنه لا انفصال بيني وبين كل ما هو موجود، فكل شيء كان نوراً وصمتاً. وتبقى لي اليقين بأننا أرواح، وبأن ما هو مادي ليس إلا وهماً، وأنه شيء لا يمكن إثباته عقلانياً، ولكنني استطعتُ اختباره أحياناً بصورة مقتضبة في لحظات حماسة حيال الطبيعة، أو لحظات حميمة مع شخص محبوب، أو بالتأمل. وتقبلت أن حيواني الطوطمي في هذه الحياة البشرية هو النسر، هذا الطائر الذي يطفو في رؤاي ناظراً من علو شاهق. وهذا العلو الشاهق هو الذي يتيح لي رواية القصص، لأني أتمكن من رؤية الزوايا والآفاق. يبدو لي أنني ولدت لأروي وأروي. كان جسدي يؤلمني، ولكنني لم أشعر قط بامتلاكي مثل ذلك الإلهام. بين كل مغامرات حياتي المضطربة، التجربة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بهذه الزيارة إلى بُعد الشامانات هي موتكِ، يا بنتي. ففي الحالتين حدث شيء لا تفسير له وعميق، أدى إلى تحولي. فلم أعد إلى أن أكون أنا نفسي بعد ليلتكِ الأخيرة، وبعد شرب ذلك الشراب القوي: لقد فقدتُ الخوف من الموت وجرّبت خلود الروح.

إمبراطورية الرعب

الثلاثاء، الحادي عشر من أيلول 2001 كنت أستحم تحت الدوش عندما رنّ الهاتف، في وقت مبكر من الصباح. كانت المتصلة أمي، من تشيلي، مرعوبة من الخبر الذي كنا لا نزال نجهله، لأن التوقيت في كاليفورنيا يتأخر ثلاث ساعات عن الساحل الآخر في البلاد، وكنا قد خرجنا لتونا من الفراش. حين سمعتُ صوتها ظننت أنها تحدثني بمناسبة ذكرى الانقلاب العسكري في تشيلي، وقد كان كذلك هجمة إرهابية ضد الديمقراطية، نتذكره كل سنة كحداد: إنه الثلاثاء، الحادي

عشر من أيلول 1973. أشعلنا التلفزيون ورأينا مرة وألف مرة الصور نفسها للطائرتين تصطدمان ببرجي مركز التجارة العالمي، وقد ذكّرتاني بقصف العسكريين لقصر لامونيدا في تشيلي، حيث قُتل الرئيس سلفادور ألليندي. هرعنا إلى المصرف كي نسحب نقوداً ونتمون بالماء، والبنزين، والأغذية. أُلغيت الرحلات الجوية، وظل آلاف المسافرين عالقين، امتلأت الفنادق واضطروا إلى وضع أسرة في الممرات. كان عليّ في تلك الأيام أن أذهب في رحلة ترويج للكتب في أوروبا، ولكنني اضطررت إلى إلغاء الرحلة. وبلغ الضغط على خطوط الهاتف حداً لم تستطع لوري معه الاتصال بوالديها خلال يومين، مثلما لم أستطع أنا الاتصال بوالدي في تشيلي. انتقل نيكو ولوري إلى بيتنا مع أطفالهما الذين ظلوا معهما خلال ذلك الأسبوع ولم يذهبوا إلى المدرسة لأن الدراسة تعطلت. لقد كنا نشعر بطمأنينة أكبر ونحن معاً.

لم يستطع أحد خلال أيام أن يذهب إلى عمله في منهاتن. كانت تطفو في الجو سحابة من الغبار، وكانت الأنابيب المكسرة تطلق غازات سامة. وبينما كان الاضطراب لا يزال مخيماً تلقينا أخباراً من جيسون. أخبرنا أن الوضع بدأ يتحسن ببطء في نيويورك. وأنه مشى في الليل باتجاه منطقة الكارثة وهو يحمل رفشاً ويضع خوذة كي يساعد فرق الإنقاذ المستنفدة. مرّ بجانب عشرات المتطوعين العائدين من ساعات عمل طويلة بين الأنقاض وهم يعقدون قطع قماش بيضاء حول أعناقهم، تكريماً للضحايا العالقين في البرجين الذين لوحوا بمناديل من النوافذ مودعين. الدخان يظهر من بعيد والأنقاض ترتفع. النيويوركيون يشعرون بأنهم مضروبون. تُسمع صفارات وتندفع سيارات إسعاف فارغة، لأنه لم يبق هناك أحياء، بينما عشرات كاميرات التلفزيون تصطف بالقرب من المنطقة المحاطة برجال المطافئ. كانوا يتوقعون هجمات أخرى، ولكن لم يكن هناك من يتكلم بجد عن ترك المدينة. فنيويورك لم تفقد

طابعها الطموح، القوي، والرؤيوي. عند وصوله إلى موقع الكارثة، وجد جيسون نفسه بين متطوعين كثيرين مثله؛ مقابل كل ضحية اختفت بين الأنقاض هناك عدة أشخاص مستعدين للبحث عنها. وكلما مرّت شاحنة محملة بالعمال، كانت الحشود تحييها بصرخات التشجيع. متطوعون آخرون كانوا يحملون الماء والطعام. وحيث كان ينتصب البرجان، صار هناك ثقب أسود مدّخن. «إنه أشبه بحلم خبيث»، قال لنا جيسون.

سرعان ما بدأ قصف أفغانستان. كانت الصواريخ تنهمر كالمطر على الجبال التي يختبئ فيها حفنة من الإرهابيين الذين لا يريد أحد مواجهتهم وجهاً لوجه، مسوية العالم بدويها. وفي أثناء ذلك كان الشتاء ينتشر، وبدأ نساء وأطفال بالموت برداً في مخيمات اللاجئين: إنها آثار جانبية. أما في الولايات المتحدة فكان جنون الخوف يتعاظم. صار الناس يفتحون الرسائل وهم يضعون قفازات وأقنعة خوفاً من احتمال وجود فيروس الجدري أو الأنتراكس، سلاح التدمير الشامل المزعوم. أصابتني عدوى رعب الآخرين، وخرجت للحصول على «سايبرو»، وهو مضاد حيوي شديد الفعالية يمكن له أن ينقذ أحفادي في حالة حرب جرثومية. غير أن نيكو قال لي إننا إذا ما أعطينا الأطفال هذه الأقراص لدى ظهور أول أعراض الرشح عليهم، فإنها لن تكون فعالة بعد ذلك إذا ما أصيبوا بمرض جدّي. إنه أشبه بقتل الذباب بقذائف المدافع. «اهدئي يا أماه، لا يمكن الاحتياط لكل شيء»، قال لي. عندئذ تذكرتُ، يا بنتي، الانقلاب العسكري في تشيلي، ولحظات عجز كثيرة أخرى في حياتي. ليست لدي القدرة على التحكم بالأحداث الجوهرية، تلك التي تحدد مسار الحياة، وبالتالي من الأفضل لي أن أسترخي. الهستيريا الجماعية أنستني هذا الدرس الرهيب لعدة أسابيع، لكن تعليق نيكو أعادني إلى الواقع.

جولييت والطفلان اليونانيان

بينما كنت أقوم بأبحاثي من أجل كتابة ثلاثية روايات الفتيان، تعرفت في مكتبة بوك باسيج على جولييت، شابة أمريكية جميلة جداً، وحبلى جداً، تكاد لا تستطيع الحفاظ على توازن أضخم بطن أتيحت لي رؤيته. كانت تنتظر توءماً، ولكنه ليس لها، وإنما لزوجين آخرين؛ وقد قدّمت هي البطن فقط، مثلما قالت لي. لقد كانت مبادرة إثارية من جانبها، ولكنني حين عرفت قصتها بدت لي رهيبة.

عندما كانت في العشرين وبضع سنوات، بعد تخرجها من الجامعة، قامت جولييت برحلة إلى اليونان، وهي الوجهة المنطقية لمن درست الفن. وهناك، في جزيرة رودس، تعرفت على مانولي، وهو يوناني متدفق الحيوية، له شعر طويل ولحية مشذبة، عينان مخمليتان وشخصية آسرة أغوتها على الفور. كان الرجل يستخدم بناطيل قصيرة جداً، فإذا ما انحنى أو جلس منفرج الساقين تظهر أجزاء حيائه. ويخيل إليّ أنها كانت استثنائية، لأن النساء كن يطاردنه في أزقة قريته ليندوس. وكان لمانولي لسان ذهبي، ويمكنه أن يبقى اثنتي عشرة ساعة في ساحة القرية أو في أحد المقاهي، يروي حكايات دون توقف، يحيط به مستمعون منومون بصوته. وقد كانت قصة أسرته رواية قائمة بذاتها: الأتراك قطعوا رأس جده وجدته أمام أعين أبنائهما السبعة الذين أُجبروا على السير من البحر الأسود حتى لبنان، مع مئات الأسرى اليونانيين الآخرين. وفي طريق الآلام ذاك مات ستة من الأخوة، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى أبي مانولي وحده، وكان عمره آنذاك ست سنوات. ومن بين السائحات الكثيرات اللواتي اكتسبن اللون البرونزي تحت الشمس، والمستعدات للتقلب معه على رمال اليونان الساخنة، اختار مانولي جولييت لمظهرها البريء وجمالها. وأمام مفاجأة سكان

الجزيرة الذين يعتبرونه عازباً أبدياً لا خلاص له، عرض عليها الزواج. كان قد تزوج قبل ذلك، ويا للأمر المثير للفضول، من امرأة تشيلية، هربت مع أستاذ يوغا في يوم حفلة الزفاف. لم تكن القصة واضحة، ولكن ألسنة النميمة تقول إن منافسه وضع عقار هلوسة في شراب مانولي الذي استيقظ في اليوم التالي في مؤسسة علاج نفسي، وفي أثناء ذلك كانت زوجته اللعوب قد اختفت. ولم يُعرف بعدَ ذلك أي شيء عن التشيلية. ومن أجل الزواج من جديد كان عليه أن يقوم بإجراءات قانونية كي يثبت أنها هي من هربت من الزواج، لأنه لم يكن هناك من يوقّع وثائق طلاق.

كان مانولي يعيش في مسكن قديم فوق جرف يطل على بحر إيجة، وكان البيت مخصصاً منذ مئات السنين لحراس متتالين يرصدون الأفق. وعند رؤيتهم سفناً معادية، عليهم امتطاء حصان، يكون مسروجاً وجاهزاً على الدوام، والجري خمسين كيلومتراً حتى مدينة رودس الأسطورية، التي أسسها الآلهة، كي يطلق صرخة الإنذار. وضع مانولي موائد في الخارج، وحوّله إلى مطعم. وفي كل سنة كان يطلي البيت بطبقة من الطلاء الأبيض، مع طلاء بني للنوافذ، مثلما هي بيوت القرية الحالمة كلها، حيث لا وجود لسيارات، ويعرف الناس بعضهم بعضاً بالاسم. وكانت قرية ليندوس، المتوجة بأكروبولها الخاص، تبدو هي نفسها تقريباً منذ قرون طويلة، دون إضافة أخرى غير قلعة قروسطية، صارت أطلالاً. لم تتردد جولييت في الموافقة على الزواج، بالرغم من أنها كانت تعرف منذ البداية أنه لا سبيل إلى لجم ذلك الرجل. ولكي تتجنب آلام الغيرة ومذلة أن يأتي أحدهم ليخبرها بنميمة ما، قالت لمانولي إنه يمكن له أن يخوض ما يحلو له من المغامرات العاطفية، ولكن عليه ألا يفعل ذلك من وراء ظهرها؛ وأنها تفضل أن تعلم بتلك المغامرات. شكرها مونولي، ولكنه كان يملك بالطبع ما يكفي من الخبرة التي تتيح له عدم اقتراف حماقة الاعتراف بخيانة زوجية.

وبفضل ذلك عاشت جولييت مطمئنة وعاشقة. عاشا معاً ست عشرة سنة في ليندوس.

كان المطعم يستغرق كل وقتهما خلال الموسم العالي، ولكنهما كانا يغلقانه في الشتاء، ويستغلان الفرصة عندئذ للسفر. كان مانولي ساحر مطبخ. يحضّر كل شيء في لحظته، اللحوم والأسماك المشوية، والسلطات الطازجة. وكان هو نفسه من يختار كل سمكة تأتي بها مراكب الصيادين من البحر عند الفجر، وكل حبة خضار تأتي من البساتين على ظهور البغال؛ وهكذا تجاوزت سمعته حدود الجزيرة. وكانت الطريق من القرية حتى الجرف الذي يقوم عليه المطعم تستغرق عشرين دقيقة من المشي بخطوات مريحة. ولم يكن الزبائن متعجلون، لأن المنظر البديع يدعو للتأمل. ويبقى معظمهم الليل بطوله لمتابعة مسار القمر فوق الأكروبول والبحر. وكانت جولييت بفساتينها القطنية الرقيقة، وصندلها، وشعرها الكستنائي الكثيف المفلت على كتفيها، ووجهها التقليدي، تبدو أكثر جاذبية من الطعام. أشبه بسادنة معبد إغريقي قديم، وتلفت النظر كذلك لأنها تتكلم بلكنة أمريكية. كانت تنزلق حاملة الصواني بين الزبائن، رقيقة ولطيفة على الدوام، على الرغم من صخب الزبائن المزدحمين في المحل والمنتظرين عند الباب. لم تفقد صبرها إلا في مناسبتين اثنتين، ومع سائحين أمريكيين في المرتين كلتيهما. في المرة الأولى عمد بدين محمّر بالشمس والإفراط في شرب الأوزو، إلى رفض الطبق ثلاث مرات لأنه ليس مثلما يريده بالضبط، وفعل ذلك بأسلوب بالغ السوء. فحملت إليه جولييت المستنفدة من ليلة عمل طويلة طبقاً رابعاً، ودون أي تعليق سكبته فوق رأسه. وفي المرة الثانية كان السبب أفعى تسلقت على قائمة إحدى المناضد وتقدمت متماوجة نحو طبق سلطة، وسط صرخات هستيرية أطلقتها جماعة أمريكيين من ولاية تكساس، ممن لا شك في أنهم رأوا أفاعي أطول من تلك في

موطنهم؛ لم يكن ثمة مبرر لإخافة الزبائن بذلك الصراخ. تناولت جولييت سكيناً كبيراً من المطبخ، وبأربع ضربات كاراتيه قطعت الحية إلى خمس قطع. «سآتيكم بطبق جراد البحر فوراً»، كان هذا هو كل ما قالته.

تحملت جولييت عن طيبة خاطر نزوات مانولي ـ وهو زوج غير سهل بأي حال ـ لأنه أكثر من عرفت من الرجال ميلاً إلى المتع وأشدهم عاطفة. فجميع الرجال يبدون تافهين بالمقارنة معه. هناك نساء كن يقدمن لمانولي مفاتيح غرفهم في الفندق على مرأى منها، فكان يرفضها بمزحة لا تُقاوم، بعد أن يأخذ رقم الغرفة كما يجب. أنجبا ابنين جميلين مثل أمهما: أرسطوطاليس، ثم أخيل بعد أربع سنوات. وكان الصغير لا يزال في الحفاض عندما ذهب أبوه إلى تسالونيك كي يستشير طبيباً لأنه يشعر بألم في عظامه. ظلت جولييت مع الطفلين في ليندوس تتابع العمل في المطعم بأفضل ما تستطيع. لم تولِ كبير اهتمام إلى توعك زوجها لأنها لم تسمعه يشكو قط. وكان مانولي يتصل بها يومياً ليحدثها عن أمور تافهة، دون أن يذكر شيئاً عن صحته. وعندما تسأله يرد بالتهرب وبالوعد بأنه سيرجع قبل أقل من أسبوع، بعد أن يعرف نتائج الفحوص. ومع ذلك، في اليوم نفسه الذي كانت تنتظر عودته، رأت رتلاً طويلاً من الأصدقاء والجيران يصعدون الرابية ويصلون إلى باب بيتها عند الغروب. أحست بخطاف في عنقها وتذكرت أن صوت زوجها، وهي تحدثه بالهاتف، في اليوم السابق، قد انكسر في إجهاشة عندما قال لها: «إنك أم جيدة، يا جولييت». كانت قد فكرت في هذه الجملة غير المتوقعة من مانولي الذي لا يسرف في التودد إليها. وفي تلك اللحظة انتبهت إلى أنها كانت عبارة وداع. الوجوه الحزينة للرجال المجتمعين أمام باب بيتها وعناق النساء الجماعي أكدت شكوكها. لقد مات مانولي بسرطان صاعق، ولم يكن هناك من يشك في أنه مريض، لأنه رتب الأمور لمواراة آلام عظامه المنخورة

بالداء. دخل المستشفى وهو يعرف أن ساعته قد أزفت، ولكن الكبرياء منعه من جعل زوجته وطفليه يرونه وهو يحتضر. جمع الجيران في ليندوس جهودهم واشتروا تذاكر الطائرة لجولييت والطفلين. وأعدت النساء لها الحقيبة، وأغلقوا البيت والمطعم، ورافقتهم إحدى الجارات إلى تسالونيك.

تنقلت الأرملة الشابة من مستشفى إلى آخر بحثاً عن زوجها، لأنها لم تكن تدري أين هو، إلى أن اقتادوها أخيراً إلى قبو، لم يكن أكثر من مغارة في الأرض، كتلك التي يستخدمونها لحفظ النبيذ، وكان هناك جسد ممدد على لوح خشبي، لا تغطيه سوى ملاءة. أحست لأول وهلة بالراحة، لأنها اعتقدت أنها وقعت ضحية خطأ رهيب. فتلك الجثة الصفراء والهيكلية التي تبدو عليها آثار المعاناة، لا تشبه الرجل المرح والمفعم بالحياة الذي كانه زوجها؛ غير أن الممرض الذي يرافقها رفع في تلك اللحظة المصباح الذي يحمله، وتعرفت جولييت على مانولي. وكان عليها في الساعات التالية أن تستخرج قوة من أعمق أعماقها، وأن تجد مكاناً في المقبرة، وأن تدفن زوجها دون طقوس. وبعد ذلك أخذت ابنيها إلى ساحة، وبين الأشجار والحمائم أوضحت لهما أنهما لن يعودا إلى رؤية أبيهما، ولكنهما سيشعران بوجوده في أحيان كثيرة إلى جانبهما، لأن مانولي سيرعاهما على الدوام. كان آخيل أصغر من أن يدرك فداحة خسارته، بينما أحس أرسطوطاليس بالرعب. وفي تلك الليلة بالذات، استيقظت جولييت مفزعة بيقين أن هناك من يقبّلها من فمها. أحست بشفتي زوجها الناعمتين، وأنفاسه الدافئة، ومداعبة لحيته، فقد جاء زوجها ليقدم لها قبلة الوداع التي لم يقدمها لها من قبل، عندما كان يحتضر وحيداً في المستشفى. ما قالته لابنيها من أجل مواساتهما كان حقيقة مطلقة: مانولي سيسهر على رعاية أسرته.

❖ ❖ ❖

رص أهالي ليندوس الصفوف حول الأرملة الشابة وابنيها، ولكن ذلك الاحتضان لم يكن قادراً على إقامة أودهم لزمن غير محدود. وكان من المستحيل على جولييت أن تدير المطعم وحدها، ولأنها لم تجد عملاً آخر في الجزيرة، قررت أن الوقت قد حان للقاء مع ذويها والعودة إلى كاليفورنيا، حيث يمكنها الاعتماد على مساعدة أبويها على الأقل. تغيرت الحياة بالنسبة للطفلين اللذين ترعرعا حرين وآمنين، يلعبان حافيين في شوارع القرية البيضاء، حيث الجميع يعرفهما. حصلت جولييت على شقة متواضعة، هي جزء من مشروع لإحدى الكنائس، ووجدت عملاً في مكتبة بوك باسيج. ولم يكن قد استقر بها المقام بعد عندما أُطلعت أمها على أنها مصابة بمرض عضال، وكان عليها أن تشارك بدفنها بعد بضعة شهور. وبعد سنة من ذلك مات أبوها. لقد كانت محاطة بكثير من الموت. ولهذا، حين علمت بأن هناك زوجين يبحثان عن بطن يحمل ابناً لهما، عرضت نفسها دون أن تفكر في الأمر طويلاً، آملة أن تكون هذه الحياة في أحشائها عزاء لها عن الميتات الكثيرة، وأن تمنحها الدفء. لقد تعرفتُ عليها وهي مشوهة بالحمل، ساقاها متورمتان، وفي وجهها بقع، وعيناها محاطتان بالزرقة. كانت متعبة جداً، ولكنها سعيدة. واصلت العمل في المكتبة إلى أن اضطرت لترك العمل بأمر طبي، وأمضت الأسابيع الأخيرة مستلقية على صوفا، منهكة من ثقل بطنها. في أقل من أربع سنوات فقد أرسطوطاليس وآخيل أباهما وجديهما؛ لقد كانت حياتاهما القصيرتان موسومة بالموت. فكانا يتشبثان بأمهما، وهي الوحيدة المتبقية لهما، مع شعورهما بخوف لا مفر منه، بأنها قد تختفي أيضاً، وبسبب ذلك الخوف بالذات بدا غريباً لي إقدام جولييت على المجازفة بذلك الحمل.

ـ من هما أبوا التوءم؟ ـ سألتها.

ـ أكاد لا أعرفهما. الاتصال بهما تم عن طريق جماعة ألتقي

بها كل أسبوع. وهي جماعة من الكبار والأطفال الذين عانوا الحداد. لقد ساعدتنا هذه الجماعة كثيراً، وصار أرسطوطاليس وآخيل يعرفان الآن أنهما ليسا الوحيدين اللذين بلا أب.

ـ اتفاقك مع الزوجين كان على الحبل بطفل واحد، وليس اثنين. لماذا ستقدمين لهما طفلاً آخر؟ أعطيهما واحد فقط، وأعطيني الآخر لي.

انفجرت جولييت في الضحك وقالت لي إن أياً من الجنينين ليس لها، فهناك اتفاقات وحتى عقود قانونية حول البويضات، والحيوانات المنوية، والأبوة وكل أنواع المشاكل، ولهذا لا يمكن لي الاستحواذ على طفل من التوءم. يا للأسف، فالأمر ليس مثل ولادة زمرة جراء.

جولييت هي الربة أفروديت، كل ما فيها عذوبة ووفرة: تكورات، ثديان، شفتا تقبيل. لو أنني تعرفت عليها من قبل لكانت صورتها هي التي زينت كتابي حول الطعام والحب. وقد دخلت هي والطفلان اليونانيان، مثلما نسمي ابنيها، ليشكلوا جزءاً من أسرتنا بالطبع، وعندما أعدّ الأحفاد الآن، عليّ أن أضيف اثنين آخرين. وهكذا تكاثرت القبيلة، هذه الجماعة المباركة حيث تتكاثر السعادة ويجري تقاسم الأحزان. أشهر مدرسة خاصة في الكونتية قدمت منحة إلى أرسطوطاليس وآخيل، وبضربة حظ توصلت جولييت إلى استئجار بيت مع حديقة في حيِّنا. وصار الجميع الآن: نيكو، لوري، إرنستو، غيليا، جولييت، ونحن، نعيش في دائرة قطرها بضعة كوادرات، ويمكن للأطفال أن يذهبوا من بيت إلى آخر مشياً على الأقدام أو على الدراجة. وقد ساعدتها الأسرة في الانتقال، وبينما كان نيكو يصلح الأعطال في البيت، كانت لوري تعلق لوحات، وينصب ويللي سياجاً، وكنت أنا أستدعي مانولي كي يعتني بأسرته من الجانب الآخر، مثلما وعد بتلك القبلة التي ودع بها زوجته بعد موته.

بعد ظهر أحد الأيام، بينما نحن جالستان حول المسبح في بيتنا، وويللي يحاول أن يعلم آخيل السباحة، لأن الصغير يخاف الماء ولكنه يموت حسداً وهو يرى الأطفال الآخرين يلعبون في المسبح، سألتُ جولييت كيف أمكن لها، وهي شديدة الأمومة، أن تحبل بطفلين طوال تسعة شهور، وتُخرجهما إلى النور، وتودعهما في اليوم نفسه.

- إنهما ليسا لي، لقد كانا في جسدي لبعض الوقت فقط. حين كنت أحملهما في أحشائي عنيت بهما وأحسست بالحنان، ولكن ليس بذلك الحب المستحوذ الذي أشعر به نحو أرسطوطاليس وآخيل. لقد كنت أعرف طوال الوقت أنهما سينفصلان عني. وعندما ولدا، حملتهما للحظات بين ذراعي، قبّلتهما، وتمنيت لهما حظاً سعيداً، وسلمتهما لأبويهما اللذين أخذاهما فوراً. بعد ذلك عانيت آلاماً في ثديي الممتلئين بالحليب، ولكنني لم أشعر بألم في القلب. لقد فرحت للزوجين اللذين كانا يرغبان بشدة في أن يكون لهما أبناء.

- وهل ستعيدين عمل ذلك؟

- لا، لأنني صرت في الأربعين تقريباً، والحمل يستنزف المرأة كثيراً. ولكنني قد أفعل ذلك من أجلك أنتِ فقط، يا إيزابيل - قالت لي.

- من أجلي؟ لا سمح الله! أقل ما أرغب فيه وأنا في هذه السن هو طفل - قلتُ ضاحكة.

- لماذا طلبتِ مني إذاً أن أسرق أحد التوءمين وأعطيكِ إياه؟

- لم أكن أريده لي، وإنما للوري.

جيسون وجودي

أفضل مزايا ويللي، في نظر أمي، هو أنه «مستجيب جيد للطلبات». فهي لم يخطر لها قط أن تتصل هاتفياً بالعم رامون في المكتب كي يمر في طريق عودته لشراء بعض السردين من أجل العشاء، أو أن تطلب منه خلع حذائه، وأن يصعد على كرسي وينظف بمنفضة الريش القسم العلوي من قطعة أثاث، وهي أمور يقوم بها ويللي بكل تلقائية. أما أنا، فأكثر ما أقدره في زوجي هو تفاؤله العنيد. ليست هناك طريقة لانهيار ويللي وغرقه. لقد رأيته يقع على ركبتيه في بعض الأحيان، ولكنه سرعان ما ينهض، ينفض الغبار، ويعتمر القبعة، ويواصل قُدماً. لقد تعرض لمشاكل كثيرة مع أبنائه، ولو كنت مكانه لأصبتُ باكتئاب لا شفاء منه. فهو لم يعانِ مع جنيفر فقط، وإنما كذلك مع ابنيه الآخرين اللذين عاشا حياة دراماتيكية بسبب إدمانهما على المخدرات. لقد ساعدهما ويللي دوماً، ولكنه راح يفقد الأمل مع مرور السنوات؛ ولهذا السبب يتشبث بجيسون.

ـ لماذا كنتَ أنت الوحيد الذي تعلم شيئاً مني؟ الآخران لا يفعلان شيئاً سوى الطلب: أعطني، أعطني، أعطني ـ قال له ويللي في أحد الأيام.

ـ إنهما يريان أن لهما الحق بالطلب لأنهما ابناك، أما أنا فلستَ مديناً لي بأي شيء. فأنت لست أبي وقد اهتممت بي على الدوام. فكيف لا أهتم بما تقوله لي؟ ـ أجابه جيسون.

ـ إنني فخور بك ـ زمجر ويللي موارياً ابتسامته.

ـ هذا لا يساوي شيئاً، فلستَ صاحب الحول والطول، يا ويللي.

تأقلم جيسون مع نيويورك، أكثر مدن العالم تسلية، حيث يعمل بنجاح، وله أصدقاء، ويعيش من الكتابة، وقد وجد الفتاة التي كان يبحث عنها، وهي «جديرة بالثقة مثل ويللي»، وقد تخرجت جودي من هارفارد وتعمل في الكتابة حول الجنس والعلاقات الحميمة وفي

مجلات نسائية. إنها ابنة أم كورية وأب أمريكي، جميلة، ذكية، وذات طبع مستقل بشراسة مثلي. ليست قادرة على التسامح مع فكرة أن هناك من يعيلها، لأنها رأت أمها ـ وكانت تكاد لا تتكلم الإنكليزية ـ خاضعة تماماً لأبيها الذي تركها في الوقت المناسب ليذهب مع امرأة أكثر شباباً منها. وقد استطاعت جودي تخليص جيسون من نقيصة استغلال مأساته في إغواء الفتيات. فبقصة الخطيبة التي هجرته لتذهب مع زوجة الأخ، كان يحصل على ما يشاء من المواعيد، ولم يكن يفتقد كتفاً أنثوياً، وما هو أكثر من ذلك، يجد فيه العزاء. غير أن هذه الطريقة لم تنفع مع جودي، لأنها تعلمت منذ وقت مبكر الاعتماد على نفسها فقط، وليست ممن يميلون إلى الشكوى. شعرت بالأسف لما عاناه، ولكن لم يكن هذا هو ما شدها إليه. عندما تعارفا كان قد مضى عليها أربع سنوات وهي تعيش مع رجل آخر، لكنها لم تكن سعيدة.

ـ هل أنت مغرمة به؟ ـ سألها جيسون.

ـ لست أدري.

ـ إذا كان من الصعب عليك الإجابة عن هذا السؤال، فربما لأنك لا تحبينه.

ـ وما أدراك أنت! ليس لك الحق بقول هذا! ـ ردت عليه حانقة.

تبادلا قبلة، ولكن جيسون قال لها إنهما لن يعودا إلى مجرد التلامس إلى أن تهجر ذلك الرجل؛ لأنه غير مستعد لأن يُلقى به إلى القمامة مرة أخرى. وخلال أسبوع خرجت هي من الشقة الرائعة التي كانت تعيش فيها، وهو ما يبدو أنه أقصى دليل على الحب في نيويورك، وانتقلت إلى بيت صغير مظلم وبعيد جداً عن مركز المدينة. مضى وقت طويل قبل أن تستقر العلاقة، لأنه كان لا يزال فاقداً الثقة بالنساء عموماً وبالزواج بصورة خاصة، لاسيما وأن أبواه، وزوجات أبيه، وأزواج أمه عرفوا الطلاق مرة، ومرتين، وحتى ثلاث مرات أحياناً. وذات يوم طلبت منه جودي ألا يجعلها تدفع ثمن

خيانة سالي له. وهذا الطلب، إضافة إلى واقع أنها كانت تحبه على الرغم من مقاومته لتقبل أي التزام، دفعه إلى إعادة التفكير. وأخيراً استطاع خفض دفاعاته والضحك من الماضي. بل صار يتصل الآن بين حين وآخر بسالي عن طريق البريد الإلكتروني. وقد قال لي: «يسعدني أنها ظلت مع سيليا لكل هذا الوقت الطويل، فهذا يعني أنها لم تهجرني من أجل نزوة عابرة. الكثيرون عانوا، ولكن شيئاً جيداً تمخض عن هذه المشكلة في نهاية الأمر».

وجودي، حسب رأي جيسون، هي أكثر شخصية وقورة عرفها، بلا أدنى قدر من التكلف أو الخبث. قسوة العالم تفاجئها دوماً، لأنه لا يخطر لها إلحاق الضرر بأحد. تحب الحيوانات. وعندما تعارفا، كانت ترافق كلاباً مهجورة في نزهات على أمل أن تجد من تروقه تلك الكلاب. وكانت في ذلك الحين تخرج مع توبي، وهو كلب مثير للشفقة، أشبه بجرذ بلا وبر، يبول دون كابح ويعاني من نوبات صرع، ويظل عندئذ بقوائمه الأربع متيبسة إلى أعلى، ويفلت الزبد من فمه. وكان لا بد من إعطائه أدوية كل أربع ساعات بانتظام، إنه استعباد حقيقي. وكان هو الكلب الرابع الذي تتولى مسؤوليته، غير أنه لم يكن ثمة أمل في أن ينال ذلك الرعب إعجاب أحد يتبناه. وهكذا أخذته إلى جيسون كي يرافقه بينما هو يكتب. وأخيراً احتفظا هما بتوبي المسكين.

كان جيسون قد أمضى أكثر من سنة متعاقداً مع مجلة للرجال، واحدة من تلك المجلات ذات الصفحات الملونة بصور فتيات شبقات مفتوحات الشفاه والسيقان، عندما كلفوه بكتابة ريبورتاج حول جريمة غريبة عن شاب قتل أفضل صديق له في صحراء نيو مكسيكو، حيث ذهبا للتخييم. لقد ضلا الطريق وكانا على وشك الموت، عندما طلب أحدهما من الآخر أن يقدم له موتاً رحيماً، لأنه لا يريد الموت من العطش، فقام الآخر بطعنه. كانت الظروف المحيطة بالقضية غامضة جداً، غير أن القاضي قرر أن القاتل قد

تصرف تحت تأثير جنون سببه له فقدان جسمه للسوائل، وأطلق سراحه بحكم بسيط إلى أدنى الحدود. لم يكن العمل الصحفي سهلاً في القضية، إذ على الرغم من شيوع خبر الجريمة على نطاق واسع، إلا أنها لم تنتهِ بمحاكمة مكائد موسعة، كما أن المتهم، وأصدقاءه وأقرباءه، رفضوا التحدث إلى جيسون الذي اضطر إلى الاكتفاء بما حصل عليه في موقع الأحداث، وبتعليقات حراس الغابات ورجال الشرطة. ومع ذلك، وبذلك القدر الضئيل من المواد، تمكن من منح ريبورتاجه نبرة تسارع رواية بوليسية وتشويقها. وبعد أسبوع من ظهور المجلة في الشارع، كلفته إحدى دور النشر بكتابة كتاب حول القضية، ودفعت له سلفة غير معهودة لكاتب مستجد، ونشرت الكتاب بعنوان *Journal of the Dead*، «يوميات الموت». وقد وقع النص بين يدي منتج سينمائي، وباع جيسون حقوق تحويل الكتاب إلى فيلم. وبين ليلة وضحاها بدأ يمضي على طريق التحول إلى ترومان كابوت التالي. وانتقل بصورة طبيعية من الصحافة إلى الأدب، مثلما كنتُ قد تنبأت عندما عرض عليّ أول مرة إحدى قصصه، وكان في الثامنة عشرة من عمره، يعيش حياة الخمول ملتفاً بدثار في بيت ويللي، ويدخن ويشرب البيرة في الساعة الرابعة بعد الظهر. تلك كانت الفترة التي لم يشأ فيها الانفصال عن الأسرة، ويتصل بنا هاتفياً عند العصر ليسألنا متى سنرجع إلى البيت، وما الذي سنحضره له للعشاء. وهو الابن الوحيد الآن الذي لا يحتاج إلى أية مساعدة. وبالدخل الذي حصل عليه من الكتاب والفيلم، قرر شراء شقة في بروكلين. فاقترحت جودي أن يساهما في الثمن مناصفة، وأمام ذهول جيسون وبقية أفراد الأسرة، أعدت شيكاً بستة أرقام. لقد عملت منذ مراهقتها دون توانٍ، وعرفت كيف تستثمر نقودها، فضلاً عن عيشها حياة بسيطة متقشفة. لقد كسب جيسون الجائزة الكبرى بلقائه بهذه الفتاة، ولكنها كانت ترفض الزواج رسمياً إلا بعد أن يترك التدخين.

الأمّان البوذيتان

لم تكن فو وغريس قد تبنيتا سابرينا رسمياً، لم تفكرا في أنه يمكن لذلك أن يكون ضرورياً، ولكن مُساكن جنيفر القديم خرج من السجن في تلك الأثناء، حيث انتهى به الأمر لخيانة اقترفها، وأعرب عن اهتمامه برؤية ابنته. لم يقبل قط بإجراء فحص للدم للتأكد من أبوته المشكوك فيها، وكان قد فقد على أي حال حقوقه بالأبوة، غير أن صوته في الهاتف أنذر الأُمّين بالخطر. كان الرجل يطلب أخذ الطفلة إليه خلال أيام عطلة نهاية الأسبوع، وهو ما لم تكونا مستعدتين للسماح به، حتى لو كان هو الأب فعلاً، بسبب أسلوب حياته وسوابقه التي لا تمنحهما الثقة. عندئذ قررتا أن الوقت قد حان لإضفاء الشرعية على وضع سابرينا. وقد تزامن ذلك مع موت والد غريس عن خمس وستين سنة، وكان قد دخن مدى الحياة، وحاق الدمار برئتيه، وانتهى به المطاف مربوطاً إلى جهاز تنفس في مستشفى. كان يعيش في أريغون، الولاية الوحيدة في البلاد التي لا يأتي أحد فيها على ذكر القانون عندما يكون الأمر متعلقاً بمريض لا أمل له في الشفاء يختار لحظة موته. وقد قدر أبو غريس أن بقاءه حياً بتلك الحالة السيئة سيكلف ثروة، وليس هناك ما يستحق العناء. استدعى أبناءه، فجاؤوا من أماكن بعيدة، ومن خلال جهاز كمبيوتره الشخصي أوضح لهم أنه دعاهم ليودعهم.

- وإلى أين تنوي الذهاب، يا أبتاه؟
- إلى السماء، إذا ما سمحوا لي بالدخول - كتب على الشاشة.
- ومتى تفكر أن تموت؟ - سألوه مازحين.
- كم الساعة الآن؟ - أراد المريض أن يعرف.
- إنها العاشرة.
- فلنقل في منتصف النهار. ما رأيكم؟

وعند انتصاف النهار بالضبط، وبعد أن ودّع كل واحد من

أبنائه المتفاجئين، وواساهم بأن هذا الحل هو المناسب للجميع، وخاصة له هو نفسه، لأنه لا يفكر في قضاء سنوات متصلاً بآلة التنفس، ولديه فضول كبير لرؤية ماذا يوجد في الجانب الآخر من الموت، فصل الجهاز، ومضى سعيداً.

من أجل إجراءات تبني سابرينا، جاءت قاضية من سان فرانسيسكو، مثلنا أمامها كأسرة. ومن باب قاعة في مبنى البلدية رأينا ممراً طويلاً تتقدم عبره تلك الحفيدة المعجزة ماشية أول مرة دون مساعدة جهاز المشي. كانت هيئتها الضئيلة تتقدم بمشقة هائلة عبر ذلك الطريق اللانهائي المبلط، تتبعها أمّاها اللتان تحرسانها دون لمسها، لكنهما متأهبتان للتدخل عند الضرورة. «ألم أقل لكم إنني سأمشي؟»، قالت لنا سابرينا متحدية بملامح الفخر تلك التي تحتفل بها بكل إنجاز من إنجازات عنادها. كانت قد أُلبست ثياب أعياد، مع شرائط في شعرها وخف وردي. حيتنا دون أن تبدي ما يشير إلى اهتمامها بتأثر ويللي، ووقفت بيننا لالتقاط الصور، وشكرت القبيلة على حضورها، وأضافت بوقار إن اسمها صار منذ هذه اللحظة سابرينا والكنية جنيفر، ويلي ذلك كنية أُمّيها بالتبني. والتفتت على الفور نحو القاضية قائلة: «عندما نلتقي في المرة القادمة سأكون ممثلة مشهورة». وجميعنا كنا موقنين من أنها ستكون كذلك. فسابرينا التي ترعرعت في الملجأ البيئي والروحي لمركز بوذية الزّن، لم تكن تتطلع إلا إلى أن تصير نجمة سينمائية، وكان طبقها المفضل هو الهمبرغر متوسط الطهو. ولست أدري كيف تتدبر الأمر كي تُدعى كل سنة إلى احتفال جوائز الأكاديمية في هوليوود. ونحن نراها في ليلة الأوسكار في التلفزيون، جالسة في الرواق وفي يدها دفتر صغير تسجل فيه مرور المشاهير. إنها تتدرب من أجل اللحظة التي سيكون فيها عليها أن تجتاز السجادة الحمراء.

فو وغريس لم تعودا ثنائي، بعد أن ظلتا كذلك لأكثر من

عقد من السنوات، ولكنهما مازالتا مرتبطتين من خلال سابرينا، وصداقة طويلة جداً لا يجدر بهما الفراق بعدها. رتبتا بيتهما الصغير كبيت الدمى في عقار البوذيين، حيث الطمع بالمسكن كبير جداً، لأن هناك على الدوام ملتمسي عيش حياة تأملية في ذلك الملاذ الروحاني الراكد. قسمتا المكان تاركتين حجرة في المنتصف لسابرينا، بينما شغلتا هما الجانبين. وكان لا بد من القفز فوق الأثاث والدمى والألعاب المبعثرة في تلك الحجرات الصغيرة، والتي يشاطرهما إياها كذلك ماك، وهو أحد تلك الكلاب المدربة لمرافقة العميان، وقد حصلتا عليه من أجل سابرينا. وهي تحبه كثيراً، لكنها لا تحتاج إليه، لأنها تتدبر أمرها بنفسها. لقد احتاجتا إلى سنة كاملة من الإجراءات الصارمة من أجل الحصول على ماك، وكان عليهما إتباع دورة للتواصل معه، وقد أعطوهما ألبوم صور للجرو، ونبهوهما إلى أنهما ستتلقيان زيارات مفاجئة يقوم بها مفتش، لأن الكلب سيسحب منهما إذا ما أهملتاه. وأخيراً وصلهما كلب فلاح ضارب إلى البياض، له عينان كحبتي عنب، وأشد ذكاء من معظم البشر. في أحد الأيام أخذته غريس معها إلى المستشفى الذي تعمل فيه ليساعدها في جولاتها على القاعات، ورأت أن الحماسة تدب حتى في المحتضرين بحضور ماك. كان هناك مريض نفسي، غارق في جحيمه الشخصي منذ زمن طويل، لأن إحدى يديه مشوهة، وهو يخفيها طوال الوقت في جيبه. دخل الكلب إلى حجرته وهو يهز ذيله، وأسند رأسه البهيمي الوديع على ركبتي الشقي، تشمم بأنفه جيب المريض إلى أن أخرج هذا يده التي طالما أحس بالخجل منها، وبدأ ماك يلحسها. ربما لم يلمسه أحد من قبل بهذه الطريقة. تقاطعت عينا المريض مع عيني غريس وبدا لها للحظة أنه يخرج من الزنزانة التي يحبس نفسه فيها ويطل على الضوء. منذ ذلك الحين والكلب مشغول في المستشفى، حيث يعلقون على صدره لافتة تقول «متطوع»، ويرسلونه في جولات على

المرضى. وصار المرضى يخبئون بسكويت عشائهم ليقدموه إليه، فتحول ماك إلى بدين أكرش. وبمقارنة كلبتي أوليفيا مع هذا الحيوان، فإنها ليست أكثر من كومة الفرو ودماغ ذبابة.

بينما غريس والكلب يعملان في المستشفى، تواصل فو تولي مسؤولية مركز بوذية الزّن، حيث أظن أنها ستكون رئيسة الدير في أحد الأيام، مع أنها لم تبدِ قط أي اهتمام بهذا المنصب. فتلك المرأة المتسلطة، بشعرها الحليق وملابس الراهب الياباني، تثير فيّ على الدوام الصدمة نفسها التي شعرت بها حين رأيتها أول مرة. وليست فو هي الوحيدة المتميزة في أسرتها. إن لها أختاً ضريرة، تزوجت خمس مرات، وأنجبت للدنيا أحد عشر ابناً، وظهرت في التلفزيون لأنها وهي في الثالثة والستين أنجبت الوليدِ رقم اثني عشر، وهو طفل ضخم وسمين، ظهر في التلفزيون متعلقاً بثدي أمه المترهل بعض الشيء. والزوج الأخير أصغر منها باثنتي عشرة سنة، ولهذا السبب لجأت تلك المرأة الجريئة إلى العلم كي تحبل في سن تحوك فيها غيرها من النساء لأحفاد أبنائهن. وعندما سألها الصحفيون لماذا فعلت ذلك، أجابتهم: «كي يرافق زوجي عندما أموت». بدا لي ذلك نبلاً منها، لأنني حين أموت أفضل أن يقضي ويللي أوقاتاً تعيسة ويحنّ إليّ.

القزم المنحرف

في أحد تلك الأيام دعونا إلى حفلة كوكتيل في سان فرانسيسكو، وذهبتُ دون رغبة. لقد وافقت على الذهاب فقط لأن ويللي طلب مني ذلك. فحفلة كوكتيل هي تجربة رهيبة لأي شخص، يا باولا؛ ولكنها أسوأ بالنسبة للأشخاص الذين لهم مثل طول قامتي، وخاصة في بلاد أناس طويلي القامة؛ ولكن الأمر

سيكون مختلفاً في تايلاند. من المناسب تجنب مثل هذه الحفلات، لأن المدعوين يكونون واقفين، في ازدحام، دون هواء، حاملين كأساً في يد ومقبلات من المستحيل تحديدها في اليد الأخرى. إنني أتمكن، مع الكعب العالي، من الوصول إلى مستوى منتصف صدر النساء، وسرة الرجال؛ ويمر الندل بالصواني من فوق رأسي. فطول متر وخمسين سنتمتراً ليس فيه أي فائدة، اللهم إلا سهولة التقاط ما قد يسقط على الأرض، وأنني كنت قادرة، في أزمنة الميني جوب، على صنع فستان من أربعٍ من ربطات عنق أبيك. وبينما كان ويللي محاطاً بالمعجبات، ويلتهم جراد بحر البوفيه، ويروي طرفاً من أيام شبابه، حين أدار ظهره للعالم بالنوم في المقابر، تخندقتُ أنا في أحد الأركان، كيلا لا يدوسوني بأقدامهم. ففي هذه الحفلات لا أستطيع تذوق لقمة واحدة، لأنني أخشى من البقع التي تسقط مني أو تلك التي تسقط من الآخرين وتطير باتجاهي. اقترب مني سيد من ألطف ما يكون، وعندما نظر إلى أسفل، تمكن من تمييزي على نقوش السجادة، ومن قمته الأنكلوسكسونية قدم لي كأس نبيذ.

ـ مرحباً، أنا دافيد، تشرفت.

ـ إيزابيل، الشرف لي ـ قدمتُ نفسي، وكنت أنظر بطرف عيني إلى الكأس بتوجس؛ فلطخات النبيذ الأحمر لا يمكن إزالتها عن الحرير الأبيض.

ـ ماذا تفعلين؟ ـ سألني برغبة في بدء حديث.

وهذا سؤال يحتمل عدة إجابات. كان يمكن لي أن أقول إنني هنا، صامتة، ألعن زوجي الذي جاء بي إلى هذه الورطة، ولكنني اخترت شيئاً أكثر فلسفية.

ـ أنا روائية.

ـ هكذا! يا للأمر المشوق! عندما أتقاعد سأكتب رواية ـ قال لي.

ـ صحيح! وما هو عملك الآن؟
ـ طبيب أسنان ـ وقدم لي بطاقته.
ـ أما عندما أتقاعد أنا فسوف أقلع أسناناً ـ أجبته.

يمكن لأي شخص أن يقول إن كتابة الروايات مثل زراعة الجيرانيوم. إنني أقضي عشر ساعات في اليوم مسمرة إلى كرسي أقلب الجملة مرة وألف مرة كي أتمكن من رواية شيء بأشد الطرق الممكنة فعالية. أعاني في الموضوعات، أغوص بعمق في الشخصيات، أتقصى، أدرس، أصحح، أحرر، أراجع ترجمات، وأجوب العالم فوق ذلك لتنشيط مبيعات كتبي بعناد بائع جوال.

في السيارة، أثناء عودتنا إلى البيت، وعند اجتياز جسر الغولدن غيت العظيم، المضاء بقمر بدر، رويت لويللي وأنا أضحك مثل ضبعة، ما قاله لي طبيب الأسنان ذاك؛ ولكن زوجي لم ير الأمر مضحكاً.

ـ أنا لا أفكر في الانتظار إلى أن أتقاعد. قريباً سأبدأ بكتابة روايتي الأولى ـ أعلن لي.

ـ يا يسوع! ويا لعجرفة بعض الناس! هل يمكنني أن أعرف ما هو موضوع روايتك؟ ـ سألته.

ـ عن قزم مهووس بالجنس.

ظننت أن زوجي بدأ يلتقط أخيراً حس السخرية التشيلي، ولكنه كان يتكلم بجد. وبعد بضعة شهور بدأ الكتابة يدوياً على ورق أصفر مسطر. كان يمضي حاملاً دفتر الملاحظات تحت إبطه ويعرض كتابته على كل راغب في رؤيتها، باستثنائي أنا. كان يكتب وهو في الطائرات، وفي الطبخ، وفي الفراش، بينما كنت أسخر منه دون رحمة. قزم منحرف! يا للفكرة اللامعة! التفاؤل غير العقلاني الذي أفاد ويللي كثيراً في حياته، أبقاه طافياً مرة أخرى واستطاع أن يتجاهل السخرية التشيلية التي هي أشبه بسونامي يكتسح كل ما يواجهه. فكرتُ في أن اهتمامه الأدبي سيتلاشى

عندما يتأكد من صعوبات المهنة، ولكن لم يوقفه شيء. أنهى رواية فظيعة يختلط فيها حبٌ محبط، وقضية قضائية، والقزم، بطريقة تشوش القارئ الذي لا يستطيع أن يحدد إذا ما كانت قصة حب، أم مرافعة محامٍ، أم سلسلة تخيلات جنسية لمراهق مقموع. الصديقات اللواتي قرأن الرواية كن صريحات مع ويللي: عليه أن يلغي القزم اللعين، وربما يستطيع إنقاذ بقية الكتاب إذا ما أعاد كتابته بمزيد من التأني. أما الأصدقاء فنصحوه بحذف قصة الحب وأن يتعمق في فجور القزم. وطلب منه جيسون أن يحذف قصة الحب، والمحاكمات، والقزم، ويكتب شيئاً تدور أحداثه في المكسيك. أما أنا فجرى لي أمر غير متوقع: الرواية السيئة زادت من تقديري لويللي، لأنني استطعت خلال كتابتها أن أقدر أكثر من أي وقت آخر فضائله الأساسية: الصلابة والمثابرة. وبما أنني تعلمت شيئاً خلال السنوات التي أمضيتها في الكتابة ـ تعلمتُ على الأقل عدم تكرار الأخطاء نفسها، مع أنني أخترع أخطاء جديدة على الدوام ـ، عرضتُ على زوجي خدماتي كمحررة. وافق ويللي على تعليقاتي بتذلل ليس من طبعه في مجالات الحياة الأخرى، وأعاد كتابة المخطوطة، وقد بدا لي أن هذه الصياغة الجديدة تنطوي أيضاً على مشاكل جوهرية. فالكتابة مثل الشعوذة: لا يكفي إخراج أرنب من القبعة، بل يجب عمل ذلك بأناقة وطريقة مقنعة.

صلوات

مع جدة مثل جدتي التي لقنتني باكراً فكرة أن العالم سحري وكل ما سوى ذلك هو أوهام عظمة لدينا نحن البشر الذين لا نتحكم بأي شيء تقريباً، ونعرف القليل جداً، ويكفي أن نلقي نظرة على التاريخ كي ندرك محدودية العقل، وليس غريباً بالتالي

أن يبدو لي كل شيء محتملاً. منذ آلاف السنين، عندما كانت هي حية وكنتُ طفلة مرعوبة، كانت تلك السيدة الطيبة وصديقاتها يضممنني إلى جلساتهن الروحانية، ويفعلن ذلك من وراء ظهر أمي دون شك. كنّ يضعن وسائد على الكرسي كيما أتمكن من بلوغ حافة المنضدة... منضدة خشب السنديان نفسها، ذات القوائم المنحوتة على هيئة أسود، التي أملكها الآن. وبالرغم من أنني كنت طفلة، وليست لدي ذكريات وإنما تخيلات، فإنني أرى المنضدة تطفر تحت تأثير الأشباح التي تستدعيها جماعة السيدات، ولكنها لم تتحرك مع ذلك قط في بيتي، إنها في مكانها، قديمة وحاسمة مثل جاموس ميت، تنجز المهمة المتواضعة التي تنجزها غيرها من قطع الأثاث العادية. الغموض السحري ليس وسيلة أدبية، ليس ملحاً وبهاراً لكتبي، مثلما يتهمني أعدائي، وإنما هو جزء من الحياة نفسها. أسرار عميقة، مثل ما ذكرته من قبل عن أختي في جمعية الفوضى، جين، التي مشت حافية على جمر متوقد. وقد قالت لي: «إنها تجربة محوّلة للشخصية، لأنه لا وجود لتفسير عقلاني أو علمي لها. لقد عرفتُ في تلك اللحظة أن لدينا قدرات لا تُصدق. فمثلما نعرف أن نولد، وأن ننجب، وأن نموت، يمكن لنا كذلك أن نجد الرد على الجمر المتقد الذي نواجهه في طريقنا عادة. بعد مروري بتلك التجربة صرت مطمئنة حيال المستقبل. يمكن لي مواجهة أسوأ الأزمات إذا ما استرخيت وتركت الروح تقودني». وكان هذا هو ما فعلته جين حين مات ابنها بين ذراعيها: مشت على النار دون أن تحترق.

سألني نيكو عن سبب إيماني بالأعاجيب، والأحلام، والأرواح، وظواهر أخرى مشكوك فيها؛ فذهنه البرغماتي يحتاج إلى براهين أشد حسماً من حكايات جدة مدفونة منذ أكثر من نصف قرن، أما أنا، فإن اتساع ما لا أجد له تفسيراً يجعلني أميل إلى الفكر السحري. المعجزات؟ يبدو لي أنها تحدث في كل لحظة،

مثل واقع أن قبيلتنا مازالت تبحر في المركب نفسه، ولكن ذلك برأي أخيكِ مجرد إحساس، وفرصة، ورغبة في الإيمان. أما أنتِ بالمقابل، فكان لديك التلهف الروحي نفسه الذي كان لجدتي، وحيال المعجزات اليومية كنتِ تبحثين عن التفسير في الديانة الكاثوليكية، لأنك تؤمنين بها. لقد كانت تحاصركِ شكوك كثيرة. والأخير منها أخبرتني به قبل وقوعك في الكوما، وقد كان في قولك: «أبحثُ عن الرب ولا أجده. إني أحبك، يا أماه». أريد أن أفكر في أنكِ قد وجدتِهِ، يا بنتي، وأنكِ قد فوجئتِ، لأنه لم يكن مثلما تتوقعين.

هنا، في هذا العالم الذي خلّفتِه وراءك، اختطف البشرُ الرب. لقد أسسوا ديانات هذيانية، لا أفهم كيف أمكن لها أن تستمر لقرون وأن تواصل الاتساع. إنها ديانات لا تشوبها شائبة، تدعو إلى المحبة، والعدالة، والإحسان، ومن أجل فرض ذلك تُقترف الفظائع. والسادة الكبار الذين ينشرون هذه الديانات يحاكمون، ويعاقبون، ويقطبون أمام البهجة، والمتعة، والفضول، والمخيلة. لقد كان على كثيرات من نساء جيلي أن يخترعن روحانية تناسبهم، وربما كنتِ ستفعلين الشيء نفسه لو أنكِ عشتِ لوقت أطول، لأن الديانات البطريركية لا تناسبنا نحن النساء: إنها تجعلنا ندفع ثمن غوايات الرجال وخطاياهم. لماذا تراهم يخافوننا كثيراً؟ تروقني فكرة ألوهية جامعة وأمومية، مرتبطة بالطبيعة، مرادفة للحياة، عملية تجدد وارتقاء متواصل. ربتي هي محيط، ونحن قطرات ماء، ولكن المحيط موجود بفضل القطرات التي تشكله.

صديقي ميكي شيما يمارس طقوس الشنتوية اليابانية القديمة، وهي ديانة تعلن أننا مخلوقات كاملة، خلقتها الربة الأم للعيش بسعادة. لا شيء من الذنوب، والتكفير، والجحيم، والخطيئة، والكارما، ولا حاجة لأي تضحية. فالحياة من أجل الاحتفاء بها. ومنذ بضعة شهور ذهب ميكي إلى أوساكا لإجراء

تمرينات شنتوية لمدة عشرة أيام مع حوالي مئة ياباني وخمسمئة برازيلي وصلوا إلى هناك بصخب كرنفال. وكانت ممارسة التمرينات تبدأ في الرابعة فجراً بالإنشاد. وعندما كان المعلمون والمعلمات يقولون للحشد المجتمع في ذلك المعبد الخشبي الفسيح والبسيط، إن كل واحد منهم كامل، كان اليابانيون ينحنون انحناءة احترام ويقدمون الشكر، بينما يصرخ البرازيليون ويرقصون من السعادة، مثلما يفعلون عند تسجيل هدف برازيلي في بطولة العالم بكرة القدم. وفي صباح كل يوم، يخرج ميكي إلى الحديقة، يقوم بانحناءة احترام ويحيي النهار الجديد وملايين الأرواح التي تسكنه بنشيد قصير، ثم يدخل إلى بيته، يتناول فطوره المؤلف من السوتشي وحساء الأعشاب ويذهب إلى عيادته ضاحكاً في السيارة. وقد أوقفته في إحدى المرات دورية شرطة لاعتقادهم أنه يسوق وهو مخمور. «لستُ سكران، وإنما أمارس تمريناتي الروحية»، أوضح لهم ميكي. وظن رجال الشرطة أنه يسخر منهم. فالسعادة مثيرة للريبة.

ذهبنا منذ وقت قريب للاستماع إلى لاهوتي مسيحي أيرلندي. وعلى الرغم من عوائق لكنته وجهلي، فقد خرجت بشيء من تلك الجلسة التي بدأت بتأمل قصير. طلب الرجل من جمهور الحاضرين أن يغمضوا أعينهم، وأن يسترخوا، ويضبطوا تنفسهم، وباختصار، كل ما يُطلب في مثل هذه الحالات. وأن يفكر كل منا بعد ذلك في مكانه المفضل ـ أنا اخترت جذع شجرة في غابتك ـ، وفي شخص يدنو ويجلس أمامه. وكان يتوجب علينا أن نغوص في النظرة اللانهائية لذلك الكائن الذي يحبنا مثلما نحن، بعيوبنا وفضائلنا، دون أن يحاكمنا. هذا الكائن، كما قال اللاهوتي، هو الرب. تمثلت أمامي امرأة في حوالي الستين، افريقية عادية: لحم متماسك وابتسامة نقية، عينان مشاكستان، بشرة لامعة وناعمة مثل قطعة مصقولة من خشب الماهاغوني، لها رائحة الدخان والعسل،

وحضور متسلط لا يمكن حتى للأشجار إلا أن تنحني له احتراماً. وكانت تنظر إليّ مثلما كنت أنظر إليكِ، وإلى نيكو، وإلى أحفادي عندما كنتم صغاراً: بتقبل تام. كنتم كاملين، ابتداء من آذانكم الشفافة وحتى رائحة الحفاض المستعمل؛ وكنت أرغب أن تظلوا إلى الأبد مخلصين لجوهركم، وأن أحميكم من كل شر، وأمسك أيديكم وأقودكم إلى أن تتعلموا المشي وحدكم. هذا الحب كان سعادة واحتفالاً وحسب، وإن كان يتضمن غمَّ معرفة أن كل لحظة تمر تغيركم قليلاً وتبعدكم عني.

❖ ❖ ❖

أخيراً تمكنوا من إجراء الفحوص لأحفادي لمعرفة إذا ما كانوا مصابين بالبورفيريا. أخوات جمعية الفوضى في كاليفورنيا، وبيا وأمي في تشيلي، كن يصلين منذ سنوات من أجل أسرتي، بينما كنتُ أتساءل إذا ما كان ذلك يفيد في شيء. أجروا لهم أشد الاختبارات الممكنة صرامة وكانت النتائج ملتبسة، لا يوجد ما يؤكد أن الصلوات قد أعطت مفعولاً، وهو ما يمكن أن يشكل صفعة غادرة لمن يكرسون حياتهم للصلاة من أجل خير البشرية. ولكن ذلك لم يُفقد أخواتي في الفوضى ولم يُفقدني الحماسة. فقد كنا نفعل ذلك لعله ينفع. لقد شخصوا إصابة لوسيل، والدة لوري، بسرطان في الثدي في الوقت الذي كنت أقوم فيه بجولة في أراضي التطرف المسيحي، في أعماق جنوبي الولايات المتحدة. وكان ويللي أيضاً يطير في تلك اللحظات مع صديق له على امتداد طول وعرض أميركا اللاتينية في طائرة صغيرة ليست أكثر من مرشة براغيث، في مغامرة جنونية من كاليفورنيا حتى تشيلي.

هناك أربعون مليون أمريكي يتبعون مذهب «مسيحيين مولودين من جديد» ـ *born again Chistians* ـ ومعظمهم يعيش في وسط البلاد وجنوبها. وقبل دقائق من محاضرتي اقتربت مني فتاة وعرضت عليّ أن تصلي من أجلي. فطلبت منها بدل أن تفعل ذلك من أجلي، أن

تصلي من أجل لوسيل التي كانت في المستشفى في ذلك اليوم، ومن أجل ويللي الذي يمكن له أن يفقد حياته في أحد شعاب الأنديز. أمسكت الفتاة يدي، وأغمضت عينيها وبدأت ترتيلة بصوت عالٍ مجتذبة أشخاصاً آخرين انضموا إلينا في دائرة، ذاكرين اسم يسوع، بإيمان كامل، مع اسميّ لوسيل وويللي في كل جملة. بعد انتهاء المحاضرة اتصلتُ بلوري لأعرف كيف هي حال أمها وعلمتُ أن العملية الجراحية لم تُجرَ لأنهم فحصوها قبل إدخالها إلى غرفة العمليات ولم يجدوا الورم. وقد أخضعوها في ذلك الصباح لثماني صور أشعة وتخطيط بالسونار. ولكن لا شيء. والطبيب الجراح الذي كان قد وضع قفازيه، قرر أن يؤجل المداخلة الجراحية إلى اليوم التالي، وأرسل لوسيل إلى مستشفى آخر لإجراء تخطيط طبقي محوري. وهناك أيضاً لم يجدوا أثراً للسرطان. لم يكن ثمة تفسير، لأن فحص خزعة نسج كانت قد أكدت وجود الورم قبل أيام. وكان يمكن لذلك أن يكون معجزة مؤكدة حققتها الصلوات لو أن الورم لم يظهر ثانية بعد أسبوعين. وقد أُجريت العملية للوسيل على أي حال. ولكن، في ذلك اليوم بالذات، بينما كان ويللي يطير فوق بنما، حدث تبدل في الضغط الجوي ونزلت الطائرة رأسياً ألفي متر خلال ثوان قليلة. مهارة صديق ويللي الذي كان يقود تلك الحشرة الميكانيكية الهشة، أنقذتهما على بعد شعرة من موت مهيب. أم أن السبب في نجاتهما هي نوايا تلك الفتاة المسيحية الطيبة؟

على الرغم من صلوات صديقاتي والكثير الذي طلبته منكِ، يا باولا، كانت نتائج فحوص آندريا ونيكول خبراً سيئاً. ومثلما تأكد لكِ أنت نفسكِ بأشد الصور إيلاماً، فإن هذا المرض أكثر جدية لدى النساء منه لدى الرجال، ذلك أنه يمكن للتغيرات الهرمونية أن تتسبب في أزمة. علينا أن نعيش في خوف احتمال حدوث مأساة أخرى في الأسرة. وذكّرني نيكو بأن ذلك لا يُضعف من عزيمتنا

ولا يحول دون أن نعيش حياة طبيعية، وأنه يزيد من المجازفة فقط حيال بعض المحرضات التي يمكن تجنبها. وأن حالتك كانت نتيجة توافق ظروف وأخطاء، وسوء حظ رهيب. «سنتخذ الاحتياطات دون مبالغة»، قال أخوكِ، وأضاف: «إنه أمر مزعج، ولكن له إيجابياته: ستتعلم الطفلتان الانتباه لنفسيهما، وسيكون ذريعة لإبقائهما قريبتين منا إلى هذا الحد أو ذاك. هذا التهديد سيوحدنا أكثر.» وأكد لي أن تطور الطب سيحقق للصغيرتين الصحة، وإنجاب الأبناء، والحياة المديدة، وقد تؤدي أبحاث الهندسة الوراثية إلى منع انتقال البورفيريا إلى الجيل التالي. وانتهى إلى القول: «هذا المرض أقل خطورة بكثير من السكري وغيره من الأمراض الوراثية».

كانت علاقتي مع نيكو في تلك الأثناء قد تجاوزت عقبات السنوات السابقة، فقد قطعنا الحبل السري دون أن نفقد المحبة. لدينا علاقتنا الحميمة الدائمة، ولكنني تعلمت أن أحترمه، وحاولت بكل نزاهة ألا أزعجه. كان حبي لأحفادي الثلاثة هوساً حقيقياً، وقد احتجت لسنوات عديدة كي أتقبل أن هؤلاء الصغار ليسوا أبنائي، وإنما هم أبناء نيكو وسيليا. لست أدري كيف تأخرتُ كل ذلك الوقت الطويل لأدرك شيئاً جلياً، شيئاً تعرفه كل جدات العالم دون حاجة لأن يعلمهن إياه طبيب نفساني. لقد ذهبت أنا وأخوك معاً إلى العلاج النفسي لبعض الوقت، بل إننا توصلنا إلى اتفاقات مكتوبة كي نقر بعض حدود وقواعد التعايش، وإن لم نستطع أن نكون صارمين جداً في تطبيقها. الحياة ليست صورة، يرتب أحدنا فيها الأشياء كي تبدو جميلة ثم يثبت الصورة بعد ذلك لزمن تال؛ إنها سيرورة قذرة، غير مرتبة، سريعة، مفعمة بالمفاجآت. الأمر الوحيد المؤكد هو أن كل شيء يتغير. فعلى الرغم من الاتفاقات، تبرز مشاكل غير متوقعة، ولهذا لم تكن هناك جدوى من القلق، وكثرة الجدال أو محاولة التحكم بأدق التفاصيل؛ كان علينا أن نستسلم لانطلاق الحياة اليومية، واثقين بالحظ وبطيبة قلبينا، لأن

أياً منا لم يكن يتعمد جرح الآخر. فإذا ما أخطأتُ ـ وقلما أخطئ ـ، ينبهني بشهامته المعهودة، وهكذا لم نعد إلى الابتعاد أحدنا عن الآخر. منذ سنوات طويلة ونحن نلتقي كل يوم تقريباً ولكنني أفاجأ دائماً بهذا الرجل الطويل، مفتول العضلات، مع بعض الشيب والمزاج المسالم. ولولا الشبه بينه وبين جده لأبيه، لكنت ارتبت في أنهم قد استبدلوه في المستشفى عند ولادته، وأن هناك في مكان ما أسرة لديها ابن عاصف المزاج وانفعالي يحمل جيناتي. لقد تحسنت حياته حين ترك الوظيفة التي عمل فيها لسنوات. فالشركة قررت نقل عملها إلى الهند، حيث التكاليف أقل، وصرفت موظفيها، باستثناء نيكو، لأنه قادر على تنسيق العمل مع مكتب نيودلهي، ولكنه فضل ترك العمل تضامناً مع رفاقه. وقد حصل على عمل بالساعة في أحد مصارف سان فرانسيسكو، وبدأ فوق ذلك يضارب في سوق الأسهم بصورة صائبة. إنه يتمتع بالغريزية ولديه برودة الأعصاب لهذا العمل، مثلما كنا أنا ولوري قد اقترحنا عليه قبل وقت طويل، ولكننا لم نوبخه؛ بل على العكس، سألناه كيف خطرت له مثل هذه الفكرة الجيدة. وقد صعقنا بواحدة من نظراته التي تشرخ الزجاج.

التنين الذهبي

منحني صعود الحركة الإنجيلية موضوع الكتاب الثاني من الثلاثية. فاليمين المسيحي الذي عبأه الجمهوريون في العام 2000 بنجاح كبير لكسب الانتخابات الرئاسية، كان كبير العدد على الدوام، ولكنه لم يكن يحدد سياسة هذه البلاد ذات التوجهات العلمانية الراسخة. وخلال رئاسة جورج دبليو بوش حصل الإنجيليون

على أقل مما هو في برنامجهم، ولكن التغييرات كانت بارزة مع ذلك. فنظرية التطور والارتقاء لم تعد تُذكر في كثير من المؤسسات التعليمية، وإنما نظرية «التصميم الذكي»، وهي تسمية ملطفة لتفسير الخليقة التوارتي. يقولون إن عمر العالم منذ القِدم هو عشرة آلاف سنة، وأي أمر جلي خلاف ذلك هو هرطقة. وعلى الأدلاء السياحيين في شعاب كولورادو أن يكونوا حذرين عندما يخبرون السياح بأنه يمكن قراءة بليونيّ سنة من التاريخ الطبيعي في الطبقات الجيولوجية. وإذا ما اكتُشف في النرويج عشرون أحفوراً لحيوانات بحرية، كل واحد منها بحجم حافلة، سابقة لعصر الديناصورات، فإن المؤمنين ينسبون ذلك إلى مؤامرة يحوكها ملحدون وليبراليون. وهم يعارضون الإجهاض وأي شكل من أشكال تنظيم النسل، باستثناء الامتناع عن الجماع، ولكنهم لا يتحركون ضد عقوبة الإعدام أو الحرب. ويصر العديد من المبشرين المعمدانيين على وجوب خضوع المرأة للرجل، ضاربين عرض الحائط قرناً من النضال النسوي. وآلاف الأسر تعلّم أبناءها في المنازل لتجنبهم التلوث بالأفكار العلمانية في المدارس العامة، ويذهب أولئك الشبان بعد ذلك للدراسة في الجامعات المسيحية. سبعون بالمئة من العاملين في البيت الأبيض خلال إدارة بوش يتحدرون من تلك الجامعات. وآمل ألا يتحولوا إلى موجهي السياسة في المستقبل.

أحفادي يعيشون في فقاعة كاليفورنيا، حيث ذلك كله غريب ومثير للفضول، مثلما هو تعدد الزوجات لدى بعض المرمونيين في أوتا، ولكنهم يعلمون بكل شيء لأنهم يسمعون أحاديث الكبار في الأسرة. لقد جعلتهم يفكرون في فلسفة جامعة، طريقة روحانية مصفاة معارضة لأية ميول أصولية. لم تكن لدي أفكار واضحة، ولكنني رحت أنقيها من خلال الأحاديث معهم والمسيرات مع تابرا، وهي مسيرات كنا نقوم بها في تلك الشهور بصورة يومية تقريباً، لأنها كانت لا تزال تمر بمرحلة طويلة من الحزن على فقدان أبيها.

وكانت تتذكر قصائد كاملة وأسماء نباتات وزهور علمها إياها في طفولتها.

- لماذا لا أراه مثلما ترين باولا؟ - كانت تسألني.

- إنني لا أراها، ولكنني أحس بها في داخلي، أتخيل أنها ترافقني.

- أنا لا أستطيع حتى الحلم بأبي...

كنا نتحدث عن الكتب التي كان يحبها، وعن كتب أخرى لم يستطع تدريسها، بسبب الرقابة في المدرسة التي كان يعمل فيها. الكتب، ودائماً الكتب. كانت تابرا تبتلع الدموع وتمتلئ بالحماسة عندما نتكلم عن روايتي التالية. وقد خطر لها أن نموذج البلد الأسطوري الذي أرغب فيه يمكن أن يكون بوتان، أو مملكة تنين الرعد، كما يسميه أهله، وكانت قد زارته في مسيرة ترحالها التي لا تعرف الكلل. وقد بدلنا الاسم إلى مملكة التنين الذهبي، واقترحت هي أن يكون التنين تمثالاً سحرياً قادراً على التنبؤ بالمستقبل. وقد أعجبتني فكرة أن تجري أحداث كل كتاب في ثقافة وقارة مختلفتين، ومن أجل تخيل المكان استلهمت الرحلة التي قمنا بها إلى الهند ورحلة أخرى إلى نيبال، محققة بذلك وعداً كنت قد قطعته لكِ قبل سنوات، يا باولا. لقد كنت تعتقدين أن الهند تجربة متعة نفسية، وقد كانت كذلك فعلاً. لقد جرى لي ما جرى في الأمازون أو في أفريقيا: فكرت في أن ما رأيته غريب عن واقعي ولا يمكن لي أن أستخدمه في كتاب، ولكن البذور نبتت في داخلي، وظهرت الثمار أخيراً في ثلاثية الفتيان. فكل شيء، كما يقول ويللي، يُستخدم عاجلاً أو آجلاً. ولو لم أكن قد ذهبت إلى تلك البلاد، لما استطعت خلق اللون، أو الطقوس، أو الملابس، أو الناس، أو الأطعمة، أو الديانة، أو أسلوب الحياة.

ومن جديد كانت مساعدة أحفادي ثمينة جداً. فقد اخترعنا ديانة مستقاة من أفكار بوذية، وتيبيتيه، وروحانية، ومن كتب

الخيال التي قرؤوها. آندريا ونيكول تذهبان إلى مدرسة كاثوليكية شديدة الليبرالية، حيث البحث عن الحقيقة، والتحول الروحاني، وخدمة الآخرين أكثر أهمية من العقائد الدوغمائية. وقد حطت حفيدتاي هناك دون إي إعداد ديني مسبق. وفي الأسبوع الأول، كان على نيكول أن تشرح الخطيئة الأصلية في واجب مدرسي.

- ليست لدي فكرة عما يعنيه هذا - قالت.

- سأعطيكِ مفتاحاً للحل، يا نيكول: إنه آت من قصة آدم وحواء - سهّلت عليها لوري الأمر.

- ومن هما آدم وحواء؟

- أظن أن الخطيئة الأصلية لها علاقة بتفاحة - قاطعتها آندريا، دون قناعة كبيرة.

- ألا يُفترض أن التفاح مفيد للصحة؟ - فندت نيكول كلامها.

نسينا الخطيئة الأصلية ورحنا نتحدث عن الروح، وهكذا تحددت روحانية مملكة التنين الذهبي. الصغيرتان تشدهما فكرة الاحتفالات، والطقوس، والتقاليد؛ وأليخاندرو تشده احتمالات تطوير قدرات غير طبيعية، مثل التخاطر والتحريك عن بُعد. وانطلاقاً من ذلك بدأتُ الكتابة، وكلما تخلى عني الإلهام، أتذكر شراب الأياهواسكا وطفولتي، أو أعود إلى تابرا والأطفال. ساهمت آندريا في مخطط القصة، وتخيل أليخاندرو العوائق التي تحمي تمثال التنين: متاهات، سموم، حيات، أفخاخ، سكاكين ورماح تسقط من السقف. أما رجال الثلج فكانوا من إبداع نيكول التي ترغب على الدوام في التعرف على أحد عملاقة الثلوج الأبدية المزعومين، وأضافت تابرا «الرجال الزرق»، وهم طائفة من القتلة سمعت عنهم في رحلة لها إلى شمال الهند.

❖ ❖ ❖

أنهيت مع فريق معاونيّ الرائع رواية الفتيان الثانية في ثلاثة أشهر، وقررت أن أشذب في الوقت الزائد كتاباً صغيراً عن تشيلي.

عنوانه، *بلدي المخترع*، يبين بوضوح أنه يفتقر إلى التجرد العلمي، وأنه رؤية ذاتية. فمع الابتعاد في الزمان والجغرافية، اكتست ذكرياتي عن تشيلي بطبقة صدأ مذهب، مثل تلك اللوحات القديمة في الكنائس الكولونيالية. خشيت أمي التي قرأت النسخة الأولى من الكتاب أن يكون لنبرته الساخرة وقع الهراوة في تشيلي، حيث سيسلخني النقاد في أحسن الحالات. «هذه بلاد مجانين خطرين»، قالت لي محذرة، ولكنني كنت أعرف أن الأمر لن يكون على هذا النحو. فالمتأدبون شيء، ونحن التشيليين الذين بلا غطرسة ثقافية شيء آخر، إذ أننا طورنا على امتداد قرون حس سخرية منحرف لنتمكن من البقاء على قيد الحياة في بلاد الكوارث الطبيعية هذه. وفي فترة عملي الصحفي تعلمت أنه ليس هناك ما يبهجنا، نحن التشيليين، أكثر من السخرية من أنفسنا، مع أننا لا نتحمل أبداً أن يفعل أجنبي ذلك. ولم أخطئ التقدير، لأن كتابي نشر في السنة التالية دون أن يرميني أحد بحبة بندورة. بل جرت قرصنته كذلك. فبعد يومين من نشره ظهرت في شوارع وسط سنتياغو أكوام من الطبعة المقرصنة، وكانت تُعرض بربع السعر الأصلي، جنباً إلى جنب مع أكوام اسطوانات، وأشرطة فيديو، ونماذج مقلدة لنظارات وحقائب مصممين مشهورين. إن القرصنة، من وجهة النظر الأخلاقية والاقتصادية، تعتبر كارثة للناشرين والمؤلفين، ولكنها تكريم أيضاً من جهة أخرى، لأنها تعني أن هناك قراء كثيرين مهتمين، وأنه يمكن للفقراء شراء الكتاب. وتشيلي تواكب التقدم. ففي آسيا، تجري قرصنة كتب هاري بوتر بصورة سافرة، حيث يُعرض في الشارع الجزء الذي لم تتخيله المؤلفة بعد. هذا يعني أن هناك صينية ضئيلة تقبع في سقيفة مغبرة لتكتب مثل ج. ك. رولينغ، ولكن دون أمجاد.

تشيلي حبي هي تشيلي سنوات شبابي، عندما كنتِ أنتِ وأخوك صغيرين، وعندما كنتُ مغرمة بأبيكما، وكنت أعمل

صحفية، ونعيش محشورين في بيت صغير مسبق الصنع، سقفه من القش. كان يبدو لنا في تلك المرحلة أن قدرنا مرسوم على أحسن حال، وأنه لا يمكن أن يحدث لنا شر. كانت البلاد تتغير. ففي العام 1970 تم انتخاب سلفادور ألليندي رئيساً وحدث انفجار سياسي وثقافي، خرج الشعب إلى الشوارع بإحساس بقوة لم يمتلكها من قبل قط. كان الشباب يرسمون جداريات اشتراكية، وكان الهواء مفعماً بأغنيات الاحتجاج. انقسمت تشيلي وانقسمت العائلات، مثل عائلتنا. فكانت جدتكِ غراني تتقدم المظاهرات ضد ألليندي، مع أنها كانت تحرف طوابير المتظاهرين كيلا يمروا أمام بيتنا ويرمونا بالحجارة. وكانت تلك الفترة أيضاً هي مرحلة الثورة الجنسية والحركة النسوية اللتين أثرتا في المجتمع أكثر من السياسة تقريباً، وكانتا أساسيتين بالنسبة إلي. وعندئذ وقع الانقلاب العسكري في العام 1973، وانفلت العنف من عقاله محطماً العالم الصغير الذي كنا نظن أنه آمن. ما الذي كان سيؤول إليه قدرنا دون ذلك الانقلاب العسكري وسنوات الرعب التي تلته؟ وما الذي كان سيحدث لو أننا بقينا في تشيلي الدكتاتورية؟ ما كنا لنعيش أبداً في فنزويلا، وما كنتِ تعرفتِ على إرنستو، ولا تعرف نيكو على سيليا، وربما ما كنتُ كتبت كتباً، ولما أتيحت لي فرصة الوقوع في حب ويللي، ولما كنتُ اليوم في كاليفورنيا. هذه الترهات ليست مجدية. فالحياة تُعاش بالسير دون خريطة، وليست هناك طريقة للعودة إلى الوراء. *بلدي المخترع* هو تكريم من القلب للأراضي السحرية وللذكريات، للبلد الفقير والودود حيث أمضيتِ أنتِ ونيكو أسعد سنوات الطفولة.

كان الكتاب الثاني من ثلاثية روايات الفتيان في أيدي عدة مترجمين، ولكنني لم أستطع التركيز على كتابي حول تشيلي لأن حلماً متواتراً لم يتركني بسلام. كنتُ أحلم بأن هناك طفلاً في قبو ـ متاهة، تقطعه أنابيب وكابلات، كقبو بيت جدي، حيث

أمضيت ساعات كثيرة من طفولتي ألعب وحيدة. كان بمقدوري الوصول إلى الطفل، ولكنني لم أكن قادرة على إخراجه إلى النور. رويت الحلم لويللي، فذكرني بأنني لا أحلم بأطفال إلا عندما أكون مستغرقة في الكتابة، ولا شك أن للحلم علاقة بالكتاب الجديد. ولخشيتي من أن يكون الكتاب المعني هو ***مملكة التنين الذهبي***، قمت بمراجعة المخطوطة مرة أخرى، ولكنني لم أجد فيها ما يلفت انتباهي. واصل ذلك الحلم المتكرر مضايقتي لأسابيع، إلى أن وصلتني الترجمة الإنكليزية واستطعت قراءتها تحت تأثير الاختلاف اللغوي، عندئذ انتبهت إلى وجود خطأ قاتل في الحبكة: كنت قد افترضت أن البطلين، ألكسندر ناديا، يمتلكان بعض المعارف التي ليست لديهما طريقة للحصول عليها، وهي تحسم النهاية. فكان لا بد لي من أن أطلب من مترجميّ إعادة المخطوطة، واستبدال فصل كامل. ولولا ذلك الطفل المحتجز في متاهة القبو، والذي أرق صبري ليلة بعد ليلة، لكان هذا الخطأ قد مرّ عليّ.

مهمة كارثية

موضوع الكتاب الثالث من ثلاثيتي للفتيان برز بصورة عفوية في مسيرة سلام شارك فيها أفراد الأسرة جميعهم، بعد حضور قداس يوم الأحد في كنيسة ميتودية مشهورة في سان فرانسيسكو: الـ Glide Memorial Church. هناك يلتقي مزيج من الأعراق، والأفكار، وحتى الأديان، لأنها مكان لقاء البوذيين، والكاثوليك، واليهود، والبروتستانت، وبعض المسلمين والغنوصيين الراغبين في المشاركة في احتفال غناء ومعانقات أكثر منه طقوس صلاة. القس أفروأمريكي ضخم، قادر على تحريك القلوب بحماسته في الحض على السلام، وهي كلمة كان لها في تلك

اللحظات وقع مناهضة الوطنية. وقد صفق الحشد الواقف إلى حدّ إصابة راحات الأكف بالورم. وعند انتهاء القداس، خرج كثيرون منا إلى الشارع للتظاهر ضد حرب العراق.

وسط أحد التجمعات التمت قبيلتي، بمن في ذلك سيليا، وسالي وتابرا. وكان أحفادي قد رسموا لافتات. وكنت أمسك بآندريا كيلا تضيع في الزحام، بينما كانت نيكول تجلس على كتفي أبيها. لقد كان يوماً مشمساً، وكان الناس يتمتعون بحماسة احتفالية، ربما لأنه تأكد لنا أننا نحن المعارضين كثيرون. ومع ذلك، فإن خمسين ألف شخص في وسط سان فرانسيسكو كانوا أشبه بقملة على ظهر الإمبراطورية. هذه البلاد قارة مجزأة، ويبدو مستحيلاً تقدير حجم أو تنوع ردود الفعل، لأن كل طبقة وجماعة اجتماعية، أو اثنية، أو دينية هي أمة تحت مظلة الولايات المتحدة الفسيحة، «موطن الأحرار وأرض الشجعان». وهذا الذي يقال عن شجعان بدا نوعاً من السخرية في تلك اللحظات، حين كان الرعب مخيماً. لقد كان على إرنستو أن يحلق لحيته كي لا يجبروه على النزول من الطائرة كلما أراد السفر، لأن أي شخص له مظهر عربي، مثله، كان مشبوهاً. ويخيل إليّ أن إرهابيي القاعدة أنفسهم كانوا أشد المتفاجئين بحجم العملية. فقد كانوا يفكرون في إحداث ثقب في البرجين، ولم يتخيلوا قط أنهما سينهاران. وأظن أنه كان يمكن لرد الفعل في تلك الحالة أن يكون أقل هستيرية، وكان يمكن للحكومة أن تقوم بحسابات أكثر عقلانية حول قدرات العدو. فهم مجرد جماعات صغيرة من المقاتلين في كهوف بعيدة، أناس بدائيون ومتعصبون ويائسون، ليست لديهم الموارد القادرة على إخافة الولايات المتحدة.

كانت اللافتة التي أعدّتها آندريا تقول: **كلمات، لا قنابل.** فللكلمات بالنسبة لبنت صغيرة، بدأت تكتب روايتها الأولى وهي في العاشرة، قدرة قوية لا شك فيها. سألتها عما يعنيه هذا الذي

كتبته عن الكلمات بدلاً من القنابل، فأخبرتني بأن معلمتها طلبت من التلاميذ اقتراح طريقة لحل النزاع دون عنف. ففكرت هي في أبيها وفي نفسها، ففي صغرها كانت تصاب بنوبات غضب صاعقة وهجومية دون تبصر. «هناك ثور في داخلي»، كانت تقول في ما بعد، عند انقشاع نوبة الغضب. وفي تلك اللحظات، كان نيكو يثبتها برقة من ذراعيها، ويجثو على ركبتيه لينظر إلى عينيها ويكلمها بنبرة هادئة إلى أن تستكين، وهو أسلوب يلجأ إليه دوماً، مع بعض التنويع، في المواقف الحرجة. لقد اتبع دورة في التواصل دون عنف، وهو لا يطبق ما تعلمه بحذافيره وحسب، بل يعززه كل سنتين، كي لا يخونه في حالة طارئة. عند وصول آندريا إلى سن البلوغ، تمكنت من كبح الثور، وهكذا تبدل طبعها. «لم أعد أستمتع بمضايقة أختي»، اعترف أليخاندرو بعد أن رأى أنه لم يعد قادراً على إخراجها عن طورها. وقد كانت آندريا على حق: يمكن للكلمات أن تكون أشد فعالية من القبضات. وحبكة الكتاب الثالث حول ترويض ثور الحرب. فردت أنا وأحفادي خريطة فوق منضدة جدتي لنرى المكان الذي ستدور فيه أحداث مغامرة ألكسندر كولد وناديا سانتوس الأخيرة. الشرق الأدنى يبدو مؤكداً، لأنه ما نراه يومياً في نشرات الأخبار. ومع ذلك، فإن العنف الأشد همجية واتساعاً يحدث في أفريقيا، حيث تُقترف أعمال إبادة جماعية دون حساب. ستكون المغامرة إذاً في قرية أفريقية معزولة، حيث يفرض عسكريٌ مختلٌ الرعب والعبودية على الأقزام. ولم أشحذ ذهني في البحث عن العنوان: ***غابة الأقزام***. وتابرا التي لا تتخلف أبداً في ساعة الإلهام، أعارتني كتاب صور ملوك قبائل أفريقية، وكل منهم بملابس خيالية. معظمهم يمارس سلطات رمزية ودينية، وليس سياسية. وفي بعض الأحيان تمثل صحته وخصوبته صحة وخصوبة الشعب والأرض، وهم بالتالي يزيحونه بضربة منجل ماتشيتي إذا ما أصابه مرض أو شاخ، اللهم إلا

إذا تلطف وانتحر من تلقاء نفسه. وهناك قبائل لا يستمر الملك فيها على العرش سوى سبع سنوات؛ ويرسلونه بعدها إلى الحياة الأفضل، ويأكل خليفته كبده. ويتباهى أحد الملوك بإنجابه مئة وسبعين ابناً، ويظهر آخر مع حريمه من النساء الشابات، وجميعهن حبالى، بينما هو يتزين بعباءة من جلود الأسود، ورياش وعقود من الذهب، أما هنّ فعاريات. وكانت هناك في الكتاب ملكتان قويتان، لديهن أيضاً حريمهن من الشبان، ولكن الكتاب لا يوضح من الذي يحبّل المحظيات في هذه الحالة.

قمت بأبحاث كثيرة، ولكني كلما قرأت أكثر كنت أعرف أقل وتنأى عني آفاق تلك القارة الفسيحة التي تضم تسعمئة مليون نسمة موزعين على ثلاثة وخمسين بلداً وخمسمئة اثنية. وأخيراً، انزويت في كوخي، وغرقت في السحر؛ وهكذا وصلت بطريق مباشر إلى غابة في أفريقيا الاستوائية، حيث يسعى أقزام بائسين للتحرر من ملك مريض عقلياً بمساعدة الغوريلات، والفيلة، والأرواح. من عادة الكتابة أن تكون نبوءة. فبعد شهور من صدور *غابة الأقزام*، سيطر كولونيل لا يقل وحشية عن العسكري الذي في كتابي على منطقة في شمالي الكونغو، في غابة مستنقعية، حيث يُبقي شعب البانتو في الرعب، ويبيد بعض الأقزام كي يؤمن طريق تجارة الماس والذهب والسلاح. بل يجري الحديث أيضاً عن أكل لحوم بشر، وهو ما لم أتجرأ على تضمينه في الكتاب تقديراً مني لقرائي الفتيان.

جيمايا والخصوبة

أطلق ربيع العام 2003 حمى تكاثر جنونية في أسرتي. لوري ونيكو، إرنستو وغيليا، تونغ وليلي، جميعهم يريدون أبناء. ولكن، بمصادفة غريبة، لم يكن أي منهم قادراً على تحقيق تطلعه

بالأساليب المعهودة، وكان عليهم اللجوء إلى ابتكارات العلم. لقد نبهوني في البرازيل إلى أنني أنتمي إلى الربة جيمايا التي تعتبر الخصوبة من مزاياها: إليها تلجأ النسوة اللاتي يرغبن في أن يصرن أمهات. لقد كان هناك الكثير من عقارات الإخصاب، والهرمونات، والمني في الجو، حتى إنني خشيت أن أحبل أنا أيضاً. كنت قد استشرت العرافة في السنة الفائتة سراً، لأن الأحلام خانتني. فقد كنت أعرف على الدوام كم من الأبناء والأحفاد سيكون لدي، كنت أحلم حتى بأسمائهم، ولكنني في هذه المرة، ومهما بذلتُ من جهد، لم تأتني أي رؤيا ليلية لتقدم لي مفتاحاً بشأن أولئك الأزواج الثلاثة. لستُ أعرف العرّافة، وإنما لدي هاتفها في كولورادو فقط، ولكنني أثق بها لأنها استطاعت، دون أن ترانا قط، أن تصف أسرتنا كما لو أنها أسرتها. والوحيد الذي لم تستطع أن تضرب له ورق الأبراج هو نيكو، لأنني لم أكن أتذكر في أي ساعة ولد، ورفض هو أن يعطيني شهادة ميلاده، ولكن المرأة قالت لي إن هذا الابن هو أفضل صديق لي، وإننا كنا متزوجين في تقمص سابق. وطبعاً، هو لا يريد سماع أي كلام عن مثل هذا الاحتمال الفظيع، ولهذا يخفي شهادة الميلاد. وأخوكِ لا يؤمن كذلك بالتقمص، لأنه أمر مستحيل رياضياً، وإيمانه أقل بالتنجيم طبعاً، ولكنه يرى أنه من غير السيئ اتخاذ احتياطات. وأنا أيضاً لا أؤمن بالتنجيم كأمر مسلم به، غير أنه يجب عدم الانغلاق حيال غموض سري مفيد جداً في الأدب.

ـ كيف تفسر معرفة تلك السيدة كل تلك المعلومات عني؟ ـ سألتُ نيكو.

ـ بحثت عنكِ في الانترنت أو قرأت ***باولا***.

ـ إذا كانت ستتقصى عن كل زبون لكي تمارس الخداع، فسوف تحتاج إلى فريق مساعدين، وسيكون عليها أن تتقاضى أجراً أكبر بكثير. ثم إن ويللي لا يعرفه أحد، ولا ذكر له في الانترنت؛

ومع ذلك استطاعت أن تصفه جسدياً. قالت إنه طويل القامة، عريض المنكبين، ثخين الرقبة، وجميل.

- هذا ذاتي جداً.

- وكيف يمكن له أن يكون ذاتياً، يا نيكو! لا يمكن لأحد أن يقول عن أخي خوان إنه طويل القامة، وعريض المنكبين، وثخين الرقبة، وجميل.

وباختصار، لا أخرج بشيء من مناقشة هذه الموضوعات مع أخيكِ. والمسألة أن المنجمة قالت لي إن لوري لا يمكنها إنجاب أبناء بنفسها، ولكنها «ستكون أماً لعدة أطفال». وقد فسرتُ ذلك بأنها ستكون أماً لأحفادي، ولكن هناك احتمالات أخرى كما يبدو. وعن إرنستو وغيليا قالت إنه عليهما ألا يحاولا الإنجاب حتى ربيع العام التالي، حيث تكون النجوم في وضع مثالي، لأنهما لن يتوصلا إلى نتيجة قبل ذلك. أما تونغ وليلي بالمقابل، فعليهما الانتظار لوقت أطول بكثير، ومن غير المؤكد كذلك أن يكون الطفل منهما، بل يمكن أن يكون بالتبني. قرر إرنستو وغيليا أن ينصاعا للنجوم، وعند حلول ربيع العام 2004 بدأا علاج الخصوبة. وبعد خمسة شهور حبلت غيليا، وانتفخت مثل منطاد، وسرعان ما عُرِف إنها تنتظر طفلتين.

وفي أحد الأيام كنا في مطعم مع جولييت، وغيليا، ولوري، نتحدث عن أن نصف النساء الشابات اللواتي نعرفهن، بمن في ذلك مصففة الشعر وأستاذة اليوغا، جميعهن حوامل أو أنجبن أبناء للتو.

- هل تتذكرين أنني عرضت عليك أن أحمل طفلاً لك، يا إيزابيل؟ - قالت جولييت.

- أجل. وقد أجبتك يومها أنني لست مجنونة لأتولى تربية طفل وأنا في هذه السن.

- في ذلك اليوم قلتُ لك إنني مستعدة لعمل ذلك من أجلك أنت فقط، ولكنني أفكر الآن في أنني مستعدة لعمله من أجل لوري أيضاً.

ران الصمت لحظة على المائدة بينما كلمات جولييت تشق طريقها نحو قلب لوري التي أجهشت في البكاء عندما استوعبت ما الذي تعرضه عليها تلك الصديقة. لا أدري ما الذي فكر فيه النادل، ولكنه أحضر لنا كعكة شوكولاتة بمبادرة منه، تقدمة من المحل.

عندئذ بدأت عملية طويلة ومعقدة، طوال سنة تقريباً، قامت بها لوري خطوة خطوة، بما عُرف عنها من مثابرة وتنظيم. كان لا بد أولاً من حسم مسألة إذا ما كان نيكو سيكون الأب، بسبب مسألة البورفيريا. وبعد أن تناقشا معاً، ومع الأسرة، قررا أنهما مستعدان لخوض المجازفة، لأن لوري ترى أنه من المهم أن يكون الطفل أو الطفلة من زوجها. وكان عليهما بعد ذلك الحصول على بويضة، ولا يمكن أن تكون من جولييت، لأنها إذا كانت هي الأم فلن تستطيع التخلي عن الطفل في ما بعد. واختارا من خلال المستشفى متبرعة برازيلية لأن فيها شبه كبير منكِ، يا باولا، ملمح من الأسرة. وكان على المتبرعة وجوليت أن تخضعا لجرعات عالية من الهرمونات، الأولى كي تنتج عدة بويضات يمكن حصادها، والثانية لتهيئة بطنها. وجرى تخصيب البويضات في مختبر، ثم زُرعت الأجنة بعد ذلك في جولييت. كنتُ خائفة على لوري التي قد تتعرض لإحباط، ولكن خوفي الأكبر كان على جولييت التي تجاوزت الأربعين، وهي أرملة لديها طفلان. فإذا ما أصابها سوء، ما الذي سيحدث لأرسطوطاليس وآخيل؟ وكما لو أن جولييت تنبأت بما يجول في ذهني، فطلبت مني ومن ويللي تحمل مسؤولية ابنيها إذا ما حدثت مصيبة. لقد كنا نصل إلى حدود الواقعية السحرية.

تجارة أعضاء

تحملت ليلي، زوجة تونغ الشابة، تعسف حماتها سنة كاملة، إلى أن استنفدت خضوعها. ولو لم يتدخل زوجها لكانت خنقتها بيديها العاريتين، وهي جريمة سهلة، إذ أن للسيدة العجوز رقبة فرخ دجاج. ولا بد أن الفضيحة التي أُثيرت كانت من الحجم الكبير، لأن إدارة شرطة سان فرانسيسكو أرسلت ضابطاً يتكلم الصينية ليفصل بين أفراد ذلك المنزل. وكانت ليلي قد أثبتت حتى ذلك الحين أنها تكلمت بجد عندما قالت إنها لم تأت إلى أمريكا من أجل التأشيرة، وإنما لتأسيس أسرة. ولم تكن لديها أية نوايا للطلاق، على الرغم من حماتها ومن سوء طبع تونغ الذي مازال يرتاب في أنها ستطلب الطلاق فور استكمالها المدة التي يشترطها القانون للحصول على الإقامة.

بعد محاولة الخنق الفاشلة، أدرك تونغ أن الزوجة المذعنة التي أوصى عليها بالبريد هي امرأة قوية وجسورة. وأعلنت أمه المرعوبة للمرة الأولى في سنوات حياتها التي تربو على السبعين، أنها لن تستطيع مواصلة العيش مع هذه الكنة التي يمكن لها في أي لحظة سهو أن ترسلها إلى أسلافها. وأجبرت تونغ أن يختار بين امرأته، تلك المتوحشة التي حصل عليها بوسائل إلكترونية مريبة، كما قالت، وبينها هي، أمه الشرعية التي عاش معها طوال الحياة. لم تتح ليلي لزوجها أن يفكر طويلاً. فقد اتخذت موقفاً حازماً بألا تكون هي من تغادر البيت وإنما حماتها. نقل تونغ أمه إلى شقة للمسنين في وسط تشيناتاون، حيث تلعب الآن المهجونغ مع سيدات أخريات في مثل سنها. وباع الزوجان البيت واشتريا بيتاً آخر، صغيراً وحديثاً، بالقرب من بيتنا. شمرت ليلي ثيابها وانطلقت في مهمة تحويله إلى البيت الذي طالما رغبت فيه. طلت الجدران، وانتزعت الأعشاب الضارة من الحديقة، وزينت البيت بستائر بيضاء منشاة وأثاث أبيض

وجيد الصنع، وبنباتات وأزهار طازجة. بل إنها أعدت بنفسها أرضيات من البامبو ونوافذ فرنسية.

لقد علمت بهذه التفاصيل شيئاً فشيئاً عن طريق الإشارات، والرسوم وكلمات رطانة إنكليزية قليلة نشترك بها أنا وليلي، إلى أن جاءت أمي في الصيف من تشيلي، وخلال أقل من خمس دقائق كانت تجلس مع ليلي في الصالة، تشربان الشاي وتتحدثان كصديقتين قديمتين. لست أدري بأي لغة، لأن ليلي لا تتكلم الإسبانية، وأمي لا تتكلم المندرين، وإنكليزية الاثنتين لا تكفي لأي حوار.

وبعد يومين من ذلك أخبرتني أمي أننا مدعوون للعشاء في بيت ليلي وتونغ. أوضحت لها أن ذلك مستحيل، وأنها أساءت الفهم. فتونغ أمضى نصف حياته مع ويللي، والحدث الاجتماعي الوحيد الذي شارك فيه معنا هو حفلة زفاف نيكو، لأن لوري أجبرته على الحضور. فردّت علي: «قد يكون الأمر كذلك، ولكننا هذه الليلة سنتعشى معهما». وقد ألحت إلى حد أنني أخذتها كي أطمئنها، وأنا أفكر في أنه يمكننا قرع الجرس متذرعين بأي شيء، وهكذا تدرك أمي أنها كانت على خطأ. ولكننا حين وصولنا، رأينا ليلي جالسة على كرسي في الشارع بانتظارنا. كان بيتها متشحاً باحتفال، مع باقات أزهار، وكان في المطبخ عشرة أصناف متنوعة من الطعام انتهت هي من إعدادها باستخدام عودين. وكانت تحركهما في الهواء وهي تنقل المكونات من قِدر إلى أخرى بدقة سحرية، بينما أمي، المستقرة على أريكة الشرف، تتحدث معها بلغة مريخية. بعد نصف ساعة جاء ويللي وتونغ، وعندئذ استطعت التواصل مع ليلي عن طريق مترجم. وبعد أن التهمنا المأدبة سألتها لماذا تركت بلادها، وأسرتها، وثقافتها، وعملها كممرضة جراحية لتخوض المغامرة الغريبة بالزواج دون معرفة مسبقة والانتقال إلى أمريكا، حيث ستكون أجنبية على الدوام.

ـ السبب هو الإعدامات ـ ترجم لي تونغ.

اعتقدتُ أن ثمة خطأ لغوياً، لاسيما أن إنكليزية تونغ ليست أفضل كثيراً من إنكليزيتي، غير أن ليلي كررت ما كانت قد قالته. وبعد ذلك، بمساعدة زوجها وإيماءات وإشارات مبالغ فيها، أوضحت لنا سبب انضمامها إلى آلاف النساء اللواتي يغادرن بلادهن ليتزوجن من شخص مجهول. قالت لنا إنهم كانوا يرسلون إليهم، كل ثلاثة أو أربعة شهور، إشعاراً من السجن؛ فيكون عليها أن ترافق رئيس قسم الجراحة في المستشفى لحضور عمليات الإعدام. كانا يذهبان في السيارة، ومعهما صندوق مملوء بالثلج. يسافران لمدة أربع ساعات على دروب ريفية. وفي السجن يقتادونهما إلى قبو، حيث يكون هناك ستة سجناء مصفوفين ينتظرون، أيديهم مقيدة إلى ظهورهم وأعينهم معصوبة. يصدر القائد أمراً، ويطلق كل حارس النار على صدغ سجين عن قرب. وما إن تسقط الأجساد على الأرض، حتى يبادر الطبيب الجراح بسرعة، وهي تساعده، إلى انتزاع الأعضاء الصالحة للزرع: الكليتان، الكبد، العيون لانتزاع القرنية منها. وباختصار، كل ما يمكن استخدامه. ويرجعان من تلك المجزرة ملطخين بالدم، والثلاجة مترعة بالأعضاء التي تختفي بعد ذلك في السوق السوداء. لقد كانت تجارة مزدهرة لبعض الأطباء ورئيس السجن.

روت لنا هذه القصة الجهنمية ببلاغة ممثلة سينما صامتة بارعة، تقلّب عينيها بيضاوين، وتطلق بإصبعها النار على رأسها، وتسقط على الأرض، وتستل مبضعاً، وتقطع، وتنتزع أعضاء، كل شيء بتفصيل أثار في وفي أمي نوبة من الضحك العصبي، أمام نظرات الآخرين المرعوبة الذين لم يفهموا أية شياطين تجعلنا نرى في ذلك شيئاً مضحكاً. وقد بلغ الضحك حداً هستيريا عندما أضافت ليلي أن السيارة انقلبت في إحدى المرات في الطريق أثناء العودة من السجن، وقد مات الطبيب الجرّاح على الفور، وظلت هي

وحيدة في منطقة خلاء مع جثة الطبيب المبقورة على عجلة القيادة، وحمولة من الأعضاء البشرية المركونة بين الثلج. وقد كنت أتساءل إذا ما كنا نفهم القصة بصورة صحيحة، وإذا ما كانت ليلي تمزح أم أن هذه المرأة الفاتنة التي تُحضر أحفادي من المدرسة وتعتني بكلبتي كما لو أنها ابنتها، قد مرت فعلاً بتلك التجارب المرعبة.

ـ إنها حقيقية بالطبع ـ قالت تابرا عندما أخبرتها بذلك، وأضافت: ـ هناك في الصين معسكر اعتقال يقيم شراكة مع مستشفى، وفيه اختفى آلاف السجناء. إنهم ينتزعون أعضاءهم وهم أحياء، ثم يحرقون الأجساد. واللاجئون الذين يعملون في ورشتي يروون قصصاً رهيبة مثل هذه. هناك في بلدانهم أناس فقراء إلى حدّ يبيعون معهم كِلياتهم كي يطعموا أبناءهم.

ـ ومن يشتريها، يا تابرا؟

ـ الأغنياء، وحتى هنا، في أميركا. إذا كان أحد أحفادكِ بحاجة إلى عضو كي يواصل الحياة، وكان هناك من يعرضه عليك، ألا تشترينه دون أن توجهي أسئلة؟

كان واحداً من الأسئلة التي توجهها إليّ أثناء مسيرنا في الغابة. وبدل الاستمتاع بعبق الأشجار وتغريد الطيور، كنت أرجع متضايقة من تلك النزهات. ولكننا لم نكن نناقش على الدوام الفظائع التي تقترفها البشرية، أو السياسة، بل كنا نتحدث كذلك عن الحرذون المجنح الذي كان يظهر بين فترة وأخرى في حياة صديقتي ثم يختفي بعد ذلك لشهور. الأمر المثالي لتابرا هو احتجازه كزينة، بجدائل شعره وعقوده، في خيمة هنود كومانشي في فناء بيتها.

ـ يبدو لي أنها طريقة غير عملية، يا تابرا. فمن الذي سيتولى إطعامه وغسل سراويله الداخلية؟ سيكون عليه أن يستخدم حمامك، وأن تتولي أنت تنظيفه بعد ذلك ـ قلت لها، ولكنها ممن لا يتأثرون بمثل هذا النوع من العقلانية البائسة.

الأطفال الذين لم يأتوا

ثلاث مرات زرعوا في جولييت أجنة مختبر محضّرة من بويضات المتبرعة البرازيلية ومَنيّ نيكو. وفي المرات الثلاث ظلت قبيلتنا معلقة الروح بخيط لأسابيع بانتظار النتائج. استعنا بالوسائل السحرية المعهودة. ففي تشيلي لجأت صديقتي بيا وأمي إلى القديس الوطني، الأب هورتادو، عن طريق تقديم تبرعات جديدة لأعماله الخيرية. صورة هذا القديس الثوري الذي نحمله نحن التشيليين جميعنا في قلوبنا، هي صورة رجل شاب ونشيط، يرتدي مسوحاً سوداء ويعمل حاملاً رفشاً في يده. لا شيء من الطوباوية في ابتسامته، وإنما هي ابتسامة تحرر. وقد كان هو من صاغ جملتكِ المفضلة: «العطاء إلى حدّ الألم». عملية زرع الأجنة الثالثة، بعد إخفاق الاثنتين الأوليين، جرت في الصيف. وقبل سنة من ذلك كانت لوري ونيكو قد خططا لرحلة إلى اليابان وقررا القيام بها. فهذه الرحلة، إذا ما تحقق حلم الحصول على طفل، ستكون إجازتهما الأخيرة لوقت طويل. وسيتلقيان الخبر هناك، فإذا كان الخبر إيجابياً يستطيعان الاحتفال به، أما إذا كان سلبياً فسيكون ليدهما أسبوعان من الحياة الحميمة والصمت ليستسلما، بعيداً عن تفجع الأصدقاء والأقارب.

في فجر أحد تلك الأيام استيقظتُ مذعورة. كانت الحجرة مضاءة قليلاً جداً ببريق الفجر الخفيف وبمصباح نُبقيه مضاء طوال الوقت في الممر. كان الهواء ساكناً، والبيت محاطاً بصمت غير طبيعي؛ لا يُسمع شخير ويللي وأوليفيا الإيقاعي، ولا الحفيف المعهود لشجرات النخيل الثلاث وهي تتراقص مع النسيم في الفناء. وإلى جوار سريري كان يقف طفلان شاحبان يمسك أحدهما بيد الآخر، طفلة في حوالي العاشرة، وطفل أصغر منها بقليل. يرتديان ملابس العام ألف وتسعمئة، مع ياقات مخرمة وجزمات عالية. بدا لي أن

هنـاك تعـبيراً حزينـاً جـداً فـي أعينهمـا الواسـعة الـسوداء. تبادلنـا النظـرات لثانيـة أو ثـانيتين، وعنـدما أضـأتُ النـور، اختفـيا. ظللـت أنتظر لبعض الوقت أن يعودا دون جدوى. وأخيراً، عنـدما هـدأ تهـدج قلبي، ذهبت على رؤوس أصابعي لأتصل بصديقتي بيا. كـان الوقـت متأخراً خمس ساعات عن تشيلي، وكـانت صديقتي فـي الفـراش، تطرز إحدى حقائبها القماشية.

ـ أتعتقدين أن لهذين الطفلين علاقة ما بلوري ونيكو؟ ـ سألتها.

ـ لا، بالطبع! إنهما ابنا السيدتين الإنكليزيتين ـ أجابت بقناعة مطمئنة.

ـ أي سيدتين؟

ـ الـسيدتان اللتـان تـزورانني، وتخترقـان الجـدران. ألم أحـدثك عنهما؟

كـان علـى لـوري ونيكـو، فـي يـوم متفـق عليـه، أن يتـصلا بالمرضة التي تنسق العلاج في مستشفى الإخصاب، وهـي امـرأة لها ميـول عرابـة، تعـالج كـل حالـة بحسـاسية، لأنهـا تـدرك مـدى رهـان هذين الزوجين. ونظراً لاختلاف التوقيت بين طوكيو وكاليفورنيا، فقـد ضـبطا منبـه الـساعة علـى الخامـسة فجـراً. وبمـا أنـه لم يكـن بالإمكـان إجـراء مكالمـات دوليـة مـن الغرفـة، فقـد ارتـديا ثيابهمـا بسـرعة ونـزلا إلى بهـو الاسـتقبال فـي الفنـدق، حيـث لم يجـدا هنـاك أحداً يمكنه مساعدتهما في ذلك الوقت، ولكنهمـا كانـا يعلمـان أن ثمـة فـي الخـارج كابينـة هـاتف عمـومي. خرجـا إلى شـارع جـانبي كان خلال النهار يعج بالحركة بسبب المطاعم الشعبية ودكاكين السياح فـي الحـي، ولكنـه فـي تلـك الـساعة كـان مقفـراً. وكـانت كابينة الهاتف القديمة، المنتزعة من فيلم من سنوات الخمسينيات، لا تعمل إلا بقطع العملة. غير أن لوري كانت قد وضعت ذلك فـي حسبانها، وحملت معها ما يكفي للاتصال بالمستشفى. كـان الـدم يـصفع صـدغيها، وكـانت ترتجـف جزعـاً وهـي تـدير القـرص علـى

الرقم، وعلى شفتيها صلاة. ففي هذه اللحظات سيتقرر المستقبل. ومن الجانب الآخر للكوكب جاءها صوت العرابة. «لم ينجح الحمل، يا لوري، متأسفة جداً؛ لا أدري ما الذي حدث، فالأجنة كانت من الصنف الأول...»، قالت. ولكن لوري لم تعد تسمعها. أغلقت الهاتف بإعياء وتهاوت بين ذراعي زوجها. وهذا الرجل الذي عارض طويلاً فكرة المجيء بابن آخر إلى الدنيا، انفلت في البكاء، لأنه كان يحلم مثلها بفكرة ابن لكليهما. تعانقا دون النطق بكلمة واحدة، وبعد دقائق خرجا مترنحين من كابينة الهاتف إلى ذلك الشارع الخالي، الصامت، الرمادي في عتمة الفجر. ومن فتحات التهوية على الأرصفة كانت تخرج أعمدة بخار تضفي جواً شبحياً على المشهد، يناسب الحزن الذي يعانيانه. وكانت بقية تلك الرحلة إلى اليابان فترة نقاهة. ولم يكونا متحدين من قبل قط مثلما كانا في تلك الأيام. ففي الحزن المشترك وجدا نفسيهما على مستوى عميق جداً، عاريين، وأعزلين.

هناك شيء تغير في لوري بعد ذلك، كما لو أن كأساً قد انكسرت في صدرها، وكأن تلك الرغبة المتسلطة عليها، التي كانت أملها وعذابها قد انسابت خارجة مثل الماء. لقد انتبهت إلى أنه لا يمكنها الاستمرار إلى جانب نيكو مهزومة بالإحباط. وأن ذلك لن يكون عدلاً معه. فنيكو يستحق نوعية الحب المستسلم والبهيج الذي طالما حاول نسجه بينهما. عندئذ أدركت أنها بلغت نهاية طريق من العذاب، وعليها أن تتخلص من لهفة أن تكون أماً كي تتمكن من مواصلة العيش. فبعد أن جربت كل الوسائل الممكنة، صار من الجلي أنه لا وجود في قدرها لابن لها، لكن أطفال زوجها الذين هم منذ سنوات إلى جانبها ويحبونها كثيراً، يمكن لهم أن يملؤوا ذلك الفراغ. ولكن هذا الانصياع لم يحدث بين عشية وضحاها، فقد أمضت قرابة السنة وهي مريضة الجسد والروح. لقد كانت لوري نحيلة على الدوام، ولكنها فقدت خلال أسابيع عدة كيلوغرامات

من وزنها وظلت على العظام، وبعينين غائرتين. وقد أصيبت بدسك في عمودها الفقري، وظلت لشهور شبه مشلولة، تحاول العمل بقدرة مُسكِّنات الألم، وكانت المسكنات قوية إلى حد جعلها تهذي. وبلغت في إحدى اللحظات حدّ اليأس، ولكن جاء يوم خرجت فيه من ذلك الصراع الطويل، فشفي ظهرها، وتعافت روحها، وتحولت إلى امرأة أخرى. وقد لاحظنا جميعنا التغيير. استعادت وزنها، وطلت شفتيها، وعادت إلى تمارين اليوغا ومسيراتها الطويلة في الجبال؛ ولكنها تفعل ذلك الآن كرياضة وليس للهرب. وعادت تضحك بتلك الطريقة العدية التي أغوت نيكو، مثلما لم نسمعها تضحك منذ وقت طويل.. طويل جداً. عندئذ استطاعت أن تستسلم للأطفال أخيراً بكامل قلبها، بسعادة، كما لو أنها قد أزاحت الغمامة وصارت قادرة على رؤيتهم بدقة. إنهم لها. ثلاثة أبناء. الأبناء الذين تنبأتَ لها بهم أصداف عرافة باهيا ومنجمة كولورادو

ستريبتيز

عمل ويللي ولوري معاً في ماخور ساوساليتو السابق طوال سنوات، متقاسمين حتى الحمام نفسه. من الممتع مراقبة العلاقة بين هذين الشخصين اللذين لا يمكن لهما أن يكونا أكثر اختلافاً مما هما عليه. فمقابل فوضى ويللي وتسرعه وإطلاقه اللعنات، كانت لوري تفرض الهدوء والنظام والدقة والرقة. عند الظهر يأكل هو نقانق حريفة يمكن لها أن تثقب أمعاء كركدن وتخلّف الجو معطراً برائحة الثوم، بينما تنقر لوري سَلَطة خضار بيئية مع «التوفو». هو يدخل إلى المكتب بجزمة عامل تعدين ملوثة بالوحل، لأنه يأتي إلى العمل بعد المشي مع الكلبة، فتقوم لوري بكل لطف بتنظيف الدرج، لتحول دون انزلاق أحد الزبائن وتهشيم وجهه. وويللي يجمع

جبالاً من الأوراق فوق مكتبه، ابتداء من الوثائق القانونية وحتى المناديل الورقية المستخدمة، وبين حين وآخر تقوم لوري بمسحة تنظيف سريعة وترمي تلك الأشياء إلى القمامة؛ دون أن يلحظ هو ذلك، وربما يلحظه، لكنه لا يخبط الأرض بقدميه. كلاهما يشترك بهوس التصوير والرحلات. يتشاوران في كل شيء ويحتفيان بصورة مشتركة، دون أدلة واضحة على نزعة عاطفية: هي فعالة وهادئة على الدوام، وهو دائم التعجل والزمجرة. هي من تصلح له جهاز الكمبيوتر، وتحدّث باستمرار موقعه على الشبكة، وتحضّر له وجبات كرات اللحم حسب وصفة جدتها وهو يتقاسم معها كل ما يشتريه بالجملة، ابتداء من ورق التواليت وحتى ثمار البابايا، ويحبها أكثر من أي شخص آخر في هذه الأسرة، باستثنائي أنا... ربما.

ويللي يسخر منها بالطبع، ولكنه يتحمل كذلك مزاحها. في إحدى المرات أعدت لوري لوحة لاصقة ببراعة، وألصقتها على دارئة الصدمات الخلفية لسيارته. وكانت اللوحة تقول: **أبدو فحلاً جداً، ولكنني أستخدم سروال امرأة داخلي**. وظل ويللي يقود السيارة لأسبوعين وعليها اللوحة، دون أن يفهم سبب إيماء الرجال له من السيارات الأخرى. ولكن ذلك لم يكن غريباً، بالنظر إلى أننا نعيش في المكان الذي ربما توجد فيه أعلى نسبة مئوية من الشاذين جنسياً في العالم. وعندما اكتشف وجود اللوحة كاد يصاب بالسكتة.

بين حين وآخر يرن جرس جهاز الإنذار في مبنى الماخور السابق من تلقاء ذاته، مثلما حدث في تلك المرة التي وصل فيها ويللي في الوقت الذي كان يُسمع فيه رنين جهاز الإنذار المدوي، فدخل مسرعاً عبر باب المطبخ ـ في الطابق السفلي ـ ليطفئ الجهاز. كان الوقت بعد الظهر، في الشتاء، وكان الجو مظلماً إلى هذا الحد أو ذاك. وفي تلك اللحظة نزل على الدرج رجل شرطة كان قد دخل

مندفعاً من الباب الرئيسي، وكان يضع نظارة شمسية، ويحمل مسدساً في يده، هدده بصرخة جفاء أن يرفع يديه عالياً. «اهدأ يا رجل، أنا صاحب البيت»، حاول زوجي أن يوضح له، لكن الآخر أمره بأن يصمت. كان شاباً وقليل الخبرة، وقد سيطرت عليه العصبية وواصل الصراخ والمطالبة بتعزيزات بهاتفه، بينما السيد ذو الشعر الأبيض، بوجهه الملتصق بالجدار، يغلي غضباً. وقد حُلت المسألة دون تبعات عندما حضر رجال شرطة آخرون مسلحون كما لو أنهم في معركة، وبعد أن فتشوا ويلي، استمعوا إلى أسبابه. وقد أدى ذلك إلى وابل من لعنات ويلي وشتائمه، وإلى نوبات ضحك من جانب ويلي، مع أنها كانت ستضحك أقل بكثير لو أنها كانت هي الضحية. بعد أسبوع من ذلك، وبينما كنا جميعنا نشتغل، بدأ بالمجيء بعض أصدقاء لوري، وهم أصدقاء لنا أيضاً. بدا لي الأمر غريباً بعض الشيء، ولكنني كنت على الهاتف مع صحفي من اليونان، فاكتفيت بتحيتهم بإشارة من بعيد. وتوافق انتهائي من التكلم في الهاتف مع دخول رجل شرطة، طويل، وشاب، أشقر ووسيم جداً، يضع نظارة شمسية، ومسدساً على حزامه، وطلب التحدث مع السيد غوردون. استدعت لوري ويلي، فنزل من الطابق الثاني مستعداً لأن يقول لذي الزي الشرطي أنه سيرفع دعوى قضائية على إدارة الشرطة إذا ما واصلوا إزعاجه. جلس الأصدقاء على الدرج ليراقبوا المشهد.

أخرج رجل الشرطة الوسيم حزمة أوراق وطلب من ويلي أن يجلس لأن عليه أن يملأ بعض الاستمارات. وانصاع زوجي باستياء. عندئذ سمعنا موسيقى عربية وراح الرجل يرقص مثل جارية حقيقية. ثم بدأ بخلع قبعته أولاً، وبعد ذلك جزمته، ثم المسدس، والسترة والبنطال، أمام رعب ويلي المطلق، الذي تراجع، وقد صار أحمر مثل سرطان مسلوق، متأكداً من أنه أمام مريض عقلي هارب من مستشفى المجانين. قهقهات الجمهور الذي كان يراقب من الدرج،

قدمت لويللي المفتاح بأن الرجل ممثل تعاقدت معه لوري، ولكن الراقص لم يكن قد بقي عليه عندئذ سوى النظارة الشمسية ورباط صغير جداً يكاد لا يغطي أعضاء حياته بالكامل.

وبالنظر إلى أننا نعمل في المكان نفسه، فإننا ندير معاً مكتب ويللي للمحاماة، والمؤسسة، ومكتبي، ونرى بعضنا كل يوم تقريباً، ونذهب معاً في إجازة إلى أقاصي العالم، ونعيش في دائرة قطرها ست كوادرات، ويبدو مفاجئاً أننا جميعنا على علاقة طيبة. بل أقول إنها معجزة. أما نيكو فيقول إنه العلاج النفسي.

كاتبي المفضل

خلافاً لكل ما يمكن توقعه، لم تؤد أحكامي القاسية بشأن رواية ويللي وقزمه المنحرف إلى نشوب حرب بيننا، كما كان سيحدث لو خطرت لويللي فكرة توجيه نقد سلبي إلى كتبي. إلا أنه كان واضحاً أنني لست الشخص المناسب لمساعدته، وأنه بحاجة إلى محرر محترف. وفي أثناء ذلك ظهرت وكيلة أدبية شابة أبدت اهتماماً كبيراً بالكتاب في البدء وراحت تنفخ (الأنا) في زوجي؛ غير أن حماستها بدأت تفتر شيئاً فشيئاً. وبعد ستة شهور، هنأته على جهده، وأكدت له أنه يملك الموهبة، وذكّرته بأن مؤلفين كثيرين، بمن في ذلك شكسبير، كتبوا صفحات كان مصيرها النهائي أحد الصناديق. وكانت هناك عدة صناديق في بيتنا يمكن للقزم أن ينام فيها نوم العادلين لزمن غير محدد، ريثما يفكر هو في موضوع آخر. لم يعر ويللي اهتماماً لآراء الغير وأرسل الكتاب إلى وكلاء آخرين وإلى بعض دور النشر، فأعادوه إليه برفض مهذب، لكنه حاسم. وبدل أن يحبطه ذلك، عززت رسائل الإدانة تلك روحه النضالية؛ فزوجي ليس من أولئك الذين يسمحون للواقع

بأن يفحمهم. وفي هذه المرة لم أسخر منه، إذ خطر لي أنه يمكن للأدب أن يضفي معنى على الشطر الأخير من حياته. فإذا كان ما قالته الوكيلة الأدبية صحيحاً، وكانت لدى ويللي الموهبة، وإذا ما أخذ الأمر على محمل الجد وتمكن من التحول إلى كاتب بعد تجاوزه الستين من العمر، فسوف يكون عليّ أن أعتني بعجوز أبله في المستقبل. وسيكون ذلك مناسباً لكلينا: يمكن للإبداع أن يبقيه سعيداً ومعافى حتى سن متقدمة جداً.

في إحدى الليالي، بينما نحن متعانقان في الفراش، شرحت له فوائد كتابة المرء عما يعرفه. فما الذي يعرفه هو عن الأقزام الساديين؟ لا شيء، اللهم إلا إذا كان يعكس في تلك الشخصية التعيسة مظهراً أجهله من شخصيته. ولكن لديه بالمقابل أكثر من ثلاثين سنة من الخبرة كمحامٍ وذاكرة رائعة في حفظ التفاصيل. فلماذا لا يجرب الرواية البوليسية؟ فأي قضية من القضايا التي تعامل معها يمكن أن تنفع كنقطة انطلاق. وليس هناك ما هو أكثر تشويقاً من قاتل دموي. استغرق في التأمل دون أن ينطق بكلمة. وفي اليوم التالي ذهبنا لنتمشى في الحي الصيني في سان فرانسيسكو، ورأينا صينياً أمهق يقف منتظراً عند ناصية. «لقد عرفتُ كيف ستكون روايتي القادمة. ستكون قضية إجرامية فيها صيني أمهق مثل هذا»، قال لي بالنبرة نفسها التي أعلن فيها أول مرة عن تطلعاته الأدبية في مهرجان سان فرانسيسكو السادي المازوشي، حين رأى القزم المربوط بسلسلة كلب. بعد سنتين من ذلك نُشرت روايته في إسبانيا تحت عنوان ***مبارزة في تشيناتاون*** واشتراها ناشرون آخرون لترجمتها إلى عدة لغات. ذهبنا معاً لحفل إطلاق الرواية في مدريد وبرشلونة، يرافقنا ابناه وعدد من الأصدقاء الأوفياء المستعدين للتصفيق له. استقبلته الصحافة في كل مكان بفضول، وبعد التحدث إليه نشروا مقالات مترعة بالتعاطف واللطف، لأنه كان يكسب محبة الجميع، وخاصة النساء،

بصراحته. لم تكن لديه أية إدعاءات، وإنما النظرة الزرقاء فقط، والابتسامة الجريئة تحت حافة القبعة الأزلية. وفي يوم إطلاق الكتاب في مدريد، سأله أحد الحاضرين إذا ما كان يسعى إلى أن يكون مشهوراً، فأجابه بتأثر إنه حصل على ما لم يكن يحلم به قط فواقع وجود الصحافة هناك، وأن ثمة أشخاصاً يريدون قراءة كتابه، هي هدية له. لقد جردهم من السلاح، بينما كان ناشره يتلوى في كرسيه لأنه لم يتعامل قط مع كاتب بهذه النزاهة. وتمثل دوري، لمرة واحدة، في حمل الحقائب، هكذا استطعت أن أسدد له، بالحدود الدنيا، الكثير من الحرج الذي تحمله طوال سنوات من مرافقتي في أنحاء العالم.

ـ استمتع بهذه اللحظة، يا ويللي، لأنها لن تتكرر. فسعادة رؤية النسخة الأولى من أول كتاب لك هي سعادة وحيدة. وإذا ما كان ثمة منشورات أخرى في المستقبل، فإنها لن تكون أهلة للمقارنة بهذا ـ نبهته، مذكرة إياه بما شعرت به عند نشر الطبعة الأولى من ***بيت الأرواح***، التي أحتفظ بنسخة منها ملفوفة بورق حريري، وتحمل توقيع الممثلين الذين شاركوا في الفيلم وفي العمل المسرحي المأخوذ عنها في لندن.

إسبانية الضواحي التي يتكلمها ملطخة بأساليب مكسيكية وكلمات إنكليزية أكسبت ويللي مزيداً من النقاط؛ والباقي كان بفضل قبعته التي تضفي عليه ملمح تحر من سنوات الأربعينيات. لقد ظهر في الكثير من الصحف والمجلات، وأجروا معه مقابلات في عدة إذاعات، ولدينا صورة في مكتبة إسبانية، وأخرى في مكتبة تشيلية، حيث تظهر رواية ***مبارزة في تشيناتاون*** في الواجهة، بين الكتب الأكثر مبيعاً. وفي برنامج في إحدى الإذاعات، أتى على ذكر القزم المؤثر في الكتاب المحبط، وبعد ذلك، بينما نحن في الفندق، اقترب منه رجل ليقول له إنه سمعه.

ـ كيف عرفتَ أنني أنا؟ ـ سأله ويللي مستغرباً.

ـ لقد ذكروا في المقابلة قبعتك. وأريد أن أقول لك إن لي صديقاً قزماً ومنحرفاً جداً مثل قزم روايتك. لا تسمع كلام زوجتك، انشر الرواية وحسب. وسوف تبيع مثل الكعك، فالجميع يحبون الأقزام الماجنين.

بعد شهر من ذلك، روى له أحدهم أنه في مطلع القرن العشرين كان هناك في مدينة خواريث ماخور فيه مئتا مومس قزمة، مئتان! بل إنه قدم إلى ويللي كتاباً حول ذلك الماخور الذي على طريقة فيلليني. وأخشى أنه يمكن لذلك أن يستثير في زوجي الرغبة في إخراج قزمه البغيض من الصندوق.

لم أر ويللي قط في حالة أكثر سعادة. ولن يكون عليّ، بصورة حاسمة، أن أعنى بعجوز مريل، لأنه أخرج ونحن في الطائرة دفتر أوراقه الصفراء وبدأ بكتابة رواية بوليسية أخرى. وقد تنبأت له منجمة كولورادو أنه في السنوات السبع والعشرين الأخيرة من حياته سيكون وافر الإبداع، وهكذا يمكنني أن أظل مطمئنة إلى أن يكمل زوجي ستاً وتسعين سنة.

ـ هل تؤمنين بهذه الأمور؟ ـ سألتُ وكيلتي الأدبية كارمن بالثيس، عندما أخبرتها بذلك.

ـ إذا كان يمكن الإيمان بالرب، فمن الممكن أيضاً الإيمان بالتنجيم ـ ردّت عليّ.

ثنائي برجوازي

في شهر شباط 2004 اقترف عمدة سان فرانسيسكو خطأ سياسياً عندما حاول إضفاء الشرعية على زواج الشاذين جنسياً، لأنه كهرب اليمين المسيحي للدفاع عن «قيم الأسرة». وتحول منع زواج المثليين إلى راية الجمهوريين السياسية لإعادة انتخاب بوش في تلك

السنة بالذات. والمذهل أن هذا الأمر كان له وزن أكبر من الحرب في العراق عند التصويت. لم تكن البلاد ناضجة بما يكفي لتقبّل مبادرة مثل مبادرة العمدة. لقد أقدم على ذلك في نهاية الأسبوع، في وقت كانت فيه المحاكم مغلقة، كي لا يتمكن أي قاض على منع الأمر. وما إن أُعلن الخبر، حتى حضر مئات الأزواج أمام السجل المدني. كان هناك صف طويل منهم تحت المطر. وخلال الساعات التالية وصلت من كل الأنحاء رسائل التهنئة وباقات الزهر التي غطت الشارع. وكان أول المتزوجين عجوزين تجاوزتا الثمانين، امرأتين بشعر أبيض، عاشتا معاً طوال أكثر من خمسين سنة. وكان التاليان رجلين حضرا وكل منهما يحمل طفلاً في جراب معلق على صدره، إنهما توءم تبنياه. كان الواقفون في ذلك الصف الطويل أناس يرغبون في حياة طبيعية، وتربية أبناء، وشراء بيت مناصفة، والتوريث، ومرافقة أحدهما الآخر في ساعة الموت. لا شيء من قيم الأسرة كما يبدو. لم تذهب سيليا وسالي لتكونا جزءاً من ذلك الحشد لأنهما فكرتا في أن مبادرة العمدة ستُعتبر غير شرعية سريعاً جداً، وهو ما حدث بالفعل.

كانت سالي وشقيق سيليا قد تطلقا منذ وقت طويل. فبحيلة الزواج، حصل هو على التأشيرة الأمريكية، ولكنه لم يستخدمها لوقت طويل، لأنه قرر العودة إلى فنزويلا، حيث تزوج أخيراً من شابة بارعة الجمال، آمرة ومرحة، وأنجب ابناً فاتناً ووجد المصير الذي كان يفلت منه في الولايات المتحدة. وقد أتاح ذلك لسالي وسيليا أن تتحدا شرعياً في «شراكة منزلية». يخيل إليّ أنه كانت هناك بعض التعقيدات في توضيح سالي أمام السلطات أمر «الزواج» من شخصين لهما الكنية نفسها، ولكنهما مختلفان في الجنس. ولم تكن ثمة حاجة إلى تقديم تفسيرات كثيرة للأطفال الذين رأوا صورة زفافها مع خالهم: لقد أدركوا منذ البداية أن الأمر مجرد معروف قدمته سالي إليه؛ وأظن أنه لا يمكن لأي تعقيدات أسرية أن تسبب الفزع لأحفادي.

تحولت سيليا وسالي إلى زوجين قديمين، مرتاحتين وبورجوازيتين إلى حد يصعب التعرف عليهما باعتبارهما الفتاتين الجريئتين اللتين تحديتا المجتمع قبل سنوات بحبهما المتبادل. إنهما تحبان الذهاب إلى المطاعم أو البقاء في الفراش لمشاهدة برنامجهما التلفزيوني المفضل. ومن عادتهما إقامة حفلات في بيتهما الصغير، حيث تتدبران الأمر لاستقبالٍ مئة شخص مع الطعام والموسيقى والرقص. إحداهما تعمل ليلاً والأخرى تنام منذ الساعة الثامنة، وهكذا لم تكن مواعيدهما تتوافق.

ـ يتوجب علينا الاتفاق على مواعيد في منتصف النهار، والمفكرة في اليد، وإلا سنعيش كرفيقتين وليس كحبيبتين. فالتوصل إلى لحظات حميمة هو مشروع شاق عندما يكون هناك عمل كثير وثلاثة أطفال ـ اعترفت لي سيليا ضاحكة.

ـ هذه معلومات أكثر مما أحتاجه، يا سيليا.

انتهى بهما الأمر إلى إعادة تنظيم البيت، فحولتا الكراج إلى حجرة تلفزيون وغرفة لأليخاندرو الذي صار في سن يحتاج فيها إلى الخصوصية. ولديهما كلب يدعى بونتشو، أسود، ووديع وضخم، مثل الكلب باراباس في روايتي الأولى، ينام على أسرّة الأطفال بالتناوب، ليلة مع كل واحد منهم. وقد أفزع حضوره الهرين اللذين هربا عبر السطوح ولم يعودا للظهور. وعندما كان أحفادي يذهبون لقضاء الأسبوع في بيت أبيهما، كان بونتشو التعيس يقبع عند أسفل الدرج بعينين ذاويتين بانتظار يوم الاثنين التالي.

لقد اكتشفت سيليا هوى حياتها: الدراجة الجبلية. وبالرغم من أنها تجاوزت الأربعين، إلا أنها كسبت جوائز في سباقات النفس الطويل بالتنافس مع شباب في العشرين، وقد أقامت مؤسسة صغيرة لتنظيم رحلات على الدراجات باسم: Mountain Biking Marin. وهناك متعصبونٍ لهذه الرياضة يأتون من أماكن بعيدة ليتبعوها على الدراجات صعوداً في الجبال.

يبدو لي أن هاتين المرأتين سعيدتان. إنهما تعملان لتعيشا، ولكنهما لا تقتلان نفسيهما في جمع المال، وتتفقان في أن همّهما الأول هو الأطفال، إلى أن يكبروا على الأقل ويستقلوا. إنني أتذكر الزمن الذي كانت فيه سيليا تتقيأ خفية لأنها محتجزة في حياة ليست لها. إنهما محظوظتان بالعيش في كاليفورنيا، في بدايات القرن الحادي والعشرين؛ لأنهما لو كانتا في مكان آخر وزمن آخر لواجهتا أحكاماً مسبقة قاسية. أما هنا فلا مشكلة في كونهما مثليتين، حتى في المدرسة الكاثوليكية التي ترتادها الطفلتان، فليس هذا هو ما يحدد شخصيتيهما. ومعظم أصدقائهما أزواج، وآباء أطفال آخرين، وأسر عادية. وقد تولت سالي دور ربة البيت، بينما اعتادت سيليا التصرف كصورة كاريكاتير لزوج أمريكي لاتيني.

ـ كيف تتحملينها يا سالي؟ ـ سألتها يوماً حين رأيتها تطبخ وتساعد نيكول في واجب الرياضيات، بينما سيليا ترتدي بنطالاً غير وقور وخوذة مجنونة، وتمضي على دراجتها عبر درب جبلي مع بعض السائحين.

ـ لأننا نتسلى كثيراً معاً ـ ردّت عليّ وهي تحرك محتويات القدر.

في مغامرة تكوين الثنائيات تلك ثمة الكثير من الحظ، ولكن فيها الكثير من الإرادة أيضاً. كثيراً ما سألني بعض الصحفيين في المقابلات عن «السر» في العلاقة المتينة التي تربطنا أنا وويلي. فلا أدري بماذا أجيب، لأني لا أعرف المعادلة، إذا كان لها وجود، ولكنني أتذكر على الدوام شيئاً تعلمته من مؤلف موسيقي زارنا مع امرأته. كانا في حوالي الستين من العمر، ولكنهما يبدوان شابين، قويين، ومفعمين بالحماسة. وقد أخبرنا الموسيقي بأنهما تزوجا ـ أو جددا التزامهما بعبارة أدق ـ سبع مرات خلال حبهما الطويل. لقد تعارفا عندما كانا طالبين في الجامعة، ووقعا في الحب من النظرة الأولى وظلا معاً لأكثر من أربعة عقود. مرا بعدة مراحل، وفي كل مرحلة منها تغيرا وكانا على وشك

الانفصال، ولكنهما اختارا مراجعة العلاقة. وبعد كل أزمة كانا يقرران البقاء متزوجين لبعض الوقت، لأنهما اكتشفا أنهما مازالا متحابين؛ بالرغم من أنهما لم يعودا مثلما كانا في السابق. وقال: «وبالإجمال، مررنا بسبع زيجات، ولا شك أن في انتظارنا عدداً آخر منها. فالثنائي عندما يكون أحدنا منكباً على تربية أطفال، وبلا نقود، وبلا وقت فراغ، لا يمكن أن يكون هو نفسه عندما يصل إلى سن النضج، وتمرس في مهنته وينتظر حفيده الأول». وروى لنا، على سبيل المثال، أنهما في سنوات الستينيات، في أوج الجنون الهيبي، عاشا في كمونة مع عشرين شاباً كسولاً وبطالاً، حيث كان هو وحده من يشتغل؛ بينما يقضي الآخرون اليوم في غيوم الماريجوانا، وعزف الجيتار، والترتيل بالسنسكريتية. وفي أحد الأيام ملّ من إعالتهم، وطردهم ركلاً من البيت. وكانت تلك لحظة حاسمة توجب عليه فيها أن يضبط قواعد اللعبة مع زوجته. وبعد ذلك جاءت المرحلة المادية في سنوات الثمانينيات، وكادت أن تدمر حبهما لأن كلاً منهما كان يسعى راكضاً وراء النجاح. وقد اختارا في تلك المناسبة أيضاً أن يقوما بتغيرات جوهرية والعودة للبدء من جديد. يبدو لي أنها صيغة صائبة جداً، وقد كان عليّ أنا وويللي أن نضعها موضع الممارسة في أكثر من مناسبة.

توءم وعملات ذهبية

ولدت ابنتا إرنستو وغيليا التوءم في صباح مشمس من شهر حزيران 2005. وقد تمكنتُ من الوصول إلى المستشفى في اللحظة نفسها التي تلقى فيها إرنستو طفلتيه وكان جالساً يبكي مع لفافتين ورديتين بين ذراعيه. وانخرطت أنا أيضاً في البكاء سعادة، لأن هاتين المخلوقتين تمثلان النهاية الحاسمة لترمله وبداية مرحلة

أخرى من حياة هذا الرجل. إنه أب الآن. وحين رأى ويللي الطفلتين حديثتي الولادة، كان رأيه أن إحداهما تشبه موسوليني والأخرى تشبه فريدا كاهلو، ولكننا بعد أقل من أسبوعين، حين استقرت ملامحهما، استطعنا التأكد من أنهما صغيرتين جميلتين: كريستينا شقراء ومرحة مثل أمها. وإليسا سمراء وقوية مثل أبيها. كانتا مختلفتين جداً في المظهر والشخصية بحيث يبدو أنه جرى تبني إحداهما في كنساس والأخرى في تينريفي. انقلبت غيليا بالكامل نحو ابنتيها، حتى إنه لم يكن بالإمكان التحدث معها طوال سنة عن أي شيء آخر غيرهما. وقد تمكنت من تدريبهما لتأكلا وتناما في الوقت نفسه. وكان ذلك يمنحها بعض لحظات الحرية بين قيلولتين، فتستغلها في ترتيب البيت. وهي تربيهما على الموسيقى اللاتينية، واللغة الإسبانية، ودون خوف من الجراثيم والحوادث. مصاصات الطفلتين تكون على الأرض، ومن هناك إلى الفم، دون أي تكلف. وفي ما بعد ستكتشف الطفلتان، قبل أن تتعلما المشي، كيفية صعود ونزول الدرج الخزفي ذي الحواف الحادة بالزحف على البطن. كريستينا ابن عرس لا يمكنها البقاء هادئة، تطل على الهاوية من فوق الشرفات بلا مبالاة منتحر، أما إليسا فتستغرق في أفكار قاتمة تسبب لها عادة نوبات بكاء لا مواساة لها. لست أدري كيف تجد غيليا الحماسة لإلباسهما كدميتين، مع أخفاف مطرزة وقبعات بحارة.

في السنة الماضية، يوم السادس من كانون الأول بالضبط، ذكرى وفاتك، قُبل إرنستو في الجامعة ليدرس للماجستير ليلاً، وحصل على وظيفة أستاذ رياضيات في أفضل مدرسة عامة في الكونتية، على بعد خمس عشرة دقيقة من البيت. كان عاطلاً عن العمل منذ بضعة شهور، أمضاها وفوق رأسه سحابة متجهمة، مفكراً بمستقبله. وكانت غيليا دائمة التألق والتفاؤل هي الوحيدة التي لم يخامرها الشك في أن زوجها سيجد طريقه، بينما كنا

نحن الآخرين في البيت عصبيين بعض الشيء. وقد ذكّرني العم رامون في إحدى رسائله بأن الرجال يعانون أزمة هوية في حوالي الأربعين من العمر، إنها جزء من عملية النضج. وقد حدث له ذلك في العام 1945، عندما أُغرم بأمي في البيرو، منذ ستين سنة. فذهب إلى فندق في الجبال، واعتكف بصمت في حجرة لعدة أيام، وعندما خرج كان شخصاً آخر: فقد نفض عنه إلى الأبد الديانة الكاثوليكية، والضغوط العائلية، والمرأة التي كانت زوجته حتى ذلك الحين. نزع عنه كل ذلك دفعة واحدة وفقد الخوف من المستقبل. وقد اكتشف آنذاك ما علمني إياه في مراهقتي ولم أنسه قط: «الآخرون يكونون خائفين أكثر منك». إنني أكرر هذه الكلمات كلما تعرضتُ لموقف يبدو لي مخيفاً، ابتداء من قاعة محاضرات تغص بجمهور، وحتى لحظات الوحدة. لا شك لدي في أن العم رامون قد تمكن من حسم قدره بهذه الطريقة الفعالة، لأنني رأيته يتصرف على هذا النحو في بعض المناسبات، مثل تلك المناسبة التي فاجأ فيها أخي بانتشو يدخن، وكان آنذاك في حوالي العاشرة من عمره. في تلك الليلة أطفأ العم رامون عقب سيجارته أمامنا، وأعلن: «هذه آخر سيجارة في حياتي، وإذا ما صادفتُ أياً منكم يدخن قبل بلوغه سن الرشد، فسوف يكون حسابه معي». ولم يعد للتدخين قط.

لحسن الحظ أن إرنستو تجاوز أزمة سن الأربعين، وعندما ولدت ابنتاه كان جاهزاً لاستقبالهما وقد استقر في منصبه كأستاذ رياضيات في المدرسة الثانوية، وفي دراسته ليصبح أستاذاً جامعياً.

❖ ❖ ❖

ألفريدو لوبيث الحرذدون المجنح ظهر في قناة تلفزيون ناطقة بالإسبانية، أكثر وسامة من أي وقت آخر، مرتدياً ملابس قاتمة مع عصابة على جبهته وعدة عقود من الفضة والفيروز. اتصلت بي تابرا هاتفياً في الساعة العاشرة ليلاً كي أراه بوساطة الكابل، وكان

عليّ أن أوافق على أن الرجل جذاب جداً. ولو أني لا أعرفه جيداً لكانت صورته في التلفزيون قد أثرت فيّ. كان يتكلم بالإنكليزية - مع ترجمة مكتوبة - بهدوء أستاذ أكاديمي، وبقناعة أخلاقية رسولية، موضحاً المسوغات العادلة التي دفعته إلى مهمة استرداد تاج موكتيزوما، رمز كرامة شعب الأزتيك وتقاليده، الذي استولت عليه الإمبريالية الأوروبية. فبعد أن صرخ في البرية طوال سنوات، وصلت رسالته أخيراً إلى مسامع أبناء الأزتيك وألهبت قلوبهم كالبارود. فرئيس المكسيك سيرسل لجنة حقوقية إلى فيينا للتفاوض مع مجلس شيوخ تلك البلاد بشأن استعادة الأثر التاريخي. وانتهى بتوجيه نداء إلى المهاجرين المكسيكيين في الولايات المتحدة كي ينضموا إلى نضال أخوتهم في العرق ويحصلوا على دعم حكومة الولايات المتحدة للضغط على النمساويين. هنأتُ تابرا على قفزة صديقها إلى الشهرة، ولكنها ردّت عليّ، بزفرة عميقة، أنه إذا كان الحرذون متهرباً من قبل، فإن الإمساك به سيصبح مستحيلاً الآن. «ربما سيلحق بي إلى كوستاريكا بعد أن يسترد التاج.» قالت، ثم أضافت دون قناعة: «حسن، هذا إذا استطعتُ أن أوفر ما يكفي من أجل مغادرة هذه البلاد». ففكرتُ: «حذار مما تطلبين، فقد تمنحك السماء إياه»، ولكنني لم أقل لها ذلك. كانت تابرا قد عمدت منذ بعض الوقت إلى شراء نقود ذهبية، وكانت تخبئها في أركان البيت، مع ما يكتنف ذلك من خطر أن تُسرق منها.

دونيا إنيس وزورو

بينما كانت تابرا تستعد للهجرة، كنتُ غارقة في الأبحاث حول موضوع بدأت التحضير له منذ حوالي أربع سنوات: الملحمة الخارقة لمئة وعشرة صعاليك أبطال فتحوا تشيلي في العام 1540.

كانت ترافقهم امرأة إسبانية، تدعى إنيس سواريث، وهي خياطة من مدينة برسينثيا في استريمادورا، وقد سافرت إلى بلاد الهند (أميركا) مقتفية آثار زوجها، فوصلت إلى البيرو، حيث اكتشفت أنها صارت أرملة. وبدل أن ترجع إلى إسبانيا، ظلت في العالم الجديد وأغرمت في ما بعد بالسيد بيدرو دي بالديبيا، النبيل الذي كان حلمه يتمثل في أن «أخلّف شهرة ومجداً لنفسي»، مثلما كان يؤكد في رسائله إلى ملك إسبانيا. لقد لاحقتني طوال سنوات صورة تلك المرأة التي اجتازت صحراء أتاكاما، أشد الصحارى قحولة في العالم، وقاتلت كجندي شجاعٍ ضد المابوتشيين، أشد المحاربين بسالة في أميركا، وأسست مدناً وماتت، متقدمة في السن، بعد أن وقعت في حب فاتح آخر. لقد عاشت في أزمنة بالغة القسوة واقترفت أكثر من عمل بربري، ولكنها بالمقارنة مع أي شخص آخر من رفاقها في تلك المغامرة، تبدو شخصية نزيهة.

كثيراً ما سُئلت من أين يأتي إلهام كتبي. لستُ أعرف الإجابة. إنني أراكم في رحلة الحياة تجارب تأخذ بالانطباع في أشد طبقات الذاكرة عمقاً، وتتخمر هناك وتتحول، ثم تنبثق في بعض الأحيان كنباتات غريبة من عالم آخر. مم يتركب هذا الدبال الخصب في اللاوعي؟ ولماذا تتحول بعض الصور إلى موضوعات متواترة في الكوابيس أو في الكتابة؟ لقد ارتدتُ أجناساً أدبية كثيرة وموضوعات متنوعة، ويبدو لي أنني أخترع كل شيء من جديد في كل كتاب، بما في ذلك الأسلوب، ولكنني أفعل ذلك منذ عشرين سنة، ويمكن لي أن أرى التكرار. ففي كل كتبي تقريباً هناك نساء متحديات، يولدن فقيرات وضعيفات، ومقدراً لهن أن يكن خاضعات، لكنهن يتمردن مستعدات لدفع ثمن الحرية مهما كلفهن ذلك. وإنيس سواريث هي واحدة منهن. إنهن عاطفيات على الدوام في غرامياتهن، ومتضامنات مع النساء الأخريات. لا يحركهن الطموح، وإنما الحب. ويلقين بأنفسهن في المغامرة دون

حساب للمخاطر أو النظر إلى الوراء، لأن بقاءهن في الموقع الذي خصصه لهن المجتمع أسوأ بكثير. وربما لهذا السبب لا أهتم بالملكات أو الوارثات اللاتي يأتين إلى الدنيا في مهد من الذهب، ولا بالنساء باهرات الجمال اللاتي يجدن طريقهن معبداً بشهوة الرجال. أنتِ كنت تضحكين مني، يا باولا، لأن النساء الجميلات في رواياتي يمتن قبل الصفحة الستين. وكنتِ تقولين إن ذلك مجرد حسد من جانبي، ولا بد أنكِ كنت على شيء من الصواب، إذ كان يروقني لو أنني واحدة من بارعات الجمال أولئك اللواتي يحصلن على كل ما يرغبن فيه دون جهد، ولكنني أُفضل لرواياتي بطلات قويات لا يقدم لهن أحد أي شيء، وإنما يحصلن على كل شيء بأنفسهن. وليس غريباً بالتالي أن يلسعني الفضول حين قرأت عن إنيس سواريث بين سطور أحد كتب التاريخ - نادراً ما يكون هناك أكثر من سطرين عندما يتعلق الأمر بالنساء -. فهي نموذج للشخصية التي يتوجب عليّ اختراعها عادة. وعندما قمت بالأبحاث أدركت أنه لا يمكن لأي شيء أتخيله أن يتجاوز واقع حياة تلك المرأة. فالقليل المعروف عنها مثير، وشبه سحري. ولسوف أروي حكايتها عما قريب، غير أن خططي تبدلت بسبب ثلاثة زائرين فريدين من نوعهم.

❖ ❖ ❖

عند ظهر أحد أيام الآحاد جاء إلى بيتنا ثلاثة أشخاص، ظننا في البدء أنهم مبشرون مرمونيون. ولكنهم لم يكونوا كذلك، لحسن الحظ. أوضحوا لي أنهم يملكون حق التصرف بالحقوق العالمية لشخصية زورو، البطل الكاليفورني الذي نعرفه جميعنا. لقد ترعرعتُ مع زورو، لأن العم رامون كان أحد المعجبين المتعصبين له. تذكري يا باولا، أن سلفادور ألليندي عيّن جدك سفيراً في الأرجنتين عام 1970، وهي إحدى أشد المهمات مشقة في ذلك الحين، وقد أدى تلك المهمة بشرف حتى يوم الانقلاب

العسكري، حيث استقال من منصبه لأنه غير مستعد لخدمة نظام حكم مستبد. لقد زرتِه هناك مرات كثيرة. كنتِ في السابعة من عمرك، وكنتِ تسافرين وحدك بالطائرة. وفي ذلك البناء الضخم الذي فيه ما لا حصر له من الصالونات، وثلاثة وعشرون حمّاماً، وثلاثة بيانوهات كبيرة وجيش من الموظفين، كنتِ تشعرين أنك أميرة، لأن جدك أقنعك بأن ذلك البناء هو قصره، وأنه ينتمي إلى الأسرة المالكة. وخلال تلك السنوات الثلاث من العمل المكثف، كان السيد السفير يهرب من أي التزام في الساعة الرابعة بعد الظهر ليستمتع سراً خلال نصف ساعة بمشاهدة مسلسل زورو في التلفزيون. وبمثل هذه الحيثيات، لم يكن بإمكاني إلا أن أستقبل أولئك الزائرين الثلاثة بذراعين مفتوحين.

شخصية زورو أبدعها في العام 1919 جونسون ماك كولي، وهو كاتب روايات كاليفورني كانت رواياته تباع بعشرة سنتات، وقد ظلت شخصية زورو من ذلك الحين راسخة في الذاكرة الشعبية. *لعنة كابيسترانو* تروي مغامرات نبيل إسباني شاب في لوس أنجلوس، في القرن التاسع عشر. ففي النهار كان السيد دييغو دي بيغا شاب مكتئب ومغموم؛ وفي الليل يرتدي ملابس سوداء، ويضع قناعاً ويتحول إلى زورو، المنتقم للهنود والفقراء.

ـ لقد فعلنا كل شيء بزورو: أفلاماً، مسلسلات تلفزيونية، قصصاً مصورة، أقنعة وملابس تنكر، والشيء الوحيد الذي لم نفعله هو عمل أدبي. هل ترغبين في كتابته؟ ـ سألوني.

ـ ما الذي تصورتموه؟ إنني كاتبة جدية، ولا أكتب بالتوصية ـ هكذا كان رد فعلي الأول.

لكنني تذكرت العم رامون وحفيدي بالتبني، آخيل، وهو متنكر بزي زورو في عيد هالوين، وبدأت الفكرة تجول في خاطري بقوة لا بد معها لإنيس سواريث وغزو تشيلي من أن ينتظرا دورهما. وحسب قول أصحاب حقوق زورو، فإن المشروع يتطابق معي

مثل تطابق القفاز بالكف: فأنا هسبانية، وأكتب باللغة الإسبانية، وأعرف كاليفورنيا، ولدي بعض التجربة في كتابة الروايات التاريخية وروايات المغامرات. إنها الحالة التقليدية لشخصية تبحث عن مؤلف. ولكن المسألة لم تكن بهذا الوضوح بالنسبة إلي، لأن زورو لا يشبه أياً من أبطال رواياتي، ولم يكن بالموضوع الذي يمكن لي أن أختاره بنفسي. ومع الكتاب الأخير من الثلاثية كنت قد اعتبرت أن تجربتي في كتابة روايات الفتيان قد انتهت، واكتشفت أنني أفضل الكتابة للكبار، حيث المحدودية أقل. فكتاب للفتيان يتطلب الجهد نفسه الذي يتطلبه كتاب للكبار، ولكن لا بد من التقدم بكثير من الحذر في ما يتعلق بالجنس، والعنف، والخبث، والسياسة وأمور أخرى تضفي الكثير من النكهة على القصة، لكن الناشرين لا يعتبرونها مناسبة لتلك السن. تقلقني الكتابة «كرسالة إيجابية». فأنا لا أرى مسوغاً لحماية الصغار، لاسيما وأن رؤوسهم صارت تضم الكثير من القذارة؛ يمكن لهم أن يروا في الانترنت نساء بدينات يمارسن الجنس مع حمير، أو تجار مخدرات ورجال شرطة يتبادلون إطلاق النار بأقصى قدر من القسوة. ومن السذاجة أن نلوك لهم رسائل إيجابية على صفحات كتاب؛ لأن الشيء الوحيد الذي سنحصل عليه هو أنهم لن يقرؤوه. زورو هو شخصية إيجابية، إنه البطل بامتياز، إنه مزيج من تشي غيفارا المهووس بالعدالة، وروبن هود المستعد على الدوام لأن ينتزع من الأغنياء كي يقدم للفقراء، وبيتر بان دائم الشباب. لابد من بذل جهد كبير لتحويله إلى وغد، ولكن الأمر لن يكون كذلك، مثلما أوضح لي مالكو الحقوق. كما أنهم نبهوني إلى وجوب عدم تضمين الرواية جنساً مكشوفاً. وبكلمات قليلة، كان التحدي كبيراً. فكرت في الأمر بنزاهة، وأخيراً وضعتُ حداً لشكوكي بالطريقة المعهودة: ألقيت قطعة عملة في الهواء. وهكذا انتهيت إلى حبس نفسي في كوخي عدة شهور مع دييغو دي لا بيغا.

كانت شخصية زورو قد استُنزفت كثيراً، بحيث لم يبق هناك الكثير مما يمكن روايته، اللهم إلا الحديث عن صباه وشيخوخته. اخترت المرحلة الأولى، لأنه ليس هناك من يرغب في رؤية بطله على كرسي ذي عجلات. كيف كان دييغو دي لا بيغا في طفولته؟ ولماذا تحول إلى زورو؟ قمت بالبحث حول الفترة التاريخية، بدايات القرن التاسع عشر، وهي مرحلة استثنائية في العالم الغربي. فأفكار الثورة الفرنسية الديمقراطية كانت تحوّل أوروبا، ومنها استُلهمت حروب التحرر في المستعمرات الأمريكية. جيوش نابليون الظافرة غزت بلداناً عديدة، بما في ذلك إسبانيا، حيث بدأ الأهالي حرب عصابات بلا مواقع أدت في النهاية إلى طرد الفرنسيين من بلادهم. وكانت أزمنة قراصنة، وجمعيات سرية، وتجارة عبيد، وغجر وحجاج. أما في كاليفورنيا فلم يكن يحدث أي شيء جدير برواية، فهي مجرد امتدادات ريفية شاسعة فيها أبقار، وهنود، ودببة، وبعض المستوطنين الإسبان. كان لا بد لي من نقل دييغو دي لا بيغا إلى أوروبا.

ولأن الأبحاث وفرت لي مادة فائضة، وكان البطل موجوداً مسبقاً، فقد تمثلت مهمتي في إبداع المغامرات. وقد ذهبت، إضافة إلى أمور أخرى، برفقة ويللي إلى نيو أورلينز لتعقب آثار القرصان جان لافييت، وتوصلنا إلى التعرف على هذه المدينة المفعمة بالحيوية قبل أن يحوّلها الإعصار *كاترينا* إلى عار وطني. كانت تُسمع في الحي الفرنسي، في الليل والنهار، جوقة الموسيقى والعزف، وأصوات البلوز الذهبية، وما يسمى الجاز الذي لا يُقاوم. وكان الناس يشربون ويرقصون على إيقاع الطبول الحار في وسط الشارع. لون، موسيقى، وروائح طهيها وسحرها. هذا كله يكفي لرواية كاملة، غير أنه كان علي أن أكتفي بزيارة قصيرة يقوم بها زورو إلى المدينة. إنني أحاول الآن أن أتخيل نيو أورلينز مثلما كانت آنذاك، بكرنفالها الوثني حيث يختلط أناس راقصون من مختلف

الأجناس، بشوارعها السكنية القديمة ذات الأشجار الهرمة ـ أرز، دردار، مغنوليا مزهرة ـ وشرفات بدرابزينات حديدية مشغولة، حيث كانت تستمتع بالبرودة، قبل مئتي سنة، أجمل نساء العالم، حفيدات ملكات سنغاليات وسادة ذلك الزمان من بارونات السكر والقطن. لكن صور نيو أورلينز الأشد إلحاحاً هي صور الإعصار: فيضانات مياه قذرة وأهالي المدينة، الأكثر فقراً على الدوام، يصارعون ضد هيجان الطبيعة المدمر وإهمال السلطات. لقد تحولوا إلى لاجئين في بلادهم، متروكين لمصيرهم، بينما بقية الأمة المذهولة من مشاهد تبدو نائية جداً، مثل عاصفة في بنغلاديش، تتساءل إذا ما كان عدم مبالاة الحكومة سيكون نفسه لو أن معظم المتضررين هم من البيض.

لقد أُغرمت بزورو. ومع أنني لم أتمكن أن أروي في الكتاب تفاصيل مآثره الغرامية التي أرغب فيها، إلا أنني كنت قادرة على تخيلها. فمخيلتي الجنسية تميل إلى رؤية البطل اللطيف يتسلق شرفتي برشاقة، ويمارس الحب معي في العتمة بخبرة دون جوان وصبره، دون أن يهتم بتهيجي أو تقدمي في السن، ويختفي عند الفجر. وأظل نائمة بين الملاءات المجعدة، دون أن أعرف أي شيء عن سر العاشق الشهم الذي قدم لي ذلك الصنيع العظيم، لأنه لم ينزع قناعه. لا خطيئة في ذلك.

الصيف

جاء الصيف بصخب نحله وسناجبه المعهود؛ وكانت الحديقة في ذروة تفتحها، وكذلك سعادة ويللي الذي لا يتوقف أبداً عن عدّ بتلات كل زهرة. ولا تمنعه تلك السعادة من الانهماك في حفلات شواء تاريخية، تشاركه فيها لوري أيضاً، لأنها تخلت عن ممارستها

النباتية الطويلة بعد أن أقنعها الدكتور ميكي شيما، وهو لا يقل نباتية عنها، بأنها تحتاج إلى مزيد من البروتينات. وكان المسبح الدافئ يجتذب جماعات من الأطفال والزائرين؛ والأيام تتمدد تحت الشمس، طويلة، بطيئة، دون ساعة، كما في الكاريبي. وكانت تابرا هي الغائبة الوحيدة، لأنها ذهبت إلى بالي، حيث يصنعون بعض القطع التي تستخدمها في مجوهراتها. وقد رافقها الحرذون المجنح لمدة أسبوع، ولكنه اضطر للعودة إلى كاليفورنيا لأنه لم يتحمل رعب الأفاعي وأسراب الكلاب الجرباء والجائعة. يبدو أنه كان يفتح باب غرفته، ومرت أفعى خضراء ملامسة يده. وكانت من أشد الأفاعي فتكاً. وفي تلك الليلة بالذات سقط من السقف شيء دافئ، ورطب، وكثيف الشعر، حط عليهما وخرج راكضاً. لم يتمكنا من إشعال النور لرؤيته. وقالت تابرا إنه «سريغ» بكل تأكيد، وأراحت رأسها على الوسادة وواصلت نومها؛ أما هو فظل طيلة ما تبقى من الليل مترصداً، ومستبقياً الأنوار مضاءة، وفي يده سكين جزار، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما هو «السريغ».

كانت جولييت تقضي وابناها أسابيع معنا. أرسطوطاليس هو الشخص الأكثر لطفاً واحتراماً في الأسرة. ولد وفيه شيء من التراجيديا، مثل أي يوناني يحترم نفسه، ومنذ صغره تولى دور الحامي لأمه وأخيه، غير أن الاتصال بغيره من الأطفال خفف من أعبائه، وصار ساخراً جداً. أظن أن لديه ميل إلى التمثيل، لأنه فضلاً عن كونه وسيماً ومحباً للتهريج، يلعب دوماً دور البطولة في الأعمال المسرحية المدرسية. أما آخيل فما زال طفلاً متورد الخدين، ومسرفاً في الابتسام والتقبيل، ومدللاً جداً. وقد تعلم السباحة مثل سمكة حنكليس ويمكنه قضاء اثنتي عشرة ساعة في الماء. إننا نُخرجه مجعداً ومحمّراً من الشمس ونجبره على الذهاب إلى الحمام. لا أريد أن أفكر في ما تحتويه مياه المسبح. «لا تقلقي يا سيدتي، ففيها من الكلور ما يكفي لأن لا تقع أي مشكلة حتى لو وُجدت

جثة في الماء»، هذا ما أكده لي تقني الصيانة عندما طرحتُ عليه شكوكي.

كان الأطفال يتبدلون يوماً إثر يوم. وكان ويللي يقول على الدوام إن لآندريا تقاطيع أليخاندرو نفسها، ولكن دون ترتيب، وسيأتي يوم يستقر كل ملمح في مكانه. ويبدو لي أن ذلك ما كان يحدث، وإن لم نكن ننتبه إلى التغيير، لأنها تعيش منفصلة عن الواقع، حالمة، وأنفها في كتبها، هائمة في مغامرات مستحيلة. وقد تبين أن نيكول ذكية جداً وتلميذة جيدة، إضافة إلى أنها اجتماعية، ودودة، ومتغنجة، وهي الوحيدة التي تتمتع بهذه الفضيلة في قبيلة أمومية، لا تتحرق فيها النساء لإغواء أحد. ويمكن لغريزتها الجمالية أن تقوض بنظرة نقدية الثقة بفستان أي امرأة حولها، باستثناء آندريا التي لا تعبأ بالموضة، ولا تزال تتنكر، مثلما كانت على الدوام منذ طفولتها. لقد رأينا نيكول، طوال شهور، تذهب وتجيء ومعها علبة سوداء غامضة، ولشدة ما ألححنا عليها، أرتنا في أحد الأيام ما في العلبة. كان كماناً، وقد استعارته من المدرسة لأنها تريد أن تنضم إلى فرقة الأوركسترا المدرسية. أسندت الكمان إلى كتفها، وتناولت القوس، وأغمضت عينيها وأفقدتنا صوابنا بعزف قصير ومتقن لأغنيات لم نسمعها تتدرب عليها قط. أما أليخاندرو، فقد طالت عظامه دفعة واحدة في الوقت المناسب بالضبط، لأني كنت أنوي أن أعطيه هرمونات نمو مثلما يفعلون بالأبقار، كي لا يظل قصيراً. لقد كنت أخشى أن يكون الوحيد من ذريتي الذي يرث جيناتي غير المرغوبة، ولكننا في هذه السنة تأكدنا، براحة، أنه قد نجا. ومع أن ظل شارب بدأ يظهر له، إلا أنه مازال يتصرف مثل مشعوذ، ويقوم بحيل أمام المرايا، ويسبب الإزعاج برواية نكات غير مناسبة، مصمماً على أن يتجنب بأي ثمن همّ النضج وتحمل مسؤولية أموره بنفسه. وقد أخبرنا بأنه يفكر في البقاء للعيش مع أبويه، بقدم في كل بيت، إلى أن يتزوج أو يطردوه

ركلاً. فكنا نحذره، وقد تعبنا من تهريجه: «اكبر بسرعة قبل أن ينفد صبرنا». وكانت الصغيرتان التوءم تسبحان مثل سلحفاتين طافيتين من البلاستيك، وتراقبهما أوليفيا عن بعد، دون أن تفقد الأمل في أن تغرقا. فمن كل أصناف الخوف التي كانت تعاني منها هذه الكلبة عند مجيئها إلى أسرتني، لم يبق إلا خوفان اثنان: المظلات، والتوائم. هؤلاء الصغار وعشرة من أصدقائهم الذين يزوروننا باستمرار، صاروا مع انتهاء الصيف محمصين مثل أفارقة، وبشعور خضراء من المواد الكيميائية التي تضاف إلى ماء المسبح، وهي مواد شديدة الفعالية إلى حد أنها تحرق العشب. فحيث يضع السابحون أقدامهم لا ينمو الحشيش ثانية.

كان أحفادي في السن التي يكتشفون فيها الحب، باستثناء آخيل الذي كان لا يزال في مرحلة الطلب من أمه أن تتزوج منه. فالصغار يختبئون في أركان **بيت الأرواح** ليلعبوا في الظلام، وتثير حواراتهم في المسبح مخاوف الآباء.

ـ ألا تعلمين أنك حطمت قلبي؟ ـ يسأل أرسطوطاليس وهو ينفخ من خلال قناع السباحة.

ـ لم أعد أحب إريك. يمكنني أن أعود إليك إذا أردت ـ تعرض عليه نيكول وهي تغطس وتطفو.

ـ لا أدري، يجب أن أفكر في الأمر. لا يمكن لي مواصلة المعاناة.

ـ فكر بسرعة، لأنك إن لم تفعل فسوف أستدعي بيتر.

ـ إذا لم تحبيني، فمن الأفضل أن أنتحر اليوم بالذات.

ـ لا بأس، ولكن لا تنتحر في المسبح، لأن ويللي سيغضب.

طقوس الرجولة

في صيف العام 2005 أنهيت كتابة *إنيس حبيبة روحي*، وأرسلت المخطوطة إلى كارمن بالثيس مع زفرة راحة، لأنه كان مشروعاً ثقيلاً، ثم ذهبنا بعد ذلك مع نيكو ولوري والأطفال في رحلة سفاري إلى كينيا. خيّمنا لأسابيع مع قبائل السامبورو والماساي لنشهد هجرة آيائل النّيو، ملايين البهائم التي لها هيئة الأبقار السوداء تركض فزعة من سيريغيتي إلى ماساي مارا، وهو موسم ولائم صاخبة للحيوانات الأخرى التي تتوافد لالتهام عجول النّيو المتخلفة. فخلال أسبوع يولد مليون من عجول النّيو. ومن الطائرات الصغيرة الهشة كنا نراقب هجرة الحيوانات كأنها ظل هائل يمتد على السهوب الأفريقية. لقد وضعت لوري تصوراً لخطة أخذ الأطفال كل سنة إلى مكان لا يُنسى يحرك فضولهم ويبين لهم أن الناس، على الرغم من بعد المسافات، يتشابهون من كل النواحي. فالتشابهات التي تجمع بيننا أكثر بكثير من الاختلافات التي تفرقنا. وكنا قد ذهبنا في السنة السابقة إلى جزر غالاباغوس، حيث كان بمقدور الأطفال اللعب مع ذئاب البحر والسلاحف وأسماك المنتارايّا، وحيث كان نيكو يسبح لساعات متوغلاً في البحر وراء أسماك القرش والدلافين بينما أنا ولوري نركض بحثاً عن زورق كي نذهب لإنقاذه من موت محتم. وعندما نحصل على الزورق، نرى نيكو يأتي عائداً بضربات قوية من ذراعيه. كان علينا أن نحمل معنا إلى كينيا، كالعادة، حقيبة معدات تصوير ويللي، مع المنصب والعدسة الضخمة التي لم تفد في مفاجأة أي من الضواري الأفريقية، لأنها معقدة جداً. أما أفضل صورة في الرحلة، فقد التقطتها نيكول بكاميرا بسيطة من النوع الذي يستخدم لمرة واحدة، وكانت صورة للقبلة التي طبعتها زرافة على وجهي، بلسانها الأزرق الذي يبلغ طوله خمسة وأربعين سنتمتراً. انتهى الأمر بعدسات

كاميرا ويللي إلى البقاء مهجورة في الخيمة، بينما راح يستخدم عدسات أخرى أكثر تواضعاً لتخليد ابتسامات الأفارقة السريعة، والأسواق المعفرة بالغبار، وأطفال في الخامسة من عمرهم يرعون مواشي الأسرة وحدهم وسط العدم، على بعد ساعات من المسير عن أقرب قرية، وأشبال الأسود والزرافات الممشوقة. كنا نمر في سيارة الجيب المكشوفة بين قطعان من الفيلة والجواميس. ونقترب من الأنهار الموحلة حيث تلعب أسرة كاملة من أفراس النهر، ونلحق قطعان النّيو في ركضها الذي لا تفسير له.

أحد الأدلاء المرافقين لنا، ويدعى ليديليا، وهو شخص لطيف من السامبورو له أسنان ناصعة، وثلاث رياش طويلة تتوج زينة الخرز التي على رأسه، صار صديقاً لأليخاندرو. وقد عرض عليه أن يبقى معه ليختنه ساحر القبيلة، كخطوة أولى في طقوس الرجولة. ويكون عليه بعد ذلك قضاء شهر وحيداً في الطبيعة، يصطاد برمح. وإذا ما تمكن من اصطياد أسد، يصبح بإمكانه اختيار أشهى فتاة في القرية، ويُخلد اسمه مع أسماء المحاربين العظماء. فكان حفيدي المرتعب يعدّ الأيام ليهرب إلى كاليفورنيا. وكان على ليديليا أن يترجم لنا عندما جاء محارب متقدم في السن ليعرض علينا شراء آندريا لتكون زوجة له. قدم لنا عدة أبقار مقابلها، وحين رفضنا، أضاف إليها عدداً مماثلاً من النعاج. نيكول كانت تتفاهم بالتخاطر مع الأدلاء ومع الحيوانات، فضلاً عن تمتعها بذاكرة تستحق الثناء في حفظ التفاصيل، وهكذا كانت تقدم لنا المعلومات: الفيلة تبدل أسنانها كلها مرة كل عشر سنوات، إلى أن تبلغ الستين، وعندئذ لا تظهر لها أسنان جديدة، وتكون محكومة بالموت جوعاً. وأن طول قامة الزرافة الذكر ستة أمتار، ووزن قلبها ستة كيلوغرامات، وتأكل ستين كيلوغراماً من الأوراق الخضراء يومياً. وأنه يتوجب على الذكر الأول في فصيلة الأيائل أن يدافع عن إناثه العديدات من خصومه، وأن يتزاوج مع الإناث؛ فلا يبقى له إلا

قليل من الوقت للأكل، فيضعف وتخور قواه، وعندئذ ينتصر عليه ذكر آخر في الصراع ويطرده. وموقع الذكر الفحل لا يستمر لأكثر من حوالي عشرة أيام. وكانت نيكول في ذلك الحين قد صارت تعرف ما الذي يعنيه التزاوج. على الرغم من أنني لستُ مخلوقة للحياة البرية، وليس هناك ما يصيبني بانعدام الثقة مثل عدم وجود مرآة، إلا أنني لم أستطع التذمر من وسائل الراحة في الرحلة. كانت الخيام فاخرة، وبفضل لوري التي تحسب حساباً لأدق التفاصيل، كانت لدينا قرب ماء ساخن في الفراش، ومصابيح عمال مناجم للقراءة في الليالي المظلمة، وسائل مضاد للبعوض، وترياق للدغ الأفاعي؛ وللأمسيات شاي إنكليزي يُقدم في إبريق من الخزف بينما نحن نراقب تمساحين يلتهمان غزالة مهجورة.

بعد العودة إلى كاليفورنيا، وقبل أن ينتهي الصيف، اجتاز أليخاندرو طقس الرجولة، وإن كان بطريقة مختلفة بعض الشيء عما عرضه عليه ليديليا السامبورو. فقد سجل في برنامج تدريب اكتشفه نيكو ولوري في الانترنت. وبعد أن اقتنع الآباء الأربعة أن ذلك البرنامج ليس حيلة مغررين بالصغار وساديين، سمحوا له بالذهاب. فمثلما أوضح ليديليا، لا بد من طقس احتفالي يشير إلى انتقال الذكور من الطفولة إلى سن الرشد. ولعدم توفر التقاليد، قام فريق من المدربين بتنظيم طقس لجماعة من الصبيان يستمر ثلاثة أيام في الغابة، لتعزيز مفاهيم الاحترام، والشرف، والشجاعة، والمسؤولية، وواجب حماية الضعفاء وقواعد أساسية أخرى استبعدت من ثقافتنا إلى روايات فروسية العصور الوسطى. كان أليخاندرو أصغر أعضاء الفريق سناً. وقد رأيتُ في تلك الليلة حلماً مرعباً: رأيت حفيدي إلى جانب موقد مع جماعة من الأيتام الجائعين والمرتجفين من البرد، كما في قصص ديكنز. توسلتُ إلى نيكو أن يذهب لاستعادة ابنه قبل أن تقع مصيبة في تلك الغابة المشؤومة التي ذهب إليها مع أشخاص مجهولين، ولكن نيكو لم

يعرني اهتماماً. وعند انتهاء المهلة، ذهب لإحضاره ورجعا في الوقت المناسب للمشاركة في عشاء يوم الأحد على المائدة الأسرية. كنا قد أعددنا فاصوليا وفق وصفة تشيلية، وكان البيت يعبق برائحة الذرة والحبق.

كانت الأسرة حول المائدة تنتظر مجيء الصبي المتحول رجلاً، والذي وصل متسخاً وجائعاً. فأليخاندرو الذي ظل لسنوات يقول إنه لا يريد أن يكبر، بدا كبيراً. عانقته بحب جدة جنوني، ورويت له حلمي، وتبين أن تجربته لم تكن مثلما رأيت بالضبط، مع أنه كان هناك موقد وبعض الأيتام بين الصبية. وكان هناك أيضاً بعض الجانحين الذين هم، حسب قول حفيدي، «صبية طيبون، ولكنهم اقترفوا حماقات لأنهم بلا أسرة». أخبرنا أنهم جلسوا في دائرة حول النار، وتحدث كل واحد منهم عما يسبب له الألم. فاقترحت أن نفعل مثل ذلك، لاسيما أننا نجلس في دائرة قبلية، ورحنا نرد على سؤال أليخاندرو واحداً بعد الآخر. فقال ويللي إن ما يحزنه هو وضع أبنائه: جنيفر ضائعة، والاثنان الآخران يستهلكان المخدرات. وتكلمتُ أنا عن غيابكِ. ولوري عن عقمها، وهكذا عرض كل واحد ألمه.

ـ وأنتَ ما الذي يحزنك، يا أليخاندرو؟ ـ سألتُه.

ـ مشاجراتي مع آندريا. ولكنني قررت تحسين علاقتي بها، وسأفعل ذلك. لأني تعلمت أن الإنسان مسؤول عن ألمه.

ـ ليست هذه هي الحقيقة دائماً. فأنا لستُ مسؤولة عن موت باولا ولوري ليست مسؤولة عن عقمها ـ دحضت قوله.

ـ في بعض الأحيان لا نستطيع تجنب الألم، ولكننا قادرون على التحكم بردود فعلنا. فويللي حزين على أبنائه، ولكن لديه جيسون. وأنتِ، جعلك موت باولا تنشئين مؤسسة واستطعتِ حفظ ذكراها حيةً بيننا. ولوري لا تستطيع إنجاب ابنها، ولكن لديها نحن الثلاثة ـ قال.

حب محرم

لم تعمل جولييت خلال الشهور التي أمضتها في محاولة الحبل بطفل للوري ونيكو، لأنها كانت مضطرة إلى الخضوع لقصف عقاقير الخصوبة. تولت الأسرة إعالتها، كما هو منطقي، ولكن بعد استبعاد ذلك الوهم، خرجت للبحث عن عمل. وقد تعاقد معها مستثمر يخطط لشراء أشياء فنية آسيوية من سان فرانسيسكو لمعارضه في شيكاغو. كان عمر «بن» سبعاً وخمسين سنة من الحياة المريحة، ولا بد أن لديه الكثير من المال، لأنه كان متألقاً مثل دوق. وكان يفكر في التردد بكثرة على شيكاغو، على أن يتولى شخص جدير بتحمل المسؤولية استيراد الأعمال الفنية البديعة في كاليفورنيا. ومنذ المقابلة الأولى دعا جولييت للعشاء في أفضل مطعم في الكونتية، وهو بيت أصفر على الطراز الفكتوري وسط أشجار صنوبر وشجيرات ورد متسلقة. وبعد عدة كؤوس نبيذ أبيض لم يقرر أنها المعاونة المثالية وحسب، وإنما تعلق بها أيضاً. وبمصادفة روائية، علمت من خلال الحديث أن بن كان قد تعرف على زوجة مانولي الأولى، التشيلية التي هربت مع أستاذ اليوغا في يوم الزفاف. وقد أخبرها بأن المرأة تعيش في إيطاليا، ومتزوجة للمرة الرابعة من صانع زيت زيتون.

لم تكن جولييت قد شعرت بأنها مرغوبة منذ زمن أزلي. فقبل سنة من موته، كان مانولي قد توقف عن كونه العاشق متأجج العاطفة الذي أغواها وهي في العشرين، لأن الداء كان ينهش عظامه وحماسته. وقد صمم بن على ملء ذلك الفراغ، ورأينا جولييت تنتعش وتتفتح متألقة، بنور جديد في عينيها وابتسامة ماكرة تتراقص على شفتيها. حدث انقلاب في حياتها، صارت تذهب إلى محلات غالية: مطاعم، نزهات، أوبرا. وكان بن يسرف في الاهتمام بأرسطوطاليس وآخيل وتقديم الهدايا لهما. لقد كان

عاشقاً مجرباً جداً يمكن له أن يسعدها في الهاتف؛ وهكذا كانت فترات تغيبه محتملة، وعندما يأتي إلى كاليفورنيا تكون في انتظاره متلهفة. وقد انتهزتُ أنا ولوري إحدى جلساتنا المريحة، مع شاي الياسمين والتمر، لنحاصر جولييت بعد أن بدا لنا أن في سلوكها شيئاً من التخفي. ولكننا لم نكن بحاجة إلى الضغط عليها كثيراً كي تحدثنا عن غرامياتها مع رب عملها. رن في داخلي جرس الإنذار الذي زودتني به الخبرة، ونبهتها إلى سوء فكرة الخلط بين العمل والعشيق، لأنها ستفقد بذلك كليهما. «إنه يستغلك، يا جولييت. يا للوضع الملائم! لديه معاونة وعشيقة بالثمن نفسه»، قلت لها. ولكنها كانت عالقة. كنا قد لاحظنا أن جولييت تجتذب رجالاً لديهم القليل مما يمكن أن يقدموه إليها، متزوجين، وأكبر منها سناً بكثير، ويعيشون بعيداً، أو أنهم غير قادرين على الالتزام. ويمكن أن يكون بن واحداً منهم، لأنه بدا لنا متهرباً. وفي مذهب الملذات الكاليفورني الحديث، حسب قول ويللي، لا وجود لرجل يقبل بتحمل مسؤولية أرملة شابة مع ابنين صغيرين، أما المنجمة التي عدتُ لاستشارتها سراً كيلا يسخروا مني، فرأت أنها مسألة انتظار بضع سنوات، وسوف ترسل الكواكب الرفيق المثالي لجولييت. وكان بن قد استبق الكواكب.

عندما رجعنا من أفريقيا، كانت مغامرة جولييت العاطفية قد تعقدت. فقد تبين أن ثروته لم يكسبها هو بنظرته الصائبة إلى الفن، وإنما ورثتها زوجته. وأن معارض الفن لم تكن سوى تسلية يشغل بها نفسه وتبقيه في ذروة الموجة الاجتماعية. وقد بدأت سفرات بن المتواترة إلى سان فرانسيسكو ومكالماته الهاتفية الهامسة توقظ شكوك زوجته.

- من غير المناسب إقامة علاقات مع رجال متزوجين، يا جولييت - قلت لها متذكرة الحماقات التي قمت بها أنا نفسي في شبابي والثمن الغالي الذي دفعتُه مقابل ذلك.

ـ الأمر ليس مثلما تتصورين، يا إيزابيل. إنه شيء لا يمكن تجنبه، فقد وقعنا في الحب من النظرة الأولى. لم يغوني ولم يخدعني، وكل شيء كان برضانا معاً.

ـ وماذا ستفعلان الآن؟

ـ بن متزوج منذ ثلاثين سنة، وهو يحترم زوجته كثيراً، ويعبد أبناءه. وهذه هي خيانته الزوجية الأولى.

ـ يخامرني الشك في أنه زانٍ مزمن، يا جولييت؛ ولكن هذه ليست مشكلتك، وإنما هي مشكلة زوجته. أما أنت فعليك الاهتمام بنفسك وبابنيك.

ولكي تؤكد لي نزاهة العاشق، أرتني جولييت رسائله التي بدت لي حذرة بصورة مريبة. لم تكن رسائل حب، وإنما وثائق محامٍ.

ـ إنه يغطي نفسه. ربما يخشى أن تتهميه بالتحرش الجنسي في العمل، وهذا أمر غير مشروع هنا. وكل من يقرأ هذه الرسائل، بمن في ذلك امرأته، سيفكر في أنكِ أنت من اتخذت المبادرة، وورطتِه، وأنك تلاحقينه الآن.

ـ كيف يمكنك قول هذا الكلام! ـ صرخت مذعورة ـ. إن بن ينتظر اللحظة المناسبة ليخبر زوجته.

ـ لا أظن أنه سيفعل ذلك، يا جولييت. لديهما أبناء، وهما يعيشان معاً منذ زمن طويل. إنني آسفة من أجلك، ولكنني آسفة أكثر من أجل الزوجة. ضعي نفسك في مكانها، إنها امرأة ناضجة ولها زوج خائن.

ـ ولكن بن غير سعيد معها...

ـ لا يمكن امتلاك كل شيء، يا جولييت. كان عليه أن يختار بينك وبين الحياة المريحة التي توفرها هي له.

ـ لا أريد أن أكون السبب في طلاق. لقد طلبت منه أن يحاول التصالح مع زوجته، وأن يذهبا إلى معالج نفسي، أو أن يدعوها إلى

شهر عسل في أوروبا ـ قالت، وانفجرت بالبكاء.

فكرتُ في أن الأمر سيستمر على تلك الحال إلى أن ينقطع الحبل من الطرف الأضعف (جولييت)، ولكنني لم أُلحِ عليها، لأنها قد تبتعد عنا. ثم إنني غير منزهة عن الخطأ، مثلما ذكرني ويللي، ويمكن أن يكون بن مغرماً بها حقاً، ويطلب الطلاق ليبقى معها، ويمكن لي في هذه الحالة، بسبب تصرفي كطائر شؤم، أن أفقد صديقة صرت أحبها كابنة لي.

❖ ❖ ❖

ومثلما كنا نخشى، حضرت زوجة بن من شيكاغو لتشم هواء سان فرانسيسكو. استقرت في مكتب زوجها الذي توخى الحذر بالتغيب بذرائع متنوعة، وخلال ساعات قليلة أكدت لها غريزتها ومعرفتها به أسوأ مخاوفها. وقررت أن ضرتها لا يمكن أن تكون إلا المعاونة الجميلة وواجهتها بذلك مباشرة معتمدة على وزن سلطتها كزوجة شرعية، وعلى الثقة التي يمنحها إياها المال والمعاناة، ولم يكن بإمكان جولييت إلا الإقرار. فصرفتها من العمل دون مبالاة، وحذرتها من أنها إذا ما عادت إلى الاتصال ببن، فسوف تتولى هي نفسها إلحاق الضرر بها. لم يظهر الرجل خلال كل تلك الأيام، واكتفى بالتحدث إلى جولييت بالهاتف وعرض تعويض عليها والطلب منها، فقط، أن تدرب من خلفتها في العمل قبل أن تغادر. وكانت زوجته قد راقبت هذه المكالمة، والرسالة الشاكية، وهي الأخيرة في السلسلة التي ختم بها مراسلاته.

بعد يومين من ذلك رجع ويللي إلى البيت ووجدني أنا ولوري في الحمام، نسند جولييت التي كانت متكورة على الأرض مثل طفل مضروب. أطلعناه على ما جرى. وكان رأيه أن ذلك كان متوقعاً، وأنه ليس مأساة أصلية، ولكن الجميع يتعافون من تحطم القلب، وأننا بعد مرور سنة سنموت ضحكاً، ونحن نمسك كأس نبيذ في يدنا، حين نتذكر هذه الواقعة. ومع ذلك، عندما أخبرته جولييت

بتهديدات الزوجة، لم يعد يبدو مرحاً وعرض عليها أن يمثلها قانونياً، لأن لها الحق في رفع شكوى قضائية. لا يمكن لقضية أن تبدو أكثر جاذبية لمحامٍ: أرملة شابة، وأم لطفلين، بلا نقود، تقع ضحية مليونير يتحرش بها جنسياً في العمل ويطردها بعد ذلك. يمكن لأي هيئة محلفين أن تدين بن. لقد وضع ويللي سكيناً بين أسنانه، ولكن جولييت لم تشأ سماع شيء من ذلك، لأنه ليس الحقيقة: فقد كانا متحابين، ولم تكن هي ضحية. ولكنها وافقت فقط على أن يرسل ويللي رسالة حاسمة يخبرهما فيها بأنهما إذا ما عادا إلى تهديدها فسوف تتدخل العدالة. وقد أضاف ويللي، بمبادرة منه، أنه إذا كانت تلك السيدة راغبة في حل المشكلة، فما عليها إلا أن تراقب زوجها. ما كان يمكن للرسالة أن تدفعها إلى التخلي عن تهديدها لو أنها من الأشخاص الذين لا يتورعون عن التعاقد مع مجرم لإلحاق الأذى بخصمهم، ولكنها تبين أن جولييت ليست بلا حماية. وخلال أقل من أسبوع، اتصل محامٍ من شيكاغو بويللي ليؤكد له أن هناك سوء تفاهم وأن التهديدات لن تتكرر.

لقد عانت جولييت لشهور، محاطة باحتضان الأسرة الكامل، وما كنت سأروي هذه الواقعة لو لم تسمح لي هي نفسها بذلك، ولولا تحقق نبوءة ويللي. فقد تعاقدتُ معها لمساعدتي، فبدأت تدرس الإسبانية، وصارت جزءاً من ماخور ساوساليتو الأدبي، حيث يمكنها العمل بأمان مع لوري وويللي وتونغ الذين تولوا حمايتها والتصدي لأي متزوج خائن يقرع الجرس بنوايا شبقة ووقفه عن حده. وقبل انقضاء سنة، بينما كانت الأسرة كلها في إحدى الليالي تتناول العشاء حول المنضدة القشتالية، رفعت جولييت كأسها لنشرب نخب غراميات الماضي. «نخب بن!»، قلنا كلنا معاً، وانفجرت هي بالضحك بشهية. وأنا أنتظر الآن اصطفاف الكواكب كي يظهر الرجل طيب السجايا الذي سيُسعد هذه الشابة. ويُفترض أن يحدث ذلك عما قريب.

الجدة تذهب إليكِ

منذ زمن والجدة هيلدا تعيش مع ابنتها في مدريد، حيث كانت الابنة وزوجها يؤديان مهمة دبلوماسية. لم تأت في السنة الأخيرة لقضاء فترات طويلة معنا، مثلما كانت تفعل في السابق، لأنها هرمت فجأة وصارت تخشى السفر وحدها. في سنوات الستينيات، في تشيلي، كنتُ صحفية شابة أتنقل ببهلوانية في ثلاثة وظائف في الوقت نفسه من أجل العيش، غير أن مجيء ابنيٍّ لم يعقد أمور حياتي، إذ كان لدي من يساعدني. ففي الصباح، قبل أن أذهب إلى العمل، كنت أمر على بيت حماتي، الجدة غراني، لأتركك عندها، أو عند الجدة هيلدا، وكانتا تتلقيانكِ وأنت ملفوفة بشال، ونائمة، فتعنيان بك طيلة النهار إلى أن أعود لآخذكِ في المساء. وبعد ذلك بدأتِ الذهاب إلى المدرسة، وجاء حينئذ دور أخيكِ الذي ربته هاتان الجدتان اللتان كانتا تدللانه كأنه الابن البكر لأمير. وبعد الانقلاب العسكري انتقلنا إلى فنزويلا وكان أكثر ما افتقدتماه هو هاتين الجدتين اللتين كجدات الحكايات. الجدة غراني التي لم يكن لها من حياة أكثر من حفيديها، ماتت حزناً بعد سنتين. والجدة هيلدا ترملت، وانتقلت إلى فنزويلا لأن ابنتها الوحيدة هيلديتا كانت تعيش هناك، وكانت تتنقل بين بيت ابنتها وبيتنا. لقد بدأت علاقتي بهذه الجدة مذ كنت في السابعة عشرة من عمري. وكانت ابنتها هيلديتا أول خطيبة لأخي بانتشو. لقد تعارفا في المدرسة وهما في الرابعة عشرة، وهربا معاً، وتزوجا، وأنجبا ابناً، وتطلقا، وعادا للزواج من جديد، فأنجبا ابنة، ثم تطلقا ثانية. وباختصار، أمضيا أكثر من عقد من السنوات وهما يتحابان ويتباغضان، بينما الجدة هيلدا تشهد ذلك الاستعراض المؤسف دون أن تبدي رأياً. لم أسمع منها قط كلمة غير لائقة ضد أخي الذي ربما كان يستحقها.

في إحدى لحظات حياتها قررت الجدة أن دورها هو في مرافقة أسرتها الصغيرة التي تكرمت بضمي إليها مع ابنيّ، وقد نفذت ذلك بالتمام والكمال بفضل تكتمها الذي يُضرب به المثل وطيب مزاجها. وكانت تتمتع فوق ذلك بصحة بغلة. ولم تكن تتورع عن الذهاب معك، ومع نيكو ونصف دزينة من الفتيان، في نزهة إلى جزيرة صغيرة في الكاريبي لا ماء فيها، ويتطلب الوصول إليها اجتياز بحر غدار في زورق يلحق به عدد من أسماك القرش. ويترككم صاحب الزورق هناك مع جبل من معدات التخييم، ليتذكر في ما بعد العودة للبحث عنكم، إذا ما حالفكم الحظ، بعد أسبوع أو أسبوعين. وكانت الجدة تتحمل مثل جندي لسع البعوض، وقضاء الليل في تناول كوكاكولا فاترة مع الروم، وأكل الفاصوليا المعلبة، وتحمل الجرذان العدوانية التي تتزاحم بين أكياس النوم، ومنغصات أخرى ما كان بإمكاني أنا التي أصغرها بعشرين سنة أن أتحملها. وبالإرادة العظيمة نفسها كانت تجلس أمام شاشة التلفاز لتشاهد أفلاماً بورنوغرافية. ومع بداية عقد الثمانينيات، كنتِ تدرسين علم النفس، وخطرت لك فكرة التخصص في الحياة الجنسية. فكنت تحملين طوال الوقت حقيبة ممتلئة بملحقات الألعاب الإيروتيكية التي تبدو لي سيئة الذوق، لكنني لم أتجرأ قط على إبداء رأيي لأنكِ كنت ستسخرين دون رحمة من تكلفي. وكانت الجدة هيلدا تجلس معكِ، وهي تحوك الصوف دون أن تنظر إلى سيخي الحياكة، لتشاهد أشرطة فيديو تتضمن كلاباً مدربة. وكانت عضواً فعالاً في فرقتنا المسرحية المنزلية الطموحة، تخيط ثياب التنكر، وترسم المشاهد الخلفية، وتؤدي الدور الذي يُطلب منها، ابتداء من دور مدام بوترفلاي وحتى دور القديس يوسف في تمثيليات عيد الميلاد. ومع الزمن راح حجمها يتقلص وصوتها ينحل كتغريد عصفور، ولكن دون أن تفتر حماستها في المشاركة في الحماقات البيتية.

لم تكن نهاية الجدة هيلدا من نصيبنا نحن، وإنما من نصيب ابنتها التي رعتها في ترديها السريع. بدأ ذلك بنزلات رئوية متكررة، بسبب مؤثرات أزمنتها كمدخنة، كما قال الأطباء، وبعد ذلك بدأت تنسى حياتها. وقد فهمت هيلديتا المرحلة الأخيرة من حياة أمها على أنها عودة إلى الطفولة، وقررت أنه إذا كان يتوجب إغداق الصبر على طفل عمره سنتان، فليس هناك ما يمنع إغداقه على عجوز في الثمانين. فكانت تحرسها بحب كي تستحم، وتأكل، وتتناول الفيتامينات، وتذهب إلى الفراش. وكان عليها أن تجيب عشر مرات متوالية على السؤال نفسه، والتظاهر بأنها تسمع أول مرة طرفة بلا معنى ترويها العجوز، وتكررها كلمة كلمة، مثل آلة تسجيل، مرة بعد أخرى. وأخيراً تعبت الجدة من العوم في غمامة من الذكريات المشوشة، والخوف من بقائها وحيدة أو وقوعها، ومن طقطقة عظامها، ومن حصار وجوه وأصوات لا تستطيع التعرف عليها. فتوقفت في أحد الأيام عن الأكل. اتصلت بي هيلديتا من إسبانيا لتخبرني بالمعركة التي يتطلبها إطعام أمها القليل من اللبن. وكان الشيء الوحيد الذي خطر لي أن أقوله لها هو ألا تجبرها على الأكل. فهكذا مات جدي، بفقدان الشهية، عندما قرر أن مئة سنة هي حياة كافية.

ركب نيكو الطائرة في اليوم التالي وذهب إلى مدريد. وقد تعرفت عليه الجدة فوراً، بالرغم من أنها كانت غير قادرة على التعرف على نفسها في المرآة، وطلبت قلم أحمر الشفاه لتتجمل، واقترحت عليه لعبة ورق لعباها بأساليبها المعهودة في الغش والخداع. وتمكن نيكو من إقناعها بتناول كأس كوكاكولا فاترة مع الروم على شرف أيام الكاريبي، ولم تكد تمضي نصف ساعة حتى تمكن من إطعامها طبق حساء. زيارة هذا الحفيد المستعار والوعد بأنه سيأخذها إذا سمنت قليلاً إلى كاليفورنيا لتدخن الماريجوانا مع تابرا، كان لهما مفعول عجيب، إذ بدأت الجدة

تأكـل مـن جديـد، ولكـن شـهيتها لم تـستمر إلا لـشهرين فقـط. وعندما أعلنت إضرابها عن الطعام مجدداً، رأت ابنتها بحـزن شـديد أن لأمها كامل الحق فـي أن تغادر مثلما ترغب وفـي الوقت الـذي تشاؤه. وخـلال الأسـابيع التاليـة، صـارت الجـدة الـتي كانـت ضئيلة ونحيفة فـي الأصل، خفيفة إلى حد يمكـن معه للنسيم الـذي يدخل من النافذة أن يحملها. وكانت آخر كلماتها: «أعطني حقيبتي، فقد جاءت باولا للبحث عني ولا أريدها أن تنتظر طويلاً».

وصلتُ إلى مدريد بعد بضع ساعات، ولكـن الوقت كـان قـد فـاتني لمرافقـة ابنتهـا فـي إجـراءات المـوت. ورجعـت بعـد أيـام إلى كاليفورنيـا ومعـي حفنـة مـن رمـاد الجـدة هيلـدا فـي علبـة صـغيرة، لأنثره فـي غابتكِ، لأنها كانت ترغب فـي مرافقتك.

تأملات

فـي العـام 2006 بـدأت بكتابـة هـذه الـصفحات. لقـد تعقـدت طقوس الثامن مـن كـانون الثاني مـع مـرور السنوات، لأنـي لم أعـد أمتلك يقين الشباب المتعجـرف. فالبدء بكتـاب جديد لا يقِل خطـراً عن الوقوع فـي الحـب، إنـه انـدفاع جنـوني يتطلـب انكبابـاً متعـصباً. فمع كل كتـاب ـ مثلمـا حيـال حـب جديـد ـ أتسـاءل إذا مـا كانـت قـواي كافـيـة لكتابتـه، وإذا مـا كـان مثـل هـذا المـشروع يـستحق العناء: هناك الكثير من الصفحات غير المجدية، مثلما هناك كثير من الغراميات المحبطة. فـي مـا مضـى كنـت أغـوص فـي الكتابـة ـ وفـي الحب ـ برهبة من يجهل المخاطر، أما الآن فتقضي عدة أسابيع قبـل أن أفقـد تهـيبي أمـام شاشـة الكمبيـوتر البيـضاء. أي نـوع مـن الكتب سيكون هـذا الـذي سـأكتبه؟ وهـل يمكنني الوصـول إلى النهايـة؟ لا أتسـاءل مثـل هـذه الأسـئلة عـن الحب، لأنـني أعـيش منـذ

أكثر من ثماني عشرة سنة مع الحبيب نفسه، وقد تجاوزت الشكوك. إنني أحب ويللي الآن يوماً فيوماً، دون أن أتساءل عن نوع هذا الحب أو كيف سينتهي. أريد التفكير في أنه حب أنيق ولن تكون له نهاية مبتذلة. ربما كان صحيحاً ما يقوله هو: سنظل متماسكي الأيدي في الجانب الآخر من الموت. وكل ما أتمناه هو ألا يضيع أي منا في خرف الشيخوخة، ويكون على الآخر أن يعنى بجسده المحطم. فالأمر المثالي هو أن نعيش معاً وبكامل وعينا.

مثلما أفعل في كل مرة أبدأ بكتاب جديد، قمت بتنظيف معمق لكوخي، هويّته، استبدلت شموع المذبح الذي يسميه أحفادي «مذبح الأسلاف»، وتخلصت من علب مترعة بنصوص ووثائق استخدمتها في أبحاثي حول مشروع السنة الفائتة. وعلى الرفوف التي تغطي الجدران لم يبق سوى طبعاتي الأولى في صفوف متراصة، وصور الأحياء والموتى الذين يرافقونني على الدوام. أخرجت كل ما يمكن أن يشوش الإلهام أو يشغلني عن هذه الذاكرة التي تتطلب مكاناً فارغاً كي تتحدد. ويبدأ بالنسبة إلي وقت الوحدة والصمت. إنني أتململ دائماً في الانطلاق، فالكتابة تتقدم في البدء متحشرجة، إنها آلة صدئة، وأعرف أنه لا بد من انقضاء أسابيع قبل أن تأخذ أبعاد القصة بالاتضاح. ويمكن لأي انشغال آخر أن يُبعد ربة إلهام المخيلة. ممَ تتغذى المخيلة؟ إنها تتغذى على ما خَبِرتُه، على الذكريات، والعالم الفسيح، والناس الذين عرفتهم، وكذلك على الكائنات والأصوات التي أحملها في داخلي وتساعدني في رحلة العيش والكتابة. كانت جدتي تقول لي إن الفضاء ممتلئ بحضورات، بما كان وما هو كائن وما سيكون. وفي هذا الجو الشفاف تسكن شخصياتي، ولكنني لا أستطيع سماعها إلا وأنا صامتة. وفي منتصف الكتاب، عندما لا أعود أنا، المرأة، وإنما أصير أخرى، الراوية، أتمكن من رؤيتهم أيضاً. يبرزون من الظلام، ويظهرون لي بكامل قاماتهم، بأصواتهم وروائحهم،

يقتحمون عليّ كوخي، يغزون أحلامي، يحتلون أيامي، حتى إنهم يلاحقونني في الشارع. وهي ليست الحالة نفسها في المذكرات، حيث الأبطال هم أشخاص من أسرتي، أحياء، مترعون بالآراء والخلافات. فالحبكة في هذه الحالة ليست تمريناً في التخيل، وإنما محاولة لمقاربة الحقيقة.

كان هناك إحساس بالإحباط، وكان يتجرجر منذ وقت طويل، لدى معظم الناس في البلاد: مستقبل العالم يبدو كثيفاً وقاتماً مثل القطران. تصاعد العنف في الشرق الأدنى مرعب، وهناك إجماع دولي على إدانة الولايات المتحدة، ولكن الرئيس بوش لا يعير اهتماماً لكل ذلك، يهذي مثل مجنون، منفصلاً عن الواقع ومحاطاً بمتعصبين مهووسين. لم يعد بالإمكان التستر على إخفاق الحرب في العراق، بالرغم من أن الصحافة مازالت تعرض صوراً ظاهرية لما يحدث: دبابات، أضواء خضراء في الأفق، جنود يركضون في قرى خالية، وانفجار في سوق أحياناً، حيث يُفترض أن الضحايا من العراقيين، لأننا لا نراهم عن قرب. لا شي من الدماء أو الأطفال مقطعي الأوصال. على المراسلين إتباع القوات وتنقية الأخبار عبر الجهاز العسكري، غير أنه بمقدور كل من يريد الاستعلام أن يرى صحافة بقية العالم على شبكة الانترنت، بما في ذلك التلفزيون العربي. بعض الصحفيين الشجعان ـ وجميع الكتاب والرسامين الساخرين ـ يستنكرون عدم كفاءة الحكومة. صور سجن أبو غريب جابت العالم، ومعتقلو غوانتانامو المحتجزون إلى وقت غير محدود دون أن توجه إليهم اتهامات، يموتون بصورة غامضة، أو ينتحرون أو يحتضرون في إضراب عن الطعام، وتجري تغذيتهم بالقوة باستخدام أنبوب ثخين يصل إلى المعدة. لقد حدث ما لم يكن أحد يتصوره إلى ما قبل وقت قريب في الولايات المتحدة التي تعتبر شعلة الديمقراطية والعدالة: ألغي حق المعتقلين بمعرفة قانونية سجنهم، وأضفيت الشرعية على التعذيب. تصورت أن

السكان سيقومون بردّ فعل جماهيري، ولكن لم يولِ أحد الأمر ما يستحقه من اهتمام. إنني آتية من تشيلي، حيث كان التعذيب مشروعاً طوال ثمانية عشر عاماً. وأعرف الضرر غير القابل للإصلاح الذي يخلفه التعذيب في روح الضحايا والجلادين وبقية السكان المتحولين إلى متواطئين. وحسب قول ويللي، فإن الولايات المتحدة لم تشهد مثل هذا الانقسام منذ حرب فيتنام. الجمهوريون يتحكمون بكل شيء، وإذا لم يكسب الديمقراطيون انتخابات تشرين الثاني البرلمانية، فإننا ضائعون. «كيف لن يكسبوها ـ كنت أتساءل ـ ما دامت شعبية بوش تنخفض إلى الأرقام التي وصل إليها نيكسون في أسوأ أزمنته؟»

كانت تابرا هي أشدنا غماً. لقد غادرت وطنها في شبابها لأنها لم تستطع تحمل حرب فيتنام؛ وهي مستعدة الآن لعمل الشيء نفسه، بل والتخلي عن مواطنيتها الأمريكية. ويتمثل حلمها في قضاء بقية أيامها في كوستاريكا، ولكن أجانب كثيرين خطرت لهم الفكرة نفسها، فارتفعت أسعار البيوت إلى ما يفوق قدرتها. وعندئذ قررت الذهاب إلى بالي، حيث يمكنها مواصلة تجارتها مع الصاغة والحرفيين المحليين. ستترك ممثليّ مبيعات في الولايات المتحدة، وما تبقى يمكنها انجازه من خلال الانترنت. لم نكن نتحدث في أمر آخر حين نخرج للمشي. إنها تلمح إشارات شؤم في كل الجهات، ابتداء من نشرة أخبار التلفزيون وحتى تلوث أسماك السلمون بالزئبق.

ـ وهل تظنين أن الوضع في بالي سيكون مختلفاً؟ ـ سألتها ـ. أينما ذهبت ستكون أسماك السلمون ملوثة بالزئبق، يا تابرا. لا يمكن الهرب.

ـ ولكنني هناك لن أكون متواطئة على الأقل في الجرائم التي ترتكبها هذه البلاد. أنت غادرتِ تشيلي لأنك لم تشائي العيش في ظل دكتاتورية. فكيف لا تفهمين أنني لا أريد العيش هنا؟

ـ هذه ليست دكتاتورية.

ـ ولكنها قد تصير كذلك في وقت أقرب مما تعتقدين. ما قاله لي عمك رامون صحيح: الشعوب تختار الحكومة التي تستحقها. هذا هو السيئ في الديمقراطية. أنتِ أيضاً عليك أن تغادري قبل أن يفوت الأوان.

ـ أسرتي هنا. لقد تكلفت الكثير في جمعها، يا تابرا، وأريد الاستمتاع بها، لأنني أعرف أن هذا لن يستمر طويلاً. الحياة ترمي إلى التفريق بيننا ولا بد من بذل جهد كبير كي نبقى مجتمعين معاً. ولست أرى على كل حال أنه قد أزفت اللحظة التي سيكون من الضروري فيها مغادرة هذه البلاد. مازال بإمكاننا تغيير الوضع. وبوش لن يبقى إلى الأبد.

ـ أتمنى لك حظاً سعيداً إذاً. أما أنا فسأذهب للاستقرار في مكان مسالم، ويمكنك المجيء إليّ مع أسرتك عندما تضطرين إلى ذلك.

بدأت أودعها بينما هي تفكك الورشة التي كلفتها سنوات طويلة كي تتمكن من الوقوف على قدميها؛ وكان يساعدها ابنها تونغ الذي ترك عمله ليرافق أمه في الشهور الأخيرة. ودّعت المهاجرين الذين عملت معهم لسنوات طويلة واحداً فواحداً، وكانت قلقة عليهم، لأنها تعرف أنه سيكون من المستحيل أن يجد بعضهم عملاً آخر. وتخلصت من القسم الأكبر من مجموعتها الفنية، باستثناء بعض اللوحات الثمينة التي احتفظت بها في بيتي. لا يمكنها قطع الروابط مع الولايات المتحدة، وعليها أن ترجع مرتين في السنة على الأقل لترى ابنها وتشرف على أعمالها، لأن مجوهراتها تحتاج إلى سوق أكثر اتساعاً من شواطئ سياح في جنة آسيوية. قلت لها إنها ستجد على الدوام مكاناً في بيتنا؛ وعندئذ أفرغت بيتها من الأثاث وقامت بإصلاحه كي تبيعه.

تلك الاستعدادات ومشاوير المشي الكئيبة مع تابرا نقلت إليّ

عدوى هذيانها بانعدام اليقين. كنت أصل إلى البيت لأعانق ويللي بقلق. ربما لن تكون بالفكرة السيئة أن نستثمر مدخراتنا بتحويلها إلى عملات ذهبية، والخياطة عليها في أذيال تنورة، وأن نستعد للهرب. «عن أية عملات ذهبية تكلمينني؟»، يسألني ويللي.

القبيلة مجتمعة

دخلت آندريا مرحلة المراهقة بصورة مفاجئة. ففي إحدى ليالي شهر تشرين الثاني دخلت إلى المطبخ، حيث كانت الأسرة مجتمعة، بعدسات لاصقة، وشفتين مطليتين، وفستان أبيض طويل، وصندل مفضض، وقرطين من تابرا كانت قد اختارتهما لتغني في كورال المدرسة، في حفلة عيد الميلاد. لم نتعرف على تلك الحسناء المذهبة، الحسية، ذات المظهر النائي والغامض. لقد كنا معتادين على رؤيتها ببناطيل رعاة بقر رثة، وأحذية كشافين، وفي يدها كتاب. ولكننا لم نر من قبل قط هذه الصبية التي تبتسم لنا بارتباك من الباب. وعندما انتبه نيكو من هي تلك الفتاة، ظل مبهوراً، وقد ضحكنا كثيراً من جدية الزّن التي بدت عليه. وبدلاً من الاحتفال بالمرأة التي وصلت إلينا، كان علينا أن نواسي أباها على فقدان الطفلة الخرقاء التي رباها. وكانت لوري التي رافقت آندريا لشراء الفستان وأدوات الزينة، هي الوحيدة التي تعرف سرّ التحول. وبينما كنا جميعنا ننفض عنا التأثر، التقطت لوري مجموعة صور لآندريا، واحدة بشعرها الغزير ذي اللون العسلي مفلتاً على كتفيها، وصورة أخرى وهي معقودة الشعر، وفي أوضاع موديل بدت في الواقع متكلفة وساخرة.

كانت عينا الصغيرة تلمعان، ووجهها محمراً كما لو أنها تعرضت لوهج الشمس. بينما كان يبدو علينا جميعنا شحوب

تشرين. لقد كانت تسعل مثل مسلولة منذ عدة أيام. أراد نيكو أن يؤخذ له صورة معها وهي جالسة على ركبتيه، بالوضع نفسه لصورة أخرى لهما عندما كانت في الخامسة من عمرها، وكانت تبدو أشبه بفرخ بط منتوف يضع نظارات خيميائي، وقميص نومي الوردي الذي كانت تلبسه فوق ثيابها العادية. وعندما لمسها أحس أنها تتأجج بالحرارة. وضعت لها لوري مقياس الحرارة، وانتهت الحفلة العائلية الصغيرة على أسوأ حال، لأن آندريا كانت تتوقد بالحمى. وبدأت في الساعات التالية بالهذيان. حاولوا أن يخفضوا حرارتها بكمادات ماء بارد، غير أنهم اضطروا في النهاية إلى حملها طيراناً إلى خدمات الإسعاف في المستشفى، وهناك عرفوا أنها مصابة بنزلة رئوية. من يدري منذ كم من الأيام أصابها ذلك، دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وفية لطبعها الرواقي والانطوائي. وقد فسرت الأمر بقولها: «صدري يؤلمني، ولكني حسبت أن سبب ذلك هو أنني أكبر».

وعلى الفور جاءت سيليا وسالي، ثم حضر الآخرون. أُدخلت آندريا إلى مستشفى الكونتية، تحيط بها الأسرة التي تراقب كالصقور وتحرص على ألا يقدم لها أي دواء من عقارات لائحة البورفيريا السوداء. حين رأيتها على ذلك السرير الحديدي، مغمضة العينين، وبجفنين شفافين، وشحوبها يزداد لحظة بعد أخرى، وتتنفس بصعوبة بينما هي متصلة بأنابيب وكابلات، عادت إليّ أشد الذكريات قسوة عن مرضكِ في مدريد. فقد دخلتِ، مثل آندريا، إلى المستشفى لإصابتكِ بنزلة صدرية، ولكنكِ حين خرجت، بعد بضعة شهور، لم تكوني أنت نفسك، وإنما دمية خامدة دون أي أمل آخر سوى موت رحيم. أوضح لي نيكو، باطمئنان، أن الحالة ليست نفسها. فأنتِ أمضيت عدة أيام تعانين آلاماً رهيبة في معدتكِ، ودون أن تتمكني من أكل أي شيء بسبب التقيؤ، وهذه من أعراض نوبات البورفيريا التي لم تظهر على آندريا. ومن أجل تجنب أي

إهمال أو خطأ طبي، قررنا عدم ترك آندريا وحدها. لم نستطع عمل ذلك في مدريد، حيث استولت بيروقراطية المستشفى عليكِ دون أي تفسيرات. كنا أنا وزوجك ننتظر شهوراً في الممر دون أن ندري ما الذي يحدث في الجانب الآخر من أبواب وحدة العناية المكثفة السميكة.

كانت حجرة آندريا في المستشفى ممتلئة. نيكو ولوري، سيليا وسالي، وأنا نفسي، استقر بنا المقام حولها، وبعد ذلك جاءت جولييت، وأُمّا سابرينا، والأقارب الآخرون وبعض الأصدقاء. خمسة عشر هاتفاً محمولاً تبقينا متواصلين، كما أنني كنت أتصل يومياً بأبوي وبصديقتي بيا في تشيلي، كي يرافقونا عن بعد. وزّع نيكو قائمة الأدوية المحظورة والتعليمات لمواجهة أي طارئ. إن هديتكِ لنا، يا باولا، هي أننا كنا مستعدين، ولم نفاجأ بالوضع. وقد نبهت طبيبتنا شيري فورستر العاملين في الطابق بوجوب تحليهم بالصبر، لأن هذه المريضة جاءت مع قبيلتها. وبينما المرضة تحقن آندريا وتبحث عن وريد لتغرس فيه السيروم، كان أحد عشر شخصاً يراقبونها حول السرير. «أرجوكم ألا تبدؤوا بترتيل الأناشيد»، قالت لنا المرأة. فانفجرنا بالضحك. فأضافت قلقة: «تبدون من الناس الذين لا يتورعون عن عمل ذلك».

بدأت الحراسة ليلاً ونهاراً، ولم يكن هناك أقل من شخصين أو ثلاثة منا في الغرفة. قلة منا كانوا يذهبون إلى العمل في تلك الفترة؛ ومن لا تكون مناوبتهم في المستشفى، يتولون أمر العناية بالأطفال الآخرين والكلاب ـ بونتشو، ماك، وخاصة أوليفيا التي كانت محطمة الأعصاب حين رأت أنها مهملة ـ، وإبقاء البيوت تعمل، وإحضار طعام إلى المستشفى لإطعام هذا الجيش. وخلال أسبوعين تولت لوري بتلقائية دور القائد الذي لم يحاول أحد اغتصابه منها لأنها مديرة هذه الأسرة في كل الأحوال، ولستُ أدري ما الذي سنفعله من دونها. فقد تربت في نيويورك، وهي

الوحيدة التي تمتلك طبعاً جسوراً لا تسمح معه بأن يخيفها الأطباء والممرضات، ويمكنها أن تملأ استمارات من عشر صفحات، والمطالبة بتفسيرات. وقد تجاوزنا في السنوات الأخيرة العقبات التي ظهرت في البداية؛ ولوري اليوم هي ابنتي الحقيقية، وحافظة أسراري، وذراعي اليمنى في المؤسسة، وقد رأيت كيف أنها أخذت بالتحول شيئاً فشيئاً إلى الأم الكبيرة للأسرة. وعما قريب سيكون عليها أن تترأس المائدة القشتالية.

في البدء راحت حالة آندريا تتردى مع مرور الأيام، لأنهم لم يستطيعوا إعطاءها عدداً من المضادات الحيوية التي تستخدم في مثل هذه الحالات، مما أطال أمد التهابها الرئوي أكثر من المعقول، غير أن الدكتورة فورستر التي ظلت متيقظة، أكدت لنا أنه لا وجود لأية مؤشرات على وجود البورفيريا في فحوص الدم والبول. وكانت آندريا تتحمس للحظات عندما يزورها أخواها، أو الطفلان اليونانيان، أو زميلة من المدرسة، أما بقية الوقت فتمضيه في النوم والسعال تحت نظر أحد أبويها أو جدتها. وأخيراً، في يوم الخميس الثاني، تمكنت من التغلب على الحمى ونهضت في الصباح بعينين صافيتين وبرغبة في الأكل. عندئذ تمكنا من تنفس الصعداء.

كانت الأسرة قد أمضت أكثر من عشر سنوات في رقصة المناوشات تلك التي تكون عليها عادة حالات الطلاق، والشد والإرخاء المنهكين. فالعلاقة بين زوجي الآباء تمر بتقلبات، يصعب معها الاتفاق على تفاصيل تربية الأبناء المشتركين، ولكن مع تدرج ابتعاد هؤلاء الأبناء عن البيت الأسري ليكوّنوا حياتهم الخاصة، تتضاءل أسباب المواجهة، ويأتي يوم تصبح اللقاءات بين الآباء غير ضرورية. لم يعد هناك وقت طويل لبلوغ ذلك. وعلى الرغم من المضايقات التي تحملوها، فإنهم يستطيعون تهنئة أنفسهم: لقد ربوا ثلاثة فتيان سعداء ولطفاء، جيدي السلوك، وبدرجات مدرسية جيدة. ولم يتسببوا حتى هذه اللحظة بأية مشكلة جدية. وخلال

أسبوعيّ التهاب آندريا الرئوي، عشتُ وهم أننا أسرة مجتمعة، إذ بدا لي أن التوترات قد تلاشت حول فراش مرض الطفلة. ولكن لا وجود لنهايات مكتملة في مثل هذه القصص. فكل واحد يفعل أفضل ما يستطيعه، وهذا هو كل شيء.

خرجت آندريا من المستشفى وقد نقص وزنها خمسة كيلوغرامات، وكانت هزيلة وبلون الخيار، ولكنها شفيت إلى هذا الحد أو ذاك من الالتهاب. أمضت أسبوعين آخرين من النقاهة في البيت، واستعادت عافيتها في الوقت المناسب لتشارك في كورال المدرسة. كنا نجلس في الصالة، ورأيناها تدخل مغنية كملاك ضمن رتل طويل من البنات الصغيرات اللواتي رحن يملأن المنصة. كان الفستان الأبيض يتدلى عليها كأسمال، والصندل يفلت من قدميها، ولكننا جميعنا كنا متفقين على أنها لم تكن قط أجمل مما هي عليه. كانت القبيلة كلها هناك للاحتفاء بها، وقد تأكد لي مرة أخرى أنه في حالة الطوارئ يُلقى من السفينة كل ما هو غير ضروري للإبحار، هذا يعني كل شيء تقريباً. وأخيراً، بعد تخفيف الحمولة وإجراء الحسابات، يتبين أن الشيء الوحيد المتبقي هو المحبة.

ساعة للراحة

وصلنا إلى شهر كانون الأول وتبدل المشهد بالنسبة لقبيلتنا وللبلاد. تابرا ذهبت إلى بالي. وأبواي في تشيلي يعيشان الوقت الضائع، إنهما في الخامسة والثمانين والتسعين من عمريهما على التوالي. ونيكو أكمل الربعين من عمره، أخيراً، كما تقول لوري، وصار رجلاً ناضجاً. والأحفاد دخلوا بقوة في مرحلة المراهقة وعما قريب سيبدؤون بالابتعاد عن الجدة المهووسة التي مازالت تسميهم

«أطفالي». والكلبة أوليفيا ظهر عليها الشَّيب، وصارت تفكر في الأمر مرتين قبل أن تصعد الجبل عندما نُخرجها للمشي. وويللي على وشك إنهاء كتابه الثاني، وأنا مازلت أحرث أرض الذكريات القاسية كي أكتب هذه المذكرات. وفي الانتخابات البرلمانية كسب الديمقراطيون، وهم يسيطرون الآن على مجلس النواب ومجلس الشيوخ. وجميعنا نأمل بأن يكبحوا جماح بوش، ويتمكنوا من سحب القوات الأمريكية من العراق، وإن يكن دون مكسب وبخفي حنين، وتجنب حروب جديدة. أما في تشيلي، فكانت هناك مستجدات أيضاً: ففي شهر آذار، تولت الرئاسة ميشيليه باتشيليت، وكانت أول امرأة تتولى هذا المنصب في بلادي، وهي تقوم بدورها بصورة جيدة جداً. إنها طبيبة جراحة، اشتراكية، وأم عازبة، لا أدرية وابنة جنرال مات تحت التعذيب لأنه لم ينضم إلى الانقلاب العسكري في العام 1973. وقد مات كذلك الجنرال أغوسطو بينوشيت مطمئناً في فراشه، ومغلقاً بذلك أحد أشد فصول التاريخ الوطني مأساوية. وقد توفي بصورة بالغة الدلالة والمغزى في اليوم العالمي لحقوق الإنسان.

لقد كانت كتابة هذا الكتاب تجربة غريبة. فأنا لم أعتمد فقط على ذكرياتي وعلى المراسلات مع أمي، بل استجوبت الأسرة كذلك. ولأنني أكتب بالإسبانية، فإن نصف أفراد الأسرة لم يستطيعوا قراءة الكتاب إلى أن ترجمته مرغريت سايرس بيدين، «بيتش»، وهي سيدة محببة في الثمانين تعيش في ميسوري وقد ترجمت كتبي كلها باستثناء الكتاب الأول. وبصبر منقب آثار، تقصت بيتش في مختلف طبقات المخطوطة، مراجعة كل سطر ألف مرة ومدخلة التعديلات التي أطلبها منها. ومن خلال النص الإنكليزي، تمكنت الأسرة من مقارنة مختلف الروايات التي لا تتوافق دوماً مع روايتي. وقد قرر هارلي، ابن ويللي الأصغر، أنه يفضل ألا يذكر في الكتاب، فكان عليَّ أن أعيد كتابته. إنه

لأمر مؤسف، لأن هارلي ظريف جداً، ويشكل جزءاً من القبيلة؛ واستبعاده يبدو لي كممارسة نوع من الخداع، ولكن ليس لي الحق بالاستيلاء على حياة شخص آخر دون إذن. ومن خلال محادثات طويلة استطعنا التغلب على الخوف والتعبير عما نشعر به، السيئ منه والجيد على السواء؛ وفي بعض الأحيان يكون إظهار الحب أصعب من إظهار الحقد. أين هي الحقيقة؟ ويللي يقول إنه تأتي لحظة يتوجب فيها تجاهل الحقيقة والتركيز على الوقائع. وأنا أقول، كروائية، إنه يجب تجاهل الوقائع والتركيز على الحقيقة. والآن، بينما أنا أصل إلى النهاية، آمل أن يكون هذا التمرين في ترتيب الذكريات مفيداً للجميع. وبعد ذلك، ستعود المياه، برفق، إلى الركود، وسيرسو الوحل في الأعماق وتبقى الشفافية.

لقد تحسنت حياة ويللي وحياتي منذ أزمنة ماراتونات العلاج النفسي، والتعويذات السحرية لتسديد الحسابات، ومهمة إنقاذ من لا يرغبون في إنقاذ أنفسهم من أنفسهم. الأفق يبدو صافياً في الوقت الحالي. وما لم تقع كارثة طبيعية، وهو احتمال يجب عدم استبعاده، فإن لدينا حرية الاستمتاع في السنوات المتبقية بعرض كرشينا للشمس.

ـ أظن أننا صرنا في سن التقاعد ـ قلتُ في إحدى الليالي لويللي.

ـ ولا بأي حال. فأنا بدأت الكتابة للتو، ولا أدري ما الذي نفعله بكِ إذا أنت لم تكتبي. لن يكون هناك من يتحملك.

ـ أكلمك بجد. إنني أشتغل منذ قرن. وأنا بحاجة لسنة سبتية.

ـ ما سنفعله هو تناول الأمور بمزيد من الهدوء ـ اتخذ القرار.

ولفزعه من التهديد بسنة من البطالة، اختار ويللي أن يدعوني إلى إجازة في الصحراء. فكر في أن أسبوعاً دون أي عمل، وفي مشهد قاحل، سيكون كافياً لأن أبدل رأيي. الفندق الذي تعلن وكالة السفر أنه فاخر، تبين أنه نوع من ماخور قديم، حيث كان

يمكن لتولوز لوتيك أن يقيم على هواه. لقد وصلنا إليه عبر طريق سريع لانهائي، خط مستقيم في المشهد العاري الملطخ بملاعب غولف ذات عشب أخضر تحت شمس بيضاء، متأججة، تظل حارقة حتى الساعة الثامنة مساء. لا وجود لنسمة هواء، ولا لطائر يحلق. كل قطرة ماء تُجلب من بعيد، وكل نبتة تنمو بفضل جهود هائلة يبذلها عمال مياومون لاتينيون بائسون، يحافظون على ديمومة سير الآلية المعقدة لفردوس الوهم ذاك، ويختفون في الليل كالأشباح.

❖ ❖ ❖

لحسن الحظ أن ويللي أصيب في الفندق بنوبة حساسية شبه قاتلة، سببها غبار الستائر، مما اضطرنا إلى الذهاب إلى مكان آخر. وهكذا وصلنا إلى ينابيع مياه ساخنة غريبة، لم نكن قد سمعنا بوجودها من قبل، حيث يقدمون، فضلاً عن خدمات أخرى، حمامات طين. ففي براميل حديدية عميقة تقبع مادة كثيفة ونتنة تغلي مزغردة. كانت هناك هندية ضئيلة ومحروقة الشعر من العمل المتواصل، عرضت علينا تجهيزات الموقع. لم يكن عمرها يتجاوز العشرين سنة، ولكنها فاجأتنا بجرأتها.

ـ وما نفع هذا؟ ـ سألتها بالإسبانية مشيرة إلى الوحل.

ـ لا أدري، إنها أشياء يحبها الأمريكيون.

ـ يبدو برازاً.

ـ إنه براز، ولكنه ليس براز بشر، وإنما حيوانات ـ ردّت عليّ بتلقائية.

لم ترفع الفتاة نظرها عن ويللي، وعندما أردنا الانصراف سألته إذا ما كان المحامي غوردون، من سان فرانسيسكو.

ـ ألا تذكرني، أيها المجاز؟ أنا مجدلينا باتشيكو.

ـ مجدلينا؟ كم تغيرتِ أيتها الصغيرة!

ـ السبب هو العمل المتواصل ـ قالت بحياء.

تعانقا بغبطة. إنها ابنة خوفيتو باتشيكو، زبون ويللي الذي مات

في حادثة عمل في ورشة بناء قبل سنوات. ذهبنا في تلك الليلة لتناول العشاء معها في مطعم مكيسكي، حيث كان أخوها الأكبر سوكورو هو ملك المطبخ. وكان متزوجاً ولديه ابنه الأول، طفل في شهره الثالث، أطلق عليه اسم خوفيتو، مثل جده. الأخ الآخر يعمل إلى الشمال، في كروم وادي نابا. ولدى مجدلينا خطيب سلفادوري، يعمل ميكانيكي سيارات، وقالت لنا إنها ستحدد موعد الزفاف فور التمكن من اجتماع الأسرة في قريتها في المكسيك، لأنها عاهدت أمها أن تتزوج بحضور الأقارب كلهم. أكد لها ويللي أننا سنذهب أيضاً، إذا ما دعونا إلى الحفلة.

أخبرنا الأخوان باتشيكو أن الجدة قد توفيت منذ سنتين، وأنهم أقاموا لها مأتماً ملحمياً، بتابوت مع خشب الماهاغوني حمله أحفادها في شاحنة من سان دييغو. ويبدو أن اجتياز الحدود بالاتجاهين لم يكن مشكلة بالنسبة إليهم، حتى وهم يحملون صندوق الموت الضخم. أما الأم، فلديها دكان وتعيش مع الأخ الأصغر، الضرير، الذي صار في الرابعة عشرة. وفي الطريق إلى المطعم، ذكرني ويللي بقضية باتشيكو التي تجرجرت لسنوات في محاكم سان فرانسيسكو. ولم أكن قد نسيت القضية، لأننا كثيراً ما كنا نسخر من عبارته المدوية في المحكمة: «هل ستسمحون لمحامي الدفاع أن يلقي بهذه الأسرة البائسة إلى مزبلة التاريخ؟». لقد تنقل ويللي من المرافعة أمام قاض إلى آخر، حتى حصل على تعويض متواضع للأسرة. لقد رأى تبديد ثروات صغيرة على امتداد مسيرته المهنية، لأن الزبائن المستفيدين الذين لم يعرفوا إلا الثقوب في جيوبهم، كانوا يفقدون عقولهم حين يشعرون أنهم صاروا أغنياء، فيأخذون بالتباهي مجتذبين إليهم، كأسراب الذباب، أقرباء بعيدين، وأصدقاء منسيين، ومحتالين مستعدين لأن ينتزعوا منهم حتى آخر بيزو حصلوا عليه. كان تعويض آل باتشيكو أبعد ما يكون عن الثروة، ولكن ترجمته إلى بيزوات مكسيكية

ساعدتهم على الخروج من البؤس. وبتوصية من ويللي، قررت الجدة استثمار نصف المبلغ في إقامة متجر صغير، ووضعت بقية المبلغ في حساب باسم أبناء خوفيتو في الولايات المتحدة، بعيداً عن المحتالين والأقارب اللجوجين. وكان قد مضى أكثر من عقد من السنوات على موت الأب، وخلال هذا الوقت كان الأبناء، باستثناء الأصغر، قد ودعوا الجدة والأم وغادروا قريتهم للعمل في كاليفورنيا. وكان كل واحد منهم يأتي ومعه قصاصة تحمل اسم ويللي ورقم هاتفه كي يقبض الجزء المخصص له من النقود التي أفادتهم في بدء الحياة في ظروف أفضل من ظروف معظم المهاجرين غير الشرعيين الذين يأتون دون أي شيء آخر سوى الجوع والأحلام. وهكذا أُنجز وعد ويللي بأخذهم إلى ديزنيلاند وهم صغار.

وبفضل سوكورو ومجدلينا حصلنا على أفضل كوخ في حمّة المياه الساخنة، وهو بيت صغير من الطين والقرميد، على أنقى طراز مكسيكي، وفيه مطبخ صغير، وفناء ضيق، وجاكوزي في الهواء الطلق. وهناك اعتكفنا بعد أن اشترينا مؤناً لثلاثة أيام. منذ وقت طويل لم نكن أنا وويللي على انفراد وبلا عمل، وقد أمضينا الساعات الأولى في مهمات مخترعة. وبأدوات المطبخ الصغير القليلة التي لا تكاد تكفي لأكثر من إعداد وجبة فطور، قرر ويللي أن يطهو ذيل جاموس، وهو أحد أطباق العالم القديم التي تحتاج لبال طويل وعدد من القدور. ملأ الطبيخ الجو برائحة قوية أبعدت العصافير وأجتذبت ذئاب القَبّوط الصغيرة. ولأنه لا بد من تركه يركد في الثلاجة حتى اليوم التالي لتخليصه من الدهن الذي يتجمد على السطح، فقد تعشينا مع حلول الليل خبزاً وجبناً ونبيذاً ونحن مستلقيان معاً في أرجوحة نوم في الفناء، بينما كانت ذئاب القبّوط في الخارج تلعق شفاهها في الجانب الآخر من السور الحجري الذي يحمي مكان إقامتنا الصغير.

مكان صامت

الليل في الصحراء له أعماق البحر التي لا يسبر غورها. النجوم اللامتناهية تطرز السماء السوداء التي بلا قمر. وتطلق الأرض، عندما تبرد، تطلق بخاراً كثيفاً، مثل أنفاس الضواري. أشعلنا ثلاث شموع ثخينة، كانت تعكس ضوءها الاحتفالي على ماء الجاكوزي. وشيئاً فشيئاً راح الصمت يحررنا من التوتر المتراكم من كثرة الجهد والكد. وهناك إلى جانبي على الدوام نخاس خفي لا يرحم، يحمل السوط في يده، ينتقدني ويوجه إليّ الأوامر: «انهضي، يا امرأة! إنها السادسة صباحاً وعليك أن تغسلي شعرك وتُخرجي الكلب في نزهته. لا تأكلي خبزاً! أم تظنين أنك ستخسرين وزناً بقدرة السحر؟ تذكري أن أباك كان سميناً. عليك أن تعيدي صياغة خطابك، إنه ممتلئ بعبارات مبتذلة، ورواياتك كارثة، منذ ربع قرن وأنت تكتبين ولم تتعلمي شيئاً». ومزيد ومزيد من المعزوفة نفسها. وأنتِ تقولين لي إنه عليّ أن أتعلم كيف أحب نفسي قليلاً، وإنني لا أعامل أسوأ أعدائي بمثل ما أعامل به نفسي. «ما الذي ستفعلينه، يا أماه، إذا ما دخل أحدهم بيتك وشتمك بهذه الطريقة؟»، تسألينني. سأقول له اذهب إلى الجحيم، وأطرده بالمكنسة طبعاً، ولكن هذا التكتيك لا يجدي في كل مرة مع النخاس، لأنه متخف وماكر. لحسن الحظ أنه بقي في هذه المرة في فندق تولوز لوتيك ولم يأتِ ليزعجني في الكوخ.

انقضت ساعة، وربما اثنتان. لست أدري ما الذي يدور في ذهن ويللي وقلبه، ولكنني تخيلت أن أرجوحة النوم هذه تخلصني شيئاً فشيئاً من خوذة المحارب الصدئة، ومن درعي الحديدية الثقيلة، ومن سترة الزرد الواخزة، ومن واقية صدري الجلدية، ومن جزمتي الثقيلة وأسلحتي المثيرة للشفقة التي دافعت بها عن نفسي وعن أسرتي، ليس بنجاح على الدوام، من نزوات القدر. منذ موتكِ، يا باولا، اعتدت أن

أهيم على وجهي في غابتكِ، رحلات هادئة ترافقينني خلالها وتدعينني لأن أنبش في الروح. يبدو لي أن كهوفي المغلقة راحت تتفتح خلال هذه السنوات، وبفضلكِ دخل إليها الضوء. إنني أغرق في الحنين أحياناً وأنا في الغابة، ويداهمني حزن أصم، ولكن ذلك لا يدوم طويلاً، فسرعان ما أشعر بك تسيرين إلى جانبي، ويواسيني حفيف أشجار السيكويّا وأريج أكليل الجبل والغار. يخيل إليّ أنه سيكون من الجيد الموت مع ويللي في هذا المكان المسحور، هرمين، ولكن بسيطرة كاملة على حياتنا وموتنا. جنباً إلى جنب، وأحدنا يمسك بيد الآخر، على الأرض الطرية، نغادر الجسد لنلتقي بالأرواح. ربما تكونين أنتِ وجنيفر بانتظارنا؛ إذا ما جئت للبحث عن الجدة هيلدا، آمل ألا تنسي البحث عني أيضاً. هذه النزهات تفيدني كثيراً، وعندما تنتهي أشعر بأنني لا أهزم وممتنة لما في حياتي من وفرة: حب، أسرة، عمل، صحة، رضا عظيم. تجربة هذه الليلة في الصحراء كانت مختلفة: لم أشعر بالقوة التي تمنحينني إياها في الغابة، وإنما بالهجران. طبقات حراشفي القديمة القاسية راحت تنفصل عني، وظللتُ بالقلب سريع العطب والعظام الطرية.

وفي حوالي منتصف الليل، عندما لم يبق للشموع سوى القليل لتُستنفد، خلعنا ثيابنا وغطسنا في ماء الجاكوزي الدافئ. ويللي لم يعد هو نفسه الذي اجتذبني من النظرة الأولى قبل سنوات. إنه مازال يشع متانة، وابتسامته لم تتبدل، ولكنه رجل عرف المعاناة، بشرته شديدة الرخاوة، ورأسه حليق ليخفي الصلع، وزرقة العينين أكثر شحوباً. وأنا أحمل في وجهي ملامح حداد الماضي وخسائره، وقد تقلصت قامتي بوصة، والجسد الذي يستريح في الماء هو جسد امرأة ناضجة لم تكن حسناء قط. ولكن أياً منا لا يحكم أو يقارن، بل إننا لا نتذكر كيف كنا في الشباب: لقد بلغنا حالة الخفاء الكامل التي تمنحها المعايشة. فقد نمنا معاً لزمن طويل، بحيث لم

تعد لدينا قدرة على رؤية أحدنا الآخر. مثل أعميين نتلامس، نشم، ندرك حضور الآخر مثلما نحس بالهواء.

قال لي ويللي إنني روحه، وإنه انتظرني وبحث عني طيلة الخمسين سنة الأولى من حياته، وكان واثقاً من أنه سيجدني قبل أن يموت. ليس بالرجل الذي يسرف في العبارات الجميلة، بل هو أقرب إلى الخشونة، ويمقت العواطف، ولهذا سقطت عليّ كل كلمة من كلماته الموزونة، والمحسوبة مثل قطرة مطر. أدركتُ أنه هو أيضاً قد دخل تلك المنطقة الغامضة حيث الاستسلام الأشد سرية، وأنه تخلص أيضاً من دروعه مثلي، وراح ينفتح. قلت له بصوت نحيل، لأن صدري قد أُطبق، إنني أنا أيضاً، دون أن أعرفه، كنت أبحث عنه تلمساً. لقد وصفت في رواياتي الحب الرومانسي، ذلك الحب الذي يمنح كل شيء، دون أن أبخل بشيء، لأني كنت أعرف على الدوام أنه موجود، حتى لو لم يكن في متناول يدي. والبصيص الوحيد من هذا الاستسلام دون اعتبارات شعرتُ به معكِ ومع أخيك عندما كنتما صغيرين؛ معكما فقد أحسست أننا روح واحدة في أجساد تكاد لا تنفصل. وأنا أشعر به الآن مع ويللي أيضاً. لقد أحببتُ رجالاً آخرين، مثلما تعرفين، ولكنني كنت أحمي ظهري حتى في أشد الغراميات لاعقلانية. فمذ كنت طفلة، هيأت نفسي لحماية نفسي والسهر عليها. وفي تلك الألعاب في قبو بيت جديّ، حيث ترعرعت، لم أشعر قط بأنني الحسناء التي ينقذها أمير، وإنما الأمازونية التي تصارع التنين لتنقذ شعباً. أما الآن، قلت لويللي، فلا أريد إلا أن أسند رأسي إلى كتفه وأتوسل إليه أن يضمني، مثلما يفترض بالرجال أن يفعلوا للنساء حين يحبونهن.

- أولستُ أعنى بك؟ - سألني مستغرباً.

- بلى، يا ويللي، إنك تقوم بكل الأمور العملية، ولكنني أعني شيئاً أكثر رومانسية. لستُ أدري بالضبط ما هو. أعتقد أنني أود أن

أكون حسناء الحكاية وأن تكون أنت الأمير الذي ينقذني. لقد تعبتُ من قتل التنانين.

ـ إنني الأمير منذ قرابة عشرين سنة، ولكنك لم تلحظي ذلك، أيتها الحسناء.

ـ عندما تعارفنا اتفقنا على أن أتولى أموري بنفسي.

ـ أقلنا ذلك؟

ـ ليس بهذه الكلمات بالضبط، ولكن هذا ما فُهم. اتفقنا أن نكون رفيقين. وكلمة رفيق لها في مسمعي الآن وقع حرب العصابات. أرغب في أن أعرف ما سأشعر به بكوني امرأة هشة وضعيفة، من أجل التنويع.

ـ أيوه! لقد كانت اسكندينافية صالة الرقص محققة: الرجل من يقود ـ وضحك.

رددت عليه بالتربيت على صدره، فدفعني وانتهينا تحت الماء. ويللي يعرفني أكثر مما أعرف نفسي، ومع ذلك يحبني. أحدنا للآخر، إنه أمر يستحق الاحتفال.

ـ يا للحياة! ـ هتف عندما أخرج رأسه من الماء ـ أنا أنتظرك في ركني جزعاً لأنك لم تأتي، وأنت تنتظرين أن أطلبك للرقص. لماذا كل ذلك العلاج النفسي للوصول إلى هذا؟

ـ لولا العلاج لما تقبلت أبداً هذه الرغبة في أن تحتضنني وتحميني. يا للأمر المثير للفضول! تصور يا ويللي أن هذا يتناقض مع حياة كاملة من النضال النسوي.

ـ لا علاقة لهذا بذاك. إننا بحاجة إلى مزيد من الحميمية، من الهدوء، من الوقت المكرس لنا فقط. هناك الكثير من المشاكل في حياتنا. تعالي معي إلى مكان طمأنينة ـ همس ويللي وهو يجذبني إليه.

ـ مكان طمأنينة...، يروقني ذلك.

وبينما أنفي في عنقه، حمدت الحظ الذي جعلني أتعثر

مصادفة بالحب الذي حافظ بعد سنوات طويلة على ألقه. كنا متعانقين، خفيفين، في الماء الساخن، مستحمين بضوء الشموع العنبري. أحسست أنني أنصهر في هذا الرجل الذي مشيت معه طريقاً طويلة ووعرة، نتعثر، نسقط، نعود للنهوض، وسط مشاجرات ومصالحات، ولكن دون أن يخون أحدنا الآخر قط. حصيلة الأيام، والأحزان، والأفراح المتقاسمة، صارت قدرنا.

- اكتبي مذكراتك يا إيزابيل.

- لقد كتبتها، ألا تتذكرين؟

- تلك كانت منذ ثلاث عشرة سنة.

- أسرتي لا تحب أن ترى نفسها معروضة أمام الملأ، يا كارمن.

- لا تهتمي بشيء. أرسلي لي رسالة من مئتين أو ثلاثمئة صفحة وأنا سأتولى ما سوى ذلك. وإذا كان لا بد من الاختيار بين كتابة قصة أو إغضاب الأقارب، فإن أي كاتب محترف سيختار الخيار الأول.

- أأنت متأكدة؟

- متأكدة تماماً.

عالم المعرفة
حصيلة الايام
S.P300
1 4 4 4 9 4